التدبر والبيان

في

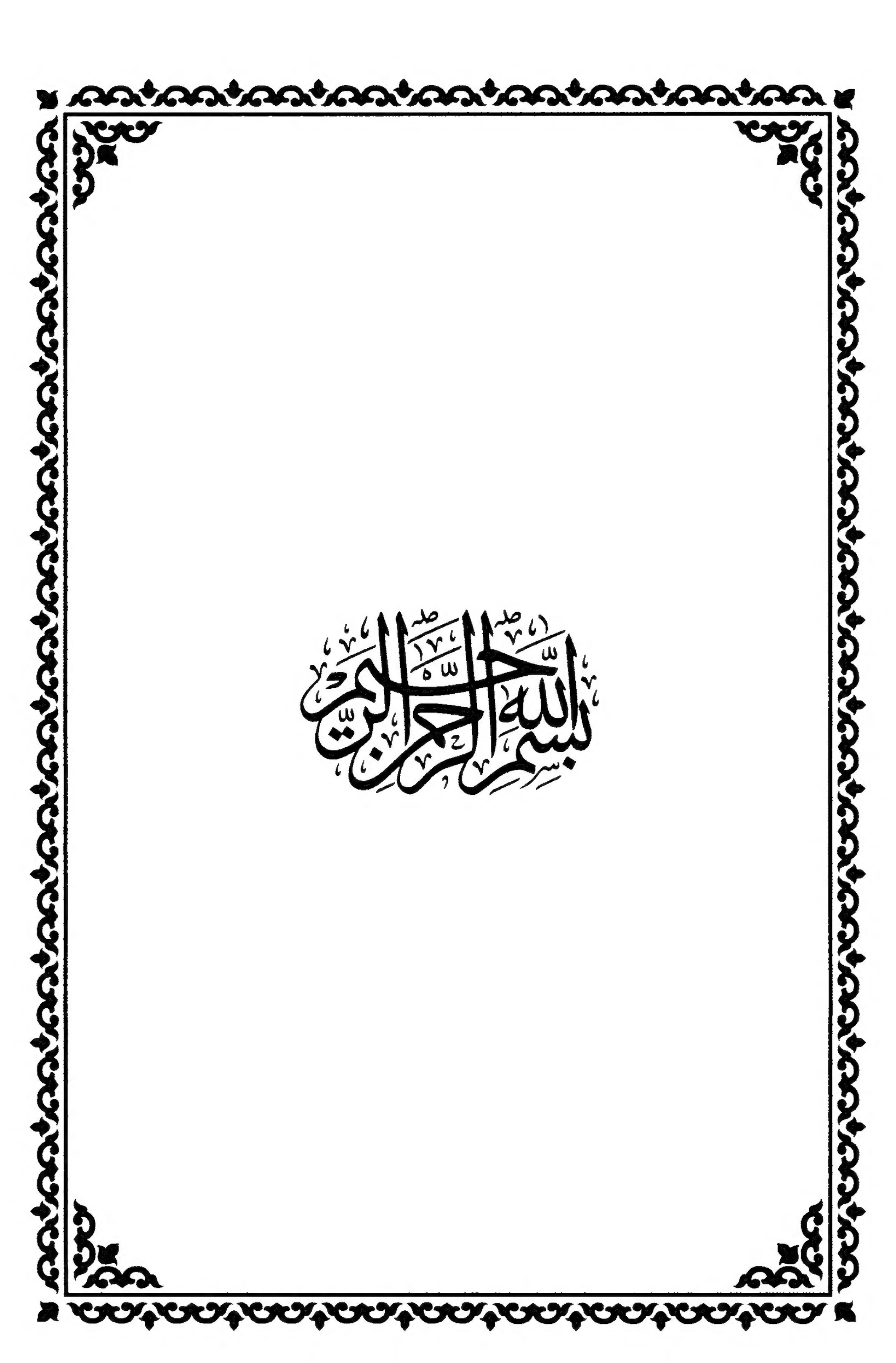
تفسير القرآن بصحيح السنن

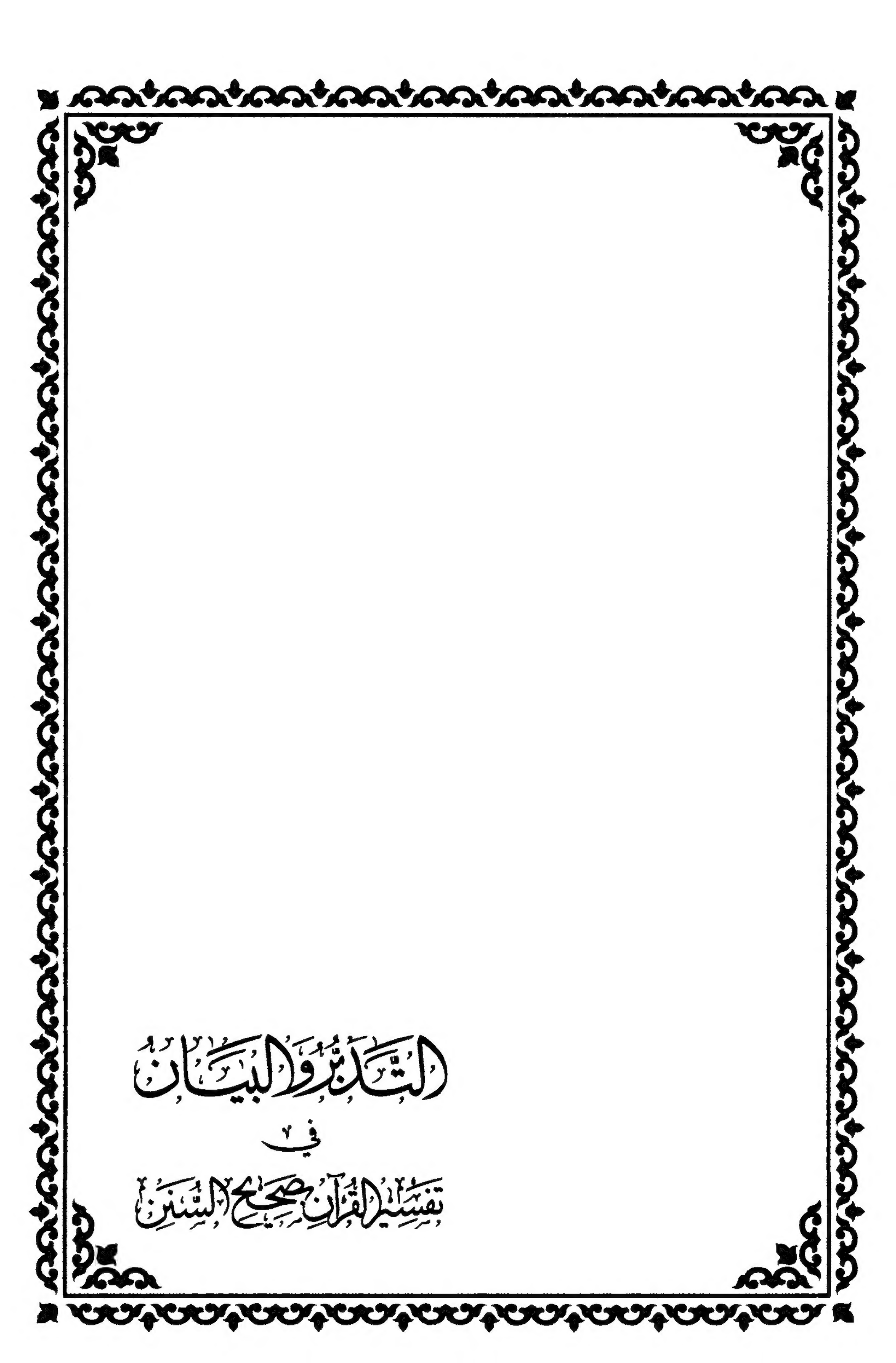
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الخامس عشر

سورة هود




التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

التصنيف : تفسير
Classification: Exegesis

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨



سورة هود

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سورة (هود)

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! قد شِبْتَ، قال: «شيّبتني (هود)، و(الواقعة)، و(المرسلات)، و(عم يتساءلون)، و(إذا الشمس كُوِّرت)»[1].

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قال التوربشتي: يريد أن اهتمامي بما فيها من أهوال يوم القيامة والمثلات النوازل بالأمم الماضية أخذ مني ما أخذه حتى شبتُ قبل أوان المشيب؛ خوفًا على أمتي»[2].

وقال المناوي: «-وذلك- لما فيها من ذكر الأمم، وما حل بهم من عاجل بأس اللَّه، فأهل اليقين إذا تلوها انكشف لهم من ملكه وسلطانه وبطشه وقهره ما تذهل منه النفوس، وتشيب منه الرؤوس، فلو ماتوا فزعًا لحق لهم، لكن اللَّه لطف بهم لإقامة الدين»[3].

وقال: «قال العلماء: لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع والوعيد الشديد؛ لاشتمالهن مع قصرهن على حكاية أهوال الآخرة وعجائبها وفظائعها، وأحوال الهالكين والمعذبين، مع ما في بعضهن من الأمر بالاستقامة.. وهو من أصعب

---

(١) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٧٥/ ٣٢٩٧) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه»، وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٣) على شرط البخاري، ووافقه الذهبي. انظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٥٥). وفي الباب عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) شرح الطيبي (١١/ ٣٣٨٧).

(٣) فيض القدير (٤/ ١٦٨).

المقامات، وهو كمقام الشكر إذ هو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم اللَّه به عليه من حواسه الظاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه بما يليق بكل جارحة من جوارحه على الوجه الأكمل، ولهذا لما قيل للمصطفى ﷺ وقد أجهد نفسه بكثرة البكاء والخوف والضراعة: أتفعل هذا وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[(١)] »[(٢)].

وقال القرطبي: «فالفزع يورث الشيب؛ وذلك أن الفزع يُذهِل النفس، فينشّف رطوبة الجسد، وتحت كل شعرة منبع، ومنه يَعْرَق، فإذا انتشف الفزعُ رطوبتَه يبست المنابع، فيبس الشعر وابيض؛ كما ترى الزرع الأخضر بسقائه، فإذا ذهب سِقاؤه يبس فابيض؛ وإنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبْسِ جلده، فالنفس تذهل بوعيد اللَّه، وأهوال ما جاء به الخبر عن اللَّه، فتذبل، وينشّف ماءها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به؛ فمنه تشيب. وقال اللَّه تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[(٣)]؛ فإنما شابوا من الفزع»[(٤)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ذكر سبحانه الفرق بين أهل الحق والباطل، وما بينهما من التباين والاختلاف مرة بعد مرة؛ ترغيبًا في السعادة، وترهيبًا من الشقاوة. وقد افتتح السورة بذلك فقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[(٥)]، فذكر أنه نذير وبشير؛ نذير ينذر بالعذاب لأهل النار، وبشير يبشر بالسعادة لأهل الحق. ثم ذكر حال الفريقين في السراء والضراء، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[(٦)]. ثم ذكر بعد هذا قصص الأنبياء وحال من اتبعهم ومن كذبهم: كيف سعد هؤلاء في الدنيا والآخرة، وشقي هؤلاء في الدنيا والآخرة؛ فذكر ما جرى لهم، إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ

---

(١) الحديث أخرجه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٢٥١)، والبخاري (٨/ ٧٥١/ ٤٨٣٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧١/ ٢٨١٩)، والترمذي (٢/ ٢٦٨-٢٦٩/ ٤١٢)، والنسائي (٣/ ٢٤٢/ ١٦٤٣)، وابن ماجه (١/ ٤٥٦/ ١٤١٩).
(٢) فيض القدير (٤/ ١٦٩).
(٣) المزمل: الآية (١٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١).
(٥) هود: الآيتان (١و٢).
(٦) هود: الآيات (٩-١١).

﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[2]. ثم ذكر حال الذين سعدوا والذين شقوا. ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ فإنه قد يقال: غاية ما أصاب هؤلاء أنهم ماتوا والناس كلهم يموتون. وأما كونهم أهلكوا كلهم وصارت بيوتهم خاوية، وصاروا عبرة يذكرون بالشر ويلعنون؛ إنما يخاف ذلك من آمن بالآخرة؛ فإن لعنة المؤمنين لهم بالآخرة وبغضهم لهم -كما جرى لآل فرعون- هو مما يزيدهم عذابًا، كما أن لسان الصدق وثناء الناس ودعاءهم للأنبياء، واتباعهم لهم هو مما يزيدهم ثوابًا. فمن استدل بما أصاب هؤلاء على صدق الأنبياء، فآمن بالآخرة؛ خاف عذاب الآخرة، وكان ذلك له آية. وأما من لم يؤمن بالآخرة، ويظن أن من مات لم يبعث؛ فقد لا يبالي بمثل هذا، وإن كان يخاف هذا من لا يخاف الآخرة؛ لكن كل من خاف الآخرة كان هذا حاله وذلك له آية. وقد ختم السورة بقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[3] إلى آخرها؛ كما افتتحها بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فذكر التوحيد والإيمان بالرسل، فهذا دين اللَّه في الأولين والآخرين؛ قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4]، و﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[5] هو الشرك في العبادة. وهذان هما الإيمان والإسلام»[6].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «ذكر ما في صدر سورة (هود) من العلوم:

الأول: علم معرفة الله: ذِكْر أنه حكيم.

الثانية: أنه خبير.

الثالثة: أنه قدير.

الرابعة: أنه ذكر شيئًا من تفصيل العلم في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾[7] الآية.

الخامسة: ذكر شيئًا من تفصيل القدرة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾[8] الآية.

---

(١) هود: الآية (١٠٠).
(٢) هود: الآية (١٠٣).
(٣) هود: الآية (١٢١).
(٤) القصص: الآية (٦٥).
(٥) القصص: الآية (٦٢).
(٦) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠٣-١٠٥).
(٧) الآية (٥).
(٨) الآية (٦).

السادسة: خلق السموات والأرض في ستة أيام.

السابعة: كون عرشه على الماء.

الثامنة: ذكر شيء من تفصيل الحكمة في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

التاسعة: كونه وكيلًا على كل شيء.

الثاني: الإيمان باليوم الآخر، وذكر أنه إليه المرجع.

الثانية: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ﴾[2].

الثالثة: ذكر الجنة والنار.

الرابعة: ذكر العرض عليه.

الخامسة: كلام الأشهاد.

السادسة: ضل عنهم افتراؤهم.

السابعة: كونهم الأخسرين في الآخرة.

الثالث: تقرير الرسالة:

ذكر أولًا: المسألة الكبرى.

الثانية: أنه نذير من اللَّه وبشير لنا.

الثالثة: تقرير صحة رسالته باعتراضهم بقولهم: إنها ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[3] مع موافقتها للعقل.

الرابعة: تقريرها بقولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾[4].

الخامسة: تقريرها بمعرفة العلماء بها.

السادسة: تقريرها بالتحدي.

السابعة: تقريرها بأنها الحق من اللَّه.

الرابع: ذكر الوعد والوعيد، وذكر المتاع الحسن لِمَن قبله.

---

(١) الآية (٧).
(٢) الآية (٧).
(٣) الآية (٧).
(٤) الآية (١٢).

الثانية : ذكر عذاب اليوم الكبير لِمَن أبى .

الثالثة : ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾[1] .

الرابعة : وعيد من أراد الدنيا .

الخامسة : وعيد مَن افترى عليه .

السادسة : وعد المؤمنين المُخبتين .

السابعة : وعيد من استهزأ بالقرآن .

الخامس : ذكر الأمر والنهي :

فذكر : النهي عن الشرك والأمر بالإخلاص .

الثانية : الأمر بالاستغفار والتوبة .

الثالثة : الأمر بالمضي على أمر اللَّه ، وإن اعترضوا بالشبهة الفاسدة .

الرابعة : أمره بالتحدي .

الخامسة : نهيه عن الفرية فيه .

السادس : أمور مدحها لنفعها :

منها : الصبر .

الثانية : عمل الصالحات .

الثالثة : مدح العلم الصادر عن اليقين .

الرابعة : مدح معرفة القرآن .

الخامسة : ذكر نتيجة الأمرين .

السادسة : الإيمان .

السابعة : الإخبات إلى اللَّه .

السابع : أمور كرهها ذكرها لتُترَك :

منها : التولي .

---

(١) الآية (٨).

الثانية: ثني الصدر.

الثالثة: الاعتراض على الحق الصريح بالجهل الصريح.

الرابعة: استبطاء وعيد اللَّه.

الخامسة: كون الإنسان يؤوسًا عند الضراء.

السادسة: كونه كفورًا عندها.

السابعة: كونه فرحًا عند النعماء.

الثامنة: فخورًا عندها ولو كانت بعد ضراء والتي قبلها ولو كانت بعد سراء.

التاسعة: نتيجة معرفة الآية.

العاشرة: فائدة النتيجة.

الحادية عشرة: كونه يريد الدنيا.

الثانية عشرة: كونه يفتري على اللَّه الكذب.

الثالثة عشرة: من المكروه الصد عن سبيل اللَّه.

الرابعة عشرة: بغي العوج لها.

الثامن: المنثور:

ذكر: أن الأكثر لا يؤمنون.

الثانية: ذكر مثل المؤمنين.

الثالثة: ذكر مثل الكافرين.

الرابعة: التنبيه على التذكير بالحالين.

الخامسة: كونهم لا يستطيعون السمع.

السادسة: الفرق بين العالم والجاهل.

السابعة: كون عرشه على الماء.

الثامنة: من الوعد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[1]»[2].

---

(١) الآية (١١).

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١٣٧-١٤٠).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

أُحكمَتْ: يقال: أحكمته إحكامًا: أي مَنَعْتُهُ من الفساد. وسميت الحكمة بذلك لكونها تمنع من الجهل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «وأحسن ما قيل في معنى ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قول قتادة؛ أي جُعلت محكمة كلها، لا خلل فيها ولا باطل. والإحكام: منع القول من الفساد؛ أي: نُظمت نظمًا محكمًا، لا يلحقها تناقض ولا خلل»[1].

وقال الزجاج: «والمعنى -والله أعلم- أن آياته أُحكِمَت وفُصِّلت بجميع ما يحتاج إليه من الدلالة على التوحيد، وإثبات نبوة الأنبياء -عليهم السلام- وإقامة الشرائع. والدليل على ذلك قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾[3]. ويدل على هذا قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾. المعنى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عند حكيم خبير لأن لا تعبدوا إلا الله»[4].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ فقد فصله بعد إحكامه؛ بخلاف من تكلم بكلام لم يحكمه، وقد يكون في الكلام المحكم ما لم يبينه لغيره؛ فهو سبحانه أحكم كتابه ثم فصله وبينه لعباده؛ كما قال:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢).
(٢) الأنعام: الآية (٣٨).
(٣) يوسف: الآية (١١١).
(٤) معاني القرآن (٣/ ٣٧-٣٨).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[(١)]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)]؛ فهو سبحانه بينه وأنزله على عباده بعلم؛ ليس كمن يتكلم بلا علم»[(٣)].

وقال ابن كثير في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: «أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[(٤)]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[(٥)]»[(٦)].

وقال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها: هي أن يعبد اللَّه -جل وعلا- وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء؛ لأن قوله -جل وعلا-: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية؛ صريح في أن آيات هذا الكتاب فُصِّلت من عند الحكيم الخبير لأجل أن يعبد اللَّه وحده، سواء قلنا: إنّ (أنْ) هي المفسرة، أو أن المصدر المنسبك منها ومن صلتها مفعول من أجله؛ لأن ضابط (أن) المفسرة أن يكون ما قبلها متضمنًا معنى القول، ولا يكون فيه حروف القول.

ووجهه في هذه الآية أن قوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ فيه معنى قول اللَّه تعالى لذلك الإحكام والتفصيل دون حروف القول، فيكون تفسير ذلك هو: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

وأما على القول بأن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها مفعول له؛ فالأمر واضح، فمعنى الآية: أن حاصل تفصيل القرآن هو أن يعبد اللَّه تعالى وحده، ولا يشرك به شيء. ونظير هذا المعنى قوله تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٧)]؛ ومعلوم أن لفظة (إنما) من صيغ الحصر، فكأن جميع ما أوحي إليه منحصر في معنى (لا إله

---

(١) الأنعام: الآية (٥٥).
(٢) الأعراف: الآية (٥٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠٦).
(٤) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٥) النحل: الآية (٣٦).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٣٧).
(٧) الأنبياء: الآية (١٠٨).

إلا الله)؛ وقد ذكرنا في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» أن حصر الوحي في آية (الأنبياء) هذه في توحيد العبادة حصر له في أصله الأعظم الذي يرجع إليه جميع الفروع؛ لأن شرائع الأنبياء كلهم داخلة في ضمن معنى (لا إله إلا الله)؛ لأن معناها: خلع جميع المعبودات غير اللَّه -جل وعلا- في جميع أنواع العبادات، وإفراده -جل وعلا- وحده بجميع أنواع العبادات؛ فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية.

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجل أن يعبد اللَّه وحده كثيرة جدًّا؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ابتداء النبي ﷺ في الدعوة بإنذار عشيرته الأقربين

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: **يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش، قالوا: ما لك؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسّيكم، أما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾**»[5].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**أرأيتم لو أخبرتكم**» إلخ: قال الحافظ: «أراد بذلك تقريرهم بأنهم يعلمون صدقه إذا أخبر عن الأمر الغائب.. ووقع في حديث قبيصة بن محارب

---

(١) النحل: الآية (٣٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٣) الزخرف: الآية (٤٥).
(٤) أضواء البيان (٣/ ٧-٨).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٨١)، والبخاري (٨/ ٦٩٢/ ٤٨٠١) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٩٣-١٩٤/ ٢٠٨)، والترمذي (٥/ ٤٢٠/ ٣٣٦٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٦/ ١١٧١٤).

وزهير بن عمرو عند مسلم وأحمد[١]: «**فجعل ينادي: إنما أنا نذير، وإنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فجعل يهتف: يا صباحاه!**» يعني ينذر قومه. وفي رواية موسى بن وردان عن أبي هريرة عند أحمد قال: «**أنا النذير، والساعة الموعد**»[٢] وعند الطبري من مرسل قسامة بن زهير قال: «**بلغني أنه ﷺ** وضع أصابعه في أذنه ورفع صوته وقال: يا صباحاه!» ووصله مرة أخرى عن قسامة عن أبي موسى الأشعري، وأخرجه الترمذي[٣] موصولًا أيضًا»[٤].

وقال: «السر في الأمر بإنذار الأقربين أولًا: أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم، وإلا فكانوا علة للأبعدين في الامتناع، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم في الدعوة والتخويف، فلذلك نص له على إنذارهم»[٥].

«وفيه جواز تكنية الكافر، وفيه خلاف بين العلماء، كذا قيل. وفي إطلاقه نظر؛ لأن الذي منع من ذلك إنما منع منه حيث يكون السياق يشعر بتعظيمه، بخلاف ما إذا كان ذلك لشهرته بها دون غيرها كما في هذا، أو للإشارة إلى ما يؤول أمره إليه من لهب جهنم. ويحتمل أن يكون ترك ذكره باسمه لقبح اسمه؛ لأن اسمه كان عبد العزى.

ويمكن جواب آخر: وهو أن التكنية لا تدل بمجردها على التعظيم؛ بل قد يكون الاسم أشرف من الكنية، ولهذا ذكر الله الأنبياء بأسمائهم دون كناهم»[٦].

---

(١) أخرجه من حديث قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو ﵄: أحمد (٥/ ٦٠)، ومسلم (١/ ١٩٣/ ٢٠٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٣/ ١١٣٧٩).

(٢) ضعيف. أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: الطبراني في الأوسط (١/ ٩٤-٩٥/ ٨٦) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٨): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه زكريا بن يحيى الوقار وهو ضعيف»، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (١١/ ١٠/ ٦١٤٩) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٧): «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير ضمام بن إسماعيل، وهو ثقة»، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢١٨/ ٣٣٣) وفيه سويد بن سعيد: لين الحديث، وموسى بن وردان: صدوق ربما أخطأ؛ كما في «لسان الميزان»، وضمام بن إسماعيل؛ قال الدارقطني: «متروك»، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢٨٥) وفيه محمد بن محمد الباغندي، وهو مخلط مدلس يكتب عن بعض أصحابه ثم يُسقط بينه وبين شيخه ثلاثة، وهو كثير الخطإ؛ كما في الميزان (٤/ ٢٧).

(٣) (٥/ ٣١٧/ ٣١٨٦) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه من حديث أبي موسى».

(٤) فتح الباري (٨/ ٦٤٤-٦٤٥).

(٥) المصدر السابق (٨/ ٦٤٥).

(٦) المصدر السابق (٨/ ٦٤٥-٦٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على أن الاستغفار والتوبة إلى اللَّه تعالى من الذنوب سبب لأن يمتع اللَّه من فعل ذلك متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى؛ لأنه رتب ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه.

والظاهر أن المراد بالمتاع الحسن: سعة الرزق، ورغد العيش، والعافية في الدنيا، وأن المراد بالأجل المسمى: الموت؛ ويدل لذلك قوله تعالى في هذه السورة الكريمة عن نبيه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[1]، وقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[5]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات»[7].

---

(١) هود: الآية (٥٢).
(٢) نوح: الآيات (١٠-١٢).
(٣) النحل: الآية (٩٧).
(٤) الأعراف: الآية (٩٦).
(٥) المائدة: الآية (٦٦).
(٦) الطلاق: الآيتان (٢و٣).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٩).

وفي الآية سؤال أورده الرازي ضمن أسئلة أخرى، قال: «السؤال الأول: أليس أن النبي ﷺ قال: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**»[١]، وقال أيضًا: «**خصّ البلاء بالأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل**»[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾[٣]، فهذه النصوص دالة على أن نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية. ومقتضى هذه الآية أن نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا، فكيف الجمع بينهما؟

الجواب من وجوه:

الأول: المراد أنه تعالى لا يعذبهم بعذاب الاستئصال كما استأصل أهل القرى الذين كفروا.

الثاني: أنه تعالى يوصل إليهم الرزق كيف كان، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ﴾[٤].

الثالث -وهو الأقوى عندي-: أن يقال: إن المشتغل بعبادة اللَّه وبمحبة اللَّه مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه، فكل من كان إمعانه في ذلك الطريق أكثر، وتوغله فيه أتم؛ كان انقطاعه عن الخلق أتم وأكمل. وكلما كان الكمال في هذا الباب أكثر؛ كان الابتهاج والسرور أتم؛ لأنه أمن من تغير مطلوبه، وأمن من زوال محبوبه. فأما من كان مشتغلًا بحب غير الله؛ كان أبدًا في ألم الخوف من فوات المحبوب وزواله، فكان عيشه منغّصًا، وقلبه مضطربًا؛ ولذلك قال اللَّه تعالى في صفة المشتغلين بخدمته: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ﴾[٥]»[٦].

قلت: ويظهر لي في المسألة جواب آخر؛ وهو أن الدنيا خُلقت للكدر والبلاء؛

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٢٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٢/ ٢٩٥٦)، والترمذي (٤/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٢٣٢٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٨/ ٤١١٣).

(٢) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ: أحمد (١/ ١٧٢)، والترمذي (٤/ ٥٢٠/ ٢٣٩٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤/ ٤٠٢٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٢/ ٧٤٨١)، وصححه ابن حبان (٧/ ١٦١/ ٢٩٠١)، والحاكم (١/ ٤٠-٤١) على شرط الشيخين.

(٣) الزخرف: الآية (٣٣).

(٤) طه: الآية (١٣٢).

(٥) النحل: الآية (٩٧).

(٦) التفسير الكبير (١٧/ ١٨٩-١٩٠).

لا للذة، وإلا لم يُبخَس المؤمن حظَّه منها، فالمؤمن إذًا يمنع نفسه عن شهوات الدنيا، ويضيق عليها، ويحرمها لذاتها، فتصير الدنيا سجنًا عليه، فتتوق نفسه إلى الموت لملاقاة لذات الجنة عوضًا عما حُرمت من لذات الدنيا.

والدنيا أيضًا سجن المؤمن لأنها مانعة له من النظر إلى محبوبه وهو اللَّه تبارك وتعالى، والقرب منه؛ فهو في سجن يتمنى انقضاءه للإفراج عنه لملاقاة محبوبه.

والدنيا سجن المؤمن أيضًا إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه، وحبسها عن شهواتها، ومدافعة شياطين الإنس والجن؛ فيكون الموتُ تخليصًا له من هذا العذاب.

فإذن لا بد في الدنيا من كدر السجن وقذره، ولقد أحسن من قال:

طُبِعَتْ على كدرٍ وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذار والأكدارِ
ومكلِّفُ الأيام ضدَّ طباعها ... متطلِّبٌ في الماء جذوةَ نارِ
وإذا رجوتَ المستحيلَ فإنما ... تبني الرجاءَ على شفيرٍ هارِ

وخلاصة الأمر أن المؤمن في سجن بالنظر إلى ما ينتظره في الجنة من نعيم مقيم، والكافر في جنة بالنظر إلى ما ينتظره من عذاب اللَّه. واللَّه أعلم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من المتاع الحسن تخليف المؤمن في عمل الصالحات

* عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا. فقلت: بالشطر؟ فقال: لا. ثم قال: **الثلث، والثلث كبير -أو كثير- إنك أنْ تذرَ ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللَّه إلا أُجِرتَ بها، حتى ما تجعلُ في في امرأتك**. فقلت: يا رسول الله! أخلَّفُ بعد أصحابي؟ قال: **إنك لن تخلف فتعمل عملًا صالحًا إلا ازددت به درجة ورفعة، ثم لعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويُضَرَّ بك آخرون، اللهم أَمْضِ لأصحابي هجرتهم، ولا تردّهم على**

أعقابهم، لكِنِ البائسُ سعدُ بن خولة. يرثي له رسول اللَّه ﷺ أن مات بمكة»(١).

⭑ غريب الحديث:

عالة: فقراء.

يتكففون: يسألون الناس في أكفهم.

تخلّف: المراد بالتخلف هنا طول العمر والبقاء في الحياة.

البائس: الذي عليه أثر البؤس، وهو الفقر والقلّة.

⭑ فوائد الحديث:

هذا الحديث تفسير لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾. قال أبو عبد اللَّه القرطبي: «أي: يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله.. وقال مجاهد: هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه، أو عمل يعمله بيده أو رجله، أو ما تطوع به من ماله فهو فضل اللَّه، يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إن كان كافرًا»(٢).

والحديث كذلك تفسير لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ فتخليف المؤمن والإنساء له في العمر في عمل الصالحات من عبادات ودعوة وجهاد في سبيل اللَّه، بل وحتى العادات إذا صاحبتها نية التعبد لله تعالى؛ تُعَدُّ تمتيعًا له في هذه الدنيا بحلاوة هذه العبادات، وفي الآخرة بجزيل الثواب. واللَّه أعلم.

وفي الحديث من الفوائد: «استحباب الإنفاق في وجوه الخير.

وفيه أن الأعمال بالنيات، وأنه إنما يثاب على عمله بنيته.

وفيه أن الإنفاق على العيال يثاب عليه إذا قصد به وجه اللَّه تعالى.

وفيه أن المباح إذا قصد به وجه اللَّه تعالى؛ صار طاعة ويثاب عليه. وقد نبه ﷺ

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٩)، والبخاري (٣/ ٢١١/ ١٢٩٥) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٢٥٠-١٢٥١/ ١٦٢٨)، وأبو داود (٣/ ٢٨٤-٢٨٦/ ٢٨٦٤)، والترمذي (٤/ ٣٧٤/ ٢١١٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٣-٩٠٤/ ٢٧٠٨) مختصرًا، والنسائي (٦/ ٥٥١-٥٥٢/ ٣٦٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٤).

على هذا بقوله ﷺ: «حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك»؛ لأن زوجة الإنسان هي من أخص حظوظه الدنيوية وشهواته وملاذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح؛ فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع هذا فأخبر ﷺ أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه اللَّه تعالى؛ حصل له الأجر بذلك، فغير هذه الحالة أولى بحصول الأجر إذا أراد وجه اللَّه تعالى. ويتضمن ذاك أن الإنسان إذا فعل شيئًا أصله على الإباحة، وقصد به وجه اللَّه تعالى؛ يثاب عليه، وذلك كالأكل بنية التقوي على طاعة اللَّه تعالى، والنوم للاستراحة ليقوم إلى العبادة نشيطًا، والاستمتاع بزوجته وجاريته ليكفّ نفسه وبصره ونحوهما عن الحرام، وليقضي حقها، وليحصل ولدًا صالحًا، وهذا معنى قوله ﷺ: «وفي بُضع أحدكم صدقة»[1] واللَّه أعلم»[2].

وفيه: أن الأعمال الصالحة إنما يقع بها غفران الذنوب وتكفير السيئات مع صدق النيات[3].

وفيه أيضًا: عيادة العالم والخليفة وسائر الجلة للمريض.

وفيه: أن ترك المال للورثة أفضل من الصدقة به إلا لمن كان واسع المال. والأصول تعضد هذا التأويل؛ لأن الإنفاق على من تلزمه نفقته فرض، وأداء الفرائض أفضل من التطوع[4].

وفي هذا الحديث تخصيص للقرآن؛ لأنه أطلق الوصية، ولم يقيدها بمقدار لا يتعدى، وكان مراده ﷻ من كلامه ما بينه عنه رسوله ﷺ؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[5] يعني: لتبين لهم مراد ربهم فيما احتمله التأويل من كتابهم الذي نزل عليهم[6].

---

(١) أخرجه من حديث أبي ذر ﷺ: أحمد (٥/ ١٦٧)، ومسلم (٢/ ٦٩٧-٦٩٨/ ١٠٠٦)، وأبو داود (٥/ ٤٠٦-٤٠٧/ ٥٢٤٣)، والترمذي بنحوه (٤/ ٢٩٩/ ١٩٥٦).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٦٦).

(٣) فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبدالبر (٦/ ١٢٩).

(٤) فتح البر (١٢/ ٥٢٨).

(٥) النحل: الآية (٤٤).

(٦) فتح البر (١٢/ ٥٢٣-٥٢٤).

قال ابن العربي المالكي: «أن اللَّه بفضله كتب للعبد الأجر على ما يلزمه؛ فإن النفقة على المرأة واجبة ويؤجر في ذلك، وأغرب من ذلك أنه يطؤها فيقضي شهوته ويؤجر في ذلك؛ فإن في النفقة على البغِيّ ووطئها وزر، وهو ترك ذلك للحلال ففعل ضده، فأجر في ذلك لأجله، نص عليه النبي ﷺ»[1].

وقد أسلفنا الكلام على فوائد هذا الحديث فيما يتعلق بأحكام الوصية عند تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[2] من سورة (البقرة).

* * *

---

(١) عارضة الأحوذي (٨/ ٢٦٩).

(٢) البقرة: الآية (١٨٠).

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: إلى اللَّه أيها القوم مآبكم ومصيركم، فاحذروا عقابه إن توليتم عما أدعوكم إليه من التوبة إليه من عبادتكم الآلهة والأصنام؛ فإنه مخلدكم نار جهنم إن هلكتم على شرككم قبل التوبة إليه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: وهو على إحيائكم بعد مماتكم وعقابكم على إشراككم به الأوثان وغير ذلك مما أراد بكم وبغيركم قادر»[1].

وقال الرازي: «بين أنه لا بد من الرجوع إلى اللَّه تعالى بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه دقيقة، وهي: أن هذا اللفظ يفيد الحصر، يعني أن مرجعنا إلى اللَّه لا إلى غيره، فيدل هذا على أنه لا مدبر ولا متصرف هناك إلا هو، والأمر كذلك أيضًا في هذه الحياة الدنيوية، إلا أن أقوامًا اشتغلوا بالنظر إلى الوسائط فعجزوا عن الوصول إلى مسبب الأسباب، فظنوا أنهم في دار الدنيا قادرون على شيء. وأما في دار الآخرة؛ فهذا الحال الفاسد زائل أيضًا؛ فلهذا المعنى بين هذا الحصر بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأقول: إن هذا تهديد عظيم من بعض الوجوه، وبشارة عظيمة من سائر الوجوه. أما إنه تهديد عظيم فلأن قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يدل على أنه ليس مرجعنا إلا إليه، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يدل على أنه قادر على جميع المقدورات، لا دافع لقضائه، ولا مانع لمشيئته، والرجوع إلى الحاكم الموصوف بهذه الصفة مع العيوب الكثيرة والذنوب العظيمة مشكل.

وأما أنه بشارة عظيمة فلأن ذلك يدل على قدرة غالبة، وجلالة عظيمة لهذا

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٨٢).

الحاكم، وعلى ضعف تام وعجز عظيم لهذا العبد، والملك القاهر العالي الغالب إذا رأى عاجزًا مشرفًا على الهلاك فإنه يخلصه من الهلاك، ومنه المثل المشهور: ملكت فاسجح»[١].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٧/ ١٩١).

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

★ غريب الآية:

يَثْنُونَ صُدورَهم: أي: يطوونها على سرهم. كنى بذلك عن إعراضهم عن الحق. قال السمين الحلبي في «الدر المصون»: «قراءة الجمهور بفتح الياء وسكون الثاء المثلثة، وهو مضارع ثَنَى يَثْنِي ثَنْيًا؛ أي: طوى وزَوَى، و(صُدُورَهُمْ) مفعول به، والمعنى: يَحْرِفون صدورَهم ووجوههم عن الحق وقبوله. والأصل: يَثْنِيُون، فأُعِلَّ بحذف الضمة عن الياء، ثم تُحذَف الياءُ لالتقاء الساكنين»[1].

يستخفوا: الاستخفاء: طلب الخفاء. يقال: استخفى وتَخَفَّى بمعنىً.

يستغشون ثيابهم: هي كقوله تعالى من سورة (نوح): ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾[2]، قال السمين الحلبي: «أي: تغطوا بها حتى لا يروا بأعينهم الداعي، ولا يُصغوا إلى كلامه. وقيل: هو كناية عن الفرار؛ نحو: شمّر ذيله، فيكون كقوله: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾[3]»[4].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «يبين تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه لا يخفى عليه شيء، وأن السر كالعلانية عنده، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر، وما يعلن وما يسر. والآيات المبينة لهذا كثيرة جدًا؛ كقوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾[5]، وقوله -جل وعلا-: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾[6]، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾[7]، وقوله:

(١) الدر المصون (٦/ ٢٨٤).
(٢) نوح: الآية (٧).
(٣) نوح: الآية (٦).
(٤) عمدة الحفاظ (٣/ ١٩٧).
(٥) ق: الآية (١٦).
(٦) البقرة: الآية (٢٣٥).
(٧) الأعراف: الآية (٧).

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1] الآية. ولا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا وجدت فيها آية بهذا المعنى.

• **تنبيه مهم:**

اعلم أن اللَّه تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر، ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن؛ من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون. وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلًا ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن ملِكًا قتّالًا للرجال، سفّاكًا للدماء، شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلمًا، وسيافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط للقتل، والسيف يقطر دمًا، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلع عليه؟! لا، وكلا! بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلة قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة جوارحهم خوفًا من بطش ذلك الملك.

ولا شك -ولله المثل الأعلى- أن رب السموات والأرض -جل وعلا- أشد علمًا، وأعظم مراقبة، وأشد بطشًا، وأعظم نكالًا وعقوبة من ذلك الملك، وحماه في أرضه محارمه. فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه -جل وعلا- ليس بغائب عنه، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي؛ لان قلبه، وخشي اللَّه تعالىٰ، وأحسن عمله لله -جل وعلا-.

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن اللَّه تبارك وتعالى صرح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملًا، ولم يقل: أيهم أكثر عملًا؛ فالابتلاء في إحسان العمل؛ كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾[2] الآية.

---

(١) يونس: الآية (٦١).

(٢) هود: الآية (٧).

وقال في (الملك): ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1].

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلى -أي يختبر- بإحسان العمل؛ فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار؛ ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النبي ﷺ عن هذا ليعلمه لأصحاب النبي ﷺ، فقال: «**أخبرني عن الإحسان**»؛ أي: وهو الذي خلق الخلق لأجل الاختبار فيه، فبين النبي ﷺ أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة اللَّه تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه، فقال له: «**الإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

واختلف العلماء في المراد بقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، وقوله: ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، وفي مرجع الضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾. فقال بعض العلماء: معنى ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: يزورون عن الحق، وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره، ومن ازور عنه وانحرف ثنى عنه صدره، وطوى عنه كشحه. بهذا فسره الزمخشري في «الكشاف».

قال مقيده -عفا اللَّه عنه-: وهذا المعنى معروف في كلام العرب؛ فهم يعبرون باعوجاج الصدر عن العدول عن الشيء والميل عنه، ويعبرون بإقامة الصدر عن القصد إلى الشيء وعدم الميل عنه.

فمن الأول قول ذي الرمة غيلان بن عقبة العدوي عدي الرباب:

خليلي عوجا بارك اللَّه فيكما ... على دار ميٍّ من صدور الركائب

تكن عوجة يجزيكما اللَّه عنده ... بها الأجر أو تقضي ذمامة صاحب

يعني: اثنيا صدور الركائب إلى دار ميّ.

ومن الثاني قول الشنفرى:

---

(١) الملك: الآية (٢).

(٢) أخرجه من حديث عمر ﷺ: أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨)، وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣).

أقيموا بني أميَّ صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

وقول الآخر:

أقول لأم زنباع أقيمي صدورَ العيس شطر بني تميم

وقيل: نزلت هذه الآية الكريمة في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة؛ كان حلو المنطق، يلقى رسول اللَّه ﷺ بما يحب وينطوي له بقلبه على ما يسوء.

وقيل: نزلت في بعض المنافقين؛ كان إذا مر بالنبي ﷺ ثنى صدره وظهره، وطوطأ رأسه، وغطى وجهه؛ لكيلا يراه النبي ﷺ فيدعوه إلى الإيمان. حُكي معناه عن عبد اللَّه بن شداد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في قوم كانوا يكرهون أن يجامعوا أو يتغوطوا وليس بينهم وبين السماء حجاب؛ يستحيون من اللَّه.

وقال بعض العلماء: معنى ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: يغطّون رؤوسهم لأجل كراهتهم استماع كلام الله؛ كقوله تعالى عن نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾[1] الآية.

وقيل: كانوا إذا عملوا سوءًا ثنوا صدورهم وغطوا رؤوسهم؛ يظنون أنهم إن فعلوا ذلك أخفوا به عملهم على اللَّه -جل وعلا-. ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ الآية.

وقرأ ابن عباس هذه الآية الكريمة: (أَلاَ إِنَّهُمْ تَثْنَوْنى صُدُورُهُمْ). و(تَثْنَوْنى): مضارع (اثْنَوْنَى)، ووزنه (افْعَوْعَلَ) من الثّني؛ كما تقول: احلولى؛ من الحلاوة. و(صُدُورُهُمْ) في قراءة ابن عباس بالرفع؛ فاعل (تَثْنَوْنى). والضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ عائد إلى اللَّه تعالى في أظهر القولين. وقيل: راجع إليه ﷺ كما مر في الأقوال في الآية»[2].

قال الماوردي: «وفي المراد بـ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أربعة أقاويل:

أحدها: الليل يقصدون فيه إخفاء أسرارهم فيما يثنون صدورهم عليه. واللَّه

---

(١) نوح: الآية (٧).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٩-١٣).

تعالى لا يخفى عليه ما يسرونه في الليل ولا ما يخفونه في صدورهم، فكنى عن الليل باستغشاء ثيابهم؛ لأنهم يتغطون بظلمته كما يتغطون إذا استغشوا ثيابهم.

الثاني: أن قومًا من الكفار كانوا لشدة بغضتهم لرسول اللَّه ﷺ يستغشون ثيابهم؛ يغطون بها وجوههم، ويصمون بها آذانهم؛ حتى لا يروا شخصه ولا يسمعوا كلامه، وهو معنى قول قتادة.

الثالث: أن قومًا من المنافقين كانوا يظهرون لرسول اللَّه ﷺ بألسنتهم أنهم على طاعته ومحبته، وتشتمل قلوبهم على بغضه ومعصيته، فجعل ما تشتمل عليه قلوبهم كالمستغشي بثيابه.

الرابع: أن قومًا من المسلمين كانوا يتنسكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء، فبين اللَّه تعالى أن المنسك ما اشتملت قلوبهم عليه من معتقد وما أظهروه من قول وعمل»[1].

* * *

(١) النكت والعيون (٢/ ٤٥٨).

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

★ غريب الآية:

دابّة: هي كل ما يدبّ على وجه الأرض. جمعها: دوابّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض؛ صغيرها وكبيرها، بحريّها وبرّيّها، وأنه يعلم مستقرّها ومستودعها؛ أي: يعلم أين منتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها.

وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تأوي، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: حيث تموت. وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾: في الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: في الصلب؛ كالتي في (الأنعام). وكذا روي عن ابن عباس والضحاك وجماعة. وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين ههنا كما ذكره عند تلك الآية، فاللّه أعلم، وأن جميع ذلك مكتوب ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ عند اللّه ﴿مُّبِينٍ﴾ عن جميع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2]»[3].

وقال القرطبي: «ظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص؛ لأن كثيرًا من الدواب هلك قبل أن يُرزق. وقيل: هي عامة في كل دابة: وكل دابة لم تُرزق رزقًا تعيش به فقد

---

(١) الأنعام: الآية (٣٨).

(٢) الأنعام: الآية (٥٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٣٩).

رُزقت روحها؛ ووجه النظم بما قبلُ: أنه سبحانه أخبر برزق الجميع، وأنه لا يَغفُل عن تربيته، فكيف تخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم؟!

والدابة كل حيوان يَدِبّ. والرزق حقيقته: ما يتغذّى به الحيّ، ويكون فيه بقاء روحه، ونماء جسده. ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى المِلك؛ لأن البهائم تُرزَق، وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعَلَفها؛ وهكذا الأطفال ترزق اللبن، ولا يقال: إن اللبن الذي في الثدي ملك للطفل. وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[(١)]، وليس لنا في السماء ملك؛ ولأن الرزق لو كان ملكًا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محال؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه. وقد تقدم في (البقرة) هذا المعنى والحمد لله.

وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: الذي خلق الرحى يأتيها بالطحين، والذي شدق الأشداق هو خالق الأرزاق. وقيل لأبي أسيد: من أين تأكل؟ فقال: سبحان اللَّه واللَّه أكبر! إن اللَّه يرزق الكلب، أفلا يرزق أبا أسيد! وقيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: من عند اللَّه. فقيل له: اللَّه ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال: كأن ما له إلا السماء! يا هذا! الأرض له، والسماء له؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض؛ وأنشد:

وكيف أخاف الفقر واللهُ رازقي ... ورازق هذا الخلق في العسر واليسرِ

تكفَّلَ بالأرزاق للخلقِ كلِّهِمْ ... وللضَّبِّ في البيداءِ والحوت في البحرِ»[(٢)]

قلت: والذي ينبغي أن يعلم أن اللَّه الذي رزق الأرزاق جعل لها الأسباب طريقًا، وأمر بالسعي في البلاد، وابتغاء فضل اللَّه، وجائز في ملك اللَّه وقدرته أن يرزق من يشاء ابتداءً بلا سبب، وقد فعل ذلك ببعض خلقه، لكن أمر تعالى بطرق هذه الأسباب لحكم بالغة، فالحذر الحذر من التواكل.

قال محمد رشيد رضا: «و(الدابة) اسم عام يشمل كل نسمة حيّة تدبّ على الأرض زحفًا أو على قوائم ثنتين فأكثر؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[(٣)]

---

(١) الذاريات: الآية (٢٢).

(٢) جامع أحكام القرآن (٩/ ٦-٧).

(٣) النور: الآية (٤٥).

أي: مما تعلمون ومما لا تعلمون مما يدبّ على الأرض، ومما يطير في الهواء، ومما يسبح في البحار والأنهار. وغلبة لفظ (الدابة) على ما يركب من الخيل والبغال والحمير؛ عرف لا لغة. ورزق الدابة: غذاؤها الذي تعيش به.

والمعنى: ما من دابة من أنواع الدواب في الأرض إلا على اللّه رزقها على اختلاف أنواعها وأنواعه، فمنها الجِنة التي لا ترى بالأبصار، وصغار الحشرات والهوام، وضخام الأجسام، والوسطى بين الكبير والصغير. وأغذية كل نوع مختلفة من نباتية وحيوانية، وقد أعطى كلاً منها خلقه المناسب لمعيشته، ثم هداه إلى تحصيل غذائه بغريزته، فمنها ما خلق له خراطيم يمص بها غذاءه من النبات أو دم الحيوان، وأعطاها من القوة ما إن خرطوم البعوضة الدقيق ليخترق جلد الإنسان وما هو أكثف منه من جلود الحيوان، ومنها ما خلق له مناقير تلتقط الحبوب، ومنها ما يمضغ النبات بأسنانه مضغًا، وما يبلع الحشرات والطيور والأنعام بلعًا، وما له مخالب يمزّق بها اللحوم، وما له براثن يقتل بها كبار الجسوم. وتفصيل هذا له كتب خاصة من قديمة وحديثة.

ولله تعالى حكم في خلقها وغذائها عجيبة. فإن خفي عليك أمر تغذي الحيات والسنانير ونحوها من خشاش الأرض وصغارها، وتغذي الأفاعي الكبرى وسباع الوحش والطير من كبارها؛ فأول ما ينبغي لك أن تفكر فيه من حكمتها: أنه لولا ذلك لضاقت الأرض ذرعًا بكثرة أحيائها، أو لأنتنت من كثرة أمواتها.

وإذا أردت زيادة العلم بها وبحكمتها؛ فعليك بالمصنفات المدونة فيها. وقد فتحت هذه الآية وأمثالها لك أبوابها، وأرشدتك إلى تطلابها.

ولا يشكلن عليك التعبير عن كفالة اللّه لرزقها بقوله: (على)، وما قيل من دلالتها على الوجوب، مع قول المتكلمين: إنه لا يجب عليه تعالى شيء؛ فإن الممنوع أن يجب عليه تعالى شيء بإيجاب موجِبٍ ذي حكمٍ أو سلطان يطالبه به ويحاسبه عليه؛ فهذا محال عقلًا وشرعًا. وأما ما أوجبه اللّه تعالى من النظام، وسنن التدبير العام للمخلوقات، بمقتضى علمه وحكمته ومشيئته، ونفذه بقدرته واختياره في خليقته؛ فهو حكمه وقضاؤه وقدره بسلطانه، لا حكم عليه بسلطان غيره، وهو كمال مطلق لا شائبة للنقص فيه.

ولا يشكلن عليك فيها أيضًا أن يكون في كل نوع من هذه الدواب -حتى الإنسان- أفراد قد تضيق في وجوههم أبواب الرزق حتى يقضي بعضهم جوعًا؛ فليس معناها أن اللَّه تعالى قد كفل لكل دابة من كل نوع أن يخلق لها ما تغتذي به، ويوصله إليها بمحض قدرته، سواء أطلبته -بباعث غريزتها أو ما يهديها إليه العلم من أسباب كسبها- أم لا؛ وإنما معناها ما فسرناها به من خلقه تعالى لكل منها الرزق الذي تعيش به، وأنه سخره لها وهداها إلى طلبه وتحصيله؛ كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1].

وبهذا تعلم جهل بعض العباد والشعراء فيما زعموه من أن الكسب وعدمه سواء؛ كقول بعض الخياليين الجاهلين، المتواكلين غير المتوكلين:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التحرّك والسكونُ
جنون منك أن تسعى لرزقٍ ويرزق في غشاوته الجنينُ

فهذا الشاعر أحق بصفة الجنون ممن يصفهم بها؛ فإن ما جرى به القضاء منه ما هو مجهول للناس، ومنه ما علم نوعه بالتجارب والاختبار، ويعبر عنه بالنواميس والسنن، ومنها أن الحركة والسكون لكل منهما آثار، فما هما سيان في ذاتهما، ولا في آثارهما ونتائجهما، وأن ما قضاه وقدره من رزق الجنين في غشاوته بدم حيض أمه؛ غير ما قضاه وقدره من رزق من خاطبهم بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[2] وبغيره من آيات التسخير والتكليف»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الأرض مستودع الخلق إلى يوم القيامة

* عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا كان أجلُ أحدِكم بأرضٍ؛ أَوْثَبَتْهُ إليها الحاجةُ، فإذا بلغ أقصى أثره؛ قبضه اللَّه سبحانه، فتقول الأرض يوم القيامة: ربِّ! هذا ما استودعتني»**[4].

---

(١) طه: الآية (٥٠). (٢) الملك: الآية (١٥).

(٣) تفسير المنار (١٢/ ١٢-١٤).

(٤) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٤٢٤/ ٤٢٦٣) واللفظ له، والحاكم (١/ ٤١-٤٢) وقال: «احتج الشيخان برواة هذا الحديث عن آخرهم»، ووافقه الذهبي. قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات».

★ **غريب الحديث:**

أوثبته: أنهضته، وفي بعض روايات الحديث: «**جعل له إليها حاجة**».

★ **فوائد الحديث:**

قلت:

١- هذا الحديث من أعظم الأحاديث الدالة على أن الإنسان أمره بيد اللَّه، وأن العلم كله لله.

٢- الواجب كمال الاحتياط في تقوى الله؛ لأن الإنسان لا يدري أين يؤخذ ومتى يؤخذ.

٣- على الإنسان أن يجتهد في فعل الخير أينما كان حتى يكون ذلك حجة له. يقول ﷺ: «**اتق اللَّه حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[1].

٤- إن هذا الحديث مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[2].

٥- إن الأرض من نعم اللَّه على عباده: إنهم يمشون عليها أحياء كما قال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[3]، وإنها تسترهم وتحفظهم أمواتًا كما جاء في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[4].

٦- الإيمان بالقدر كله خيره وشره، وأن ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن.

٧- إن الهجرة من مكان إلى مكان لحاجة الإنسان دينًا أو دنيا ليس من مذامه؛ بل من مناقبه، وقد هاجر رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى المدينة، وهاجر إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحجاز، والهجرة سنة فطرية فطر اللَّه عليها جميع المخلوقات من إنس وحيوانات.

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٣)، والترمذي (٤/ ٣١٢-٣١٣/ ١٩٨٧) وقال: «حسن صحيح»، وصححه الحاكم (١/ ٥٤)، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) لقمان: الآية (٣٤).

(٣) الملك: الآية (١٥).

(٤) طه: الآية (٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1]

مضى ما يتعلق بمقدمة هذه الآية في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[2] من سورة (الأعراف).

* * *

---

(١) هود: الآية (٧).

(٢) الأعراف: الآية (٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما كان خلق ما منه الرزق أعظم من خلق الرزق وتوزيعه في شمول العلم والقدرة معًا؛ تلاه بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ أي: وحده ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: أوجد وقدر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وحده، لم يشركه في ذلك أحد كما أنتم معترفون، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

ولما كان خلق العرش أعظم من ذلك كله؛ فإن جميع السموات والأرض بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة، وأعظم من ذلك أن يكون محمولًا على الماء الذي لا يمكن حمله في العادة إلا في وعاء ضابط محكم؛ تلاه بقوله: ﴿وَكَانَ﴾ أي: قبل خلقه لذلك ﴿عَرْشُهُۥ﴾ مستعليًا ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾. ولا يلزم من ذلك الملاصقة؛ كما أن السماء على الأرض من غير ملاصقة.

وقد علم من هذا السياق أنه كان قبل الأرض خلق، فثبت أنه وما تحته محمولان بمحض القدرة من غير سبب آخر قريب أو بعيد، فثبت بذلك أن قدرته في درجات من العظمة لا تتناهى. وهذا زيادة تفصيل لما ذكر في سورة (يونس) عليه السلام من أمر العرش؛ لأن هذه سورة التفصيل»[2].

قال محمد رشيد رضا: «وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فنفهم منه أن الذي كان دون هذا العرش من مادة هذا الخلق قبل تكوين السموات والأرض أو في أثنائه هو هذا الماء، الذي أخبرنا ﷻ أنه جعله أصلًا لخلق جميع الأحياء؛ إذ قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]. الرؤية هنا علمية، والمعنى: ألم يعلموا ما ينبغي أن يعلموه من أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة لا فتق فيها ولا انفصال -

---

(١) هود: الآية (٧).
(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٣٨-٢٣٩).
(٣) الأنبياء: الآية (٣٠).

وهي ما يسمى في عرف علماء الفلك بالسديم، وبلغة القرآن بالدخان- ففتقناهما بفصل بعضها من بعض، فكان منها ما هو سماء، ومنها ما هو أرض، وجعلنا من الماء في القابلة لحياة الأحياء كل شيء حي، أفلا يؤمنون -والأمر كذلك- بأن الرب الفاعل لهذا هو الذي يعبد وحده، ولا يشرك به شيء، وأنه قادر على إعادة الخلق كبدئه؟

فيفهم من هذا وذاك أن الذي كان تحت العرش فيتنزل إليه أمر التدبير والتكوين منه هو الماء، الذي هو الأصل لجميع الأحياء، لا ما يخيله بعض المفسرين الفنيين في الماء والعرش؛ مما تأباه اللغة والعقل والشرع. والعبارة ليست نصًّا في أن ذات العرش المخلوق كان على متن الماء كالسفن التي نراها راسية فيه الآن -كما قيل-؛ فإن فائدة الإخبار بمثل هذا إن كان واقعًا في ذلك العهد؛ هو دون فائدة ما ذكرنا من معنى العرش الذي بيناه، وهو الذي يزيدنا معرفة بربنا وبحكمه في خلقه، وهو الذي يتفق مع نظريات علم التكوين وعلم الحياة وعلم الهيئة الفلكية، وما ثبت من التجارب فيها، ويخالف أتم المخالفة ما كان معروفًا عند أمم الحضارة من قواعد علم الفلك القديمة، ونظرياته المسلمة. وبهذا يعدّ من عجائب القرآن، التي تظهر في كل زمان بعد زمان»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة العرش

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: أَنفِقْ أُنفِقْ عليك». وقال: «يد الله ملأى لا تَغيضها نفقة، سحاءُ الليلَ والنهار»، وقال: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع»[(٢)].

* عن عمران بن حصين ﷺ قال: «إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم،

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ١٦-١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٠٠-٥٠١)، والبخاري (٨/ ٤٤٩/ ٤٦٨٤) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٩١/ ٩٩٣[٣٧])، والترمذي (٥/ ٢٣٤/ ٣٠٤٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٣٩)، وابن ماجه (١/ ٧١/ ١٩٧) دون ذكر الشاهد.

فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم. قالوا: بشّرتنا فأعطنا. فدخل ناس من أهل اليمن، فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقّه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: كان اللَّه، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء. ثم أتاني رجل فقال: يا عمران! أدرك ناقتك فقد ذهبت. فانطلقتُ أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها، وايْمُ اللهِ لودِدتُ أنها قد ذهبَتْ ولم أقم»[1].

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء**»[2].

★فوائد الأحاديث:

قال الإمام عثمان الدارمي: «في هذا بيان بَيِّنٌ أن اللَّه تعالى خلق العرش قبل السموات والأرض وما فيهن»[3].

وقال العيني: «قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ هي لدفع توهم من قال: إن العرش لم يزل مع اللَّه تعالى؛ مستدلين بقوله في الحديث: «**كان اللَّه، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء**». وهذا مذهب باطل، ولا يدل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ على أنه حالّ عليه، وإنما أخبر عن العرش خاصة بأنه على الماء، ولم يخبر عن نفسه بأنه حالّ عليه تعالى اللَّه عن ذلك؛ لأنه لم يكن له حاجة إليه.. وكذلك العرش سماه عرشه؛ لأنه مالكه، واللَّه تعالى ليس لأوليته حد ولا منتهى، وقد كان في أوليته وحده ولا عرش معه»[4].

وقال الحافظ: «قوله: «**كان اللَّه، ولم يكن شيء قبله**» تقدم في بدء الخلق

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣١-٤٣٢)، والبخاري (١٣/ ٤٩٦-٤٩٧/ ٧٤١٨) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٦٨٨-٦٨٩/ ٣٩٥١) مختصرًا دون ذكر الشاهد، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٤٠) مختصرًا.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٩) دون قوله: «قال: وعرشه على الماء»، ومسلم (٤/ ٢٠٤٤/ ٢٦٥٣) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٣٩٨-٣٩٩/ ٢١٥٦).

(٣) الرد على الجهمية (ص: ١٤).

(٤) عمدة القاري (١٦/ ٦١٥).

بلفظ: «ولم يكن شيء غيره»، وفي رواية أبي معاوية: «كان اللَّه قبل كل شيء»، وهو بمعنى: «كان اللَّه ولا شيء معه»، وهي أصرح في الرد على من أثبت حوادث لا أول لها من رواية الباب»[1].

وقال الطيبي: «قوله: «ولم يكن شيء قبله» حال؛ كما في قول الحماسي:

مشينا مِشيةَ الليثِ غَدَا والليثُ غضبانُ

وعلى مذهب الكوفي خبر، والمعنى يساعده؛ إذ التقدير: كان اللَّه في الأزل متفردًا متوحّدًا، وهو مذهب الأخفش؛ فإنه جوز دخول (الواو) في خبر كان وأخواتها؛ نحو: كان زيد وأبوه قائم؛ على جعل الجملة خبرًا مع (الواو) تشبيهًا للخبر بالحال.

قال التوربشتي: هذا فصل مستقل بنفسه، لا امتزاج له بالفصل الثاني، وهو قوله: «وكان عرشه على الماء»؛ لما بين الفصلين من المنافاة؛ فإنك إذا جعلت «وكان عرشه على الماء» من تمام القول الأول؛ فقد ناقضت الأول بالثاني؛ لأن القديم من لم يسبقه شيء ولم يعارضه في الأولية، وقد أشار بقوله: «وكان عرشه على الماء» إلى أنهما كانا مبدأ التكوين، وأنهما كانا مخلوقين قبل السموات والأرض، ولم يكن تحت العرش قبل السموات والأرض إلا الماء، وكيفما كان فاللَّه ﷻ خالق ذلك كله، وممسكه بقوته وقدرته.

أقول: أراد الشيخ بما قال أن المعطوف عليه مقيد بقوله: «ولم يكن قبله شيء»، فلو جعل المعطوف غير مستقل لزم المحذور، فإذا جعل مستقلاً ويعطف الثانية على الأولى من حيث الجملية فلا، فإذن لفظة (كان) في الموضعين بحسب حال مدخولها، فالمراد بالأول الأزلية والقدم، وبالثاني الحدوث بعد العدم.

قال الراغب: (كان) عبارة عما مضى من الزمان، وفي كثير من وصف اللَّه تنبئ عن معنى الأزلية؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[2]، وما استعمل منه في جنس الشيء متعلقًا بوصف له موجود فيه فتنبيه على أن ذلك الوصف لازم له، قليل الانفكاك منه؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[3]،

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٥٠٤).
(٢) الأحزاب: الآية (٤٠).
(٣) الفرقان: الآية (٢٩).

ولا فرق بين أن يكون الزمان المستعمل فيه (كان) قد تقدم تقدّمًا كبيرًا، وبين أن يكون في زمان قد تقدم بآن واحد على الوقت الذي استعملت فيه (كان)؛ كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[١]»[٢].

قال الحافظ: «فيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره؛ لا الماء، ولا العرش، ولا غيرهما؛ لأن كل ذلك غير اللَّه تعالى»[٣].

وقال أيضًا: «وكأنهم سألوا عن أحوال هذا العالم، وهو الظاهر، ويحتمل أن يكونوا سألوا عن أول جنس المخلوقات، فعلى الأول يقتضي السياق أنه أخبر أن أول شيء خلق منه السموات والأرض، وعلى الثاني يقتضي أن العرش والماء تقدم خلقهما قبل ذلك»[٤].

قال الشيخ الغنيمان: «الاحتمال الثاني بعيد، بل باطل.. لأن الإشارة إلى المخلوقات المشاهدة -كما تقدم- وجواب السؤال يدل على أنهم سألوا عن مبدإ هذا العالم المشاهد. والأمر يطلق ويراد به المأمور، ويراد به المصدر الذي هو حكم الآمر، والأول هو المراد هنا قطعًا»[٥].

قال شيخ الإسلام: «إن قول أهل اليمن: «**جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر**» إما أن يكون الأمر المشار إليه هذا العالم، أو جنس المخلوقات، فإن كان المراد هو الأول كان النبي ﷺ قد أجابهم؛ لأنه أخبرهم عن أول خلق هذا العالم، وإن كان المراد الثاني لم يكن قد أجابهم؛ لأنه لم يذكر أول الخلق مطلقًا؛ بل قال: «**كان اللَّه ولا شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض**»، فلم يذكر إلا خلق السموات والأرض، لم يذكر خلق العرش، مع أن العرش مخلوق أيضًا؛ فإنه يقول: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٦]، وهو خالق كل شيء؛ العرش وغيره، ورب كل شيء؛ العرش وغيره. وفي حديث أبي رزين قد أخبر النبي ﷺ بخلق العرش. وأما في حديث عمران فلم يخبر بخلقه؛ بل أخبر بخلق السموات والأرض، فعلم أنه أخبر بأول خلق هذا العالم، لا بأول

---

(١) مريم: الآية (٢٩).

(٢) شرح المشكاة (١١/ ٣٥٩٩-٣٦٠٠).

(٣) فتح الباري (٦/ ٣٥٥).

(٤) المصدر السابق (٦/ ٣٥٤).

(٥) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٧١).

(٦) التوبة: الآية (١٢٩).

الخلق مطلقًا.

وإذا كان إنما أجابهم بهذا؛ علم أنهم إنما سألوه عن هذا، لم يسألوه عن أول الخلق مطلقًا؛ فإنه لا يجوز أن يكون أجابهم عما لم يسألوه عنه ولم يجبهم عما سألوا عنه؛ بل هو ﷺ منزه عن ذلك، مع أن لفظه إنما يدل على هذا؛ لا يدل على ذكره أول الخلق وإخباره بخلق السموات والأرض بعد أن كان عرشه على الماء يقصد به الإخبار عن ترتيب بعض المخلوقات على بعض؛ فإنهم لم يسألوه عن مجرد الترتيب، وإنما سألوه عن أول هذا الأمر، فعلم أنهم سألوه عن مبدإ خلق هذا العالم فأخبرهم بذلك، كما نطق في أولها في أول الأمر «خلق اللَّه السموات والأرض». وبعضهم يشرحها في البدء، أو في الابتداء خلق اللَّه السموات والأرض.

والمقصود أن فيها الإخبار بابتداء خلق السموات والأرض، وأنه كان الماء غامرًا للأرض، وكانت الريح تهب على الماء، فأخبر أنه حينئذ كان هذا ماءً وهواءً وترابًا، وأخبر في القرآن العظيم أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء، وفي الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1]، وقد جاءت الآثار عن السلف بأن السماء خلقت من بخار الماء، وهو الدخان.

والمقصود هنا أن النبي ﷺ أجابهم عما سألوه عنه، ولم يذكر إلا ابتداء خلق السموات والأرض، فدل على أن قولهم: «جئنا لنسألك عن أول هذا الأمر» كان مرادهم خلق هذا العالم، واللَّه أعلم»[2].

وقال ابن أبي العز: «والناس في هذا الحديث على قولين؛ منهم من قال: إن المقصود إخبارُهُ بأن اللَّه كان موجودًا وحده، ولم يزل كذلك دائمًا، ثم ابتدأ إحداثَ جميع الحوادث، فجنسُها وأعيانها مسبوقة بالعدم، وأنّ جنس الزمان حادث لا في زمان، وأنّ اللَّه صار فاعلًا بعد أن لم يكن يفعلُ شيئًا من الأزل إلى حين ابتداء الفعل ولا كان الفعل ممكنًا.

---

(١) فصلت: الآية (١١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢١٣-٢١٥).

والقول الثاني: المراد إخباره عن مبدإ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه اللَّه في ستة أيام، ثم استوى على العرش؛ كما أخبر القرآن بذلك في غير موضع، وفي صحيح مسلم عن عبد اللَّه بن عمرو ﵄ عن النبي ﷺ أنه قال: «**قدّر اللَّه تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[1]. فأخبر ﷺ أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل خلقه بخمسين ألف سنة، وأن عرش الرب تعالى كان حينئذ على الماء.

دليل صحة هذا القول الثاني من وجوه:

أحدها: أن قول أهل اليمن: «**جئنا لنسألك عن أول هذا الأمر**»؛ وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، والأمر هنا بمعنى المأمور؛ أي: الذي كوّنه اللَّه بأمره، وقد أجابهم النبي ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود، لا عن جنس المخلوقات؛ لأنهم لم يسألوه عنه، وقد أخبرهم عن خلق السموات والأرض حالَ كونِ عرشه على الماء، لم يخبرهم عن خلق العرش، وهو مخلوق قبل خلق السموات والأرض.

وأيضًا فإنه قال: «**كان اللهُ، ولم يكن شيء قبلَهُ**»، وقد رُوي: «**معه**»، ورُوي: «**غيره**»، والمجلس كان واحدًا، فعُلِم أنه قال أحَدَ الألفاظ، والآخران رُويا بالمعنى، ولفظ «**القَبْل**» ثبت عنه في غير هذا الحديث؛ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم أنتَ الأوّل فليس قبلك شيءٌ**»[2] الحديث. واللفظان الآخران لم يثبُتْ واحد منهما في موضع آخر، ولهذا كان كثير من أهل الحديث إنما يرويه بلفظ «**القَبْل**»؛ كالحميدي، والبغوي، وابن الأثير. وإذا كان كذلك؛ لم يكن في هذا اللفظ تعرُّضٌ لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق.

وأيضًا: فإنه قال: «**كان اللَّه ولم يكن شيء قبله**» أو «**معه**» أو «**غيره**»، «**وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء**». فأخبر عن هذه الثلاثة بـ(الواو)،

---

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: أحمد (٢/ ٥٣٦)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢١٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٤/ ٢٧١٣)، وأبو داود (٥/ ٣٠١/ ٥٠٥١)، والترمذي (٥/ ٤٤٠/ ٣٤٠٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٩٧/ ١٠٦٢٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٤-١٢٧٥/ ٣٨٧٣).

و«خلق السموات والأرض» روي بـ(الواو) وبـ(ثم)، فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السموات والأرض وما بينهما، وهي المخلوقات التي خُلقت في ستة أيام، لا ابتداء خلق ما خلقه اللّٰه قبل ذلك، وذَكر السموات والأرضَ بما يدل على خلقهما، وذكر ما قبلهما بما يدل على كونه ووجوده، ولم يتعرّض لابتداء خلقه له.

وأيضًا، فإنه إذا كان الحديث قد ورد بهذا وهذا؛ فلا يُجْزَم بأحدهما إلا بدليل، فإذا رجح أحدُهما؛ فمن جزم بأن الرسول أراد المعنى الآخر؛ فهو مخطئ قطعًا، ولم يأت في الكتاب ولا في السنة ما يدل على المعنى الآخر، فلا يجوز إثباته بما يُظَنّ أنه معنى الحديث، ولم يَرِدْ: «كان اللّٰه ولا شيء معه» مجرّدًا، وإنما ورد على السياق المذكور، فلا يُظَنّ أن معناه: الإخبار بتعطيل الرب -تعالى- دائمًا عن الفعل حتى خلق السموات والأرض.

وأيضًا، فقوله ﷺ: «كان اللّٰه ولم يكن شيء قبله -أو معه، أو غيره- وكان عرشه على الماء»؛ لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلًا؛ لأن قوله: «وكان عرشه على الماء» يردّ ذلك؛ فإن هذه الجملة وهي: «وكان عرشه على الماء» إما حالية، أو معطوفة، وعلى كلا التقديرين فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت، فعُلِم أن المراد: ولم يكن شيءٌ من هذا العالم المشهود»[1].

وقد شرح شيخ الإسلام حديث عمران هذا شرحًا مطولًا، انظره في مجموع الفتاوى[2].

وقال الغنيمان: «وأما قول الحافظ: (قضية الجمع بين الروايتين؛ تقتضي حمل هذه على رواية: «ولا شيء غيره»، لا العكس، والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق).

فيقال له: هذا لو احتمل أن يكون الحديث صدر منه ﷺ في مقامين، أما إذا كان في مجلس واحد، والراوي واحد، وقد أخبر أنه لم يبق إلى نهاية المجلس، بل قام لما سمع هذا القول من النبي ﷺ ولحق براحلته؛ فلا بد أن اللفظ الذي سمعه أحد هذه الألفاظ الثلاثة، والآخران رويا بالمعنى، فأصبح الجمع لا وجه له.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ١١٢-١١٦).
(٢) (١٨/ ٢١٠-٢٤٣).

وحمل هذه الرواية على رواية: «ولا شيء غيره» تحكم بلا دليل، حمل عليه التعصب للمذهب، وإلا فالواجب حملها على المعروف من كلام النبي ﷺ الموافق لكلام اللَّه تعالى؛ كما تقدمت الإشارة إليه»(١).

وقال أيضًا: «قوله: «وكان عرشه على الماء»؛ أي: وقت خلق السموات والأرض، كان عرشه على الماء. والمراد هنا الإخبار بكون العرش على الماء عند ابتداء خلق السموات والأرض.

قال ابن خزيمة: معنى قوله: «وكان عرشه على الماء» كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٢) يعني أن (كان) هنا لا تدل على أن ذلك أمر قد مضى وانقضى؛ بل تدل على ثبوته، فهو كان ولا يزال على ما كان»(٣).

قال الغنيمان: «وهذه الجملة من الحديث هي محل الشاهد، وهو دليل على عظم العرش، وأن له شأنًا غير شأن السموات والأرض، وأن وجوده قبل وجودهما.

وقوله: «ثم خلق السموات والأرض» نص في ذلك؛ لأن (ثم) تفيد الترتيب مع التراخي؛ أي: ترتيب خلق السموات والأرض على وجود العرش والماء.

ولا شك أن العرش والماء مخلوقان، ولم يذكر اللَّه -جل وعلا- لنا وقت خلق العرش والماء، كما لم يذكر لنا أن له مخلوقات قبلهما، ولكن النصوص من الوحي، والفطر، والعقل السليم تدل على أن اللَّه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء، ويتكلم بما يشاء، وهذا من الكمال الواجب له، والذي يليق به تعالى»(٤).

قلت: التعمق في البحث في هذا الموضوع لا طائل تحته ولا فائدة منه إلا نظم الألفاظ وترديدها، والآية واضحة، والحديث واضح، والأمور الغيبية لا ينبغي الدخول إليها إلا بعلم وسند صحيح عن اللَّه وعن رسول اللَّه ﷺ، والآية واضحة في الحديث عن أول خلق العالم وهو السموات والأرض، وواضح أن العرش مخلوق فيهما، ولا غرابة في ذلك ولا معارضة، فالمسؤول عنه ابتداء خلق هذا

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٧٦).
(٢) النساء: الآية (١٧).
(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٧٨).
(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٧٩-٣٨٠).

العالم، فأجاب الرسول ﷺ بأن اللَّه هو الأول والآخر والظاهر والباطن، والعرش على الماء لعظمته وجلالته، وبعدها خلق السموات والأرض، فلماذا الدخول فيما يسمى بحوادث لا أول لها، فهذه أمور فلسفية لا داعي لها، فاللَّه تعالى متصف بصفات الكمال، ولم يكتسب صفة حتى خلق خلقه؛ فهو الخالق لكل شيء، العالم بكل شيء، وما وراء هذا فلسفة وتنطع، فما اتُّهِم به شيخ الإسلام ابن تيمية في تقريراته الذهبية بقولهم: إنه يقول بقدم العالم؛ فهو كذب وبهتان؛ فإن شيخ الإسلام ابن تيمية أعلم باللَّه وبصفاته بما منّ اللَّه عليه من تمكّن من نصوص الوحي حفظًا وعلمًا وعملًا، ونصوص الوحيين أوضح من أن يحتاج فهمها إلى تعنت، ولله در الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ إذ عقد في كتابه الجامع كتابًا سماه (بدء الخلق)، فمن درس هذا الكتاب بكامله علم علم اليقين أن اللَّه هو الخالق، وكل ما سواه مخلوق من عرش وكرسي وقلم وسموات وأرض وماء وحيوانات وإنس وجن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه لما قضى الخلقَ كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي**»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**عنده فوق العرش**»: قال الغنيمان: «أي أنه تعالى وضع الكتاب عنده فوق عرشه.. وذلك للاهتمام به حيث وضعه معه على عرشه الذي استوى عليه»[2].

وقال أيضًا: «وما نقله الحافظ عن الخطابي أن معنى «**فوق العرش**» أي: (عنده علم ذلك فهو لا ينساه ولا يبدله)؛ هو من تخبطات أهل التأويل. ويقال له: وهل علم اللَّه يختص بهذا الكتاب فهو الذي لا ينساه ولا يبدله، وأما سائر الكون فليس عنده علمه أو ينساه ويبدله؟! إن الأجدى بالخطابي ومن يشتغل بالحديث أن يتبع كلام رسول اللَّه ﷺ، ولا يحمله على المذاهب الباطلة، بل يجب أن يصونه عن مثل هذه التحريفات الباردة. والحق أن قوله: «**عنده فوق عرشه**» على ظاهره، وأن

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٨)، والبخاري (١٣/ ٤٩٧/ ٧٤٢٢)، ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٣)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٩)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٧/ ٧٧٥٠).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٥٧).

كل تأويل له عن ظاهره؛ تبديل للمعنى الذي أراده رسول اللَّه ﷺ، ونحن نؤمن إيمانًا يقينيًا قاطعًا وكل المؤمنين أن الرسول ﷺ أحرص على عقيدة المسلمين، وعلى تنزيه اللَّه تعالى من هؤلاء المحرفين لكلامه. وهو كذلك أقدر على البيان والإيضاح منهم، وهو كذلك أعلم باللَّه وما يجب له وما يمتنع عليه من هؤلاء المتخبطين.

فهذا كتاب خاص، وضعه عنده فوق عرشه، مثبتًا فيه ما ذكر؛ لزيادة الاهتمام به، ولا ينافي ذلك أن يكون مكتوبًا أيضًا في اللوح المحفوظ.

وهو كتاب حقيقة، كتبه تعالى كما ذكر لنا رسولنا ﷺ حقيقة، وهو عند اللَّه حقيقة، فوق عرشه حقيقة. والمقصود أن اللَّه تعالى مستوٍ على عرشه على الحقيقة، وعرشه فوق مخلوقاته كلها، عالٍ عليها»[1].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من آمن باللَّه ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان؛ كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة؛ هاجر في سبيل اللَّه أو جلس في أرضه التي ولد فيها**»، قالوا: يا رسول الله! أفلا ننبّئ الناس بذلك؟ قال: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللَّه فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنة**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**وفوقه عرش الرحمن**» كذا للأكثر بنصب «**فوق**» على الظرفية؛ ويؤيده الأحاديث التي قبل هذا. وحكى في «المشارق» أن الأصيلي ضبطه بالرفع بمعنى: أعلاه، وأنكر ذلك في «المطالع» وقال: إنما قيده الأصيلي بالنصب كغيره، والضمير في قوله: «**فوقه**» للفردوس. وقال ابن التين: بل هو راجع إلى الجنة كلها. وتعقب بما في آخر الحديث هنا: «**ومنه تفجر أنهار الجنة**»؛ فإن الضمير للفردوس جزمًا، ولا يستقيم أن يكون للجنان كلها»[3].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٥)، والبخاري (١٣/ ٤٩٧-٤٩٨/ ٧٤٢٣) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٥٨٢/ ٢٥٢٩) مختصرًا.

(٣) فتح الباري (١٣/ ٥٠٩).

قال الغنيمان: «قوله: «**وفوقه عرش الرحمن**»؛ هذه الجملة هي المقصود من سياق الحديث؛ لأنه يدل على أن أعلى مخلوق هو العرش، وليس فوق العرش مخلوق ولكن الرحمن -جل وعلا- فوقه»[1].

وقال ابن خزيمة: «فالخبر يصرح أن عرش ربنا -جل وعلا- فوق جنته، وقد أعلمنا -جل وعلا- أنه مستوٍ على عرشه، فخالقنا عالٍ فوق عرشه الذي هو فوق جنته»[2].

* عن أبي ذر ﷺ قال: دخلتُ المسجدَ ورسولُ اللَّه ﷺ جالس، فلما غربت الشمس قال: «**يا أبا ذر! هل تدري أين تذهب هذه؟**» قال: قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تذهب تستأذن في السجود فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئتِ، فتطلع من مغربها، ثم قرأ: «ذلك مستقرّ لها» في قراءة عبد الله**»[3].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والمراد منه هنا إثبات أن العرش مخلوق؛ لأنه ثبت أن له فوقًا وتحتًا، وهما من صفات المخلوقات»[4].

وقال: «وأما قوله: «**تحت العرش**»؛ فقيل: هو حين محاذاتها. ولا يخالف هذا قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[5]؛ فإن المراد بها نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب، وسجودها تحت العرش إنما هو بعد الغروب. وفي الحديث رد على من زعم أن المراد بمستقرها غاية ما تنتهي إليه في الارتفاع، وذلك أطول يوم في السنة، وقيل: إلى منتهى أمرها عند انتهاء الدنيا»[6].

قال الخطابي: «وفي هذا إخبار عن سجود الشمس تحت العرش، فلا ينكَرُ أن يكون ذلك عند محاذاتها العرشَ في مسيرها. والخبر عن سجود الشمس والقمر

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٤٠٠).

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٤١).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٢)، والبخاري (١٣/ ٤٩٨/ ٧٤٢٤)، ومسلم (١/ ١٣٨/ ١٥٩)، والترمذي (٤/ ٤١٦/ ٢١٨٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩/ ١١٤٣٠).

(٤) فتح الباري (١٣/ ٥٠٩).

(٥) الكهف: الآية (٨٦).

(٦) فتح الباري (٨/ ٦٩٥).

لله ﷻ قد جاء في الكتاب؛ قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾[1] الآية. وليس في هذا إلا التصديق والتسليم، وليس في سجودها لربها تحت العرش ما يعوقها عن الدأب في سيرها والتصرف لما سخرت له.

سبحان الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، وتبارك اللَّه رب العالمين وأحسن الخالقين»[2].

قال الغنيمان: «وكونها تسجد تحت العرش؛ لا يقتضي مفارقتها لفلكها وانتظامها في مسيرها بالنسبة للأرض؛ فهي دائمة الطلوع على جزء من الأرض، والأوقات بالنسبة إلى أهل الأرض تختلف بمقدار سيرها.

ومعلوم أن تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب على مسيرها، فربما يقول قائل: أين سجودها تحت العرش؟ ومتى يكون وسيرها مستمر، وبعدها عن الأرض لا يختلف في وقت من الأوقات، كما أن سيرها لا يتغير كما هو مشاهد؟

والجواب: أنها تسجد كل ليلة تحت العرش، كما أخبر به الصادق المصدوق، وهي طالعة على جانب من الأرض، مع سيرها في فلكها، وهي دائمًا تحت العرش، في الليل والنهار، بل وكل شيء من المخلوقات تحت العرش، ولكنها في وقت من سيرها، وفي مكان معين، يحصل سجودها، الذي لا يدركه الخلق ولكن علم بالوحي، وهو سجود حقيقي يناسبها على ظاهر النص. أما التسخير فهي لا تنفك عنه أبدًا، واللَّه أعلم»[3].

* عن ابن السَّبَّاق أن زيد بن ثابت حدثه قال: «**أرسل إليّ أبو بكر فتتبعتُ القرآنَ حتى وجدت آخرَ سورة (التوبة) مع أبي خزيمة الأنصاري؛ لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[4] حتى خاتمة (براءة)**»[5].

---

(١) الحج: الآية (١٨). (٢) أعلام الحديث (٣/ ١٨٩٤).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٤٠٥).

(٤) التوبة: الآية (١٢٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٨) مختصرًا دون موضع الشاهد، والبخاري (١٣/ ٤٩٨/ ٧٤٢٥)، والترمذي (٥/ ٢٦٤-٢٦٥/ ٣١٠٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٧-٨/ ٧٩٩٥) دون ذكر آخر (التوبة).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقول عند الكرب: «**لا إله إلا اللَّه العليم الحليم، لا إله إلا اللَّه رب العرش العظيم، لا إله إلا اللَّه رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم**»[١].

★ فوائد الحديث:

قوله: «رب العرش العظيم» قال الحافظ: «أثبت أن للعرش ربًّا، فهو -أي العرش- مربوب، وكل مربوب مخلوق»[٢].

قال العيني: «قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[٣] لدفع توهم من قال: إن العرش هو الخالق الصانع. وقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ﴾ يبطل هذا القول الفاسد؛ لأنه يدل على أنه مربوب مخلوق، والمخلوق كيف يكون خالقًا؟! وقد اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم ذو قوائم؛ بدليل قوله ﷺ: «**فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش**»، وهذا صفة المخلوق؛ لدلائل قيام الحدوث به من التأليف وغيره»[٤].

وقال الذهبي: «اعلم أن اللَّه ﷻ قد أخبرنا -وهو أصدق القائلين- بأن عرش بلقيس عرش عظيم، فقال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[٥]، ثم ختم الآية بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[٦]، فكان عرشها عظيمًا بالنسبة إليها، وما نحيط الآن علمًا بتفاصيل عرشها، ولا بمقداره، ولا بماهيته. وقد أتى به بعض رعية سليمان عليه السلام إلى بين يديه قبل ارتداد طرفه، فسبحان اللَّه العظيم! فما ينكر كرامات الأولياء إلا جاهل، فهل فوق هذه كرامة؟ فيقال: إنه دعا باسم اللَّه الأعظم، فحضر في لمح البصر من اليمن إلى الشام، فما ثم إلا محض الإيمان والتصديق، ولا مجال للعقل في ذلك؛ بل آمنا وصدقنا، فهذا في شيء صغير صنعه الآدميون، وجلبه في هذه المسافة البعيدة بشر بإذن اللَّه تعالى، فما الظن بما أعدّ اللَّه تعالى من السرر

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٨٤)، والبخاري (١٣/ ٤٩٨/ ٧٤٢٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٢-٢٠٩٣/ ٢٧٣٠)، والترمذي (٥/ ٤٦١-٤٦٢/ ٣٤٣٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٥٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٨/ ٣٨٨٣).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٥١٠).

(٣) التوبة: الآية (١٢٩).

(٤) عمدة القاري (١٦/ ٦١٥).

(٥) النمل: الآية (٢٣).

(٦) النمل: الآية (٢٦).

والقصور في الجنة لعباده! . . آمنا بالغيب والله، وجزمنا بخبر الصادق، ففي الجنة قطعًا ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه، وسعته، وقوائمه، وماهيته، وحملته. . وحسنه، ورونقه، وقيمته! فقد ورد أنه من ياقوتة حمراء، ولعل مساحته مسيرة خمسمائة ألف عام، لا إله إلا هو الحليم الكريم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم، الحمد لله رب العالمين، سبحان الله وبحمده عدد خلقه، وزنة عرشه، ورضى نفسه، ومداد كلماته، ضاعت الأفكار وطاشت العقول وكلّت الألسنة عن العبارة عن بعض المخلوقات! فالله أعلى وأعظم! ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]. تبًّا لذوي العقول الخائضة، والقلوب المعطلة، والنفوس الجاحدة! فما قدروا الله حق قدره؛ والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويّات بيمينه، ﷻ عما يشركون. اللهم. . باسمك الأعظم، وكلماتك التامة، ثبت الإيمان في قلوبنا، واجعلنا هداة مهتدين، نعم ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة في فلاة، وما الكرسي في العرش العظيم إلا كحلقة في فلاة، اسمع وتعقل ما يقال لك، وتدبر ما يلقى إليك، والجأ إلى الإيمان بالغيب، فليس الخبر كالمعاينة»[2].

قال الكرماني: «ووصف العرش بالعظمة هو من جهة الكمية، وبالكرم؛ أي: الحسن؛ من جهة الكيفية، فهو ممدوح ذاتًا وصفةً. وخص بالذكر لأنه أعظم أجسام العالم، فيدخل الجميع تحته دخول الأدنى تحت الأعلى. ولفظ (الرب) من بين سائر الأسماء الحسنى ليناسب كشف الكروب الذي هو مقتضى التربية»[3].

قال عثمان بن سعيد الدارمي في معرض رده على من أنكر عرش الرحمن، قال: «وما ظننّا أنّا نضطر إلى الاحتجاج على أحد ممن يدعي الإسلام في إثبات العرش والإيمان به! حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله، فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا، وإلى الله نشكو ما أوهت هذه العصابة من عرى الإسلام، وإليه نلجأ، ويه نستعين.

---

(١) آل عمران: الآية (٥٢).

(٢) مختصر العلو (ص: ٩٩-١٠٠).

(٣) شرح صحيح البخاري (٢٢/ ١٤٩).

وقد حقق اللَّه العرش في آيٍ كثيرة من القرآن؛ فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾(٢)، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾(٣) في آيٍ كثيرة سواها.

فادعت هذه العصابة أنهم يؤمنون بالعرش ويقرّون به؛ لأنه مذكور في القرآن، فقلت لبعضهم: ما إيمانكم به إلا كإيمان ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾(٤)، وكالذين ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾(٥)، أتقرّون أن لله عرشًا معلومًا موصوفًا فوق السماء السابعة تحمله الملائكة، واللَّه فوق، كما وصف نفسه، بائن من خلقه؟ فأبى أن يقرّ به كذلك، وتردّد في الجواب، وخلط ولم يصرح.

قال أبو سعيد: فقال لي زعيم منهم كبير: لا، ولكن لما خلق اللَّه الخلق، يعني السموات والأرض وما فيهن؛ سمّى ذلك كله عرشًا له، واستوى على جميع ذلك كله.

قلت: لم تدعوا من إنكار العرش والتكذيب به غاية، وقد أحاطت بكم الحجج من حيث لا تدرون، وهو تصديق ما قلنا: إن إيمانكم به كإيمان ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾. فقد كذبكم اللَّه تعالى به في كتابه، وكذبكم به الرسول ﷺ؛ أرأيتم قولكم: إن عرشه سمواته وأرضه وجميع خلقه، فما تفسير قوله عندكم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(٦)؟ أحملة عرش اللَّه أم حملة خلقه؟ وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾(٧) أيحملون السموات والأرض ومن فيهن، أم عرش الرحمن؟ فإنكم إن قلتم قولكم هذا؛ يلزمكم أن تقولوا: عرش ربك خلق ربك أجمع، وتبطلون العرش الذي هو العرش، وهذا تفسير لا يشك أحد في بطوله واستحالته، وتكذيب بعرش الرحمن تبارك وتعالى.

---

(١) طه: الآية (٥).
(٢) الفرقان: الآية (٥٩).
(٣) الزمر: الآية (٧٥).
(٤) المائدة: الآية (٤١).
(٥) البقرة: الآية (١٤).
(٦) غافر: الآية (٧).
(٧) الحاقة: الآية (١٧).

فقال اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، وقال رسول اللَّه ﷺ: «كان اللَّه ولم يكن شيء، وكان عرشه على الماء» ففي قول اللَّه تعالى وحديث رسول اللَّه ﷺ دلالةٌ ظاهرةٌ أن العرش كان مخلوقًا على الماء إذ لا أرض ولا سماء، فلِمَ تغالطون الناس بما أنتم له منكرون؟! ولكنكم تقرّون بالعرش بألسنتكم تحرزًا من إكفار الناس إياكم بنص التنزيل، فتضرب عليه رقابكم، وعند أنفسكم أنتم به جاحدون. ولعمري لئن كان أهل الجهل في شك من أمركم؛ إن أهل العلم من أمركم لعلى يقين - أو كما قلت لهم، زاد أو نقص..

فذكر بعض الأحاديث الدالة على إثبات العرش، ثم قال:

ففي ما ذكرنا من كتاب اللَّه ﷻ، وفي هذه الأحاديث بيان بيّن أن العرش كان مخلوقًا قبل ما سواه من الخلق، وأن ما ادعى فيه هؤلاء المعطلة؛ تكذيب بالعرش، وتخرص بالباطل، ولو شئنا أن نجمع في تحقيق العرش كثيرًا من أحاديث رسول اللَّه ﷺ، وأصحابه، والتابعين؛ لجمعنا، ولكن علمنا أنه خلص علم ذلك والإيمان به إلى النساء والصبيان، إلا إلى هذه العصابة الملحدة في آيات اللَّه، طهّر اللَّه منهم بلاده، وأراح منهم عباده»[1].

قال الغنيمان: «ومما تقدم من النصوص التي ذكرها البخاري رحمه الله هنا وغيرها؛ يعلم أن اللَّه تعالى خصّ العرش من بين مخلوقاته، بأنه استوى عليه، وأنه فوق جميع المخلوقات، وأن له حملة، اليوم، ويوم القيامة، وأنه تعالى تعبد من شاء من ملائكته بأن يحفوا به، ويطوفوا به، وأن حملته ومن حوله من الملائكة يسبحون اللَّه تعالى، ويستغفرون للمؤمنين، وأنه أول المخلوقات المعلومة لنا، فقد أخبر تعالى أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

وأنه تعالى كان ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض.. كما في هذه النصوص وصف العرش بأنه عظيم، وأنه كريم، وأنه مجيد.

وكثيرًا ما يمدح اللَّه تعالى نفسه بأنه ذو العرش؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ

---

(١) الرد على الجهمية (ص: ١٢-١٦).

ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾[(٢)]، وقال -جل وعلا-: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[(٤)] إلى غير ذلك.. كما في النصوص المتقدمة أنه سقف أعلى الجنان، وهي الفردوس، وأن له قوائم، وغير ذلك مما بيّنته النصوص التي جاءت بها الرسل، وكل ذلك يدل على أن اللَّه فوق العرش مستوٍ عليه، وقد اتفق على هذا الأنبياء كلهم، وذكر في كل كتاب أنزل على كل نبي، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من جميع الطوائف، إلا من ضل الحق واتبع غير سبيل المؤمنين من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم»[(٥)].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ: قال النبي ﷺ: «**يصعقون يوم القيامة، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش**»[(٦)].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**فأكون أول من بُعث، فإذا موسى آخذٌ بالعرش**»[(٧)].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «في إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف محدث مخلوق»[(٨)].

وقال البيهقي: «وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مجسم خلقه اللَّه تعالى»[(٩)].

---

(١) الإسراء: الآيات (٤٢-٤٤). (٢) غافر: الآية (١٥).
(٣) البروج: الآيتان (١٤و١٥). (٤) التوبة: الآية (١٢٩).
(٥) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٤٣٠-٤٣١).
(٦) أخرجه: البخاري (١٣/ ٤٩٨/ ٧٤٢٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨٤٥/ ٢٣٧٣[١٦٣]).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٦)، والبخاري (٦/ ٥٥٧/ ٣٤١٤)، ومسلم (٤/ ١٨٤٣/ ٢٣٧٣)، وأبو داود (٥/ ٥٣/ ٤٦٧١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٨/ ١١٤٥٧).
(٨) فتح الباري (١٣/ ٤٩٩).
(٩) الأسماء والصفات (٢/ ٢٧٢).

قلت: وآيات العرش وأحاديثه واضحة جدًّا، فهي من المحكم الذي لا يقبل التأويل والتحريف، ولا يقبل وجوهًا في الفهم، فهو خلق من خلق اللَّه وصفه بالعظمة، وأنه سرير الملك، وأن اللَّه مستوٍ عليه استواءً يليق به، وأنه فوق المخلوقات، وما سوى ما وصفه اللَّه به أو وصفه به رسوله ﷺ من اختلاق الخرافيين ونسج القصاصين والدجالين فلا يعول عليه. وأما تأويل المتكلمة والفلاسفة فغالبه هذيان ووساوس منطلقة من الحمق والطيش والسفاهة وعدم الارتباط بالوحي والنصوص، التي هم منفصلون عنها، وكل من انفصل عنها فهو ضال مضل، ولا سيما في الأمور الغيبية التي لا مدخل للرأي فيها وليس فيها دليل صحيح وارد عن المعصوم. اللهم اهدنا لأحسن الطرق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت.

وأما الاستواء فقد تقدم الكلام عليه في سورة (الأعراف) عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الآية (٥٤).

* * *

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4].

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملًا؛ بل أحسن عملًا، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله ﷻ على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين بطل وحبط»[5].

وقال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما بيّن أنه خلق هذا العالم لأجل ابتلاء المكلفين وامتحانهم؛ فهذا يوجب القطع بحصول الحشر والنشر؛ لأن الابتلاء والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة والثواب، وتخصيص المسيء بالعقاب؛ وذلك لا يتم إلا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة، فعند هذا خاطب محمدًا -عليه الصلاة والسلام- وقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[6]، ومعناه أنهم ينكرون هذا الكلام، ويحكمون بفساد القول بالبعث»[7].

---

(١) هود: الآية (٧).
(٢) ص: الآية (٢٧).
(٣) المؤمنون: الآيتان (١١٥و١١٦).
(٤) الذاريات: الآية (٥٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤١).
(٦) هود: الآية (٧).
(٧) التفسير الكبير (١٧/ ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولئن أخبرت -يا محمد- هؤلاء المشركين أن اللَّه سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن اللَّه تعالى هو الذي خلق السموات والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٢]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٣]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[٥].

وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يقولون كفرًا وعنادًا: ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول»[٦].

وقال ابن عاشور: «ووجه جعلهم هذا القول سحرًا أن في معتقداتهم وخرافاتهم أنّ من وسائل السحر الأقوال المستحيلة والتكاذيب البهتانيّة، والمعنى أنّهم يكذّبون بالبعث كلّما أخبروا به، لا يترددون في عدم إمكان حصوله، بله إيمانهم به»[٧].

وقال الرازي: «فإن قيل: الذي يمكن وصفه بأنه سحر ما يكون فعلًا مخصوصًا، وكيف يمكن وصف هذا القول بأنه سحر؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه: الأول: قال القفال: معناه أن هذا القول خديعة

(١) هود: الآية (٧).
(٢) الزخرف: الآية (٨٧).
(٣) العنكبوت: الآية (٦١).
(٤) الروم: الآية (٢٧).
(٥) لقمان: الآية (٢٨).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤١-٢٤٢).
(٧) التحرير والتنوير (١٢/ ٩).

منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا، وإحرازًا لهم إلى الانقياد لكم، والدخول تحت طاعتكم.

الثاني: أن معنى قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هو أن السحر أمر باطل؛ قال تعالى حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾[1]؛ فقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: باطل مبين.

الثالث: أن القرآن هو الحاكم بحصول البعث، وطعنوا في القرآن بكونه سحرًا؛ لأن الطعن في الأصل يفيد الطعن في الفرع.

الرابع: قرأ حمزة والكسائي: «إن هذا إلا ساحر»؛ يريدون النبي ﷺ، والساحر كاذب»[2].

* * *

(١) يونس: الآية (٨١).

(٢) التفسير الكبير (١٧/ ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود، وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة؛ ليقولُنّ -تكذيبًا واستعجالًا-: ما يحبسه؟ أي: يؤخّر هذا العذاب عنّا؛ فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

و(الأمّة) تستعمل في القرآن والسنة في معانٍ متعددة؛ فيراد بها الأمد؛ كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾، وقوله في (يوسف): ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[1]، وتستعمل في الإمام المقتدى به؛ كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]، وتستعمل في الملة والدين؛ كقوله إخبارًا عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[3]، وتستعمل في الجماعة كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[6]. والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم؛ كما في صحيح مسلم: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**»[7]. وأما أمة الأتباع؛ فهم

---

(١) يوسف: الآية (٤٥).
(٢) النحل: الآية (١٢٠).
(٣) الزخرف: الآية (٢٣).
(٤) القصص: الآية (٢٣).
(٥) النحل: الآية (٣٦).
(٦) يونس: الآية (٤٧).
(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣١٧)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣).

المصدقون للرسل؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[١]، وفي الصحيح: «فأقول: أمتي أمتي»[٢]. وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[٤]»[٥].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يكذبون الرسول ﷺ بقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فحكى عنهم في هذه الآية نوعًا آخر من أباطيلهم، وهو أنه متى تأخر عنهم العذاب الذي توعدهم الرسول ﷺ به؛ أخذوا في الاستهزاء ويقولون: ما السبب الذي حبسه عنا؟

فأجاب اللَّه تعالى بأنه إذا جاء الوقت الذي عينه اللَّه لنزول ذلك العذاب الذي كانوا يستهزئون به؛ لم ينصرف ذلك العذاب عنهم، وأحاط بهم ذلك العذاب.

بقي ههنا سؤالات:

السؤال الأول: المراد من هذا العذاب هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة؟

الجواب: للمفسرين فيه وجوه: الأول: قال الحسن: معنى حكم اللَّه في هذه الآية: أنه لا يعذب أحدًا منهم بعذاب الاستئصال، وأخر ذلك إلى يوم القيامة، فلما أخر اللَّه عنهم ذلك العذاب قالوا على سبيل الاستهزاء: ما الذي حبسه عنا؟

والثاني: أن المراد الأمر بالجهاد وما نزل بهم يوم بدر، وعلى هذا الوجه تأولوا قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل بهم هذا العذاب يوم بدر.

السؤال الثاني: ما المراد بقوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾؟

الجواب من وجهين: الأول: أن الأصل في (الأمة) هم الناس والفرقة، فإذا قلت: جاءني أمة من الناس؛ فالمراد: طائفة مجتمعة؛ قال تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[٧]؛ أي: بعد انقضاء أمة

---

(١) آل عمران: الآية (١١٠).

(٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: أحمد (٣/ ١٤٤)، والبخاري (١٣/ ٥٧٨-٥٨٠/ ٧٥٠٩)، ومسلم (١/ ١٨٠/ ١٩٣).

(٣) الأعراف: الآية (١٥٩).

(٤) آل عمران: الآية (١١٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤٢).

(٦) القصص: الآية (٢٣).

(٧) يوسف: الآية (٤٥).

وفنائها، فكذا ههنا قوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾؛ أي: إلى حين تنقضي أمة من الناس انقرضت بعد هذا الوعيد بالقول؛ لقالوا: ماذا يحبسه عنا وقد انقرض من الناس الذين كانوا متوعدين بهذا الوعيد؟ وتسمية الشيء باسم ما يحصل فيه كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر؛ أي: في ذلك الحين.

الثاني: أن اشتقاق الأمة من الأَمّ، وهو القصد، كأنه يعني الوقت المقصود بإيقاع هذا الموعد فيه.

السؤال الثالث: لم قال: ﴿وَحَاقَ﴾ على لفظ الماضي مع أن ذلك لم يقع؟

والجواب: قد مرّ في هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس، والضابط فيها أنه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضي مبالغة في التأكيد والتقرير»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٧/١٩٦-١٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾

★ **غريب الآية:**

أذقنا: أصل الذوق: تناول الشيء بالفم لمعرفة طعمه. والمعنى: أوصلنا.

نزعناها: أزلناها. وأصل النزع: قَلْعُ الشيء عن مكانه.

يؤوس: أي كثير اليأس. واليأس: انتفاء الطمع. يقال: يَئِسَ واسْتَيْأَسَ: إذا قطع طمعه من الشيء. خلافه: الرجاء.

نعماء: النعماء: الإنعام الذي يظهر أثره على صاحبه.

ضرّاء: الضرّاء: الضر. خلافها: السراء والنعماء.

فَرِحٌ: أي كثير الفرح، وهو انشراح الصدر، نظيره السرور.

فخور: أي كثير الفخر، وهو المباهاة بتعديد المناقب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم اللَّه من عباده المؤمنين؛ فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيرًا، ولم يَرْجُ بعد تلك فرجًا. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾؛ أي: يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: فرح بما في يده، بطر فخور على غيره. قال اللَّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾؛ أي: في الشدائد والمكاره، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: في الرخاء والعافية، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم

﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء؛ كما جاء في الحديث: «**والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم، ولا نصب ولا وصب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر اللَّه عنه بها من خطاياه**»[1]، وفي الصحيحين: «**والذي نفسي بيده لا يقضي اللَّه للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له: إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن**»[2]، وهكذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾[4].. الآية»[5].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر أن عذاب أولئك الكفار وإن تأخر إلا أنه لا بد وأن يحيق بهم؛ ذكر بعده ما يدل على كفرهم، وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لفظ (الإنسان) في هذه الآية فيه قولان:

القول الأول: أن المراد منه مطلق الإنسان؛ ويدل عليه وجوه: الأول: أنه تعالى استثنى منه قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل، فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر، وذلك يدل على ما قلناه.

الثاني: أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وموافقة أيضًا لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾.

الثالث: أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز. قال ابن جريج في تفسير هذه الآية: يا ابن آدم! إذا نزلت بك نعمة من اللَّه فأنت كفور، فإذا نزعت منك

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩). وسيأتي بنحوه في أحاديث الباب من حديث صهيب ﷺ.

(٣) سورة (العصر).

(٤) المعارج: الآيات (١٩-٢١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤٣).

فيؤوس قنوط.

والقول الثاني: أن المراد منه الكافر؛ ويدل عليه وجوه: الأول: أن الأصل في المفرد المحلى بالألف واللام أن يحمل على المعهود السابق لولا المانع، وههنا لا مانع، فوجب حمله عليه، والمعهود السابق هو الكافر المذكور في الآية المتقدمة.

الثاني: أن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر؛ لأنه وصفه بكونه يؤوسًا، وذلك من صفات الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، ووصفه أيضًا بكونه كفورًا، وهو تصريح بالكفر، ووصفه أيضًا بأنه عند وجدان الراحة يقول: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾؛ وذلك جراءة على الله تعالى، ووصفه أيضًا بكونه فرحًا، والله ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[2]، ووصفه أيضًا بكونه فخورًا، وذلك ليس من صفات أهل الدين. ثم قال الناظرون لهذا القول: وجب أن يحمل الاستثناء المذكور في هذه الآية على الاستثناء المنقطع حتى لا تلزمنا هذه المحذورات.

المسألة الثانية: لفظ الإذاقة والذوق يفيد أقل ما يوجد به الطعم، فكان المراد أن الإنسان بوجدان أقل القليل من الخيرات العاجلة يقع في التمرد والطغيان، وبإدراك أقل القليل من المحنة والبلية يقع في اليأس والقنوط والكفران، فالدنيا في نفسها قليلة، والحاصل منها للإنسان الواحد قليل، والإذاقة من ذلك المقدار خير قليل، ثم إنه في سرعة الزوال يشبه أحلام النائمين وخيالات الموسوسين، فهذه الإذاقة قليل من قليل، ومع ذلك فإن الإنسان لا طاقة له بتحملها، ولا صبر له على الإتيان بالطريق الحسن معها. وأما النعماء فقال الواحدي: إنها إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضراء مضرة يظهر أثرها على صاحبها؛ لأنها خرجت مخرج الأحوال الظاهرة؛ نحو: حمراء وعوراء؛ وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء، والمضرة والضراء.

المسألة الثالثة: اعلم أن أحوال الدنيا غير باقية؛ بل هي أبدًا في التغير

---

(١) يوسف: الآية (٨٧).

(٢) القصص: الآية (٧٦).

والزوال، والتحول والانتقال؛ إلا أن الضابط فيه أنه إما أن يتحول من النعمة إلى المحنة، ومن اللذات إلى الآفات، وإما أن يكون بالعكس من ذلك، وهو أن ينتقل من المكروه إلى المحبوب، ومن المحرمات إلى الطيبات.

أما القسم الأول: فهو المراد من قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾، وحاصل الكلام أنه تعالى حكم على هذا الإنسان بأنه يؤوس كفور. وتقريره أن يقال: إنه حال زوال تلك النعمة يصير يؤوسًا؛ وذلك لأن الكافر يعتقد أن السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي، ثم إنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى، فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس. وأما المسلم الذي يعتقد أن تلك النعمة إنما حصلت من اللَّه تعالى وفضله وإحسانه وطوله؛ فإنه لا يحصل له اليأس؛ بل يقول: لعله تعالى يردها إلي بعد ذلك أكمل وأحسن وأفضل مما كانت. وأما حال كون تلك النعمة حاصلة فإنه يكون كفورًا؛ لأنه لما اعتقد أن حصولها إنما كان على سبيل الاتفاق، أو بسبب أن الإنسان حصلها بسبب جده وجهده؛ فحينئذ لا يشتغل بشكر اللَّه تعالى على تلك النعمة. فالحاصل أن الكافر يكون عند زوال تلك النعمة يؤوسًا، وعند حصولها يكون كفورًا.

وأما القسم الثاني: وهو أن ينتقل الإنسان من المكروه إلى المحبوب، ومن المحنة إلى النعمة؛ فههنا الكافر يكون فرحًا فخورًا. أما قوة الفرح فلأن منتهى طمع الكافر هو الفوز بهذه السعادات الدنيوية، وهو منكر للسعادات الأخروية الروحانية، فإذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات، فلا جرم يعظم فرحه بها. وأما كونه فخورًا فلأنه لما كان الفوز بسائر المطلوب نهاية السعادة لا جرم يفتخر به. فحاصل الكلام أنه تعالى بين أن الكافر عند البلاء لا يكون من الصابرين، وعند الفوز بالنعماء لا يكون من الشاكرين. ثم لما قرر ذلك قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، والمراد منه ضد ما تقدم، فقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ المراد منه أن يكون عند البلاء من الصابرين، وقوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ المراد منه أن يكون عند الراحة والخير من الشاكرين. ثم بين حالهم فقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، فجمع لهم بين هذين المطلوبين؛ أحدهما: زوال العقاب والخلاص منه، وهو المراد من قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، والثاني: الفوز بالثواب، وهو المراد

من قوله: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. ومن وقف على هذا التفصيل الذي ذكرناه؛ علم أن هذا الكتاب الكريم كما أنه معجز بحسب ألفاظه فهو أيضًا معجز بحسب معانيه»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حال المؤمن مع السراء والضراء

* عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيرًا له**»(٢).

* عن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ما يصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا همّ ولا حَزَن ولا أذىً ولا غمّ -حتى الشوكةِ يُشاكها- إلا كفّر اللهُ بها من خطاياه**»(٣).

★ **غريب الحديث:**

النصب: التعب والمشقة.

الوصب: المرض، ومنه: وصب الرجل يوصب، فهو وَصِب، وأوصبه اللَّه فهو موصَب.

الهم: الحزن. والجمع: هموم. وأهمّني الأمرُ: إذا أقلقني وحزنني.

★ **فوائد الحديثين:**

قال أبو العباس القرطبي: «ومقصود هذه الأحاديث: أن الأمراض والأحزان -وإن دقّت- والمصائب -وإن قلّت- أُجِر المؤمن على جميعها، وكفرت عنه بذلك خطاياه حتى يمشي على الأرض وليست له خطيئة -كما جاء في الحديث الآخر(٤)- لكن هذا كله إذا صبر المصاب واحتسب، وقال ما أمر اللَّه تعالى به في قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾(٥) فمن كان كذلك؛ وصل إلى ما وعد

---

(١) التفسير الكبير (١٧/ ١٩٨-٢٠٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٣٢و٣٣٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩) واللفظ له.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، والبخاري (١٠/ ١٢٧/ ٥٦٤١-٥٦٤٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٩٢-١٩٩٣/ ٢٥٧٣).

(٤) أحمد (١/ ١٧٢)، وصححه ابن حبان (٧/ ١٦٠-١٦١/ ٢٩٠٠)، والحاكم (١/ ٤١).

(٥) البقرة: الآية (١٥٦).

اللَّه به ورسولُه من ذلك»[١].

وقال النووي: «في هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين؛ فإنه قلما ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصايب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها، وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور وزيادة الحسنات، وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء، وحكى القاضي عن بعضهم أنها تكفر الخطايا فقط ولا ترفع درجة ولا تكتب حسنة، قال: وروي نحوه عن ابن مسعود قال: «**الوجع لا يكتب به أجر، لكن تكفر به الخطايا فقط**»، واعتمد على الأحاديث التي فيها تكفير الخطايا، ولم تبلغه الأحاديث التي ذكرها مسلم المصرحة برفع الدرجات، وكتب الحسنات»[٢].

وقال القرطبي: «قوله: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير**» المؤمن هنا: هو العالم باللَّه، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده؛ وذلك أن المؤمن المذكور إما أن يُبتلى بما يضره أو بما يسره؛ فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني عرف نعمة اللَّه عليه ومنّته فيها فشكرها، وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: «**وليس ذلك إلا للمؤمن**» أي: المؤمن الموصوف بما ذكرتُه؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة ولم يحتسبها؛ بل يتضجر ويتسخط، فينضاف إلى مصيبته الدنيوية مصيبتُه في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها، ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة، والحسنة سيئة -نعوذ باللَّه من ذلك-»[٣].

قال ابن القيم: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.. ولهذا جمع اللَّه سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٤] في سورة (إبراهيم)، وفي سورة (حم عسق) الآيات، وفي سورة (سبإ)، وفي سورة (لقمان)، وقد ذُكر لهذا التنصيف اعتباراتٌ:

أحدها: إن (الإيمان) اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى

---

(١) المفهم (٦/ ٥٤٦).
(٢) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٠٥).
(٣) المفهم (٦/ ٦٣٠).
(٤) إبراهيم: الآية (٥).

شطرين: فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة اللَّه، وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين: فعل المأمور، وترك المحظور.

الاعتبار الثاني: إن الإيمان مبني على ركنين: يقين، وصبر. وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[١]؛ فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وبالصبر ينفّذ ما أُمِر به، ويكفّ نفسه عما نُهِيَ عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهي أنه من عند اللَّه، وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكفّ النفس عن المحظور إلا بالصبر، فصار الصبر نصف الإيمان، والنصف الثاني الشكر، بفعل ما أُمر به، وترك ما نُهي عنه.

الاعتبار الثالث: إن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح. وبيان ذلك أن من عرف اللَّه بقلبه، ولم يقرّ بلسانه لم يكن مؤمنًا؛ كما قال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[٢]، وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[٣]، وقال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[٤]. فهؤلاء حصل لهم قول القلب، وهو: المعرفة والعلم، ولم يكونوا بذلك مؤمنين، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمنًا؛ بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقرّ بلسانه؛ لم يكن بمجرد ذلك مؤمنًا حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض، والموالاة والمعاداة؛ فيحب اللَّه ورسوله، ويوالي أولياء اللَّه ويعادي أعداءه، ويستسلم بقلبه لله وحده، وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته، والتزام شريعته ظاهرًا وباطنًا، وإذا فعل ذلك لم يكفِ في كمال إيمانه حتى يفعل ما أُمر به؛ فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه، وهي ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كفُّ النفس الذي هو متعلّق النهي، وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر، فصار الإيمان نصفين؛ أحدهما: الصبر، والثاني: متولد عنه

(١) السجدة: الآية (٢٤).
(٢) النمل: الآية (١٤).
(٣) العنكبوت: الآية (٣٨).
(٤) الإسراء: الآية (١٠٢).

من العلم والعمل.

الاعتبار الرابع: إن النفس لها قوتان: قوة الإقدام، وقوة الإحجام، وهي دائمًا تتردد بين أحكام هاتين القوتين، فتُقدِم على ما تحبه، وتُحجِم عما تكرهه، والدين كله إقدام وإحجام: إقدام على طاعة، وإحجام عن معاصي اللَّه، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

الاعتبار الخامس: إن الدين كله رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1]، وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في صحيحه: «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة**»[2]، فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا وراهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبتُه تحملُه على الصبر، ورغبتُه تقودُه إلى الشكر.

الاعتبار السادس: إن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان، ففعلُ ما ينفعه هو الشكر، وتركُ ما يضره هو الصبر.

الاعتبار السابع: إن العبد لا ينفك عن أمر يفعله، ونهي يتركه، وقَدَر يجري عليه، وفرضُه في الثلاثة الصبر والشكر؛ ففعلُ المأمور هو الشكر، وتركُ المحظور والصبرُ على المقدور هو الصبر.

الاعتبار الثامن: إن للعبد فيه داعيان: داعٍ يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداعٍ يدعوه إلى اللَّه والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم، فعصيانُ داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابةُ داعي اللَّه والدار الآخرة هو الشكر.

الاعتبار التاسع: إن الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك**

---

(١) الأنبياء: الآية (٩٠).

(٢) أخرجه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٢٨٥)، والبخاري (١١/ ١٣٦/ ٦٣١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١-٢٠٨٢/ ٢٧١٠)، والترمذي (٥/ ٤٣٧/ ٣٣٩٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٩٣/ ١٠٦١١).

الثبات في الأمر، والعزيمة على الرُّشد»[١]. وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أُيِّدَ العبد بعزيمة وثبات؛ فقد أُيِّد بالمعونة والتوفيق.

الاعتبار العاشر: إن الدين مبني على أصلين: الحق والصبر، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[٢]. ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر؛ لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان، والله ﷻ أعلم»[٣].

* * *

(١) أخرجه من حديث شداد بن أوس ﷺ: أحمد (٤/ ١٢٥)، والنسائي (٣/ ٦١/ ١٣٠٣)، وصححه ابن حبان (الإحسان) (٣/ ٢١٥-٢١٦/ ٩٣٥)، والحاكم (١/ ٥٠٨) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٢) العصر: الآية (٣).

(٣) عدة الصابرين (ص: ١٧٦-١٨٠).

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

★ غريب الآية:

ضائق: وضيق، بمعنى واحد. والضيق: ضد السعة.

كنز: الكنز: المال المدفون. سمي بذلك لاجتماعه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مسلّيًا لرسوله ﷺ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول -كما أخبر تعالى عنهم-: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[1]، فأمر اللَّه تعالى رسوله -صلوات اللَّه تعالى وسلامه عليه- وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدرُهُ، ولا يهيدنّه ذلك، ولا يثنينّه عن دعائهم إلى اللَّه ﷻ آناء الليل وأطراف النهار؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[2]، وقال ههنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ﴾؛ أي: لقولهم ذلك؛ فـ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك؛ فإنهم كُذِّبوا وأوذوا، فصبروا حتى أتاهم نصر اللَّه ﷻ»[3].

* * *

(١) الفرقان: الآيتان (٧و٨).

(٢) الحجر: الآيات (٩٧-٩٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤٣-٢٤٤).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

افتراه: أي اختلقه. والافتراء: أقبح الكذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: كفاك حجةً على حقيقة ما أتيتهم به، ودلالةً على صحّة نبوّتك هذا القرآن من سائر الآيات غيره إذا كانت الآيات إنما تكون لمن أعطيها دلالة على صدقه، لعجز جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها، وهذا القرآن جميع الخلق عجزت عن أن يأتوا بمثله، فإن هم قالوا: افتريتَهُ؛ أي: اختلقتَهُ وتكذّبتَه، ودلّ على أن معنى الكلام ما ذكرنا قوله: . . ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إلى آخر الآية. ويعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: أيقولون افتراه؟. وقد دللنا على سبب إدخال العرب (أَمْ) في مثل هذا الموضع؛ فقل لهم يأتوا ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ مثل هذا القرآن ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾، يعني: مفتعلات مختلفات، إن كان ما أتيتكم به من هذا القرآن مفترى، وليس بآية معجزة كسائر ما سُئلته من الآيات، كالكنز الذي قلتم: هلا أنزل عليه؟ أو الملَك الذي قلتم: هلا جاء معه نذيرًا له مصدّقًا؟ فإنكم قومي وأنتم من أهل لساني، وأنا رجل منكم، ومحال أن أقدر أخلق وحدي مائة سورة وأربع عشرة سورة، ولا تقدروا بأجمعكم أن تفتروا وتختلقوا عشر سور مثلها، ولا سيما إذا استعنتم في ذلك بمن شئتم من الخلق. يقول -جل ثناؤه-: قل لهم: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ أن تدعوهم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، يعني سوى الله؛ لافتراء ذلك واختلاقه من الآلهة، فإن أنتم لم تقدروا على أن تفتروا عشر سور مثله؛ فقد تبين لكم أنكم كَذَبة في قولكم: ﴿افْتَرَاهُ﴾، وصحت عندكم حقيقة ما أتيتكم به أنه من عند اللَّه، ولم يكن لكم أن تتخيروا الآيات على ربكم، وقد جاءكم من الحجة على حقيقة ما تكذّبون به أنه من عند اللَّه مثل الذي

تسألون من الحجة، وترغبون أنكم تصدقون بمجيئها»[١].

قلت: وقد عجز العرب الأقحاح ذوو الفصاحة والبلاغة عن هذا التحدي، وقد مضت قرون والتحدي قائم، والعجز مستمر. قال ابن تيمية: «فإن عجز أولئك عن المعارضة؛ دل على عجز غيرهم بطريق الأولى، وتبين أن جميع الخلق عاجزون عن معارضته، وأنه آية بينة تدل على الرسالة وعلى التوحيد»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (١٢/ ٩-١٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٦٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤﴾

★ غريب الآية:

يستجيبوا: يقبلوا ويذعنوا لما أمرتم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: فإن لم يستجب لكم من تدعون من دون اللّه إلى أن يأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مفتريات، ولم تطيقوا أنتم وهم أن تأتوا بذلك؛ فاعلموا وأيقنوا أنه إنما أُنزل من السماء على محمد ﷺ بعلم اللّه وإذنه، وأن محمدًا لم يفتره، ولا يقدر أن يفتريه، ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: وأيقنوا أيضًا أن لا معبود يستحق الألوهة على الخلق إلا اللّه الذي له الخلق والأمر، فاخلعوا الأنداد والآلهة، وأفردوا له العبادة. وقد قيل: إن قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾؛ خطاب من اللّه لنبيه، كأنه قال: فإن لم يستجب لك هؤلاء الكفار يا محمد؛ فاعلموا أيها المشركون أنما أُنزل بعلم اللّه. وذلك تأويل بعيد من المفهوم. وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: يقول: فهل أنتم مذعنون لله بالطاعة، ومخلصون له العبادة بعد ثبوت الحجة عليكم؟»[1].

وقال الخازن: «اعلم أنه لما اشتملت الآية المتقدمة على أمرين وخطابين؛ أحدهما: أمر وخطاب للنبي ﷺ، وهو قوله ﷻ: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾، والثاني: أمر وخطاب للكفار، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ثم أتبعه بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾؛ احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا في المعارضة لعجزهم عنها، واحتمل أن يكون المراد أن من يدعون من دون اللّه لم يستجيبوا للكفار في المعارضة؛ فلهذا السبب اختلف

(١) جامع البيان (١٢/ ١٠).

المفسرون في معنى الآية على قولين: أحدهما: أنه خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين؛ وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين معه كانوا يتحدون الكفار بالمعارضة ليتبين عجزهم، فلما عجزوا عن المعارضة قال الله ﷻ لنبيه والمؤمنين: فإن لم يستجيبوا لكم فيما دعوتموهم إليه من المعارضة وعجزوا عنه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾، يعني: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقينًا وثباتًا؛ لأنهم كانوا عالمين بأنه منزل من عند اللَّه. وقيل: الخطاب في قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ للنبي ﷺ وحده؛ وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيمًا له ﷺ.

القول الثاني: أن قوله ﷻ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ خطاب مع الكفار؛ وذلك أنه ﷻ لما قال في الآية المتقدمة: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ قال اللَّه ﷿ في هذه الآية: فإن لم يستجيبوا لكم أيها الكفار ولم يعينوكم؛ فاعلموا أنما أنزل بعلم اللَّه، وأنه ليس مفترىً على الله؛ بل هو أنزله على رسوله ﷺ، ﴿وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: الذي أنزل القرآن هو اللَّه الذي لا إله إلا هو، لا من تدعون من دونه، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فيه معنى الأمر؛ أي: أسلموا وأخلصوا لله العبادة. وإن حملنا معنى الآية على أنه خطاب مع المؤمنين؛ كان معنى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الترغيب؛ أي: دوموا على ما أنتم عليه من الإسلام»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «والوجه الأول أظهر وأقوى، وعليه الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري، وأشار إلى ضعف الثاني، ولكن رجحه كثيرون، والحق أنه صحيح ولكنه خلاف الظاهر المتبادر»[٢].

* * *

---

(١) تفسير الخازن (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) تفسير المنار (١٢/ ٤٧).

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

★ **غريب الآية:**

زينتها: أي: زخرفها من مال وقوة وجاه.

نوفِّ إليهم: أي: نؤدِّ إليهم حقَّهم بتمام.

يُبْخَسون: البخس: النقص من الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «قد أشكل فهمُ هذه الآية على كثير من الناس حيث فهموا منها: أن من كان له إرادة في الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد، ثم اختلفوا في معناها:

فقالت طائفة -منهم ابن عباس-: من كان يريد تعجيلَ الدنيا فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب. قالوا: والآية في الكفار خاصة على قول ابن عباس. وقال قتادة: من كانت الدنيا همّه وسَدمَه[1] ونيته وطلبه؛ جازاه اللَّه في الدنيا بحسناته، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن فيجزى في الدنيا بحسناته ويثاب عليها في الآخرة.

قال هؤلاء: فالآية في الكفار؛ بدليل قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قالوا: والمؤمن يريد الدنيا والآخرة؛ فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح عنه: نزلت في أهل القبلة.

قال مجاهد: هم أهلُ الرياء.

---

(١) السدم: قال في العين: همٌّ في ندم، وفي المحيط: هو اللهج بالشيء أيضًا.

وقال الضحاك: من عمل صالحًا من أهل الإيمان من غير تقوى؛ عُجِّل له ثوابُ عمله في الدنيا.

واختار الفراء هذا القول، وقال: من أراد بعمله من أهل القبلة ثوابَ الدنيا؛ عُجِّل له ثوابه ولم يُبْخَس.

وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها؛ وهذا لا يكون مؤمنًا ألبتة؛ فإن العاصي والفاسق ولو بالغًا في المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله، فيريدان بأعمال البر وجهَ اللَّه وإن عملا بمعصيته.

فأما من لم يُرِد بعمله وجه اللَّه، إنما أراد به الدنيا وزينتها؛ فهذا لا يدخل في دائرة أهل الإيمان، وهذا هو الذي فهمَهُ معاوية من الآية، واستشهد بها على حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه في الثلاثة الذين هم أوّل من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة: القارئ الذي قرأ القرآن ليقال: فلان قارئ، والمتصدق الذي أنفق أمواله ليقال: فلان جواد، والغازي الذي قُتل في الجهاد ليقال: هو جريء[1]. وكما أن خيار خلق اللَّه هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فشرار الخلق من تشبّه بهم وليس منهم؛ فمن تشبّه بأهل الصدق والإخلاص وهو مُراءٍ كمن تشبّه بالأنبياء وهو كاذب.. وقال ابن الأنباري: فعلى هذا القول المعنى في قوم من أهل الإسلام يعملون العمل الحسن لتستقيم به دنياهم غير متفكرين في الآخرة وما ينقلبون إليه، فهؤلاء يعجَّل لهم جزاءُ حسناتهم في الدنيا، فإذا جاءت الآخرة كان جزاؤهم عليها النار إذا لم يريدوا بها وجه اللَّه، ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره. ثم أورد أصحاب هذا القول على أنفسهم سؤالًا قالوا: فإن قيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليدَ المؤمن المريد بعمله الدنيا في النار.

وأجابوا عنه: بأن ظاهر الآية يدل على أن من راءى بعمله ولم يلتمس به ثواب الآخرة، بل كانت نيته الدنيا؛ فإن اللَّه يبطلُ إيمانه عند الموافاة، فلا يوافي ربَّه

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٢)، ومسلم (٣/ ١٥١٣-١٥١٤/ ١٩٠٥)، والنسائي (٦/ ٣٣١-٣٣٢/ ٣١٣٧)، وبلفظ أطول: الترمذي (٤/ ٥١٠-٥١٢/ ٢٣٨٢) وقال: «حسن غريب»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ١٣٥-١٣٧/ ٤٠٨).

بالإيمان؛ قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وهذا يتناول أصلَ الإيمان وفروعه. وأجابت فرقةٌ أخرى: بأن الآية لا تقتضي الخلود الأبدي في النار، وإنما تقتضي أن الذي يستحقونه في الآخرة النار، وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كان مع أحدهم عمود التوحيد؛ فإنه يخرج به من النار مع من يخرج من أصحاب الكبائر الموحّدين، وهذا هو جواب ابن الأنباري وغيره. والآية بحمد اللّه لا إشكال فيها، واللّه سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل؛ لم يبق معه ما ينجيه، فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها، بل أراد اللهَ به والدار الآخرة؛ لم يدخل هذا الإيمانُ في العمل الذي حبط وبطل، وأنجاه إيمانُهُ من الخلود في النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذي به النجاة المطلقة.

والإيمان إيمانان: إيمانٌ يمنع من دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله يُبتغى بها وجهه وثوابه. وإيمانٌ يمنع الخلودَ في النار، وإن كان مع المرائي شيء منه وإلا كان من أهل الخلود؛ فالآية لها حكمُ نظائرها من آيات الوعيد، واللّه الموفق.

وذلك قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[١]، ومنه قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٢]. فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضُها بعضًا، ويصدق بعضُها بعضًا، وتجتمع على معنىً واحد، وهو: أن من كانت الدنيا مرادَهُ، ولها يعمل في غاية سعيه؛ لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن كانت الآخرة مراده، ولها يعمل، وهي غاية سعيه؛ فهي له. بقي أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة؛ فإنه داخلٌ تحت حكم الإرادتين، فبأيّهما يلحق؟

قيل: من ههنا نشأ الإشكال، وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر؛ فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة، وهذا غير لازم طردًا ولا عكسًا؛ فإن

---

(١) الشورى: الآية (٢٠).

(٢) الإسراء: الآيتان (١٨و١٩).

بعض الكفار قد يريد الآخرة، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا، واللَّه تعالى قد علّق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا؛ فإذا تجرّدت الإرادتان تجرّد موجبُها ومقتضاها، وإن اجتمعتا فحكمُ اجتماعهما حكمُ اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية، والإيمان والشرك في العبد، وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[1]، وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ولم يكن فيهم منافق؛ ولهذا قال عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «ما شعرتُ أن أحد أصحاب رسول اللَّه ﷺ يريد الدنيا حتى كان يومُ أحدٍ ونزلت هذه الآية»، والذين أُريدوا في هذه الآية هم الذين أَخْلَوا مركزَهم الذي أمرهم رسول اللَّه ﷺ بحفظه وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز والإقبال على كسب الغنائم، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها، فهذه الإرادة لون، وإرادة هؤلاء لون. وههنا أمر يجب التنبيه له؛ وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الإيمان باللَّه ورسوله ولقائه أبدًا؛ فإن الإيمان باللَّه والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد لرحمة اللَّه والدار الآخرة بأعماله، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبدًا وإن جامع الإقرار والعلم، فالإيمان وراء ذلك، والإقرار والمعرفة حاصلان لمن شهد اللَّه سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة؛ كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول اللَّه ﷺ وعرفوه كما عرفوا أبناءهم وهم من أكفر الخلق، فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال قد تجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذي هو وراء ذلك لا بدّ أن يريد صاحبُه بأعماله اللهَ والدارَ الآخرة، واللَّه المستعان»[2].

ونقل ابن جرير عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: «هي مثل الآية التي في (الروم): ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[3]»[4].

وفي الآية مسألة أخرى متعلقة بالإرادة المقترنة بالعمل وترتيب الثواب والعقاب عليها. وقد بينها شيخ الإسلام ابن تيمية قال: «إن اللَّه سبحانه في القرآن رتب الثواب

---

(١) آل عمران: الآية (١٥٢).

(٢) عدة الصابرين (ص: ٢٧٠-٢٧٥).

(٣) الروم: الآية (٣٩).

(٤) جامع البيان (١٢/ ١١).

والعقاب على مجرد الإرادة؛ كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[١]، وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾، وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[٢]. فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة، ويريد الحياة الدنيا، ويريد حرث الدنيا، وقال في آية (هود): ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ -إلى أن قال- ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت، وعوقبوا على أعمال أخرى عملوها، وإن الإرادة هنا مستلزمة للعمل، ولما ذكر إرادة الآخرة قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[٣]؛ وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها فالثواب إنما هو على العمل المأمور به، لا كل سعي، ولا بد مع ذلك من الإيمان. ومنه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾[٤] الآية، ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[٥]، فهذا نظير تلك الآية التي في سورة (هود)، وهذا يطابق قوله: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما»[٦] إلا أنه قال: «فإنه أراد قتل صاحبه» أو «أنه كان حريصًا على قتل صاحبه»، فذكر الحرص والإرادة على القتل، وهذا لا بد أن يقترن به فعل، وليس هذا مما دخل في حديث العفو: «إن الله عفا لأمتي عما حدثت به أنفسها»[٧]. ومما يبنى على هذا مسألة معروفة بين أهل السنة وأكثر العلماء وبين بعض القدرية؛ وهي: توبة العاجز عن الفعل؛ كتوبة المجبوب عن الزنا، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة، ونحوه من العجز؛ فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم، وخالف في ذلك بعض القدرية؛ بناءً على

---

(١) الإسراء: الآية (١٨).
(٢) الشورى: الآية (٢٠).
(٣) الإسراء: الآية (١٩).
(٤) الأحزاب: الآية (٢٨).
(٥) الأحزاب: الآية (٢٩).
(٦) أخرجه من حديث أبي بكرة ﷺ: أحمد (٥/ ٤٣)، والبخاري (١/ ١١٥/ ٣١)، ومسلم (٤/ ٢٢١٣-٢٢١٤/ ٢٨٨٨)، وأبو داود (٤/ ٤٦٢/ ٤٢٦٨)، والنسائي (٧/ ١٤٢/ ٤١٣٣).
(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «إن الله تجاوز..»: أحمد (٢/ ٣٩٣)، والبخاري (٩/ ٤٨٥/ ٥٢٦٩)، ومسلم (١/ ١١٦/ ١٢٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥٧-٦٥٨/ ٢٢٠٩)، والترمذي (٣/ ٤٨٩/ ١١٨٣)، والنسائي (٦/ ٤٦٩/ ٣٤٣٤و٣٤٣٥)، وابن ماجه (١/ ٦٥٨/ ٢٠٤٠).

أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل؛ بل يعاقب على تركه. وليس كذلك؛ بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بيّنّا. وبيّنّا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام؛ فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه؛ كالتائب القادر عليها سواء؛ فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل كإصرار العاجز عن كمال الفعل»[1].

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: «وقد ذكر عن السلف من أهل العلم فيها أنواع مما يفعل الناس اليوم ولا يعرفون معناه:

الأول: من ذلك العمل الصالح الذي يفعل كثير من الناس ابتغاء وجه اللَّه من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس ونحو ذلك، وكذلك ترك ظلم أو كلام في عرض ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة؛ إنما يريد أن اللَّه يجازيه بحفظ ماله وتنميته، وحفظ أهله وعياله، وإدامة النعمة عليهم ونحو ذلك، ولا همّة له في طلب الجنة، ولا الهرب من النار؛ فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب. وهذا النوع ذكر عن ابن عباس في تفسير الآية.

وقد غلط بعض مشائخنا بسبب عبارة في «شرح الإقناع» في أول باب النية؛ لما قسم الإخلاص مراتب، وذكر هذا منها؛ ظن أنه يسميه إخلاصًا مدحًا له. وليس كذلك؛ وإنما أراد أنه لا يسمى رياءً، وإلا فهو عمل حابط في الآخرة.

والنوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكر مجاهد أن الآية نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالًا صالحة ونيته رئاء الناس، لا طلب ثواب الآخرة، وهو يظهر أنه أراد وجه اللَّه، وإنما صلى أو صام أو تصدق أو طلب العلم لأجل أن الناس يمدحونه ويجلّ في أعينهم، فإن الجاه من أعظم أنواع الدنيا، ولما ذكر لمعاوية حديث أبي هريرة -في الثلاثة الذين هم أول من تُسعَّر بهم النار، وهم: الذي تعلّم العلم ليُقال: عالِم؛ حتى قيل، وتصدّق ليُقال: جواد، وجاهد ليقال: شجاع[2]- بكى معاوية بكاءً شديدًا، ثم قرأ هذه الآية.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٤٤-٧٤٦).

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

النوع الثالث: أن يعمل الأعمال الصالحة ومقصده بها مالٌ؛ مثل أن يحج لمالٍ يأخذه، لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، أو يجاهد لأجل المغنم؛ فقد ذكر هذا النوع أيضًا في تفسير هذه الآية؛ كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «تَعِسَ عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة»[1] إلخ، وكما يتعلم العلم لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يقرأ القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد كما هو واقع كثيرًا، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم؛ لأنهم عملوا لمصلحة يحصلونها، والذين قبلهم عملوا لأجل المدح والجلالة في أعين الناس، ولا يحصل لهم طائل. والنوع الأول أعقل من هؤلاء كلهم؛ لأنهم عملوا لله وحده لا شريك له؛ لكن لم يطلبوا منه الخير العظيم وهو الجنة، ولم يهربوا من الشر العظيم وهو العذاب في الآخرة.

النوع الرابع: أن يعمل الإنسان بطاعة اللَّه مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له؛ لكنه على عمل يكفره كفرًا يخرجه عن الإسلام؛ مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا اللَّه وتصدّقوا أو صاموا ابتغاء وجه اللَّه والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم شرك أكبر أو كفر أكبر يخرجهم عن الإسلام بالكلية إذا أطاعوا اللَّه طاعة خالصة يريدون بها ثواب اللَّه في الدار الآخرة؛ لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام، وتمنع قبول أعمالهم؛ فهذا النوع أيضًا قد ذكر في الآية عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منه؛ كما قال بعضهم: لو أعلم أن اللَّه تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت؛ لأن اللَّه يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

فهذا قصد وجه اللَّه والدار الآخرة؛ لكن فيه من حب الدنيا والرياسة والمال ما حمله على ترك كثير من أمر اللَّه ورسوله أو أكثر، فصارت الدنيا أكبر قصده، فلذلك قيل: قصد الدنيا وصار ذلك القليل كأنه لم يكن؛ كقوله ﷺ: «صلّ فإنّك لم تصلّ»[3]. والأول أطاع اللَّه ابتغاء وجهه؛ لكن أراد من اللَّه الثواب في الدنيا،

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري (١١/ ٣٠٤/ ٦٤٣٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٥-١٣٨٦/ ٤١٣٥).

(٢) المائدة: الآية (٢٧).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤٣٧)، والبخاري (١١/ ٦٧٢-٦٧٣/ ٦٦٦٧)، ومسلم (١/ ٢٩٨/ ٣٩٧)، وأبو داود (١/ ٥٣٤-٥٣٥/ ٨٥٦)، والترمذي (٥/ ٥٣/ ٢٦٩٢)، وابن ماجه (١/ ٣٣٦-٣٣٧/ ١٠٦٠).

وخاف على الحظ والعيال مثل ما يقول الفسقة، فصحّ أن يقال: قصد الدنيا، والثاني والثالث واضح.

لكن بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله طالبًا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالًا كثيرة أو قليلة قاصدًا بها الدنيا؛ مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا -كما هو الواقع كثيرًا-؛ فالجواب أن هذا عمل للدنيا والآخرة، ولا ندري ما يفعل الله في خلقه، والظاهر أن الحسنات والسيئات تدّافعا وهو لِما غلب عليه منهما، وقد قال بعضهم: إن القرآن كثيرًا ما يذكر أهل الجنة الخُلَّص وأهل النار الخُلَّص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله، ولهذا خاف السلف من حبوط الأعمال، وأما الفرق بين الحبوط والبطلان فلا أعلم بينهما فرقًا بيّنًا، والله أعلم»[١].

وقال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن الكافر يجازى بحسناته؛ كالصدقة وصلة الرحم وقِرى الضيف والتنفيس عن المكروب، في الدنيا دون الآخرة؛ لأنه تعالى قال: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ يعني الحياة الدنيا، ثم نص على بطلانها في الآخرة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ الآية. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾[٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾[٣] الآية؛ على ما قاله ابن زيد، وقوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾[٤] على أحد القولين، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[٥] على أحد الأقوال الماضية في سورة (الأنفال)، وقد صح عنه ﷺ أن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا مع أنه جاءت آيات أخر تدل على بطلان عمل الكافر واضمحلاله من أصله، وفي بعضها التصريح ببطلانه في الدنيا مع الآخرة في كفر الردة وفي غيره.

أما الآيات الدالة على بطلانه من أصله؛ فكقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص: ١٤١-١٤٤).

(٢) الشورى: الآية (٢٠).

(٣) الأحقاف: الآية (٢٠).

(٤) النور: الآية (٣٩).

(٥) الأنفال: الآية (٣٣).

﴿ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[1]، وكقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[3].

وأما الآيات الدالة على بطلانه في الدنيا مع الآخرة، فكقوله في كفر المرتد: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾[4]، وكقوله في كفر غير المرتد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[5].

وبين اللَّه تعالى في آيات أخر أن الإنعام عليهم في الدنيا ليس للإكرام؛ بل للاستدراج والإهلاك؛ كقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[6]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[7]، وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[9]، وقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[10]، وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[11]، إلى غير ذلك من الآيات.

والجواب من أربعة أوجه:

الأول -ويظهر لي صوابه لدلالة ظاهر القرآن عليه-: أن من الكفار من يثيبه اللَّه بعمله في الدنيا؛ كما دلت عليه آيات، وصح به الحديث، ومنهم من لا يثيبه في الدنيا؛ كما دلت عليه آيات أخر. وهذا مشاهد فيهم في الدنيا؛ فمنهم من هو في عيش رغد، ومنهم من هو في بؤس وضيق.

ووجه دلالة القرآن على هذا أنه تعالى أشار إليه بالتخصيص بالمشيئة في قوله:

---

(١) إبراهيم: الآية (١٨).
(٢) النور: الآية (٣٩).
(٣) الفرقان: الآية (٢٣).
(٤) البقرة: الآية (٢١٧).
(٥) آل عمران: الآيتان (٢١و٢٢).
(٦) القلم: الآيتان (٤٤و٤٥).
(٧) آل عمران: الآية (١٧٨).
(٨) الأنعام: الآية (٤٤).
(٩) المؤمنون: الآيتان (٥٥و٥٦).
(١٠) مريم: الآية (٧٥).
(١١) الزخرف: الآيات (٣٣-٣٥).

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[(١)]، فهي مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وعموم قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾[(٢)].

وممن صرح بأنها مخصصّة لهما الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[(٣)] في كتاب الرقاق في الكلام على قول البخاري: (باب: المكثرون هم المقِلّون، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآيتين).

ويدل لهذا التخصيص قوله في بعض الكفار: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[(٤)].

وجمهور العلماء على حمل العام على الخاص، والمطلق على المقيد؛ كما تقرر في الأصول.

الثاني -وهو وجيه أيضًا-: أن الكافر يثاب عن عمله بالصحة وسعة الرزق والأولاد ونحو ذلك؛ كما صرح به تعالى في قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ يعني الدنيا، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾. وبظاهرها المتبادر منها -كما ذكرنا- فسرها ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك؛ كما نقله عنهم ابن جرير. وعلى هذا فبطلان أعمالهم في الدنيا بمعنى أنها لم يعتد بها شرعًا في عصمة دم ولا ميراث ولا نكاح ولا غير ذلك، ولا تفتح لها أبواب السماء، ولا تصعد إلى اللَّه تعالى؛ بدليل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[(٥)]، ولا تُدّخر لهم في الأعمال النافعة، ولا تكون في كتاب الأبرار في عليّين، وكفى بهذا بطلانًا.

أما مطلق النفع الدنيوي بها فهو عند اللَّه لا شيء، فلا ينافي بطلانها؛ بدليل قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ﴾[(٦)]، وقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[(٧)]، وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾إلى قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٨)]، والآيات في مثل هذا كثيرة.

---

(١) الإسراء: الآية (١٨).
(٢) الشورى: الآية (٢٠).
(٣) (١١/ ٣١٥).
(٤) الحج: الآية (١١).
(٥) فاطر: الآية (١٠).
(٦) آل عمران: الآية (١٨٥).
(٧) العنكبوت: الآية (٦٤).
(٨) الزخرف: الآيات (٣٣-٣٥).

ومما يوضح هذا المعنى حديث: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة؛ ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»[(١)].

ذكر ابن كثير هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآيات. ثم قال: أسنده البغوي من رواية زكرياء بن منظور عن أبي حازم عن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ، فذكره.

ورواه الطبراني من طريق زمعة بن صالح عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ: «**لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة؛ ما أعطى كافرًا منها شيئًا**»[(٢)].

قال مقيده عفا الله عنه: لا يخفى أن مراد الحافظ ابن كثير رحمه الله بما ذكرناه عنه أن كلتا الطريقتين ضعيفة إلا أن كل واحدة منهما تعتضد بالأخرى، فيصلح المجموع للاحتجاج؛ كما تقرر في علم الحديث من أن الطرق الضعيفة المعتبَر بها يشدّ بعضها بعضًا، فتصلح للاحتجاج.

لا تخاصم بواحدٍ أهلَ بيتٍ فضعيفان يغلبان قويّا

لأن زكريا بن منظور بن ثعلبة القرظي وزمعة بن صالح الجندي؛ كلاهما ضعيف، وإنما روى مسلم عن زمعة مقرونًا بغيره، لا مستقلاً بالرواية؛ كما بينه الحافظ ابن حجر في «التقريب».

الثالث: أن معنى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: نعطيهم الغرض الذي عملوا من أجله في الدنيا، كالذي قاتل ليقال: جريء، والذي قرأ ليقال: قارئ، والذي تصدق ليقال: جواد، فقد قيل لهم ذلك. وهو المراد بتوفيتهم أعمالَهم على هذا الوجه.

ويدل له الحديث الذي رواه أبو هريرة مرفوعًا في المجاهد والقارئ

---

(١) أخرجه من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل بن سعد ﷺ مرفوعًا: الترمذي (٤/ ٤٨٥/ ٢٣٢٠) وقال: «حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه». وعبد الحميد بن سليمان ضعيف كما في «التقريب»، لكن تابعه زكريا بن منظور عند ابن ماجه (٢/ ١٣٧٦-١٣٧٧/ ٤١١٠)، والحاكم (٤/ ٣٠٦) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «زكريا بن منظور ضعفوه».

وخرج الشيخ الألباني في الصحيحة (٢/ ٣٠١) طرق هذا الحديث وقال: «وبالجملة؛ فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب، والله أعلم».

(٢) وهو الحديث المخرج قبله.

والمتصدق؛ إنه يقال لكل واحد منهم: إنما عملتَ ليقال، فقد قيل. أخرجه الترمذي مطولًا، وأصله عند مسلم[١]؛ كما قاله ابن حجر[٢]، ورواه أيضًا ابن جرير، وقد استشهد معاوية رضي الله عنه لصحة حديث أبي هريرة هذا بقوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، وهو تفسير منه رضي الله عنه لهذه الآية بما يدل لهذا الوجه الثالث.

الرابع: أن المراد بالآية المنافقون الذين يخرجون للجهاد لا يريدون وجه اللَّه، وإنما يريدون الغنائم، فإنهم يُقسم لهم فيها في الدنيا، ولا حظّ لهم من جهادهم في الآخرة، والقسم لهم منها هو توفيتهم أعمالهم على هذا القول، والعلم عند اللَّه تعالى»[٣].

وقال القرطبي: «ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة؛ وكذلك الآية التي في (الشورى): ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾[٤] الآية، وكذلك: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾[٥]، قيدها وفسرها التي في (سبحان): ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ إلى قوله: ﴿مَحْظُورًا﴾[٦]؛ فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد، واللَّه سبحانه يحكم ما يريد. وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أنها منسوخة بقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾. والصحيح ما ذكرناه؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[٧]، فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دائمًا على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾[٨]. والنسخ في الأخبار لا يجوز؛ لاستحالة تبدل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على اللَّه تعالى؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول»[٩].

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.
(٢) الفتح (١١/ ٣١٤).
(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب (ص: ١٣٣-١٣٧).
(٤) الشورى: الآية (٢٠).
(٥) آل عمران: الآية (١٤٥).
(٦) الإسراء: الآيات (١٨-٢٠).
(٧) البقرة: الآية (١٨٦).
(٨) الأنعام: الآية (٤١).
(٩) جامع أحكام القرآن (٩/ ١٤-١٥).

وقال محمد بن عاشور: «وفيه تنبيه المسلمين بأن لا يغتروا بظاهر حسن حال الكافرين في الدنيا، وأن لا يحسبوا أيضًا أنّ الكفر يوجب تعجيل العذاب، فأوقظوا من هذا التوهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1]»[2].

وقال: «فأمّا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[3]؛ فذلك في معنى آخر من معاني الحياة وزينتها وهو ترف العيش وزينة اللباس، خلافًا لما يقتضيه إعراض الرسول ﷺ عن كثير من ذلك الترَف وتلك الزينة»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[5].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات». وتدلك هذه الآية على أن من صام في رمضان، لا عن رمضان؛ لا يقع عن رمضان. وتدل على أن من توضأ للتبرد والتنظف؛ لا يقع قربة عن جهة الصلاة. وهكذا كل ما كان في معناه»[6].

وقال ابن رجب: «النية في كلام العلماء تقع بمعنيين:

---

(١) آل عمران: الآيتان (١٩٦و١٩٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢-٢٣).
(٣) الأحزاب: الآيتان (٢٨و٢٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٣).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (١/ ١١/ ١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١)، والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧)، والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٤).

أحدهما: بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعض؛ كتمييزِ صلاة الظهر من صلاة العصر مثلًا، وتمييزِ صيام رمضان من صيام غيرِه، أو تمييز العبادات من العادات؛ كتمييز الغُسلِ من الجنابة من غسل التّبرّد والتّنظّف، ونحو ذلك، وهذه النية هي التي توجد كثيرًا في كلام الفقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني: بمعنى تمييزِ المقصودِ بالعملِ، وهل هو اللَّه وحده لا شريكَ له، أم غيره، أم اللَّه وغيرُه، وهذه النيّة هي التي يتكلّم فيها العارفون[1] في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرًا في كلام السّلف المتقدّمين.

وقد صنّف أبو بكر بن أبي الدنيا مصنّفًا سمّاه: كتاب «الإخلاص والنية»، وإنّما أراد هذه النية، وهي النيةُ التي يتكرّر ذكرها في كلام النبي ﷺ تارةً بلفظ النية، وتارةً بلفظ الإرادة، وتارةً بلفظٍ مقاربٍ لذلك، وقد جاء ذكرُها كثيرًا في كتاب اللَّه ﷻ بغير لفظ النية أيضًا من الألفاظ المقاربة لها.

وإنما فرّق من فرّق بين النية وبين الإرادة والقصد ونحوهما؛ لظنّهم اختصاصَ النية بالمعنى الأوّل الذي يذكره الفقهاء، فمنهم من قال: النية تختصّ بفعلِ النّاوي، والإرادةُ لا تختصّ بذلك؛ كما يريد الإنسان من اللَّه أن يغفر له، ولا ينوي ذلك.

وقد ذكرنا أنّ النية في كلام النّبي ﷺ وسلفِ الأمّة إنما يرادُ بها هذا المعنى الثاني غالبًا، فهي حينئذٍ بمعنى الإرادة، ولذلك يعبَّرُ عنها بلفظِ الإرادة في القرآن كثيرًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[2]، وقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[3]، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[4]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا

---

(١) تقدم التنبيه على هذه اللفظة في تفسير سورة (الفاتحة).

(٢) آل عمران: الآية (١٥٢). (٣) الأنفال: الآية (٦٧).

(٤) الشورى: الآية (٢٠).

(٥) الإسراء: الآيتان (١٨و١٩).

كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[4].

وقد يعبَّر عنها في القرآن بلفظ (الابتغاء)؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[5]، وقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[6]، وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾[7]، وقوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[8].

فنفى الخيرَ عن كثير ممّا يتناجى به الناس إلاّ في الأمر بالمعروف، وخصّ من أفراده الصّدقةَ والإصلاح بين الناس؛ لعموم نفعهما، فدلّ ذلك على أنّ التناجي بذلك خيرٌ، وأمّا الثواب عليه من اللّه فخصّه بمن فعله ابتغاءَ مرضاة اللّه.

وإنّما جَعَل الأمرَ بالمعروف من الصدقة والإصلاحَ بين الناس وغيرهما خيرًا، وإنْ لم يُبْتَغَ به وجهُ الله؛ لما يترتّب على ذلك من النفع المتعدّي، فيحصل به للناس إحسانٌ وخيرٌ. وأمّا بالنسبة إلى الأمر، فإنْ قَصَدَ به وجهَ اللّه وابتغاءَ مرضاته؛ كان خيرًا له، وأُثيبَ عليه. وإن لم يقصد ذلك؛ لم يكن خيرًا له، ولا ثوابَ له عليه. وهذا بخلاف من صام وصلّى وذكر الله؛ يقصد بذلك عَرَض الدنيا؛ فإنّه لا خير له فيه بالكُلّيّة؛ لأنه لا نفع في ذلك لصاحبه؛ لما يترتّب عليه من الإثم فيه، ولا لغيره؛ لأنه لا يتعدّى نفعُه إلى أحد؛ اللّهُمّ إلاّ أنْ يحصل لأحد به اقتداءٌ في ذلك»[9].

* عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن أبي هريرة، فقال له ناتل أهل

---

(١) الأنعام: الآية (٥٢).
(٢) الكهف: الآية (٢٨).
(٣) الروم: الآية (٣٨).
(٤) الروم: الآية (٣٩).
(٥) الليل: الآية (٢٠).
(٦) البقرة: الآية (٢٦٥).
(٧) البقرة: الآية (٢٧٢).
(٨) النساء: الآية (١١٤).
(٩) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٥-٦٧).

الشام: أيها الشيخ! حدثنا حديثًا سمعته من رسول اللَّه ﷺ. قال: نعم، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهد، فأُتي به، فعرّفه نِعمه فعرفها. قال: فما علمتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدتُ. قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأنْ يقال: جريء، فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتي به، فعرّفه نِعَمَهُ فعرفها. قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ وسّع اللَّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحب أن يُنفَقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبتَ، ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أُمر به فسُحب على وجهه، ثم ألقي في النار**»[1].

★ فوائد الحديث:

استدل بهذا الحديث من ذهب إلى أن الآية نزلت في أهل الرياء، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «واختلف العلماء في تأويل هذه الآية؛ فقيل: نزلت في الكفار؛ قاله الضحاك، واختاره النحاس؛ بدليل الآية التي بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ أي: من أتى منهم بصلة رحم أو صدقة نكافئه بها في الدنيا؛ بصحة الجسم، وكثرة الرزق؛ لكن لا حسنة له في الآخرة. وقد تقدم هذا المعنى في (براءة) مستوفى.

وقيل: المراد بالآية المؤمنون؛ أي: من أراد بعمله ثواب الدنيا؛ عُجل له الثواب ولم يُنقص شيئًا في الدنيا، وله في الآخرة العذاب؛ لأنه جرد قصده إلى

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٢)، ومسلم (٣/ ١٥١٣-١٥١٤/ ١٩٠٥)، والنسائي (٦/ ٣٣١-٣٣٢/ ٣١٣٧) من طريق سليمان بن يسار عن أبي هريرة، وأخرجه بأطول من هذا الترمذي (٤/ ٥١٠-٥١٢/ ٢٣٨٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن جرير في التفسير (١٥/ ٢٦٦-٢٦٧/ ١٨٠٢٨)، وابن خزيمة (٤/ ١١٥-١١٦/ ٢٤٨٢)، والحاكم (١/ ٤١٨-٤١٩) وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٢/ ١٣٥-١٣٨/ ٤٠٨).

الدنيا، وهذا كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[1]؛ فالعبد إنما يعطى على وجه قصده، وبحكم ضميره؛ وهذا أمر متفق عليه في الأمم بين كل ملة. وقيل: هو لأهل الرياء». ثم ذكر معنى الحديث، ثم قال: «وقيل: الآية عامة في كل من ينوي بعمله غير اللَّه تعالى؛ كان معه أصل إيمان أو لم يكن؛ قاله مجاهد وميمون بن مهران، وإليه ذهب معاوية -رحمه اللَّه تعالى-»[2].

قال ابن تيمية: «هؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم، وتعظيمهم لهم، وطلب الجاه عندهم؛ لم يقصدوا بذلك وجه اللَّه، وإن كانت صور أعمالهم صورًا حسنة، فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب؛ كما في الحديث: «**من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه؛ فله من عمله النار**»[3]، وفي الحديث الآخر: «**من طلب علمًا مما يبتغى به وجه الله؛ لا يطلبه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام**»[4]. وفي الجملة القلب هو الأصل؛ كما قال أبو هريرة: «**القلب ملك الأعضاء، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده**»، وهذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**»[5]، فصلاحه وفساده يستلزم صلاح الجسد وفساده، فيكون هذا مما أبداه؛ لا مما أخفاه. وكل ما أوجبه اللَّه على العباد لا بد أن يجب على القلب؛ فإنه الأصل وإن وجب على غيره تبعًا؛ فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه، وإنما يقصد الطاعة والامتثال القلب، والعلم

---

(١) سبق تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) جامع أحكام القرآن (٩/ ١٣-١٤).

(٣) أخرجه من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: الترمذي (٥/ ٣٢/ ٢٦٥٤) وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم؛ تكلم فيه من قبل حفظه».

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٣٣٨)، وأبو داود (٤/ ٧١/ ٣٦٦٤)، وابن ماجه (١/ ٩٢-٩٣/ ٢٥٢)، وصححه ابن حبان (١/ ٢٧٩/ ٧٨)، والحاكم (١/ ٨٥) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٢٧٠)، والبخاري (١/ ١٦٨/ ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠/ ١٥٩٩)، وأبو داود (٣/ ٦٢٣-٦٢٤/ ٣٣٢٩)، والترمذي (٣/ ٥١١/ ١٢٠٥)، والنسائي (٧/ ٢٧٧-٢٧٩/ ٤٤٦٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٨-١٣١٩/ ٣٩٨٤).

بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به؛ كالصلاة، والزكاة، والصيام. وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر وقصد الامتثال؛ كان أول المعصية منه؛ بل كان هو العاصي، وغيره تبع له في ذلك؛ ولهذا قال في حق الشقي: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[1] الآيات، وقال في حق السعداء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في غير موضع»[2].

* عن أبي ذر ﷺ قال: خرجتُ ليلة من الليالي، فإذا رسول اللَّه ﷺ يمشي وحده وليس معه إنسان، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد، قال: فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني فقال: **من هذا؟** قلت: أبو ذر، جعلني اللَّه فداءك. قال: **يا أبا ذر! تعال**. قال: فمشيتُ معه ساعة، فقال لي: **إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه اللَّه خيرًا فنفح فيه يمينَهُ وشماله، وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرًا**. قال: فمشيت معه ساعة، فقال لي: **اجلس ههنا**. قال: فأجلسني في قاع حوله حجارة، فقال لي: **اجلس ههنا حتى أرجع إليك**. قال: فانطلق في الحرة حتى لا أراه، فلبث عني فأطال اللبث، ثم إني سمعته وهو مقبل وهو يقول: **وإن سرق، وإن زنى؟** قال: فلما جاء لم أصبر حتى قلت: يا نبي الله! جعلني اللَّه فداءك، من تكلمُ في جانب الحرة؟ ما سمعتُ أحدًا يرجع إليك شيئًا. قال: **ذلك جبريل ﷺ عرض لي في جانب الحرة، قال: بشّر أمتك أنه من مات لا يشرك باللَّه شيئًا؛ دخل الجنة. قلت: يا جبريل! وإن سرق، وإن زنى؟ قال: نعم. قال: قلت: وإن سرق، وإن زنى؟ قال: نعم. قلت: وإن سرق، وإن زنى؟ قال: نعم**»[3].

★ غريب الحديث:

نفح فيه: بالحاء المهملة؛ يقال: نفح فلان فلانًا بشيء: أعطاه. والنفحة: الدفعة.

---

(١) القيامة: الآيتان (٣١و٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ١١٣-١١٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٦١) مختصرًا، والبخاري (١١/ ٣١٣-٣١٤/ ٦٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٨٧/ ٩٤)، والترمذي (٥/ ٢٧/ ٢٦٤٤) مختصرًا، وكذلك النسائي في الكبرى (٦/ ٢٧٤/ ١٠٩٥٥).

في قاع: هو أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال.

الحَرّة: بفتح الحاء المهملة وتشديد الراء: أرض ذات حجارة سود كأنها احترقت بالنار[١].

★فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «اختلف في الآية فقيل: هي على عمومها في الكفار وفيمن يرائي بعمله من المسلمين، وقد استشهد بها معاوية لصحة الحديث الذي حدث به أبو هريرة مرفوعًا في المجاهد والقارئ والمتصدق؛ لقوله تعالى لكل منهم: إنما عملت ليقال، فقد قيل، فبكى معاوية لما سمع هذا الحديث، ثم تلا هذه الآية. أخرجه الترمذي مطولًا، وأصله عند مسلم.

وقيل: بل هي في حق الكفار خاصة؛ بدليل الحصر في قوله في الآية التي تليها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾، والمؤمن في الجملة مآله إلى الجنة بالشفاعة أو مطلق العفو، والوعيد في الآية بالنار وإحباط العمل وبطلانه إنما هو للكافر.

وأجيب عن ذلك بأن الوعيد بالنسبة إلى ذلك العمل الذي وقع الرياء فيه فقط، فيجازى فاعله بذلك إلا أن يعفو اللَّه عنه، وليس المراد إحباط جميع أعماله الصالحة التي لم يقع فيها رياء. والحاصل أن من أراد بعمله ثواب الدنيا؛ عجل له وجوزي في الآخرة بالعذاب؛ لتجريده قصده إلى الدنيا وإعراضه عن الآخرة. وقيل: نزلت في المجاهدين خاصة، وهو ضعيف، وعلى تقدير ثبوته فعمومها شامل لكل مراءٍ، وعموم قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ -أي: في الدنيا- مخصوص بمن لم يقدر اللَّه له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[٢]، فعلى هذا التقييد يحمل ذلك المطلق، وكذا يقيد مطلق قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[٣]، وبهذا يندفع إشكال من قال: قد يوجد بعض الكفار مقترًا

---

(١) عمدة القاري (١٥/ ٥٢٤).

(٢) الإسراء: الآية (١٨).

(٣) الشورى: الآية (٢٠).

عليه في الدنيا، غير موسع عليه من المال أو من الصحة أو من طول العمر؛ بل قد يوجد من هو منحوس الحظ من جميع ذلك؛ كمن قيل في حقه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(١).

ومناسبة ذكر الآية في الباب لحديثه أن في الحديث إشارة إلى أن الوعيد فيها محمول على التأقيت في حق من وقع له ذلك من المسلمين، لا على التأبيد؛ لدلالة الحديث على أن مرتكب الكبيرة من المسلمين يدخل الجنة، وليس فيه ما ينفي أنه قد يعذب قبل ذلك، كما أنه ليس في الآية ما ينفي أنه قد يدخل الجنة بعد التعذيب على معصية الرياء»(٢).

قال العيني: «والمطابقة أيضًا بين الحديث والآية المذكورة هي أن الوعيد الذي فيها محمول على التأقيت في حق من وقع له ذلك من المسلمين؛ لا على التأبيد؛ لدلالة الحديث على أن المرتكب لجنس الكبيرة من المسلمين يدخل الجنة، وليس فيه ما ينفي أنه يعذب قبل ذلك، كما أنه ليس في الآية ما ينفي أنه قد يدخل الجنة بعد التعذيب على معصية الزنى»(٣).

قال النووي: «وأما حكمه ﷺ على من مات يشرك بدخول النار، ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة؛ فقد أجمع عليه المسلمون.

فأما دخول المشرك النار؛ فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها، ثم حكم بكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة؛ فهو مقطوع له به؛ لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها؛ دخل الجنة أولًا، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها؛ فهو تحت المشيئة؛ فإن من عفي عنه دخل أولًا، وإلا عذب ثم أخرج من النار وخلد في الجنة، والله أعلم.

---

(١) الحج: الآية (١١).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣١٤-٣١٥).

(٣) عمدة القاري (١٥/ ٥٢٣-٥٢٤).

وأما قوله ﷺ: «وإن زنى، وإن سرق»؛ فهو حجة لمذهب أهل السنة أن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار، وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها وختم لهم بالخلود في الجنة، وقد تقدم هذا كله مبسوطًا، والله أعلم»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة: إن أعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفَّع**»[٢].

★ غريب الحديث:

تَعِسَ: بفتح أوله وكسر المهملة ويجوز فتحها، وهو ضد سَعِدَ؛ تقول: تَعِس فلانٌ؛ أي: شَقِيَ. وقيل: التعس: الكبّ على الوجه. قال الخليل: التعس أن يعثر فلا يفيق من عثرته. وقيل: التعس: الشر، وقيل: البعد، وقيل: الهلاك.

انتكس: بالمهملة: إذا عاوده المرض. وقيل: إذا سقط اشتغل بسقطته حتى يسقط أخرى.

إذا شيك فلا انتقش: شيك: بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها كاف، وانتقش: بالقاف والمعجمة، والمعنى: إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش؛ تقول: نقشت الشوك: إذا استخرجته[٣].

★ فوائد الحديث:

قال سليمان بن عبد الله آل الشيخ: «فإن قيل: لم سماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم؟ قيل: لما كان ذلك هو مقصوده ومطلوبه الذي عمل له، وسعى في تحصيله بكل ممكن؛ حتى صارت نيته مقصورة عليه؛ يغضب ويرضى له؛ صار عبدًا له»[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم (٢/ ٨٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ١٠١/ ٢٨٨٧) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٦/ ٤١٣٦).

(٣) فتح الباري (٦/ ١٠٢-١٠٣).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٥٥).

قال شيخ الإسلام: «فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة. وذكر ما فيه دعاء وخبر، وهو قوله: "**تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**"، والنقش: إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش: ما يخرج به الشوكة. وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال. وقد وصف ذلك بأنه "**إذا أعطي رضي، وإذا منع سخط**"؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[١]؛ فرضاهم لغير اللَّه، وسخطهم لغير اللَّه، وهكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه؛ إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده؛ ولهذا يقال:

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

وقال القائل:

أطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعتُ لكنتُ حُرّا»[٢].

وقال أيضًا: «وهكذا أيضًا طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان: منها ما يحتاج العبد إليه كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك. فهذا يطلبه من اللَّه ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه؛ بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته من غير أن يستعبده فيكون هلوعًا؛ إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا. ومنها ما لا يحتاج العبد إليه، فهذه لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها؛ فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدًا لها؛ وربما صار معتمدًا على غير اللَّه، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير اللَّه، وشعبة من التوكل على غير اللَّه، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: "**تعس عبد**

---

(١) التوبة: الآية (٥٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٠-١٨١).

الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة»، وهذا هو عبد هذه الأمور، فلو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإذا منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله تعالى، وهذا هو الذي استكمل الإيمان»[١].

وفي تقدير المعطي في قوله ﷺ: **«إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط»** احتمالان ذكرهما الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قال: «يحتمل أن يكون المعطي هو الله، فيكون الإعطاء قدريًا؛ أي: إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه، وقوله كأن يقول: لماذا كنت فقيرًا وهذا غنيًا؟ وما أشبه ذلك، فيكون ساخطًا على قضاء الله وقدره؛ لأن الله منعه.

والله ﷻ يعطي ويمنع لحكمة، ويعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.

والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره؛ إن أعطي شكر، وإن منع صبر.

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الشرعي؛ أي: إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي، وإن لم يعط سخط.

وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال، ولا يسخط إلا له؛ ولهذا سمّاه الرسول ﷺ عبدًا له»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحديث قسّم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس له همّ إلا الدنيا؛ إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال، فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر همه الآخرة، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة، وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

---

(١) المصدر السابق (١٠/ ١٨٩-١٩٠).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٢٤٩-٢٥٠).

ويستفاد من الحديث:

- أن الناس قسمان كما سبق.

- أن الذي ليس له هم إلا الدنيا قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية، وهي الشوكة، بخلاف الجازم الذي لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة، ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدره اللَّه له.

- أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل اللَّه ألا تكون همه المراتب؛ بل يكون همه القيام بما يجب عليه إما في الحراسة أو الساقة أو القلب أو الجنب حسب المصلحة.

- أن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند اللَّه ﷻ؛ فهذا الرجل الذي إن شفع لم يشفع، وإن استأذن لم يؤذن له؛ قال فيه الرسول ﷺ: «**طوبى له**»، ولم يقل: إن سأل لم يعط؛ بل لا تهمه الدنيا حتى يسأل عنها، لكن يهمه الخير فيشفع للناس، ويستأذن للدخول على ذوي السلطة للمصالح العامة»[1].

وفي الحديث من الفوائد أيضًا: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة. قال ابن عثيمين: «وهذه العبودية لا تدخل في الشرك ما لم يصل بها إلى حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخلّ بالإخلاص؛ لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة اللَّه ﷻ ومحبة أعمال الآخرة»[2].

* * *

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ﴾[1]

★ غريب الآية:

بينة: أي: حجة ينكشف بها الحق ويتضح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر حال من يريد الحياة الدنيا؛ ذكر حال من يريد وجه الله تعالى بأعماله الصالحة»[2].

وقال الرازي: «اعلم أن أول هذه الآية مشتمل على ألفاظ أربعة؛ كل واحد مجمل. فالأول: أن هذا الذي وصف الله تعالى بأنه على بينة من ربه من هو؟ والثاني: أنه ما المراد بهذه البينة؟ والثالث: أن المراد بقوله: «يتلوه» القرآن أو كونه حاصلًا عقيب غيره. والرابع: أن هذا الشاهد ما هو؟ فهذه الألفاظ الأربعة مجملة، فلهذا كثر اختلاف المفسرين في هذه الآية»[3].

وقد بين مدلول هذه الألفاظ، وحقق المقال في هذه الآية شيخ الإسلام ابن تيمية؛ قال: «والمقصود هنا هو الكلام على قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؛ حيث سأل السائل عن تفسيرها، وذكر ما في التفاسير من كثرة الاختلاف فيها، وأن ذلك الاختلاف يزيد الطالب عميً عن معرفة المراد الذي يحصل به الهدى والرشاد؛ فإن الله تعالى إنما نزل القرآن ليهتدى به، لا ليختلف فيه، والهدى إنما يكون إذا عرفت معانيه، فإذا حصل الاختلاف المضاد لتلك المعاني التي لا يمكن الجمع بينه وبينها؛ لم يعرف الحق، ولم تفهم الآية ومعناها،

(١) هود: الآية (١٧).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٢١١).
(٣) التفسير الكبير (١٧/ ٢٠٨-٢٠٩).

ولم يحصل به الهدى والعلم الذي هو المراد بإنزال الكتاب. قال أبو عبدالرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: عثمان بن عفان، وعبد اللّٰه بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات؛ لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا». وقال الحسن البصري: ما أنزل اللّٰه آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا نزلت، وماذا عني بها. وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[1]؛ وتدبر الكلام إنما ينتفع به إذا فهم. وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]. فالرسل تبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم، وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين؛ والمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلغه الرسل، والعقل يتضمن العلم والعمل، فمن عرف الخير والشر، فلم يتبع الخير ويحذر الشر؛ لم يكن عاقلًا؛ ولهذا لا يعد عاقلًا إلا من فعل ما ينفعه، واجتنب ما يضره؛ فالمجنون الذي لا يفرق بين هذا وهذا قد يلقي نفسه في المهالك، وقد يفر مما ينفعه»[3].

وقد بين ذلك بيانًا شافيًا؛ قال: «وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهذا يعم جميع من هو على بينة من ربه، ويتلوه شاهد منه. فالبينة: العلم النافع، والشاهد الذي يتلوه: العمل الصالح، وذلك يتناول الرسول ومن اتبعه إلى يوم القيامة؛ فإن الرسول على بينة من ربه، ومتبعيه على بينة من ربه. وقال في حق الرسول: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾[4]، وقال في حق المؤمنين: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾[5]، فذكر هذا بعد أن ذكر الصنفين في أول السورة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[6] الآيات، إلى قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

وقال أبو الدرداء: «لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم، ويتركوا ما جاءتهم به

---

(١) النساء: الآية (٨٢)، محمد: الآية (٢٤).
(٢) الزخرف: الآية (٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠٧-١٠٨).
(٤) الأنعام: الآية (٥٧).
(٥) محمد: الآية (١٤).
(٦) محمد: الآيات (١-٣).

أنبياؤهم من البينات والهدى». وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[١]، فمن اتبعه يدعو إلى اللَّه على بصيرة، والبصيرة هي البينة. وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[٢] الآية. فالنور الذي يمشي به في الناس هو البينة والبصيرة. وقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[٣] الآية. قال أبيّ بن كعب وغيره: هو مثل نور المؤمن، وهو نوره الذي في قلب عبده المؤمن، الناشئ عن العلم النافع والعمل الصالح. وذلك بينة من ربه. وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾[٤]، فهذا النور الذي هو عليه، وشرح الصدر للإسلام؛ هو البينة من ربه، وهو الهدى المذكور في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[٥]، واستعمل في هذا حرف (الاستعلاء)؛ لأن القلب لا يستقر ولا يثبت إلا إذا كان عالمًا موقنًا بالحق، فيكون العلم والإيمان صبغة له ينصبغ بها؛ كما قال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾[٦]، ويصير مكانة له؛ كما قال: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٧]. والمكان والمكانة قد يراد به ما يستقر الشيء عليه وإن لم يكن محيطًا به كالسقف مثلًا، وقد يراد به ما يحيط به. فالمهتدون لما كانوا على هدى من ربهم ونور وبينة وبصيرة؛ صار مكانة لهم استقروا عليها، وقد تحيط بهم؛ بخلاف الذين قال فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[٨]؛ فإن هذا ليس ثابتًا مستقرًا مطمئنًا؛ بل هو كالواقف على حرف الوادي، وهو جانبه، فقد يطمئن إذا أصابه خير، وقد ينقلب على وجهه ساقطًا في الوادي. وكذلك فرق بين من أسس بنيانه على تقوى من اللَّه ورضوان، وبين من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم، وكذلك الذين كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها. وشواهد هذا كثير. فقد تبين أن الرسول ومن اتبعه على بينة من ربهم وبصيرة، وهدى ونور، وهو الإيمان الذي في قلوبهم، والعلم والعمل الصالح، ثم قال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؛ والضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ عائد إلى اللَّه تعالى؛ أي: ويتلو هذا

---

(١) يوسف: الآية (١٠٨).
(٢) الأنعام: الآية (١٢٢).
(٣) النور: الآية (٣٥).
(٤) الزمر: الآية (٢٢).
(٥) البقرة: الآية (٥)، لقمان: الآية (٥).
(٦) البقرة: الآية (١٣٨).
(٧) الزمر: الآية (٣٩).
(٨) الحج: الآية (١١).

الذي هو على بينة من ربه شاهد من اللَّه، والشاهد من اللَّه كما أن البينة التي هو عليها المذكورة من اللَّه أيضًا. وأما قول من قال: (الشاهد) من نفس المذكور، وفسره بلسانه، أو بعلي بن أبي طالب؛ فهذا ضعيف؛ لأن كون شاهد الإنسان منه لا يقتضي أن يكون الشاهد صادقًا؛ فإنه مثل شهادة الإنسان لنفسه؛ بخلاف ما إذا كان الشاهد من الله؛ فإن اللَّه يكون هو الشاهد. وهذا كما قيل في قوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[١]: إنه عليٌّ؛ فهذا ضعيف؛ لأن شهادة قريب له، قد اتبعه على دينه، ولم يهتد إلا به؛ لا تكون برهانًا للصدق، ولا حجة على الكفر؛ بخلاف شهادة من عنده علم الكتاب الأول؛ فإن هؤلاء شهادتهم برهان ورحمة؛ كما قال في هذه السورة: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، وقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾[٢]، وقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[٣] الآية، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[٤]؛ وهذا الشاهد من اللَّه هو القرآن. ومن قال: إنه جبريل؛ فجبريل لم يقل شيئًا من تلقاء نفسه؛ بل هو الذي بلغ القرآن عن اللَّه، وجبريل يشهد أن القرآن منزل من اللَّه، وأنه حق؛ كما قال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٥]. والذي قال: هو جبريل؛ قال: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يقرؤه؛ كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[٦]؛ أي: إذا قرأه جبريل فاتبع ما قرأه، وقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[٧]. ومن قال: الشاهد: لسانه، وجعل الضمير المذكور عائدًا على القرآن ولم يذكر؛ لأنه جعل البينة هي القرآن، ولو كانت البينة هي القرآن لما احتاج إلى ذلك وقد قال: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فقد ذكر أن القرآن من اللَّه، وقد علم أنه نزل به جبريل على محمد، وكلاهما بلغه وقرأه، فقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ جبريل أو محمد؛ تكرير لا فائدة فيه؛ ولهذا لم يذكر مثل ذلك في القرآن.

وأيضًا: فكونه على القرآن؛ لم نجد لذلك نظيرًا في القرآن؛ فإن القرآن كلام اللَّه

---

(١) الرعد: الآية (٤٣).
(٢) الأحقاف: الآية (١٠).
(٣) يونس: الآية (٩٤).
(٤) الأنعام: الآية (١١٤).
(٥) النساء: الآية (١٦٦).
(٦) القيامة: الآية (١٨).
(٧) النجم: الآية (٥).

واحد لا يكون عليه، وإذا كان المراد على الإيمان بالقرآن والعمل به؛ فهذا الذي ذكرناه: أن البينة هي الإيمان بما جاء به الرسول، وهو إخباره أنه رسول اللَّه، وأن اللَّه أنزل القرآن عليه، ولما أنزلت هذه السورة -وهي مكية- لم يكن قد نزل من القرآن قبلها إلا بعضه، وكان المأمور به حينئذ هو الإيمان بما نزل منه، فمن آمن حينئذ بذلك ومات على ذلك؛ كان من أهل الجنة.

وأيضًا: فتسمية جبريل شاهدًا؛ لا نظير له في القرآن، وكذلك تسمية لسان الرسول شاهدًا، وتسمية عليٍّ شاهدًا؛ لا يوجد مثل ذلك في الكتاب والسنة؛ بخلاف شهادة الله؛ فإن اللَّه أخبر بشهادته لرسوله في غير موضع، وسمى ما أنزله شهادة منه في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1]، فدل على أن كلام اللَّه الذي أنزله وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه.

وهو سبحانه يحكم ويشهد، ويفتي ويقص، ويبشّر ويهدي بكلامه، ويصف كلامه بأنه يحكم ويفتي ويقص ويهدي، ويبشر وينذر؛ كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾[2]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[4]، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[5] وقال: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[6]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[7] وكذلك سمى الرسول هاديًا، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[8]، كما سماه بشيرًا ونذيرًا، وسمى القرآن بشيرًا ونذيرًا، فكذلك لما كان هو يشهد للرسول والمؤمنين بكلامه الذي أنزله، وكان كلامه شهادة منه؛ كان كلامه شاهدًا منه، كما كان يحكم ويفتي، ويقص، ويبشر، وينذر. ولما قيل لعلي بن أبي طالب: حكّمتَ مخلوقًا؛ قال: «ما حكّمتُ مخلوقًا؛ وإنما حكّمتُ القرآنَ»؛ فإن الذي يحكم به القرآن هو حكم اللَّه، والذي يشهد به القرآن هو شهادة اللَّه ﷻ. قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم -وقد كان إمامًا، وأخذ التفسير عن أبيه زيد، وكان زيد إمامًا فيه،

(١) البقرة: الآية (١٤٠).
(٢) النساء: الآية (١٢٧).
(٣) النساء: الآية (١٧٦).
(٤) النمل: الآية (٧٦).
(٥) يوسف: الآية (٣).
(٦) الأنعام: الآية (٥٧).
(٧) الإسراء: الآية (٩).
(٨) الشورى: الآية (٥٢).

ومالك وغيره أخذوا عنه التفسير، وأخذه عنه عبد اللَّه بن وهب صاحب مالك، وأصبغ بن الفرج الفقيه، قال- في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾؛ قال: رسول اللَّه كان على بينة من ربه، والقرآن يتلوه شاهد أيضًا؛ لأنه من اللَّه. وقد ذكر الزجاج فيما ذكره من الأقوال: ويتلو رسول اللَّه القرآن، وهو شاهد من اللَّه. وقال أبو العالية: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: هو محمد، ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾: القرآن. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس، ومحمد ابن الحنفية، ومجاهد، وأبي صالح، وإبراهيم، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي، وخصيف، وابن عيينة نحو ذلك. وهذا الذي قالوه صحيح؛ ولكن لا يقتضي ذلك أن المتبعين له ليسوا على بينة من ربهم؛ بل هم على بينة من ربهم. وقد قال الحسن البصري: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ قال: المؤمن على بينة من ربه. ورواه ابن أبي حاتم، وروى عن الحسين بن علي: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ يعني محمدًا شاهد من الله؛ وهي تقتضي أن يكون الذي على البينة من شهد له. وقول القائل: من قال: هو محمد؛ كقول من قال: هو جبريل؛ فإن كلاهما بلغ القرآن، واللَّه يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، فاصطفى جبريل من الملائكة، واصطفى محمدًا من الناس، وقال في جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[1]، وقال في محمد: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[2]، وكلاهما رسول من الله؛ كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾[3]؛ فكلاهما رسول من اللَّه بلغ ما أرسل به، وهو يشهد أن ما جاء به هو كلام اللَّه، وأما شهادتهم بما شهد به القرآن؛ فهذا قدر مشترك بين كل من آمن بالقرآن؛ فإنه يشهد بكل ما شهد به القرآن؛ لكونه آمن به؛ سواء كان قد بلغه أو لم يبلغه. ولهذا كان إيمان الرسول بما جاء به غير تبليغه له، وهو مأمور بهذا وبهذا، وله أجر على هذا وهذا؛ كما قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾[4]؛ ولهذا كان يقول: «**أشهد أني عبد اللَّه ورسوله**»؛ فشهادة جبريل ومحمد بما شهد به القرآن من جهة إيمانهما به، لا من جهة كونهما مرسلين به؛ فإن الإرسال به يتضمن شهادتهما أن اللَّه قاله، وقد يرسل غير رسول بشيء فيشهد الرسول أن هذا كلام المرسل وإن لم يكن المرسل صادقًا

(١) التكوير: الآية (١٩).
(٢) الحاقة: الآية (٤٠).
(٣) البينة: الآيات (١-٣).
(٤) البقرة: الآية (٢٨٥).

ولا حكيمًا؛ ولكن علم أن جبريل ومحمدًا يعلمان أن اللَّه صادق حكيم، فهما يشهدان بما شهد اللَّه به. وكذلك الملائكة والمؤمنون يشهدون بأن ما قاله اللَّه فهو حق، وأن اللَّه صادق حكيم؛ لا يخبر إلا بصدق، ولا يأمر إلا بعدل، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[(١)]. فقد تبين أن شهادة جبريل ومحمد هي شهادة القرآن، وشهادة القرآن هي شهادة اللَّه تعالى، والقرآن شاهد من اللَّه، وهذا الشاهد يوافق ويتبع ذلك الذي على بينة من ربه؛ فإن البينة والبصيرة والنور والهدى الذي عليه النبي ﷺ والمؤمنون قد شهد القرآن المنزل من اللَّه بأن ذلك حق. ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ معناه: يتبعه؛ كما قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾[(٢)]؛ أي: يتبعونه حق اتباعه، وقال: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾[(٣)]؛ أي: تبعها، وهذا قفاه: إذا تبعه، وقد قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[(٤)]. فهذا الشاهد يتبع الذي على بينة من ربه، فيصدقه، ويزكيه، ويؤيده، ويثبته؛ كما قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[(٥)]، وقال: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[(٦)]، وقال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[(٧)]. وقد سمى اللَّه القرآن سلطانًا في غير موضع، فإذا كان السلطان المنزل من اللَّه يتبع هذا المؤمن؛ كان ذلك مما يوجب قوته وتسلطه علمًا وعملًا، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٨)]، ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾[(٩)] الآية.

وقال جندب بن عبد اللَّه، وعبد اللَّه بن عمر: «تعلّمنا الإيمان، ثم تعلّمنا القرآن، فازددنا إيمانًا». فهم كانوا يتعلمون الإيمان، ثم يتعلمون القرآن. وقال بعضهم في قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾[(١٠)]؛ قال: نور القرآن على نور الإيمان؛ كما قال: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[(١١)]، وقال السدي في قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾: نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحد منهما

---

(١) الأنعام: الآية (١١٥).
(٢) البقرة: الآية (١٢١).
(٣) الشمس: الآية (٢).
(٤) الإسراء: الآية (٣٦).
(٥) النحل: الآية (١٠٢).
(٦) هود: الآية (١٢٠).
(٧) المجادلة: الآية (٢٢).
(٨) الإسراء: الآية (٨٢).
(٩) التوبة: الآية (١٢٤).
(١٠) النور: الآية (٣٥).
(١١) الشورى: الآية (٥٢).

إلا بصاحبه. فتبين أن قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني هدى الإيمان، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؛ أي: من اللّه، يعني: القرآن شاهد من اللّه يوافق الإيمان ويتبعه، وقال: ﴿يَتْلُوهُ﴾؛ لأن الإيمان هو المقصود؛ لأنه إنما يراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته. ولهذا كان الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنة، والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة؛ بل صاحبه منافق؛ كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة: طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة: طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة: طعمها مر ولا ريح لها**»[1]. ولهذا جعل الإيمان (بينة)، وجعل القرآن (شاهدًا)؛ لأن البينة من البيان، و(البينة) هي السبيل البينة، وهي الطريق البينة الواضحة، وهي أيضًا ما يبين بها الحق، فهي بينة في نفسها مبينة لغيرها، وقد تفسر بالبيان وهي الدلالة والإرشاد؛ فتكون كالهدى؛ كما يقال: فلان على هدىً وعلى علم؛ فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل؛ ومنه قوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[2]؛ أي: بيان ما فيها، أو يبين ما فيها، أو الأمر البين فيها، وقد سُمّي الرسول بينة؛ كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[3]؛ فإنه يبين الحق، والمؤمن على سبيل بينة ونور من ربه، والشاهد المقصود به شهادته للمشهود له، فهو يشهد للمؤمن بما هو عليه، وجعل الإيمان من اللّه كما جعل الشاهد من الله؛ لأن اللّه أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال؛ كما في الصحيحين عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «**إن اللّه أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة**»[4]. وأيضًا: فالإيمان ما قد أمر اللّه به. وأيضًا: فالإيمان إنما هو ما أخبر به الرسول، وهذا أخبر

---

(١) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: أحمد (٤/ ٣٩٧)، والبخاري (٩/ ٦٩٣/ ٥٤٢٧)، ومسلم (١/ ٥٤٩/ ٧٩٧)، وأبو داود (٥/ ١٦٦-١٦٧/ ٤٨٣٠)، والترمذي (٥/ ١٣٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي (٨/ ٤٩٩/ ٥٠٥٣)، وابن ماجه (١/ ٧٧/ ٢١٤).

(٢) طه: الآية (١٣٣).

(٣) البينة: الآيتان (١و٢).

(٤) أخرجه من حديث حذيفة ﷺ -ولفظه: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال..»-: أحمد (٥/ ٣٨٣)، والبخاري (١١/ ٤٠٥/ ٦٤٩٧)، ومسلم (١/ ١٢٦-١٢٧/ ١٤٣)، والترمذي (٤/ ٤١١-٤١٢/ ٢١٧٩)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٦/ ٤٠٥٣).

به الرسول؛ لكن الرسول له وحيان: وحي تكلم الله به يتلى، ووحي لا يتلى؛ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾[1] الآية، وهو يتناول القرآن والإيمان. وقيل: الضمير في قوله: ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ يعود إلى الإيمان؛ ذكر ذلك عن ابن عباس. وقيل: إلى القرآن؛ وهو قول السدي، وهو يتناولهما، وهو في اللفظ يعود إلى الروح الذي أوحاه، وهو الوحي الذي جاء بالإيمان والقرآن.

فقد تبين أن كلاهما من الله نور وهدى منه؛ هذا يعقل بالقلب؛ لما قد يشاهد من دلائل الإيمان؛ مثل دلائل الربوبية والنبوة، وهذا يسمع بالآذان. والإيمان الذي جعل للمؤمن هو مثل ما وعد الله به في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ﴾[2]؛ أي: أن القرآن حق، فهذه الآيات متأخرة عن نزول القرآن، وهو مثل ما فعل من نصر رسوله والمؤمنين يوم بدر، وغير يوم بدر؛ فإنه آيات مشاهدة، صدقت ما أخبر به القرآن؛ ولكن المؤمنون كانوا قد آمنوا قبل هذا.

وقيل: نزول أكثر القرآن الذي ثبت الله به لنبيه وللمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ فهو يشهد لرسوله بأنه صادق بالآيات الدالة على نبوته، وتلك آمن بها المؤمنون، ثم أنزل من القرآن شاهدًا له، ثم أظهر آيات معاينة تبين لهم أن القرآن حق.

فالقرآن وافق الإيمان، والآيات المستقبلة وافقت القرآن والإيمان؛ ولهذا قال: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ﴾؛ فقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ يعود الضمير إلى الشاهد الذي هو القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾[3] الآية، ثم قال: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ﴾ الآية. فقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾؛ الضمير يعود إلى القرآن؛ أي: من قبل القرآن؛ كما قاله ابن زيد. وقيل: يعود إلى الرسول؛ كما قاله مجاهد، وهما متلازمان. وقوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ فيه وجهان: قيل: هو عطف مفرد. وقيل: عطف جملة. قيل: المعنى: ويتلوه شاهد منه، ويتلوه أيضًا من قبله كتاب موسى؛ فإنه شاهد بمثل ما شهد به القرآن، وهو شاهد من الله. وقيل: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ

(١) الشورى: الآية (٥٢).
(٢) فصلت: الآية (٥٣).
(٣) الأحقاف: الآية (١٠).

﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ جملة؛ ولكن مضمون الجملة فيها تصديق القرآن؛ كما قال في (الأحقاف).

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ يدل على أن قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تتناول المؤمنين؛ فإنهم آمنوا بالكتاب الأول والآخر، كما تتناول النبي ﷺ، وأولئك يعود إليهم الضمير؛ فإنهم مؤمنون به بالشاهد من الله، فالإيمان به إيمان بالرسول والكتاب الذي قبله.

ثم قال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾، وروى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وغيرهما عن أيوب عن سعيد بن جبير قال: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجه إلا وجدت تصديقه في كتاب الله؛ حتى بلغني أنه قال: «**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بما أرسلت به إلا دخل النار**»[1]. قال سعيد: فقلت: أين هذا في كتاب الله؟ حتى أتيتُ على هذه الآية: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾. قال: الأحزاب: هي الملل كلها. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾؛ أي: كل من كان على بينة من ربه؛ فإنه يؤمن بالشاهد من الله، والإيمان به إيمان بما جاء به موسى؛ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ وهم المتبعون لمحمد ﷺ من أصحابه وغيرهم إلى قيام الساعة. . .

وأما من قال: الضمير في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ يعود على أهل الحق؛ قال: إنه موسى وعيسى ومحمد؛ فإنه إن أراد بهم من كان مؤمنًا بالكتابين قبل نزول القرآن فلم يتقدم لهم ذكر، والضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ مفرد، ولو آمن مؤمن بكتاب موسى دون الإنجيل بعد نزوله وقيام الحجة عليه به؛ لم يكن مؤمنًا. وهذان القولان حكاهما أبو الفرج، ولم يسمّ قائلهما، والبغوي وغيره لم يذكروا نزاعًا في أنهم من آمن بمحمد؛ ولكن ذكروا قولًا: إنهم من آمن به من أهل الكتاب، وهذا قريب. ولعل الذي حكى قولهم أبو الفرج أرادوا هذا، وإلا فلا وجه لقولهم. ومن العجب أن أبا الفرج ذكر بعد هذا في ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أربعة أقوال: أحدها: إنهم جميع الملل؛ قاله سعيد بن جبير. والثاني: اليهود والنصارى؛ قاله قتادة. والثالث: قريش؛ قاله السدي. والرابع: بنو أمية وبنو المغيرة؛ قال: أي أبي طلحة بن عبد العزى؛ قاله

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣١٧)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣).

مقاتل. وهذه الآية تقتضي أن الضمير يعود إلى القرآن في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾، وكذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أنه القرآن؛ ودليله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وهذا هو القرآن بلا ريب، وقد قيل: هو الخبر المذكور، وهو أنه من يكفر به من الأحزاب، وهذا أيضًا هو القرآن، فعلم أن المراد هو الإيمان بالقرآن، والكفر به باتفاقهم، وأنه من قال في أولئك: إنهم غير من آمن بمحمد؛ لم يتصور ما قال. وقد تقدم في قوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وجهان: هل هو عطف جملة أو مفرد؛ لكن الأكثرون على أنه مفرد. وقال الزجاج: المعنى: وكان من قبل هذا كتاب موسى دليل على أمر محمد، فيتلون كتاب موسى عطفًا على قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: ويتلو كتاب موسى؛ لأن موسى وعيسى بشّرا بمحمد في التوراة والإنجيل، ونصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال. قلت: قد تقدم أن الشاهد يتلو على من كان على بينة من ربه؛ أي: يتبعه شاهدًا له بما هو عليه من البينة. وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كمن لم يكن، قال الزجاج: وترك المعادلة؛ لأن فيما بعده دليلًا عليه، وهو قوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾[1]؛ قال ابن قتيبة: لما ذكر قبل هذه الآية قومًا ركنوا إلى الدنيا وأرادوها؛ جاء بهذه الآية، وتقدير الكلام: أفمن كانت هذه حاله كمن يريد الدنيا؟ فاكتفى من الجواب بما تقدم إذ كان دليلًا عليه. وقال ابن الأنباري: إنما حذف لانكشاف المعنى، وهذا كثير في القرآن. قلت: نظير هذه الآية من المحذوف: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[2] كمن ليس كذلك؟ وقد قال بعد هذا: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، وهذا هو القسم الآخر المعادل لهذا الذي هو على بينة من ربه؛ وعلى هذا يكون معناها: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[3]، ويكون أيضًا معناها: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: بصيرة في دينه، كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ وهذا كقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[4] الآية، وكقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾[5] الآية.

والمحذوف في مثل هذا النظم قد يكون غير ذلك؛ كقوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي

---

(١) هود: الآية (٢٤).
(٢) فاطر: الآية (٨).
(٣) محمد: الآية (١٤).
(٤) الأنعام: الآية (١٢٢).
(٥) يونس: الآية (٣٥).

ٱلْحِلْيَةِ﴾(١) أي: تجعلون له من ينشأ في الحلية، ولا بد من دليل على المحذوف، وقد يكون المحذوف مثل أن يقال: أفمن هذه حاله يذم أو يطعن عليه أو يعرض عن متابعته، أو يفتن أو يعذب؛ كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾.

وقد قيل في هذه الآية: إن المحذوف: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فرأى الباطل حقًّا، والقبيح حسنًا، كمن هداه اللّه فرأى الحق حقًّا، والباطل باطلًا، والقبيح قبيحًا، والحسن حسنًا؟ وقيل: جوابه تحت قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾(٢)؛ لكن يرد عليه أن يقال: الاستفهام ما معناه إلا أن تقدر؛ أي: هذا تقدر أن تهديه، أو ربك؟ أو تقدر أن تجزيه؛ كما قال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾(٣)؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾، وكما قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(٤) الآية. وعلى هذا يكون معناها كمعنى قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. وعلى هذا فالمعنى هنا: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ يذم ويخالف ويكذب ونحو ذلك، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ﴾(٥) وحذف جواب الشرط، وكقوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾(٦). فقد تبين أن معنى الآية من أشرف المعاني، وهذا هو الذي ينتفع به كل أحد، وأن الآية ذكرت من كان على بينة من ربه من الإيمان الذي شهد له القرآن، فصار على نور من ربه وبرهان من ربه على ما دلت عليه البراهين العقلية والسمعية؛ كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾(٧)؛ فالنور المبين المنزل يتناول القرآن. قال قتادة: بينة من ربكم، وقال الثوري: هو النبي ﷺ. وقال البغوي: هذا قول المفسرين ولم أجده منقولًا عن غير الثاني، ولا ذكره ابن الجوزي عن غيره. وذكر في البرهان ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحجة، والثاني: أنه الرسول، وذكر أنه القرآن عن قتادة. والذي رواه ابن أبي حاتم عن قتادة بالإسناد الثابت أنه

---

(١) الزخرف: الآية (١٨).

(٢) فاطر: الآية (٨).

(٣) الفرقان: الآية (٤٣).

(٤) الجاثية: الآية (٢٣).

(٥) الأنعام: الآية (٥٧).

(٦) العلق: الآيات (١١-١٣).

(٧) النساء: الآية (١٧٤).

بينة من اللَّه، والبينة والحجة تتناول آيات الأنبياء التي بعثوا بها، فكل ما دل على نبوة محمد ﷺ فهو برهان؛ قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، وقال لمن قال: لا يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾[2] ومحمد هو الصادق المصدوق، قد أقام اللَّه على صدقه براهين كثيرة، وصار محمد نفسه برهانًا، فأقام من البراهين على صدقه؛ فدليل الدليل دليل، وبرهان البرهان برهان، وكل آية له برهان، و(البرهان) اسم جنس لا يراد به واحد؛ كما في قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، ولو جاؤوا بعده ببراهين كانوا ممتثلين. والمقصود أن ذلك البرهان يعلم بالعقل أنه دالّ على صدقه، وهو بينة من اللَّه كما قال قتادة، وحجة من الله؛ كما قال مجاهد والسدي: المؤمن على تلك البينة، ويتلوه شاهد من اللَّه، وهو النور الذي أنزله مع البرهان. واللَّه أعلم»[3].

فهذا حاصل الكلام على هذه الآية؛ قال ابن تيمية: «فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن؛ تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج. وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه؛ فهذا منشأ الغلط من الغالطين؛ لا سيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية؛ فإن هؤلاء أكثر غلطًا من المفسرين المشهورين؛ فإنهم لا يقصدون معرفة معناه كما يقصد ذلك المفسرون. وأعظم غلطًا من هؤلاء وهؤلاء من لا يكون قصده معرفة مراد الله؛ بل قصده تأويل الآية بما يدفع خصمه عن الاحتجاج بها، وهؤلاء يقعون في أنواع من التحريف؛ ولهذا جوز من جوز منهم أن تتأول الآية بخلاف تأويل السلف، وقالوا: إذا اختلف الناس في تأويل الآية على قولين؛ جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث؛ بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين. وهذا خطأ؛ فإنهم إذا أجمعوا على أن المراد بالآية إما هذا وإما هذا؛ كان القول بأن المراد غير هذين القولين خلافًا لإجماعهم؛ ولكن هذه طريق من يقصد الدفع لا يقصد معرفة المراد، وإلا فكيف يجوز أن تضل الأمة عن فهم القرآن، ويفهمون منه كلهم غير المراد، ويأتي متأخرون يفهمون المراد؟! فهذا هذا. واللَّه أعلم»[4].

---

(١) القصص: الآية (٣٢).
(٢) البقرة: الآية (١١١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٦٢-٨١).
(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٤-٩٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بعثة النبي ﷺ بالبينة والقرآن

* عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلتُهُ عبدًا حلال. وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا. وإن اللَّه نظر إلى أهل الأرض فمَقَتَهم؛ عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتُكَ لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلتُ عليك كتابًا لا يغسله الماء؛ تقرؤه نائمًا ويقظان. وإن اللَّه أمرني أن أحرّق قريشًا، فقلت: رب! إذًا يثلغوا رأسي فيَدَعوه خبزةً، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزُهم نُغْزِكَ، وأنفِقْ فسنُنْفِقَ عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقسِطٌ متصدّق موفَّق، ورجلٌ رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلمٍ، وعفيفٌ متعفّف ذو عيال. قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تبعًا لا يتْبَعون أهلًا ولا مالًا، والخائن الذي لا يخفى له طمعٌ وإن دقّ إلا خانه، ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك -وذكر البخلَ أو الكذبَ- والشنظيرُ الفحّاشُ»[1].

★ غريب الحديث:

نحلته: أي أعطيته.

فاجتالتهم: أي: استخفوهم فذهبوا بهم، وجالوا معهم، وساقوهم إلى ما أرادوا بهم أو بمثله، فسّره الهروي وغيره. وقال شمر: اجتال الرجل الشيء: ذهب به وساقه، واجتال أموالهم واستجالها؛ أي: ساقها وذهب بها[2].

فمقتهم: المقت: أشد البغض.

لا يغسله الماء: معناه: محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه الذهاب؛ بل يبقى

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).

(٢) الإكمال (٨/ ٣٩٥).

على ممرّ الأزمان.

تقرؤه نائمًا ويقظان: معناه: يكون محفوظًا لك في حالتي النوم واليقظة. وقيل: تقرؤه في يسر وسهولة[١].

يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة: أي: يشدخوه ويشجوه كما يشدخ الخبز؛ أي: يكسر.

الذي لا زبر له: أي: لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي. وقيل: هو الذي لا مال له. وقيل: الذي ليس عنده ما يعتمده.

الخائن الذي لا يخفى له طمع: معنى لا يخفى: لا يظهر؛ قال أهل اللغة: يقال: خفيت الشيءَ: إذا أظهرته، وأخفيته: إذا سترته وكتمته؛ هذا هو المشهور. وقيل: هما لغتان فيهما جميعًا.

الشنظير: بكسر الشين والظاء المعجمتين وإسكان النون بينهما. وفسره في الحديث بأنه الفحّاش، وهو السيئ الخلق[٢].

وإني خلقتُ عبادي كلهم حنفاء: هو جمع حنيف، وهو المائل عن الأديان كلها إلى فطرة الإسلام، وهذا نحو قوله ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة»**[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه، كمثَل البهيمةِ تُنْتَجُ البهيمةَ؛ هل ترى فيها جدعاء؟»**[٤].

★ غريب الحديث:

تُنْتَجُ البهيمةَ: معناه: كما تلد البهيمة بهيمة[٥].

جدعاء: الجدعاء: المقطوعة الأذن[٦].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/ ١٦٣).
(٢) قاله النووي في شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٦٤).
(٣) المفهم (٦/ ٧١٢).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٦-٣٣٧)، والبخاري (٣/ ٣١٤/ ١٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨)، وأبو داود (٥/ ٨٦/ ٤٧١٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٩/ ٢١٣٨).
(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٧١).
(٦) فتح الباري (٣/ ٣٢٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أما قوله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»؛ فالصواب أنها فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها، وهي فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[1]، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة. فإن حقيقة الإسلام أن يستسلم لله؛ لا لغيره، وهو معنى (لا إله إلا الله)، وقد ضرب رسول اللَّه ﷺ مثل ذلك فقال: «**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء؛ هل تحسون فيها من جدعاء؟**»: بين أن سلامة القلب من النقص كسلامة البدن، وأن العيب حادث طارئ. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول اللَّه ﷺ فيما يروي عن الله: «**إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**». ولهذا ذهب الإمام أحمد ﷺ في المشهور عنه إلى أن الطفل متى مات أحد أبويه الكافرين حكم بإسلامه؛ لزوال الموجب للتغيير عن أصل الفطرة. وقد روي عنه؛ وعن ابن المبارك، وعنهما: أنهم قالوا: يولد على ما فطر عليه من شقاوة وسعادة. وهذا القول لا ينافي الأول؛ فإن الطفل يولد سليمًا، وقد علم اللَّه أنه سيكفر، فلا بد أن يصير إلى ما سبق له في أم الكتاب، كما تولد البهيمة جمعاء وقد علم اللَّه أنها ستجدع. وهذا معنى ما جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ في الغلام الذي قتله الخضر: «**طبع يوم طبع كافرًا؛ ولو ترك لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا**»[2] يعني: طبعه اللَّه في أم الكتاب؛ أي: كتبه وأثبته كافرًا؛ أي أنه إن عاش كفر بالفعل.

ولهذا لما سئل رسول اللَّه ﷺ عمن يموت من أطفال المشركين وهو صغير؛ قال: «**اللَّه أعلم بما كانوا عاملين**»[3] أي: اللَّه يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو

---

(١) الأعراف: الآية (١٧٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١١٨-١١٩)، ومسلم (٤/ ١٨٤٧-١٨٥٠/ ٢٣٨٠)، وأبو داود (٥/ ٨٠/ ٤٧٠٥)، والترمذي (٥/ ٢٩٢/ ٣١٥٠).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٢٤٤)، والبخاري (١١/ ٦٠٣/ ٦٥٩٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٩/ ٢٦٥٩(٢٧)، وأبو داود (٥/ ٨٦-٨٨/ ٤٧١٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٩-٣٩٠/ ٢١٣٨).

بلغوا. ثم إنه قد جاء في حديث إسناده مقارب عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة فإن اللَّه يمتحنهم، ويبعث إليهم رسولًا في عرصة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار»[١] فهنالك يظهر فيهم ما علمه اللَّه سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم وهو إيمانهم وكفرهم؛ لا على مجرد العلم.

وهذا أجود ما قيل في أطفال المشركين، وعليه تتنزل جميع الأحاديث. ومثل الفطرة مع الحق مثل ضوء العين مع الشمس، وكل ذي عين لو ترك بغير حجاب لرأى الشمس. والاعتقادات الباطلة العارضة من تهود وتنصر وتمجس مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس. وكذلك أيضًا كل ذي حس سليم يحب الحلو، إلا أن يعرض في الطبيعة فساد يحرفه حتى يجعل الحلو في فمه مرًّا. ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل؛ فإن اللَّه أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلمًا. وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع؛ هي فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها»[٢].

وقال ابن القيم: «ومما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل: إنه ولد على الفطرة، أو على الإسلام، أو على هذه الملة، أو خلق حنيفًا؛ فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده؛ فإن اللَّه يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[٣]، ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام لقربه ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له. وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض. وليس المراد أيضًا مجرد قبول الفطرة لذلك؛ فإن هذا القبول تغير بتهويد الأبوين

---

(١) أخرجه من حديث الأسود بن سريع ﷺ: أحمد (٤/ ٢٤)، والبزار (٣/ ٣٣-٣٤/ ٢١٧٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧٦/ ٤٠٤)، وأورده الهيثمي في المجمع، وقال: «رجاله في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح».

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٥-٢٤٧).

(٣) النحل: الآية (٧٨).

وتنصيرهما بحيث يخرجان الفطرة عن قبولها ، وإن سعيا بين بنيهما ودعائهما في امتناع حصول المقبول. وأيضًا فإن هذا القبول ليس هو الإسلام، وليس هو هذه الملة، وليس هو الحنيفية. وأيضًا فإنه شبه تغيير الفطرة بجدع البهيمة الجمعاء؛ ومعلوم أنهم لم يغيروا قبوله. ولو تغير القبول وزال لم تقم عليه الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب. بل المراد أن كل مولود فإنه يولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته، وادعائه له بالعبودية. فلو خلي وعدم المعارض؛ لم يعدل عن ذلك إلى غيره؛ كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة، فيشتهي اللبن الذي يناسبه ويغذيه. وهذا من قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2]، فهو سبحانه خلق الحيوان مهتديًا إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره. ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئًا فشيئًا بحسب حاجته. ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يفسد ما ولد عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة. فهكذا ما ولد عليه من الفطرة؛ ولهذا شبهت الفطرة باللبن؛ بل كانت إياه في التأويل للرؤيا. ولما عرض على النبي ﷺ ليلة الإسراء اللبن والخمر؛ أخذ اللبن، فقيل له: «**أخذت الفطرة؛ ولو أخذت الخمر لَغَوَتْ أمَّتُكَ**»[3]. فمناسبة اللبن لبدنه وصلاحه عليه دون غيره لمناسبة الفطرة لقلبه وصلاحه بها دون غيرها»[4].

قال القرطبي: «ومعنى الحديث: إن اللّه تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية؛ أدركت الحق. ودين الإسلام هو الدين الحق. وقد جاء ذلك صريحًا في الصحيح: «**جَبَلَ اللهُ الخلْقَ على معرفته، فاجتالتهم الشياطين**»[5]، وقد تقدم هذا المعنى، وقد دل على صحة هذا المعنى بقيةُ الخبر حيث قال: «**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء؛ هل تحسون فيها من جدعاء؟**»

---

(١) طه: الآية (٥٠).

(٢) الأعلى: الآيتان (٢و٣).

(٣) جزء من حديث الإسراء والمعراج أخرجه: البخاري (١٠/ ٣٧/ ٥٥٧٦)، ومسلم (١/ ١٥٤/ ١٦٨)، والترمذي (٥/ ٢٨٠/ ٣١٣٠) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) شفاء العليل (ص: ٢٨٨-٢٨٩).

(٥) يقصد حديث عياض المجاشعي.

يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخَلْق، سليمًا من الآفات، فلو نزل على أصل تلك الخلقة لبقي كاملًا بريئًا من العيوب، لكن يُتصرّف فيه، فتجدع أذنه، ويوسم وجهه، فتطرأ عليه الآفات والنقائص، فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع، ووجهه واضح»[١].

وقال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفطرة المذكورة في هذا الحديث اختلف العلماء فيها، واضطربوا في معناها، وذهبوا في ذلك مذاهب متباينة، ونزعت كل فرقة منهم في ذلك بظاهر آية ونص سنة، وسنبين ذلك كله ونوضحه، ونذكر ما جاء فيه من الآثار واختلاف الأقوال والاعتلال عن السلف والخلف بعون اللَّه إن شاء الله»[٢].

قلت: وقد وفى رَحِمَهُ اللَّهُ بما وعد به، فبسط أقوال العلماء وما نزعوا به في ذلك من الأدلة. وقد لخص ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك فقال: «فصل في تلخيص هذه الأقوال التي حكيناها:

فمنها قولان من جنس واحد، وهما: الأول: قول من يقول: وُلدوا على ما سبق به القدر. والثاني: قول من يقول: ولدوا على وجود المقدر، وكانوا مفطورين عليه من حين الميثاق الأول طوعًا وكرهًا. وقولان من جنس، وهما: الأول: قول من يقول: ولدوا قادرين على المعرفة. والثاني: قول من يقول: ولدوا قابلين لها وللتهود والتنصر؛ إما مع التساوي أو مع رجحان القبول للإسلام. وقولان من جنس، وهما: الأول: قول من يقول: ولدوا على فطرة الإسلام. والثاني: قول من يقول: ولدوا على الإقرار بالصانع، أو على المعرفة الأولى يوم أخذ الميثاق. وقولان من جنس، وهما: الأول: قول من يقول: ولدوا على سلامة القلب وخلوه من الكفر والإيمان. والثاني: قول من يقول: ولدوا مهيئين لذلك، قابلين له. وقولان من جنس، وهما: الأول: قول من يقول: الحديث منسوخ. والثاني: قول من يقف في معناه. والصحيح من هذه الأقوال ما دل عليه القرآن والسنة أنهم ولدوا حنفاء على فطرة الإسلام بحيث لو تركوا وفطرهم لكانوا حنفاء مسلمين؛ كما ولدوا أصحاء كاملي الخلقة، فلو تركوا وخلقهم لم يكن فيهم مجدوع

(١) المفهم (٦/ ٦٧٦).

(٢) فتح البر (٢/ ٢٠٤).

ولا مشقوق الأذن. ولهذا لم يذكر النبي ﷺ لذلك شرطًا مقتضيًا غير الفطرة، وجعل خلاف مقتضاها من فعل الأبوين. وقال النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ: «**إني خلقت عبادي حنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**». فأخبر أن تغيير الحنيفية التي خلقوا عليها بأمر طارئ من جهة الشيطان. ولو كان الكفار منهم مفطورين على الكفر؛ لقال: خلقت عبادي مشركين، فأتتهم الرسل فاقتطعتهم عن ذلك؛ كيف وقد قال: «**خلقت عبادي حنفاء كلهم**»، فهذا القول أصح الأقوال، واللَّه أعلم»[1].

وقال شيخ الإسلام: «الدلائل الدالة على أنه أراد: على فطرة الإسلام؛ كثيرة، كألفاظ الحديث التي في الصحيح مثل قوله: «**على الملة**»، و«**على هذه الملة**»[2]، ومثل قوله في حديث عياض بن حمار: «**خلقت عبادي حنفاء كلهم**»، وفي لفظ: «**حنفاء مسلمين**»، ومثل تفسير أبي هريرة وغيره من رواة الحديث ذلك، وهم أعلم بما سمعوا. وأيضًا فإنه لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام؛ لما سألوا عقب ذلك: «**أرأيتَ من يموت من أطفال المشركين وهو صغير؟**»؛ لأنه لو لم يكن هناك ما يغير تلك الفطرة لما سألوه؛ والعلم القديم وما يجري مجراه لا يتغير. وكذلك قوله: «**فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**»؛ بيّن فيه أنهم يغيرون الفطرة التي فُطر الناس عليها. وأيضًا فإنه شبّه ذلك بالبهيمة التي تولد مجتمعة الخلق؛ لا نقص فيه، ثم تُجدَع بعد ذلك، فعُلم أن التغيير وارد على الفطرة السليمة التي وُلد العبد عليها. وأيضًا فإن الحديث مطابق للقرآن لقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[3]، وهذا يعم جميع الناس، فعُلم أن اللَّه فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة. وفطرة اللَّه أضافها إليه إضافة مدح؛ لا إضافة ذم، فعلم أنها فطرة محمودة؛ لا مذمومة. يبين ذلك أنه قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وهذا نَصبٌ على المصدر الذي دل عليه الفعل الأول عند سيبويه وأصحابه. فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفًا هو فطرة اللَّه التي فطر الناس

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ١٠٦٨-١٠٧٠).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: أحمد (٢/ ٢٥٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٢٠٣/ ١١٩٢١).

(٣) الروم: الآية (٣٠).

عليها؛ كما في نظائره مثل قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾[(١)]، وقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[(٢)]، فهذا عندهم مصدر منصوب بفعل مضمر لازم إضماره، دل عليه الفعل المتقدِّم؛ كأنه قال: كتب اللَّه ذلك عليكم، وسنّ اللَّه ذلك. وكذلك هنا فطر اللَّه الناس على ذلك: على إقامة الدين لله حنيفًا. وكذلك فسره السلف كما تقدم النقل عنهم»[(٣)].

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أن هذا الحديث لما صارت القدرية يحتجون به على قولهم الفاسد؛ صار الناس يتأولونه تأويلات يخرجونه بها عن مقتضاه. فالقدرية من المعتزلة وغيرهم يقولون: كل مولد يولد على الإسلام، واللَّه لا يضل أحدًا، ولكن أبواه يضلاّنه.

والحديث حجة عليهم من وجهين: أحدهما: أنه عند المعتزلة ونحوهم من المتكلمين: لم يولد أحد على الإسلام أصلًا، ولا جعل اللَّه أحدًا مسلمًا ولا كافرًا، ولكن هذا أحدث لنفسه الكفر، وهذا أحدث لنفسه الإسلام، واللَّه لم يفعل واحدًا منهما عندهم، بلا نزاع بين القدرية، ولكن هو دعاهما إلى الإسلام، وأزاح علتهما، وأعطاهما قدرة مماثلة فيهما تصلح للإيمان والكفر، ولم يختص المؤمن بسبب يقتضي حصول الإيمان؛ فإن ذلك عندهم غير مقدور، ولو كان مقدورًا لكان ظلمًا. وهذا قول عامة المعتزلة. وإن كان بعض متأخريهم كأبي الحسين يقول: إنه خص المؤمن بداعي الإيمان، ويقول: عند الداعي والقدرة يجب وجود الإيمان؛ فهذا في الحقيقة موافق لأهل السنة. فهذا أحد الوجهين. والثاني: أنهم يقولون: إن معرفة اللَّه لا تحصل إلا بالنظر المشروط بالعقل، فيستحيل أن تكون المعرفة عندهم ضرورية، أو تكون من فعل اللَّه تعالى. وأما آخر الحديث فهو دليل على أن اللَّه تعالى يعلم ما يصيرون إليه بعد ولادتهم على الفطرة؛ هل يبقون عليها فيكونون مؤمنين؟ أو يغيرونها فيصيرون كفارًا؟ وإن احتجت القدرية بقوله: «**فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**» من جهة كونه أضاف التغيير إلى الأبوين؛ فيقال لهم: أنتم تقولون: إنه لا يَقْدِر: لا اللهُ

---

(١) النساء: الآية (٢٤).

(٢) الفتح: الآية (٢٣).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٧١-٣٧٢).

ولا أحدٌ من مخلوقاته على أن يجعلهما يهوديين أو نصرانيين أو مجوسيين؛ بل هما فَعَلا بأنفسهما ذلك، بلا قدرة من غيرهما ولا فعل من غيرهما، فحينئذ لا حجة لكم في قوله: «**فأبواه يهودانه..**». وأهل السنة متفقون على أن غير اللَّه لا يقدر على جعل الهدى أو الضلال في قلب أحد. فقد اتفقت الأمة على أن المراد بذلك: دعوة الأبوين لهما إلى ذلك، وترغيبهما فيه، وتربيتهما عليه، ونحو ذلك مما يفعل المعلم والمربي مع من يعلمه ويربيه. وذكرُ الأبوين بناء على الغالب؛ إذ لكل طفل أبوان، وإلا فقد يقع ذلك من أحد الأبوين، وقد يقع من غير الأبوين حقيقة وحكمًا»[١].

قلت: وسيأتي مزيد كلام على هذا المعنى عند قوله تعالى من سورة (الروم): ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية (٣٠)، وباللَّه التوفيق.

* * *

(١) المصدر السابق (٨/ ٣٧٧-٣٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مِرية: شكّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ بهذا القرآن، فيجحد أنه من عند اللَّه، ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾، وهم المتحزّبة على مللهم؛ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، إنه يصير إليها في الآخرة بتكذيبه. يقول اللَّه لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، يقول: فلا تك في شكّ منه، من أن موعد من كفر بالقرآن من الأحزاب النارُ، وأن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك من عند اللَّه.

ثم ابتدأ -جل ثناؤه- الخبر عن القرآن، فقال: إن هذا القرآن الذي أنزلناه إليك - يا محمد- ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لا شك فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بأن ذلك كذلك»[1].

وقال ابن تيمية: «والأحزاب هم أصناف الأمم، الذين تحزبوا وصاروا أحزابًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ﴾[2].

وقد ذكر اللَّه طوائف الأحزاب في مثل هذه السورة وغيرها، وقد قال تعالى عن مكذبي محمد ﷺ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾[3]، وهم الذين قال فيهم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١٨-١٩). (٢) غافر: الآية (٥).

(٣) ص: الآية (١١).

ﭐلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[١]، وقال عن أحزاب النصارى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢] الآيات»[٣].

وقال الشنقيطي: «صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن لا يكفر به أحد كائنًا من كان إلا دخل النار. وهو صريح في عموم رسالة نبينا ﷺ إلى جميع الخلق. والآيات الدالة على ذلك كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[٤]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٥]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[٦] الآية، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٧] الآية.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية:

نهى اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عن الشك في هذا القرآن العظيم، وصرح أنه الحق من اللَّه. والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة جدًّا؛ كقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٨] الآية، وقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٩]، ونحو ذلك من الآيات. والمرية: الشك.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن أكثر الناس لا يؤمنون، وبين ذلك أيضًا في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[١٠]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾[١١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[١٢]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١٣]، إلى غير ذلك من الآيات»[١٤].

---

(١) الروم: الآيات (٣٠-٣٢).
(٢) مريم: الآية (٣٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٧٥-٧٦).
(٤) الأنعام: الآية (١٩).
(٥) الفرقان: الآية (١).
(٦) سبأ: الآية (٢٨).
(٧) الأعراف: الآية (١٥٨).
(٨) البقرة: الآيتان (١و٢).
(٩) السجدة: الآيتان (١و٢).
(١٠) يوسف: الآية (١٠٣).
(١١) الأنعام: الآية (١١٦).
(١٢) الصافات: الآية (٧١).
(١٣) الشعراء: الآية (٨).
(١٤) أضواء البيان (٣/ ١٤-١٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في عموم رسالته ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن

* عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار**». فجعلت أقول: أين تصديقها في كتاب الله؟ حتى وجدت هذه الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قال: الأحزاب: الملل كلها[1].

* عن أبي هريرة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به؛ إلا كان من أصحاب النار**»[2].

★فوائد الحديثين:

قوله: «**أحدٌ من هذه الأمة**»: قال القرطبي: «المراد بالأمة في هذا الحديث: كل من أرسل إليه محمد ﷺ، ولزمته حجته؛ سواء صدّقه أو لم يصدّقه، ولذلك دخل فيه اليهودي والنصراني، لكن هذا على مساق حديث مسلم هذا؛ فإنه قال فيه: «**لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني**» بغير (واو) العطف؛ فإنه يكون بدلًا من الأمة، وقد روى هذا الحديث عبدُ بن حميد، وقال: «**لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يهودي، ولا نصراني**»، فحينئذ لا يدخل اليهودي ولا النصراني في الأمة المذكورة، واللَّه تعالى أعلم»[3].

قال النووي: «قوله ﷺ: «**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة**» أي: ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة؛ فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته. وإنما ذكر

---

(١) أخرجه: الحاكم (٢/ ٣٤٢) واللفظ له، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي؛ من حديث ابن عباس.
وأخرجه: أحمد (٤/٣٩٦-٣٩٨)، والبزار (كشف الأستار ١/١٦/١٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٦١) وقال: «رواه الطبراني.. وأحمد.. ورجال أحمد رجال الصحيح»، والبزار أيضًا باختصار. وأخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٣٥٠)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٠)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣).

(٣) المفهم (١/ ٣٦٨).

اليهودي والنصراني تنبيهًا على من سواهما ؛ ذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا ؛ فغيرهم ممن لا كتاب له أولى ، والله أعلم»[١] .

وقال السندي: «والمراد أن كل من بلغته دعوته ﷺ، وثبتت عنده رسالته ؛ يجب عليه الإيمان به ؛ أمّيًا كان أو كتابيًا . فإن لم يؤمن به ؛ لم يدخل الجنة . وعُلم منه عموم رسالته ﷺ إلى الكلّ ، والله تعالى أعلم»[٢] .

وقال النووي: «وفي الحديث نسخ الملل كلّها برسالة نبينا ﷺ»[٣] .

* * *

(١) شرح صحيح مسلم (٢/ ١٦٢).

(٢) حاشية المسند (٣٢/ ٣٠٦).

(٣) شرح صحيح مسلم (٢/ ١٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يُعرَضون: العرض: إبراز الشيء، وجعله بحيث يرى على حاله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «أي: لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممّن افترى على اللَّه كذبًا في وحيه وأقواله، أو أحكامه أو صفاته أو أفعاله.

وقد تقدم مثل هذه الجملة في (الأنعام) و(الأعراف) و(يونس)، وسيأتي في (الكهف) و(العنكبوت) و(الصف)، ويفسر الافتراء في كل آية بما يدل عليه السياق، وأظهره هنا: اتخاذُ الشركاء والأولياء والشفعاء له بدون إذنه، وزعمُ من زعم أنه اتخذ له ولدًا من الملائكة؛ كالعرب الذين قالوا: الملائكة بنات اللَّه، والوثنيين الذين قالوا: إن كرشنا ابن اللَّه، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن اللَّه، وكذا من افترى عليه بتكذيب ما جاء به رسله من دينه؛ لصدهم الناس عن سبيله.

﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة لمحاسبتهم، وتعرض عليه أعمالهم وأقوالهم، ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ الذين يقومون بأمره للشهادة عليهم من الملائكة الكرام الكاتبين، والأنبياء المرسلين، وصالحي المؤمنين. الأشهاد: جمع شاهد؛ كأصحاب، أو شهيد؛ كأشراف.

﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: يشيرون إليهم بأشخاصهم فيفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة باللعنة، الدالة على خروجهم في ذلك اليوم من محيط الرحمة، وجملة اللعنة يجوز أن تكون من كلام الأشهاد، وأن

تكون مستأنفة من كلام اللَّه تعالى؛ وفي معنى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾[1].

وفي حديث ابن عمر في الصحيحين وغيرهما: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن اللَّه يدني المؤمن حتى يضع كنفه عليه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: ربِّ! أعرف؛ حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك؛ قال: فإني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّـٰلِمِينَ﴾**»[2][3].

وقال ابن عاشور: «لما انقضى الكلام من إبطال زعمهم أنّ النبي ﷺ افترى القرآن ونسبه إلى اللَّه، وتعجيزهم عن برهان لما زعموه؛ كَرّ عليهم أن قد وضح أنهم المفترون على اللَّه عدة أكاذيب؛ منها نفيهم أن يكون القرآن منزّلًا من عنده.

فعطفت جملة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ على جملة ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[4] لبيان استحقاقهم النار على كفرهم بالقرآن؛ لأنهم كفروا به افتراء على اللَّه إذ نسبوا القرآن إلى غير مَن أنزله، وزعموا أنّ الرسول ﷺ افتراه، فكانوا بالغين غاية الظلم حتى لقد يسأل عن وجود فريق أظلَمَ منهم سؤالَ إنكار يؤول إلى معنى النفي؛ أي: لا أحد أظلم. وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ اللَّهِ﴾[5] في سورة (البقرة)، وفي سورة (الأعراف) في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾[6].

وافتراؤهم على اللَّه هو ما وضعوه من دين الشرك، كقولهم: إن الأصنام شفعاؤهم عند اللَّه، وقولهم في كثير من أمور دينهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[7]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى

(١) غافر: الآيتان (٥١و٥٢).
(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.
(٣) تفسير المنار (١٢/ ٥٤-٥٥).
(٤) الآية (١٧).
(٥) سورة البقرة: الآية (١١٤).
(٦) الآية (٣٧).
(٧) الأعراف: الآية (٢٨).

ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ﴾[(١)]؛ أي: إذ يقولون: أمرنا اللَّه بذلك»[(٢)].

وقال الخازن: «وفي الآية دليل على أن الكذب على اللَّه من أعظم أنواع الظلم؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ورد في معرض المبالغة»[(٣)].

وقال المراغي: «وقد جاء في معنى الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[(٤)]»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع المذنب من المؤمنين

* عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر ﭭ آخذٌ بيده إذ عَرَضَ رجلٌ فقال: كيف سمعت رسول اللَّه ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن اللَّه يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب! حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك؛ قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**»[(٦)].

★ **غريب الحديث:**

النجوى: النجوى والنجي: السر. والنجو: السر بين اثنين؛ يقال: نجوتُهُ نجوًا؛ أي: ساررتُهُ.

قرّره: من الإقرار: الإذعان للحق، والاعتراف به.

---

(١) المائدة: الآية (١٠٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٢).
(٣) تفسير الخازن (٢/ ٣٢٦).
(٤) غافر: الآيتان (٥١و٥٢).
(٥) تفسير المراغي (١٢/ ٢١).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٤و١٠٥)، والبخاري (٥/ ١٢٢/ ٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٢٠/ ٢٧٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤/ ١١٢٤٢)، وابن ماجه (١/ ٦٥/ ١٨٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال الغنيمان: «فاللَّه تعالى يقرب بنفسه إلى من يشاء من خلقه، وهو فوق عرشه، عالٍ على خلقه، ولا يجوز تأويل النصوص في ذلك مثل قوله ﷺ: «**يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه**».

ولا يلزم أن يكون كل نص في القرب يراد به قرب اللَّه تعالى بنفسه؛ بل ينظر في النص الوارد في ذلك، فإن دل على قربه بنفسه حمل عليه؛ كما في هذا الحديث، وإن دل على قرب ملائكته ورسله حمل عليه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[١]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[٢].

وهذا الحديث ظاهر في أن العبد يدنو من ربه، بل هو نص صريح في ذلك، فصرفه عن ظاهره تحريف لكلام رسول اللَّه ﷺ وتلاعب به، يعد من عظائم الذنوب، يجب على المؤمن التحرز منه.

وما نقله الحافظ عن ابن التين أنه قال: (يعني: يقرب من رحمته، وهو سائغ في اللغة؛ يقال: فلان قريب من فلان، ويراد الرتبة)؛ فهو تأويل الجهمية المعروف الذي ذكره السلف عنهم، وردّوه، وبيّنوا أنه مخالف لقول اللَّه تعالى، ولقول رسوله ﷺ، ولعقيدة أهل العلم والإيمان، وهو سلوك غير سبيل المؤمنين.

قال شيخ الإسلام: (وبيان بطلان هذا التأويل من وجوه:

أحدها: أن ما يدنو إليه العبد من الرحمة والإيمان وغير ذلك؛ إما أن تكون أعيانًا قائمة بأنفسها، أو صفات قائمة بغيرها، فإن كانت صفات؛ فمعلوم أن القرب إلى الصفة لا يكون إلا بالقرب إلى الموصوف نفسه.

فأما قربه من صفته القائمة به دون قربه من نفسه؛ فظاهر البطلان والفساد، ولهذا لم يقله أحد من العباد، بل الذي يحيل القرب إلى نفسه هو للقرب إلى صفاته أشد إحالة، إن كان يثبت له صفة.

---

(١) ق: الآية (١٦).
(٢) الواقعة: الآية (٨٥).

ومن المعلوم أن قوله: «يدنو العبد من ربه، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: أعرف ربّ»، وقوله: «إن اللَّه يدني المؤمن فيضع عليه كنفه»، وقوله: «فيدنيه اللَّه منه، فيضع عليه كنفه»، وقوله: «يدنو أحدكم من ربه فيضع عليه كنفه»؛ كل هذه الألفاظ صريحة واضحة، كل من سمعها علم بالاضطرار أن الذي يدني العبد، ويضع عليه كنفه، ويقرره بذنوبه، ويغفرها له هو اللَّه، لا أحد من خلقه، فكيف يجوز أن يقال: لا يدنو العبد من ربه، وإنما يدنو من بعض مخلوقاته؟ وهل ذلك إلا بمثابة من يقول: إن من يقرره بذنوبه هو بعض مخلوقاته؟ كما يقوله الجهمية القائلون بأن اللَّه تعالى لا يقوم به كلام، وإنما الكلام يقوم ببعض مخلوقاته. وهو أيضًا بمنزلة أن يقال: إن اللَّه لا يغفر له، وإنما يغفر له بعض مخلوقاته.

وهذا مما يعلم بالاضطرار أنه خلاف ما أخبرت به الرسل، وأنه شرك صريح في إلهية اللَّه وربوبيته؛ ولهذا قال بعض السلف: إن من زعم أن قوله لموسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[1] مخلوق؛ فهو كافر؛ لأنه جعل هذا الكلام قائمًا بمخلوق يلزم أن يكون هو الرب. وسائر تأويلات الجهمية وأهل الباطل من هذا الجنس.

الثاني: أن هذا الدنو، ووضع الكنف، والمخاطبة تكون وقت السؤال، والعبد خائف غير آمن، ولا ظهر له أنه يغفر له ويرحم؛ كما هو صريح الحديث الصحيح بقوله: «يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربّ! حتى إذا قرّره، ورأى في نفسه أنه قد هلك؛ قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

فإذا كان العبد حين هذا الدنو من اللَّه، والمخاطبة، والتقرير بذنوبه يرى أنه قد هلك قبل أن يذكر له الرب تعالى أنه غفر له؛ امتنع أن يكون ما ذكره من دنوه من الله؛ هو دنوه من رحمته وأمانه وتعطفه.

الثالث: أن الرحمة والعطف والأمان، إن كانت صفات لله تعالى؛ كان القرب إليها قربًا إلى الموصوف؛ كما تقدم، وإن كانت أعيانًا قائمة بنفسها مخلوقة لله

---

(١) طه: الآية (١٢).

تعالى؛ فمن المعلوم أن حين الحساب في عرصات القيامة لا يكون هناك أجسام مخلوقة من الرحمة التي أعدها اللَّه تعالى لعباده، ولكن هو يحكم بالعفو والمغفرة، ثم ينقلون إلى دار الرحمة. فامتنع أن يكون أحد حال المحاسبة مقربًا إلى أجسام هي رحمة قبل أن يؤذن لهم في دخول الجنة.

الرابع: أن يقال: من المعلوم أن اللَّه تعالى أخبر في كتابه بأصناف ما ينعم به على عباده من المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، والمساكن، وقد أجمل ما لم يفصله في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1]. وهذه الأمور يباشرها المؤمن مباشرة، لا يكون جزاؤه مجرد قربه منها دون مباشرتها؛ بل ذلك يكون حسرة وعذابًا، فدعوى الإكرام بمجرد التقريب من هذه الأمور دون مباشرتها؛ كلام باطل لا حقيقة له.

الخامس: أن المؤمن لم يزل في رحمة اللَّه في الدنيا والآخرة، فلا يجوز تخصيص حال السؤال بقربه من رحمته، دون ما قبل ذلك وما بعده؛ بل هو ما زال مباشرًا لما يرحمه اللَّه به قبل وبعد، فأي فائدة في أن يوصف بالقرب من شيء ما زال مباشرًا له، لا ينفصل عنه؟!

السادس: أنه في العرض على اللَّه يظهر له من الأهوال والشدة ما يكون أعظم عليه وأشد لرهبه وألمه من كل ما كان قبل ذلك وبعده، فكيف يجوز تخصيص أشد الأحوال عليه بأنه يقرب فيه مما يرحم به، مع أن ما قبلها وما بعدها كان ما يرحمه به إليه أقرب، وهو له أعظم مباشرة ونيلًا؟!

السابع: أن قولهم: يقرب من رحمة اللَّه، وأمانه ولطفه، ونحو ذلك من تأويلهم؛ لا ريب أنه من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. ومن المعلوم في اللغة العربية أن هذا لا يجوز إلا إذا اقترن بالكلام ما يبيّن المحذوف، فلا يقال: جاء زيدٌ، والمقصود غلامه أو رسوله.

والحديث نص في أن اللَّه تعالى هو الذي يدني عبده من نفسه؛ ولهذا لا يسمع أحد هذا الكلام فيفهم أن اللَّه يدنيه من شيء آخر، ولا يخطر هذا ببال المستمع،

---

(١) السجدة: الآية (١٧).

فكيف يجوز أن يكون الرسول ﷺ أراد الباطل الذي قالوه؟!

الثامن: أن قوله: «فيدنيه منه، فيضع عليه كنفه، ثم يقرّره بذنوبه» الجمع بين الإدناء ووضع الكنف، وتقريره بذنوبه؛ قرينة تعين أن اللّٰه تعالى هو الذي يدني إليه عبده، ويضع عليه كنفه، فيستره من الناس؛ كما صرح به في الحديث.

التاسع: أن هذا الحديث دل على ما دل عليه القرآن من وقوف العباد على اللّٰه، وخطابه لهم، ومن المعلوم بالاضطرار من رسالات الرسل، ومن دين الإسلام أن هذا إنما هو يوم القيامة، وأن أحوال العباد مع اللّٰه يوم القيامة غير أحوالهم في الدنيا، وعلى قول هؤلاء المؤولة لا فرق بين الدنيا والآخرة؛ فإن اللّٰه لا يقرب إليه شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يقفون على ربهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يصيرون إليه، وإنما ذلك كله إلى بعض مخلوقاته ومقدوراته، كما أن خطابه لهم عند الجهمية وأتباعهم)[١] معناه أنه يخلق كلامًا في بعض مخلوقاته يكلمهم منها، وعند الأشاعرة الذين هم فرع عن الجهمية يخلق إدراكًا في العباد يفهمون به المعنى الواحد القائم بذاته تعالى؛ وهذا تكذيب لكتاب اللّٰه ولرسوله، ومناقضة لدين الإسلام الذي فطر على قبوله العباد»[٢].

وقال الحافظ: «قال المهلب: في الحديث تفضل اللّٰه على عباده بستره لذنوبهم يوم القيامة، وأنه يغفر ذنوب من شاء منهم، بخلاف قول من أنفذ الوعيد على أهل الإيمان؛ لأنه لم يستثن في هذا الحديث ممن يضع عليه كنفه وستره أحدًا إلا الكفار والمنافقين؛ فإنهم الذين ينادى عليهم على رؤوس الأشهاد باللعنة.

قلت: قد استشعر البخاري هذا فأورد في كتاب المظالم هذا الحديث ومعه حديث أبي سعيد: «**إذا خلص المؤمنون من النار؛ حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة**»[٣] الحديث؛ فدل هذا الحديث على أن المراد بالذنوب في حديث ابن عمر ما يكون بين المرء وربه ﷻ دون مظالم العباد، فمقتضى الحديث أنها تحتاج إلى

---

(١) من بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية.

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٣١٢-٣١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣)، والبخاري (٥/ ١٢١/ ٢٤٤٠)، ومسلم (١/ ١٦٧-١٧١/ ١٨٣).

المقاصصة، ودل حديث الشفاعة أن بعض المؤمنين من العصاة يعذب بالنار ثم يخرج منها بالشفاعة؛ كما تقدم تقريره في كتاب الإيمان. فدل مجموع الأحاديث على أن العصاة من المؤمنين في القيامة على قسمين:

أحدهما: من معصيته بينه وبين ربه، فدل حديث ابن عمر على أن هذا القسم على قسمين: قسم تكون معصيته مستورة في الدنيا، فهذا الذي يسترها اللَّه عليه في القيامة، وهو بالمنطوق، وقسم تكون معصيته مجاهرة، فدل مفهومه على أنه بخلاف ذلك.

والقسم الثاني: من تكون معصيته بينه وبين العباد، فهم على قسمين أيضًا: قسم ترجح سيئاتهم على حسناتهم، فهؤلاء يقعون في النار ثم يخرجون بالشفاعة، وقسم تتساوى سيئاتهم وحسناتهم، فهؤلاء لا يدخلون الجنة حتى يقع بينهم التقاص؛ كما دل عليه حديث أبي سعيد. وهذا كله بناء على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة أن (اللَّه تبارك وتعالى يفعل ما)[1] يفعله باختياره، وإلا فلا يجب على اللَّه شيء، وهو يفعل في عباده ما يشاء»[2].

وقال العيني: «وفيه حجة لأهل السنة أن أهل الذنوب من المؤمنين لا يكفرون بالمعاصي؛ كما زعمت الخوارج. وفيه حجة أيضًا على المعتزلة في مغفرة الذنوب إلا الكبائر»[3].

وقال: «المراد بالظلم هنا: الكفر والنفاق؛ وليس كل ظلم يدخل في معنى الآية ويستحق اللعنة؛ لأنه لا يكون عقوبة الكفر عند اللَّه كعقوبة صغائر الذنوب. واللعن: الإبعاد والطرد. وهذا الحديث يبين أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[4] أن السؤال عن النعيم الحلال إنما هو سؤال تقرير وتوقيف له على نعمه التي أنعم بها عليه؛ ألا يرى أن اللَّه تعالى يوقفه على ذنوبه التي عصاه فيها ثم يغفرها له، وإذا كان كذلك؛ فسؤاله عباده عن النعيم الحلال أولى أن يكون سؤال تقرير، لا سؤال حساب وانتقام»[5].

---

(١) في الأصل بياض، وما بين القوسين يظهر مناسبًا للسياق.
(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٩٩).
(٣) عمدة القاري (٩/ ١٨٨).
(٤) التكاثر: الآية (٨).
(٥) عمدة القاري (٩/ ١٨٧).

وقال عبد الحق الإشبيلي: «فتفكر -أيها المسكين- في نفسك بينا أنت في مهلة من عمرك هذا اليوم الذي وصف لك، وفي هذا الحال الذي حدثت عنه، وقد جيء بجهنم -كما يروى في الصحيح- تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها؛ حتى تكون بمرأى من الخلق ومسمع، يرون لهيبها، ويسمعون زفيرها، إذ أخذ بضبعيك، وقبض على عضديك، وجيء بك تتخطى الرقاب وتخترق الصفوف، والخلائق ينظرون إليك؛ حتى وقفت بين يدي اللَّه تعالى، فسئلت عن القليل والكثير، والنقير والقطمير، ولا تجد أحدًا يجاوب عنك بلفظة، ولا يعينك بكلمة، ولا يردّ عنك جوابًا في مسألة، وأنت قد شاهدت من عظم الأمر، وجلالة القدر، وهيبة الحضرة ما أذهب بيانك، بل ما أخرس لسانك، وأذهل جنانك، ونظرت يمينًا وشمالًا وبين يديك، فلم تر إلا النار وعملك الذي كنت تعمل، وكلّمك رب العزة ﷻ بغير حجاب يحجبك، ولا ترجمان يترجم لك؛ كما جاء في الخبر الصحيح، وسئلت عن كل شيء كان منك في حق نفسك وحق غيرك، وقيل: مالك من أين اكتسبته؟ ومن أين جمعته؟ وفيم أنفقته؟ فما ظنك بنفسك في ذلك اليوم؟ وكيف تقول يكون فزعك وجزعك؟ وكيف تكون حيرتك ودهشتك إذا قيل لك: عاملت فلانًا يوم كذا وكذا وكذا في كذا وكذا، وأخذت منه كذا وكذا، وغبنته في كذا وكذا، وتركت نصيحته في هذه السلعة، ولم تبين له هذا العيب، أو غصبت فلانًا، أو ظلمت فلانًا، أو غششت فلانًا، أو قتلت فلانًا، أو فعلت كذا وفعلت كذا، وقيل لك: أَدْلِ بحجة! قم ببينة! ائت ببرهان! انفذ بسلطان! فأردت الكلام فلم تُبِن، وجئت بعذر فلم تستبن، هيهات أنى لك بالكلام وفي الدنيا لم تنقحه! وأنى لك بالعذر وفي الدنيا لم تصححه! قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[1]»[2].

* * *

(١) النبأ: الآيات (٣٨-٤٠).

(٢) كتاب العاقبة (ص: ٢١٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عِوَجًا: العِوَج، بكسر العين: الميل عن طريق الاستواء والاستقامة في الدين والقول والعمل. وبفتحها: المَيْلُ في كل شيء منتصب كالحائط والعصا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «يجوز أن تكون (الذين) في موضع خفض نعتًا للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي: هم الذين. وقيل: هو ابتداء خطاب من اللَّه تعالى؛ أي: هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك. ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أعاد لفظ (هم) تأكيدًا»[(١)].

وقال الخازن: «هذه الآية متصلة بما قبلها، والمعنى: ألا لعنة اللَّه على الظالمين، ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يعني: يمنعون الناس من الدخول في دين اللَّه الذي هو دين الإسلام، ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾، يعني: ويطلبون إلقاء الشبهات في قلوب الناس، وتعويج الدلائل الدالة على صحة دين الإسلام، ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، يعني: وهم مع صدهم عن سبيل اللَّه يجحدون البعث بعد الموت وينكرونه»[(٢)].

وقال محمد بن الطاهر بن عاشور: «تقدم نظيره في سورة (الأعراف). وضمير المؤنث في قوله: ﴿يَبْغُونَها﴾ عائد إلى سبيل الله؛ لأنّ السبيل يجوز اعتباره مؤنثًا.

والمعنى: أنهم يبغون أن تصير سبيل اللَّه عوجاء، فعلم أن سبيل اللَّه مستقيمة،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٩).

(٢) تفسير الخازن (٢/ ٣٢٧).

وأنهم يحاولون أن يصيروها عوجاء؛ لأنهم يريدون أن يتبع النبي ﷺ دينهم، ويغضبون من مخالفته إياه. وهنا انتهى كلام الأشهاد؛ لأن نظيره الذي في سورة (الأعراف) في قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] الآية؛ انتهى بما يماثل آخر هذه الآية.

واختصت هذه الآية على نظيرها في (الأعراف) بزيادة (هم) في قوله: ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وهو توكيد يفيد تقوّي الحكم؛ لأن المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريرِه؛ إشعارًا بما يترقبهم من العقاب المناسب، فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا، وما في سورة (الأعراف) حكاية لما قيل في شأن قوم أُدخلوا النار وظهر عقابهم، فلا غَرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأشهاد، وكلا المقالتين واقع، وإنما يحكي البليغ فيما يحكيه ما له مناسبة لمقام الحكاية»[2].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

معجزين: العجز: القصور عن فعل الشيء وانتفاء القدرة على تحصيله.

يستطيعون: الاستطاعة: القدرة على الإتيان بالشيء.

لا جَرَمَ: أصل الجرم: القطع. يقال: جَرَمَ الثَّمْرَ: إذا قَطَعَه. والإجرام: الانقطاع عن الحق إلى الباطل. وتقدير (لا جرم): لا شكَّ ولا مرية. قال الفراء: معناه تبرئة، بمعنى: لا بد. ثم استعملته العرب في معنى (حقًّا). (انظر اللسان: مادة جرم). قال الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة ... جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أي: قطعتهم عن الغضب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ أي: بل كانوا تحت قهره وغَلَبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[1]، وفي الصحيحين: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِته**»[2].

(١) إبراهيم: الآية (٤٢).

(٢) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).

ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: يضاعف عليهم العذاب؛ وذلك لأن اللَّه تعالى جعل لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدةً، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم؛ بل كانوا صُمًّا عن سماع الحق، عُميًا عن اتباعه؛ كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾[2]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبوه. ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا نارًا حامية، فهم معذبون فيها لا يُفَتَّر عنهم من عذابها طرفة عين؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[3].

و﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: ذهب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من دون اللَّه من الأنداد والأصنام، فلم تُجْدِ عنهم شيئًا؛ بل ضرّتهم كل الضرر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[5]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[7]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم، وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن

---

(١) الملك: الآية (١٠).
(٢) النحل: الآية (٨٨).
(٣) الإسراء: الآية (٩٧).
(٤) الأحقاف: الآية (٦).
(٥) مريم: الآيتان (٨١و٨٢).
(٦) العنكبوت: الآية (٢٥).
(٧) البقرة: الآية (١٦٦).

قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون»[١].

وفي هذه الآيات ذكر بعض ما اتصف به هؤلاء الكافرون في الدنيا والآخرة. قال الرازي: «اعلم أن اللَّه تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض الذم:

الصفة الأولى: كونهم مفترين على اللَّه، وهي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

والصفة الثانية: أنهم يعرضون على اللَّه في موقف الذل والهوان والخزي والنكال، وهي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

والصفة الثالثة: حصول الخزي والنكال والفضيحة العظيمة، وهي قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

والصفة الرابعة: كونهم ملعونين من عند اللَّه، وهي قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والصفة الخامسة: كونهم صادّين عن سبيل اللَّه، مانعين عن متابعة الحق، وهي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

والصفة السادسة: سعيهم في إلقاء الشبهات، وتعويج الدلائل المستقيمة، وهي قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

والصفة السابعة: كونهم كافرين، وهي قوله: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

والصفة الثامنة: كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب اللَّه، وهي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال الواحدي: معنى الإعجاز: المنع من تحصيل المراد. يقال: أعجزني فلانٌ؛ أي: منعني عن مرادي، ومعنى ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا؛ فإن هرب العبد من عذاب اللَّه محال؛ لأنه ﷻ قادر على جميع الممكنات، ولا تتفاوت قدرته بالبعد والقرب والقوة والضعف.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤٨).

والصفة التاسعة: أنهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب اللَّه عنهم، والمراد منه الرد عليهم في وصفهم الأصنام بأنها شفعاؤهم عند اللَّه، والمقصود أن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دلّ على أنهم لا قدرة لهم على الفرار، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ هو أن أحدًا لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب، فجمع تعالى بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم، وبيّن بذلك انقطاع حيلهم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة، ثم اختلفوا فقال قوم: المراد إن عدم نزول العذاب ليس لأجل أنهم قدروا على منع اللَّه من إنزال العذاب، ولا لأجل أن لهم ناصرًا يمنع ذلك العذاب عنهم؛ بل إنما حصل ذلك الإمهال لأنه تعالى أمهلهم كي يتوبوا فيزولوا عن كفرهم، فإذا أبوا إلا الثبات عليه؛ فلا بد من مضاعفة العذاب في الآخرة، وقال بعضهم: بل المراد أن يكونوا معجزين لله عما يريد إنزاله عليهم من العذاب في الآخرة أو في الدنيا ولا يجدون وليًا ينصرهم ويدفع ذلك عنهم.

والصفة العاشرة: قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾، قيل: سبب تضعيف العذاب في حقهم أنهم كفروا باللَّه وبالبعث وبالنشور، فكفرهم بالمبدإ والمعاد صار سببًا لتضعيف العذاب، والأصوب أن يقال: إنهم مع ضلالهم الشديد، سعوا في الإضلال ومنع الناس عن الدين الحق، فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم.

الصفة الحادية عشرة: قوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾، والمراد ما هم عليه في الدنيا من صمم القلب وعمى النفس...

الصفة الثانية عشرة: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، ومعناه: أنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة اللَّه تعالى، فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران.

الصفة الثالثة عشرة: قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، والمعنى أنهم لما باعوا الدين بالدنيا فقد خسروا؛ لأنهم أعطوا الشريف، ورضوا بأخذ الخسيس، وهذا عين الخسران في الدنيا ثم في الآخرة؛ فهذا الخسيس يضيع ويهلك ولا يبقى منه أثر، وهو المراد بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

الصفة الرابعة عشرة: قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾، وتقريره ما

تقدم، وهو أنه لما أعطى الشريف الرفيع، ورضي بالخسيس الوضيع؛ فقد خسر في التجارة. ثم لما كان هذا الخسيس بحيث لا يبقى، بل لا بد وأن يهلك ويفنى؛ انقلبت تلك التجارة إلى النهاية في صفة الخسارة؛ فلهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾»[١].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية: بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار الذين يصدون الناس عن سبيل اللَّه ويبغونها عوجًا؛ يضاعف لهم العذاب يوم القيامة؛ لأنهم يعذبون على ضلالهم، ويعذبون أيضًا على إضلالهم غيرهم؛ كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾[٢].

وبين في موضع آخر أن العذاب يضاعف للأتباع والمتبوعين، وهو قوله في (الأعراف): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾[٣] الآية»[٤].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾:

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه، بعضها يشهد له القرآن:

الأول -وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره، ونقله عن ابن عباس وقتادة-: أن معنى ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ الآية: أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماع منتفع، ولا أن يبصروه إبصار مهتدٍ؛ لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة اللَّه تعالى، وقد كانت لهم أسماع وأبصار.

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٥] الآية.

الثاني -وهو أظهرها عندي-: أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآية إنما هو للختم الذي ختم اللَّه على قلوبهم وأسماعهم، والغشاوة التي جعل على أبصارهم.

---

(١) التفسير الكبير (١٧/ ٢١٣-٢١٦).

(٢) النحل: الآية (٨٨).

(٣) الأعراف: الآية (٣٨).

(٤) أضواء البيان (٣/ ١٥).

(٥) الأحقاف: الآية (٢٦).

ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[2]، ونحو ذلك من الآيات.

وذلك الختم والأكنة على القلوب جزاء من اللَّه تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم؛ كما دلت عليه آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[3]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[4]، وقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[5] الآية، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[6] الآية، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[7] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن المعنى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي: لشدة كراهيتهم لكلام الرسل؛ على عادة العرب في قولهم: لا أستطيع أن أسمع كذا: إذا كان شديد الكراهية والبغض له. ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾[9] الآية، وقوله: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾[10] الآية.

الرابع: أن (ما) مصدرية ظرفية؛ أي: يضاعف لهم العذاب مدة كونهم يستطيعون أن يسمعوا ويبصروا؛ أي: يضاعف لهم العذاب دائمًا.

الخامس: أن (ما) مصدرية في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه بأسماعهم وأبصارهم. وقد قدمنا في سورة (النساء) قول الأخفش الأصغر: بأن النصب بنزع الخافض مقيس مطلقًا عند أمن اللبس.

السادس: أن قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ من صفة

---

(١) البقرة: الآية (٧).
(٢) الكهف: الآية (٥٧).
(٣) النساء: الآية (١٥٥).
(٤) الصف: الآية (٥).
(٥) البقرة: الآية (١٠).
(٦) التوبة: الآية (١٢٥).
(٧) الأنعام: الآية (١١٠).
(٨) الحج: الآية (٧٢).
(٩) فصلت: الآية (٢٦).
(١٠) نوح: الآية (٧).

الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون اللَّه، فيكون متصلًا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، وتكون جملة ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ اعتراضية. وتقرير المعنى على هذا القول: وما كان لهم من دون اللَّه من أولياء ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون؛ أي: الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون اللَّه. وما لا يسمع ولا يبصر لا يصح أن يكون وليًّا لآخر.

ويشهد لمعنى هذا القول قوله تعالى في (الأعراف): ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[1] الآية، ونحوها من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن الآية الكريمة قد تكون فيها أقوال، وكلها يشهد به قرآن، فنذكر الجميع، والعلم عند اللَّه تعالى»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إمهال اللَّه للكفرة

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِته. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[3]**»[4].

★ غريب الحديث:

يملي: أي: يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة. وهو مشتق من الملوة، وهي المدة والزمان، بضم الميم وكسرها وفتحها.

لم يفلته: لم يطلقه ولم ينفلت منه. قال أهل اللغة: يقال: أفلته: أطلقه، وانفلت: تخلص منه[5].

★ فوائد الحديث:

الحديث يبين ما في الآية من إمهال اللَّه تعالى لهؤلاء الكفار مع قدرته عليهم،

---

(١) الأعراف: الآية (١٩٥). (٢) أضواء البيان (٣/ ١٦-١٧). (٣) هود: الآية (١٠٢).

(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ١١٢).

وإحاطته بهم إحاطة قهر وغلبة، واستحقاقهم للعذاب بما هم قائمون عليه من الكفر والطغيان والجحود. وسنعود للحديث عن الحديث عند تفسير قوله تعالى من هذه السورة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أخبتوا: الإخبات: الطمأنينة. أصله من الخَبْتِ: وهو المكان المنخفض من الأرض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال الأشقياء؛ ثنّى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولًا وفعلًا؛ من الإتيان بالطاعات، وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يمرضون، ولا ينامون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يتمخطون، إن هو إلا رَشْحُ مِسك يعرقون»[١].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيه سبعة أقوال:

أحدها: خافوا ربهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثاني: أنابوا إلى ربهم، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثالث: ثابوا إلى ربهم، قاله قتادة.

والرابع: اطمأنوا، قاله مجاهد.

والخامس: أخلصوا، قاله مقاتل.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤٩).

والسادس: تخشّعوا لربهم، قاله الفراء.

والسابع: تواضعوا لربّهم، قاله ابن قتيبة»[١].

وحاصل هذه الأقوال ما ذكر الطبري؛ قال: «وهذه الأقوال متقاربة المعاني وإن اختلفت ألفاظها؛ لأن الإنابة إلى اللَّه من خوف اللَّه، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة، والطمأنينة إليه من الخشوع له، غير أن نفس الإخبات عند العرب: الخشوع والتواضع، وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، ومعناه: أخبتوا لربهم؛ وذلك أن العرب تضع (اللام) موضع (إلى)، و(إلى) موضع (اللام) كثيرًا؛ كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[٢]، بمعنى: أوحى إليها. وقد يجوز أن يكون قيل ذلك كذلك لأنهم وصفوا بأنهم عمدوا بإخباتهم إلى الله»[٣].

وقال ابن القيم: «وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع والسكون إلى اللَّه ﷻ؛ ولذلك عُدِّي بـ(إلى) تضمينًا لمعنى الطمأنينة والإنابة والسكون إلى الله»[٤].

وقال الرازي: «وقوله: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأعمال لا تنفع في الآخرة إلا مع الأحوال القلبية. ثم إن فسرنا الإخبات بالطمأنينة؛ كان المراد أنهم يعبدون اللَّه وكانت قلوبهم عند أداء العبادات مطمئنة بذكر اللَّه، فارغة عن الالتفات إلى ما سوى اللَّه تعالى. أو يقال: إنما قلوبهم صارت مطمئنة إلى صدق اللَّه بكل ما وعدهم من الثواب والعقاب. وأما إن فسرنا الإخبات بالخشوع؛ كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين من أن يكونوا أتوا بها مع وجود الإخلال والتقصير. ثم بيّن أن من حصل له هذه الصفات الثلاث فهم أصحاب الجنة، ويحصل لهم الخلود في الجنة»[٥].

* * *

---

(١) زاد المسير (٤/ ٧٦-٧٧).

(٢) الزلزلة: الآية (٥).

(٣) جامع البيان (١٢/ ٢٤-٢٥).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣).

(٥) التفسير الكبير (١٧/ ٢١٧).

قوله تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

★غريب الآية:

مثل: المثل: القول السائر المضروب لحال معينة. و﴿مَثَلُ﴾ هنا بمعنى: شبْه وشَبَه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: الذين وصفهم أولًا بالشقاء والمؤمنين السعداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1]، وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يَرُوج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[3]»[4].

---

(١) الأنفال: الآية (٢٣).
(٢) الحشر: الآية (٢٠).
(٣) فاطر: الآيات (١٩-٢٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤٩).

وقال الرازي: «واعلم أن وجه التشبيه هو أنه سبحانه خلق الإنسان مركبًا من الجسد ومن النفس، وكما أن للجسد بصرًا وسمعًا فكذلك حصل لجوهر الروح سمع وبصر، وكما أن الجسد إذا كان أعمى أصم بقي متحيرًا لا يهتدي إلى شيء من المصالح، بل يكون كالتائه في حضيض الظلمات لا يبصر نورًا يهتدي به ولا يسمع صوتًا، فكذلك الجاهل الضال المضل، يكون أعمى وأصم القلب، فيبقى في ظلمات الضلالات حائرًا تائهًا»(١).

وقال ابن القيم: «فإنه سبحانه ذكر الكفار، ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، ثم ذكر المؤمنين، ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم، فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق، أصم عن سماعه؛ فشبهه بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء، وسمعه أصم عن سماع الأصوات، والفريق الآخر بصير القلب سميعه كبصير العين وسميع الأذن؛ فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾»(٢).

وقال الشنقيطي: «ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للكافر بالأعمى والأصم، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير، وبيّن أنهما لا يستويان، ولا يستوي الأعمى والبصير، ولا يستوي الأصم والسميع.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة: قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾(٣)، وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾(٤) الآية، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾(٥)، إلى غير ذلك من الآيات»(٦).

---

(١) التفسير الكبير (١٧/ ٢١٨).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٥٤).
(٣) فاطر: الآيات (١٩-٢٣).
(٤) الرعد: الآية (١٩).
(٥) النمل: الآية (٨٠).
(٦) أضواء البيان (٣/ ١٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «ذكر سبحانه قصص الأنبياء -عليهم السلام- للنبي ﷺ تنبيهًا له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه اللَّه أمرهم»[(١)].

وقال البقاعي: «﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ أي: بما لنا من العظمة ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: الذين هم على لسانه؛ وما بعد ذلك من القصص تقريرًا لمضمون هذا المثل، وتثبيتًا وتسلية وتأييدًا وتعزية لهذا النبي الكريم؛ لئلاً يضيق صدره بشيء مما أمر بإبلاغه حرصًا على إيمان أحد وإن كان أقرب الخلائق إليه وأعزهم عليه؛ كما تقدمت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾[(٣)]، ويأتي في قوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[(٤)].

فوضح أن هذه القصص لهذا المعنى سيقت، وأن سياقها في (الأعراف) وغيرها كان لغير ذلك كما تقدم، وأن تضمن هذا الغرض بيان إهلاك من كانوا أشد من العرب قوة، وأكثر جمعًا، وأمكن أمرًا، وأقوى عنادًا، وأعظم فسادًا، وأحدّ شوكةً، وما اتفق في ديارهم من الطامات والأهوال المفظعات؛ تحذيرًا من مثل حالهم بارتكاب أفعالهم، ففرق بين ما يساق للشيء وما يلزم منه الشيء؛ ولهذا الغرض المقصود هنا طولت قصة نوح في هذه السورة ما لم يطوله في غيرها، وصدرت بقوله: ﴿إِنِّى﴾ أي: قائلًا؛ على قراءة الجمهور بالكسر، والتقدير عند ابن كثير وأبي عمرو والكسائي: ملتبسًا بأني ﴿لَكُمْ﴾ أي: خاصة ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: مخوف بليغ التحذير، أبين ما أرسلت به غاية البيان، وذكر فيها أنه طالت مجادلته

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٢).
(٢) الأعراف: الآية (٢).
(٣) هود: الآية (١٢).
(٤) هود: الآية (١٢٠).

لهم، وأنه لما وضح له أمر اللَّه تعوذ من السؤال فيه وفي كل ما يشبهه، وخللت قصته بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾[1]؛ خطابًا لهذا النبي الكريم، وختمت بقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]. وذكرت قصة إبراهيم عليه السلام لما ضمنته من أنه بشر الولد بما لم يجر بمثله عادة فلم يتردد فيه، وأنه جادل الرسل في قوم ابن أخيه لوط، وأنه لما تحقق حتم الأمر وبت الحكم؛ سلم لربه مع كونه حليمًا أوّاهًا منيبًا، إلى غير ذلك مما يومئ إليه سياق القصص، فكأنه قيل: إنما أنت نذير أرسلناك لتبلغ ما أرسلت به من الإنذار وإن شق عليهم، وعزتنا لقد أرسلنا من قبلك رسلًا منذرين، فدعوا إلى ما أمرت بالدعوة إليه، وأنذروهم ما يشق عليهم من بأسنا؛ امتثالًا لأمرنا، وما تركوا شيئًا منه خوفًا من إعراض، ولا رجاءً في إقبال، على أن أممهم قالوا لهم ما قالت لك أمتك؛ كما يشير إليه قوله تعالى عن نوح: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾[3] الآية، وقد كان في المخالفين من أممهم القريب منهم نسبه والعزيز عليهم أمره من ابن وصاحبة وغيرهما، هذا مع أن قصصهم دليل على قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾[4]، وزجر لهم عن مثل قولهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾، وتأييد لقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[5]، وغير ذلك مما تقدم.

فقد علم من هذا الوجهُ في تكرير هذه القصص، وأنه في كل سورة لمقصد يخالف المقصد في غيرها وإن كان يستفاد من ذلك فوائد أخر»[6].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أول رسول بعثه اللَّه إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب اللَّه إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾. وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: إن استمررتم على ما أنتم عليه؛ عذّبكم اللَّه عذابًا أليمًا موجعًا شاقًّا في الدار الآخرة»[7].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى قد بدأ بذكر هذه القصة في سورة (يونس)، وقد أعادها في هذه السورة أيضًا لما فيها من زوائد الفوائد وبدائع الحكم، وفيه مسألتان:

(١) الآية (٣٥).
(٢) الآية (٤٩).
(٣) الآية (٣١).
(٤) هود: الآية (٨).
(٥) الآية (١٧).
(٦) نظم الدرر (٩/ ٢٦٥-٢٦٧).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤٩).

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «أَنّي» بفتح الهمزة، والمعنى: أرسلنا نوحًا بأني لكم نذير مبين، ومعناه: أرسلناه ملتبسًا بهذا الكلام وهو قوله: «أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ»، فلما اتصل به حرف الجر وهو (الباء)؛ فتح كما فتح في (كَأَنّ)، وأما سائر القراء فقرؤوا: ﴿إِنِّي﴾ بالكسر؛ على معنى: قال: إِنّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ.

المسألة الثانية: قال بعضهم: المراد من النذير كونه مهددًا للعصاة بالعقاب، ومن المبين كونه مبيّنًا ما أعد اللَّه للمطيعين من الثواب، والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب، وأنه مبين بمعنى أنه بيّن ذلك الإنذار على الطريق الأكمل، والبيان الأقوى الأظهر. ثم بين تعالى أن ذلك الإنذار إنما حصل في النهي عن عبادة غير اللَّه، وفي الأمر بعبادة الله؛ لأن قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ استثناء من النفي، وهو يوجب نفي غير المستثنى.

واعلم أن تقدير الآية كأنه تعالى قال: ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه بهذا الكلام وهو قوله: إِنّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ.

ثم قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾، ثم إنه أكد ذلك بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، والمعنى أنه لما حصل الألم العظيم في ذلك اليوم؛ أسند ذلك الألم إلى اليوم؛ كقولهم: نهارك صائم، وليلك قائم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نذارة النبي ﷺ لقومه

* عن ابن عمر ﵄: قام رسول اللَّه ﷺ في الناس، فأثنى على اللَّه بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: «**إني لأُنذِرُكموه، وما من نبي إلا أنذره قومَهُ، لقد أنذر نوحٌ قومَهُ، ولكني أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن اللَّه ليس بأعور**»[2].

---

(١) التفسير الكبير (١٧/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٤٩)، والبخاري (٦/ ٤٥٧/ ٣٣٣٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٥/ ١٦٩)، والترمذي (٤/ ٤٤٠-٤٤١/ ٢٢٣٥).

★ غريب الحديث:

ثم ذكر الدجال: يعني بعد الفراغ من خطبته، والدجال: فعّال من أبنية المبالغة؛ لكثرة الكذب فيه، وهو من الدجل، وهو الخلط والتلبيس والتمويه.

لأنذركموه: من الإنذار، وهو التخويف.

تعلمون أنه أعور وأن اللَّه ليس بأعور: معناه: أن اللَّه تعالى منزه عن سمات الحدث، وعن جميع النقائص، وأن الدجال مخلوق من خلق اللَّه تعالى، ناقص الصورة، فينبغي لكم أن تعلموا هذا وتعلّموه الناس؛ لئلا يغتر بالدجال من يرى تخييلاته وما معه من الفتنة[(١)].

❁ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا أحدثكم حديثًا عن الدجال ما حدّث به نبي قومَهُ: إنه أعور، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، فالتي يقول: إنها الجنة؛ هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوحٌ قومَهُ»[(٢)].

★ غريب الحديث:

بمثال الجنة: أي: بمثلها.

يجيء معه بمثال الجنة والنار: قال العلماء: هذا من جملة فتنته؛ امتحن اللَّه تعالى به عباده؛ ليحق الحق ويبطل الباطل، ثم يفضحه ويظهر للناس عجزه[(٣)].

★ فوائد الحديثين:

قال العيني: «قوله: «لقد أنذر نوح قومه» إنما خصصه بعد التعميم؛ لأنه أول نبي أنذر قومه وهدّدهم بخلاف من سبق عليه، فإنهم كانوا في الإرشاد وتربية الآباء للأولاد، ولأنه أول الرسل المشرعين ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾[(٤)]، أو لأنه أبو البشر الثاني، وذريته هم الباقون في الدنيا؛ لا غيرهم»[(٥)].

قال الحافظ: «وقد استشكل إنذار نوح قومه بالدجال مع أن الأحاديث قد ثبتت

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٤٥٧/ ٣٣٣٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٥٠/ ٢٩٣٦).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (١٨/ ٤٨).

(٤) الشورى: الآية (١٣).

(٥) عمدة القاري (١١/ ٢٣).

أنه يخرج بعد أمور ذكرت. .

والجواب: أنه كان وقت خروجه أخفى على نوح ومن بعده، فكأنهم أنذروا به ولم يُذكر لهم وقت خروجه، فحذروا قومهم من فتنته، ويؤيده قوله ﷺ في بعض طرقه: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه» فإنه محمول على أن ذلك كان قبل أن يتبين له وقت خروجه وعلاماته، فكان يجوِّز أن يخرج في حياته ﷺ ثم بين له بعد ذلك حاله ووقت خروجه فأخبر به، فبذلك تجتمع الأخبار»[١].

ومن الفوائد التي ذكر ابن العربي:

«الأولى: إنذار الأنبياء من نوح إلى محمد عليه السلام بأمر الدجال تحذيرًا للقلوب من الفتن، وطمأنينة لها حتى لا يزعزع عن حسن الاعتقاد ما يطرأ عليها دون ذلك من الفتن»[٢].

* **عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمّته، فيقول الله تعالى: هل بلّغتَ؟ فيقول: نعم، أي ربّ! فيقول لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فتشهدُ أنه قد بلغ، وهو قوله -جلّ ذكره-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٣]، والوسطُ: العدل»[٤].**

★ **فوائد الحديث:**

- قال العيني: «وفيه أن نوحًا قد بلغ إليهم ما أمر به»[٥].
- شهادة أمة محمد ﷺ لنوح بالتبليغ. أفاده ابن حجر[٦].

وقد تقدم الكلام على هذه الأحاديث وفوائدها في سورة (يونس) عند قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾[٧] الآية.

---

(١) فتح الباري (١٣/ ١١٩). (٢) عارضة الأحوذي (٩/ ٨١).

(٣) البقرة: الآية (١٤٣).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٤٥٧/ ٣٣٣٩)، والترمذي (٥/ ١٩٠/ ٢٩٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٢/ ١١٠٠٧) ولم يسمّ نوحًا، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٢/ ٤٢٨٥).

(٥) عمدة القاري (١١/ ٢٤).

(٦) فتح الباري (٦/ ٤٥٩).

(٧) الآية (٧٣).

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

★ غريب الآية:

أراذلنا: جمع أَرْذَل: وهو النّذل الخسيس. والرَّذْلُ والرُّذَالُ: الشيء المرغوب عنه لرداءته. والمعنى: ضُعَفاؤنا وأخِسّاؤنا.

بادي الرأي: قال ابن الملقن: «بالهمزة؛ أي: يتبعوك بأول الرأي من غير تأمل. وبغير همز؛ أي: بظاهر رأيهم من غير تفكر»[١].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الملأ من قوم نوح قالوا له: ما نراك اتبعك منّا إلا الأسافل والأراذل. وذكر في سورة (الشعراء) أن اتباع الأراذل له في زعمهم مانع لهم من اتباعه بقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[٢]»[٣].

وقال الخازن: «﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يعني الأشراف والرؤساء من قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، يعني: آدميًا مثلنا، لا فضل لك علينا؛ لأن التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع اشتهاره إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم؛ وإنما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلًا منهم؛ لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدعوة إلى الله تعالى بإقامة الدليل والبرهان على ذلك، ويظهر المعجزة الدالة على صدقه، ولا يتأتى ذلك إلا من آحاد البشر، وهو من اختصه الله بكرامته، وشرفه بنبوته، وأرسله إلى عباده»[٤].

---

(١) تفسير غريب القرآن (ص: ١٦٨).
(٢) الشعراء: الآية (١١١).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٨).
(٤) تفسير الخازن (٢/ ٣٢٨).

وقال ابن كثير: «هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم؛ فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه؛ فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل؛ بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبًا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[1]. ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ؛ قال له فيما قال: «**أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل**»[2].

وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ ليست بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروّي ولا للفكر مجال؛ بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء؛ ولا يفكر ويروى ههنا إلا عَيِيّ أو غبي. والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- إنما جاؤوا بأمر جلي واضح»[3].

وقال ابن القيم: «ومن بديع التعريض قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ إلى قوله: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾؛ فقوله: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ تعريض أنهم أحق بالنبوة منه، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملإ وموازن لهم في المنزلة؛ فما جعلك أحق منهم بها؟ ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾»[4].

وسبقه إلى ذكر هذا التعريض في الآية الزمخشري في «الكشاف» قال: «﴿مَا

(١) الزخرف: الآية (٢٣).

(٢) أخرجه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (٨/ ٢٧٠-٢٧٢/ ٤٥٥٣) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٧٧٣)، وأبو داود (٥/ ٣٤٨-٣٤٩/ ٥١٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩-٣١١/ ١١٠٦٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٠).

(٤) الفوائد المشوق (ص: ١٣٤).

نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن اللَّه لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملإ ومواز لهم في المنزلة، فما جعلك أحقّ منهم؟ ألا ترى إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكًا، لا بشرًا»[(١)].

وتعقّبه أبو حيان الأندلسي قال: «ولا يظهر ما قاله الزمخشري من الآية»[(٢)].

قلت: بل هو ظاهر؛ فإن الرئاسة والشرف يدفعان صاحبهما غالبًا إلى الاستنكاف والاستكبار عن أن يكون تبعًا؛ فإنهم يرون بنظرهم القاصر أنهم أحق بالريادة والقيادة سواء كانت نبوة أو ملكًا أو رئاسة. فلا ضير أن يكون في فلتات ألسنتهم أو خفي معاني كلامهم ما يشير إلى هذا الاستحقاق.

وأفاد ابن القيم أن هؤلاء المبطلين استدلوا بقياس الشبه على نفي النبوة والرسالة عن نبي اللَّه نوح؛ قال: «وأما قياس الشبه فلم يحكه اللَّه سبحانه إلا عن المبطلين... ومنه قوله تعالى إخبارًا عن الكفار أنهم قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، فاعتبروا صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبهين حكم الآخر؛ فكما لا نكون نحن رسلًا فكذلك أنتم، فإذا تساوينا في هذا الشبه فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا. وهذا من أبطل القياس؛ فإن الواقع -من التخصيص والتفضيل، وجعل بعض هذا النوع شريفًا وبعضه دنيًّا، وبعضه مرؤوسًا وبعضه رئيسًا، وبعضه ملكًا وبعضه سوقة- يبطل هذا القياس؛ كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[(٣)].

وأجابت الرسل عن هذا السؤال بقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[(٤)]، وأجاب اللَّه سبحانه عنه بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[(٥)]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٦٥).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٢١٥).
(٣) الزخرف: الآية (٣٢).
(٤) إبراهيم: الآية (١١).
(٥) الأنعام: الآية (١٢٤).

بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[1]، فاعتبروا المساواة في البشرية وما هو من خصائصها من الأكل والشرب، وهذا مجرد قياس شبه وجمع صوري، ونظير هذا قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[2]»[3].

وقال الفخر الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح ﷺ أنه دعا قومه إلى عبادة اللَّه تعالى؛ حكى عنهم أنهم طعنوا في نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات:

فالشبهة الأولى: أنه بشر مثلهم، والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع إنهاؤه إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين.

والشبهة الثانية: كونه ما اتبعه إلا أراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع الخسيسة، قالوا: ولو كنت صادقًا لاتبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم؛ ونظيره قوله تعالى في سورة (الشعراء): ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.

والشبهة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾، والمعنى: لا نرى لكم علينا من فضل؛ لا في العقل، ولا في رعاية المصالح العاجلة، ولا في قوة الجدل؛ فإذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة؛ فكيف نعترف بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات؟ فهذا خلاصة الكلام في تقرير هذه الشبهات.

واعلم أن الشبهة الأولى لا تليق إلا بالبراهمة الذين ينكرون نبوة البشر على الإطلاق، أما الشبهتان الباقيتان فيمكن أن يتمسك بهما من أقر بنبوة سائر الأنبياء، وفي لفظ الآية مسائل:

المسألة الأولى: الملأ: الأشراف، وفي اشتقاقه وجوه: الأول: أنه مأخوذ من قولهم: مَلِئَ بكذا: إذا كان مطبقًا له، وقد ملئوا بالأمر، والسبب في إطلاق هذا اللفظ عليهم أنهم ملئوا بترتيب المهمات، وأحسنوا في تدبيرها. الثاني: أنهم

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٣٣و٣٤).

(٢) التغابن: الآية (٦).

(٣) إعلام الموقعين (١/١٤٨-١٤٩).

وصفوا بذلك لأنهم يتمالؤون؛ أي: يتظاهرون عليه. الثالث: وصفوا بذلك لأنهم يملؤون القلوب هيبة، والمجالس أبهة. الرابع: وصفوا به لأنهم ملؤوا العقول الراجحة والآراء الصائبة.

ثم حكى اللَّه تعالى عنهم الشبهة الأولى، وهي قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، وهو مثل ما حكى اللَّه تعالى عن بعض العرب أنهم قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[1]، وهذا جهل؛ لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدليل والبرهان والتثبت والحجة، لا بالصورة والخلقة؛ بل نقول: إن اللَّه تعالى لو بعث إلى البشر ملكًا؛ لكانت الشبهة أقوى في الطعن عليه في رسالته؛ لأنه يخطر بالبال أن هذه المعجزات التي ظهرت لعل هذا الملك هو الذي أتى بها من عند نفسه بسبب أن قوته أكمل وقدرته أقوى، فلهذه الحكمة ما بعث اللَّه إلى البشر رسولًا إلا من البشر.

ثم حكى الشبهة الثانية وهي قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، والمراد منه قلة مالهم، وقلة جاههم، ودناءة حرفهم وصناعتهم، وهذا أيضًا جهل؛ لأن الرفعة في الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية؛ بل الفقر أهون على الدين من الغنى؛ بل نقول: الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة، فكيف تجعل قلة المال في الدنيا طعنًا في النبوة والرسالة؟!

ثم حكى اللَّه تعالى الشبهة الثالثة وهي قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، وهذا أيضًا جهل؛ لأن الفضيلة المعتبرة عند اللَّه ليست إلا بالعلم والعمل، فكيف اطلعوا على بواطن الخلق حتى عرفوا نفي هذه الفضيلة، ثم قالوا بعد ذكر هذه الشبهات لنوح ﷺ ومن اتبعه: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، وفيه وجهان: الأول: أن يكون هذا خطابًا مع نوح ومن معه، والمراد منه تكذيب نوح في دعوى الرسالة. والثاني: أن يكون هذا خطابًا مع الأراذل فنسبوهم إلى أنهم كذبوا في أن آمنوا به واتبعوه»[2].

وقال البقاعي: «ولما كانوا لا يعظمون إلا بالتوسع في الدنيا؛ قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ أي: لك ولمن تبعك ﴿عَلَيْنَا﴾، وأغرقوا في النفي بقولهم: ﴿مِن فَضْلٍ﴾ أي:

---

(١) الأنعام: الآية (٨).
(٢) التفسير الكبير (١٧/ ٢١٩-٢٢١).

في شرف ولا مال، وهذا -مع ما مضى من قولهم- قول من يعرف الحق بالرجال ولا يعرف الرجال بالحق؛ وذلك أنه يستدل على كون الشيء حقًا بعظمة متبعه في الدنيا، وعلى كونه باطلًا بحقارته فيها، ومجموع قولهم يدل على أنهم يريدون: لو صح كون النبوة في البشر لكانت في واحد ممن أقروا له بالعلو في الأرض، وعمل ﴿أَتَّبَعَكَ﴾ في ﴿بَادِيَ﴾ يمنعه تمادي الاتباع على الإيمان، فانتفى الطعن بعدم التأمل؛ ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: لكم هذا الوصف لازمًا دائمًا؛ لأنكم لم تتصفوا بما جعلناه مظنة الاتباع مما يوجب العظمة في القلوب والانقياد للنفوس بالتقدم في الدنيا بالمال والجاه؛ فكان داؤهم بطر الحق وغمط الناس، وهو احتقارهم، وهذا قد سرى إلى أكثر أهل الإسلام، فصاروا لا يعظمون إلا بذلك، وهو أجهل الجهل؛ لأن الرسل أتت للتزهيد في الدنيا. وانظر إلى رضاهم لأنفسهم بالعدول عن البينة إلى اتباع الظن ما أرداه! وهذا أفظع مما حكى هنا من قول قريش: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾[1]، وأبشع»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن غالب أتباع الأنبياء من الضعفاء

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة أبي سفيان وهرقل أن هرقل قال: «**فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟» قال: «بل ضعفاؤهم**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**فذكرتَ أنّ ضعفاءهم اتّبعوه**» هو بمعنى قول أبي سفيان: «**ضعفاؤهم**»؛ ومثل ذلك يتسامح به لاتحاد المعنى. وقول هرقل: «**وهم أتباع الرسل**» معناه أن أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة؛ لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغيًا وحسدًا؛ كأبي جهل وأشياعه، إلى أن أهلكهم اللَّه تعالى، وأنقذ بعد حين من أراد سعادته منهم»[4].

---

(١) هود: الآية (١٢).

(٢) نظم الدرر (٩/ ٢٧٠-٢٧١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (١/ ٤٢-٤٣/ ٧) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩/ ١١٠٦٤).

(٤) فتح الباري (١/ ٤٩).

قال ابن بطال: «وأما ضعفاؤهم الذين لا تتكبر نفوسهم عن اتباع الحق حيث رأوه، ولا يجد الشيطان السبيل إلى نفخ الكبرياء في نفوسهم؛ فهم متبعون للحق حيث سمعوه، لا يمنعهم من ذلك طلب رئاسة ولا أنفة شرف، وزيادتهم دليل على صحة النبوة؛ لأنهم يرون الحق كل يوم يتجدد ويتبيّن لهم، فيدخل فيه كل يوم طائفة»[١].

قال في «المفهم»: «وقول هرقل في الضعفاء: **«هم أتباع الرسل»**؛ إنما كان ذلك لاستيلاء الرئاسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد للغير، والضعيفُ خليٌّ عن تلك الموانع، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا، وإلا فقد ظهر أن السُّبّاق للإسلام كانوا أشرافًا في الجاهلية والإسلام، كأبي بكر وعمر وحمزة وغيرهم من الكبراء والأشراف»[٢].

قال في «إكمال المعلم»: «وقوله في الضعفاء: أتباع الرسل؛ دون أشرافهم؛ لأن الرياسة والشرف يأبى من انحطاطه لغيره، وتسويد غيره عليه برياسة، وأنفسهم تأنف من الاتباع إلا من هداه اللّه سبحانه لرشده. والضعفاء ليس عليهم معنى للشيطان من ذلك، فكانوا أقبل للاتباع، وأطوع للهدى من أولئك، وأعدم لأسباب الأنفة والحسد في الظهور منهم»[٣].

* * *

(١) شرح صحيح البخاري (١/ ٤٦).
(٢) (٣/ ٦٠٤-٦٠٥).
(٣) (٦/ ١١٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فعميت عليكم: قرئ: فَعَمِيَتْ، بتخفيف الميم؛ أي: خفيت الرسالة. وقرئ بالتشديد: أي أخفاها اللَّه عليكم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل نوح لقومه إذ كذّبوه وردّوا عليه ما جاءهم به من عند اللَّه من النصيحة: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ على علم ومعرفة وبيان من اللَّه لي ما يلزمني له، ويجب عليّ من إخلاص العبادة له، وترك إشراك الأوثان معه فيها ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يقول: ورزقني منه التوفيق والنبوة والحكمة، فآمنتُ به وأطعتُهُ فيما أمرني ونهاني، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾»[1].

وقال الرازي: «في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما حكى شبهات منكري نبوة نوح -عليه الصلاة والسلام- حكى بعده ما يكون جوابًا عن تلك الشبهات.

فالشبهة الأولى: قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، فقال نوح: حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة، ثم ذكر الطريق الدال على إمكانه، فقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ من معرفة ذات اللَّه وصفاته، وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه، ثم إنه تعالى آتاني رحمة من عنده، والمراد بتلك الرحمة: إما النبوة، وإما المعجزة الدالة على النبوة، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: صارت مظنة مشتبهة ملتبسة في عقولكم، فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى معرفتها شئتم أم أبيتم؟ والمراد أني لا أقدر على ذلك ألبتة، وعن

(١) جامع البيان (١٢/ ٢٨).

قتادة: واللَّه لو استطاع نبي اللَّه لألزمها ولكنه لم يقدر عليه.

وحاصل الكلام أنهم لما قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ ذكر نوح ﷺ أن ذلك بسبب أن الحجة عميت عليكم واشتبهت، فأما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم في الدليل؛ لظهر المقصود، وتبين أن اللَّه تعالى آتانا عليكم فضلًا عظيمًا.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ بضم (العين) وتشديد (الميم) على ما لم يسمّ فاعله، بمعنى أُلبست وشُبهت، والباقون بفتح (العين) مخففة (الميم)؛ أي: التبست واشتبهت.

واعلم أن الشيء إذا بقي مجهولًا محضًا أشبه المعمى؛ لأن العلم نور البصيرة الباطنة، والأبصار نور البصر الظاهر، فحسن جعل كل واحد منها مجازًا عن الآخر، وتحقيقه أن البينة توصف بالأبصار؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾[(١)]، وكذلك توصف بالعمى؛ قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ﴾[(٢)]، وقال في هذه الآية: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

المسألة الثالثة: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ فيه ثلاث مضمرات: ضمير المتكلم وضمير الغائب وضمير المخاطب، وأجاز الفراء إسكان (الميم) الأولى، وروي ذلك عن أبي عمرو قال: وذلك أن الحركات توالت فسكنت (الميم)، وهي أيضًا مرفوعة وقبلها كسرة، والحركة التي بعدها ضمة ثقيلة، قال الزجاج: جميع النحويين البصريين لا يجيزون إسكان حرف الإعراب إلا في ضرورة الشعر، وما يروى عن أبي عمرو فلم يضبطه عنه الفراء، وروي عن سيبويه أنه كان يخفف الحركة ويختلسها، وهذا هو الحق، وإنما يجوز الإسكان في الشعر؛ كقول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب»[(٣)].

وقال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح: أنه قال لقومه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: على يقين ونبوة صادقة لا شك فيها، وأعطاني رحمة منه مما أوحى إلي من التوحيد والهدى، فخفي ذلك

(١) النمل: الآية (١٣).

(٢) القصص: الآية (٦٦).

(٣) التفسير الكبير (١٧/ ٢٢١-٢٢٢).

كله عليكم، ولم تعتقدوا أنه حق؛ أيمكنني أن ألزمكم به، وأجبر قلوبكم على الانقياد والإذعان لتلك البينة التي تفضل اللَّه علي بها، ورحمني بإيتائها، والحال أنكم كارهون لذلك؟ يعني ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى وإن كان واضحًا جليًّا لا لبس فيه، إن لم يهدكم اللَّه -جل وعلا-.

وهذا المعنى صرح به -جل وعلا- عن نوح أيضًا في هذه السورة الكريمة بقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾[1] الآية»[2].

* * *

(١) هود: الآية (٣٤).

(٢) أضواء البيان (٣/ ١٩).

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩﴾

★ غريب الآية:

بطارد: الطرد: الإبعاد مع استخفاف وهَوَان. يقال: طَرَدتُهُ أَطْرُدُهُ طَرْدًا: إذا أبعدته على سبيل الاستخفاف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «وهذا أيضًا خبر من اللَّه عن قيل نوح لقومه أنه قال لهم: يا قوم! لا أسألكم على نصيحتي لكم، ودعايتكم إلى توحيد اللَّه، وإخلاص العبادة له مالًا أجرًا على ذلك، فتتهموني في نصيحتي، وتظنون أن فعلي ذلك طلب عَرَض من أعراض الدنيا، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، يقول: ما ثواب نصيحتي لكم ودعايتكم إلى ما أدعوكم إليه إلا على الله؛ فإنه هو الذي يجازيني ويثيبني عليه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: وما أنا بمُقْصٍ مَنْ آمن باللَّه، وأقرّ بوحدانيته، وخلع الأوثان، وتبرّأ منها بأن لم يكونوا من عليتكم وأشرافكم؛ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾: يقول: إن هؤلاء الذين تسألونني طردهم صائرون إلى اللَّه، واللَّه سائلهم عما كانوا في الدنيا يعملون؛ لا عن شرفهم وحسبهم»[1].

وقال الرازي: «اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية، وهي قولهم: لا يتبعك إلا الأراذل من الناس. وتقرير هذا الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أنه -عليه الصلاة والسلام- قال: أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالًا حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرًا أو غنيًا، وإنما أجري

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٢٩).

على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين. وإذا كان الأمر كذلك؛ فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك.

الوجه الثاني: كأنه -عليه الصلاة والسلام- قال لهم: إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور وجدتموني فقيرًا، وظننتم أني إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم، وهذا الظن منكم خطأ؛ فإني لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا؛ إن أجري إلا على رب العالمين، فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد.

والوجه الثالث في تقرير هذا الجواب: أنهم قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ فهو ﷺ بيّن أنه تعالى أعطاه أنواعًا كثيرة توجب فضله عليهم؛ ولذلك لم يَسْعَ في طلب الدنيا، وإنما يسعى في طلب الدين، والإعراض عن الدنيا من أمهات الفضائل باتفاق الكل، فلعل المراد تقرير حصول الفضيلة من هذا الوجه»[1].

وقال محمد رشيد رضا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: «وهذه سنة أكابر مجرمي الكفار من جميع أقوام المرسلين، بينها هنا وفي سورة (الشعراء) في قوم نوحٍ أوّلِهم، وتكرر معناها في قوم خاتمِهم، ومنه في ذكر الطرد قوله تعالى في سورة (الأنعام): ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[2] الآية. وفي معناها قصة الأعمى في سورته»[3]؛ أي: سورة (عبس).

وقال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: أنه أخبر قومه أنه لا يسألهم مالًا في مقابلة ما جاءهم به من الوحي والهدى؛ بل يبذل لهم ذلك الخير العظيم مجانًا من غير أخذ أجرة في مقابله.

وبين في آيات كثيرة: أن ذلك هو شأن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه؛ كقوله في (سبأ) عن نبينا ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[4] الآية، وقوله فيه أيضًا في آخر (ص): ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[5]، وقوله في (الطور) و(القلم): ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ

(١) التفسير الكبير (١٧/ ٢٢٣).
(٢) الأنعام: الآية (٥٢).
(٣) تفسير المنار (١٢/ ٦٥).
(٤) سبأ: الآية (٤٧).
(٥) ص: الآية (٨٦).

تُشْقَلُونَ﴾[١]، وقوله في (الفرقان): ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[٢]، وقوله في (الأنعام): ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]، وقوله عن هود في سورة (هود): ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾[٤] الآية، وقوله في (الشعراء) عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥]، وقوله تعالى عن رسل القرية المذكورة في (يس): ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾[٦] الآية.

وقد بيّنّا وجه الجمع بين هذه الآيات المذكورة وبين قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٧] في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة (سبإ) في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ﴾[٨].

ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة: أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجّانًا من غير أخذ عوض ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب اللّه تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام»[٩].

قلت: وهذه المسألة قد تقدم بحثها في تفسير سورة (الفاتحة) في مبحث قراءة (الفاتحة) في الرقية.

* * *

---

(١) الطور: الآية (٤٠)، القلم: الآية (٤٦).

(٢) الفرقان: الآية (٥٧).

(٣) الأنعام: الآية (٩٠).

(٤) هود: الآية (٥١).

(٥) الشعراء: الآيات (١٠٩)، (١٢٧)، (١٤٥)، (١٦٤)، (١٨٠).

(٦) يس: الآيتان (٢٠و٢١).

(٧) الشورى: الآية (٢٣).

(٨) سبأ: الآية (٤٧).

(٩) أضواء البيان (٣/ ١٩-٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «والمعنى: أن العقل والشرع تطابقا على أنه لا بد من تعظيم المؤمن البر التقي، ومن إهانة الفاجر الكافر، فلو قلبتُ القصة، وعكستُ القضية، وقرّبتُ الكافر الفاجر على سبيل التعظيم، وطردتُ المؤمن التقي على سبيل الإهانة؛ كنتُ على ضد أمر اللَّه تعالى، وعلى عكس حكمه، وكنتُ في هذا الحكم على ضد ما أمر اللَّه تعالى من إيصال الثواب إلى المحقين، والعقاب إلى المبطلين، وحينئذ أصير مستوجبًا للعقاب العظيم، فمن ذا الذي ينصرني من اللَّه تعالى؟ ومن ذا الذي يخلصني من عذاب الله؟ أفلا تذكرون فتعلمون أن ذلك لا يصح»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «وهو -أي: طرد المؤمنين- ظلم عظيم يقتضي العقاب الشديد بعدل اللَّه تعالى مهما تكن صفة من اقترفه؛ كما يصرح به في الآية التالية، وكما قال في آخر آية (الأنعام): ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٧/ ٢٢٤).

(٢) الأنعام: الآية (٥٢).

(٣) تفسير المنار (١٢/ ٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تزدري: أي تعيب وتحتقر. يقال: زَرَيْت عليه: إذا عِبْتَهُ. قال الشاعر:

رأوه فازدروه وهو خرق ... وينفع أهله الرجل القبيح

ولم يخشوا مقالته عليهم ... وتحت الرغوة اللبن الصريح

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ عطف على قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾[1]. ومعنى الكلام: ويا قوم! لا أسألكم عليه أجرًا، ولا أقول لكم: عندي خزائن اللَّه التي لا يفنيها شيء، فأدعُوَكُم إلى اتباعي عليها، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ﴾ أيضًا ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ -يعني: ما خفي من سرائر العباد؛ فإن ذلك لا يعلمه إلا الله- فأدّعي الربوبية، وأدعوكم إلى عبادتي، ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ أيضًا: ﴿إِنِّى مَلَكٌ﴾ من الملائكة أرسلت إليكم فأكون كاذبًا في دعواي ذلك؛ بل أنا بشر مثلكم كما تقولون، أُمِرْتُ بدعائكم إلى اللَّه، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: يقول: ولا أقول للذين اتبعوني وآمنوا باللَّه ووحدوه -الذين تستحقرهم أعينكم، وقلتم: إنهم أراذلكم-: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ وذلك الإيمان بالله؛ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يقول: اللَّه أعلم بضمائر صدورهم، واعتقاد قلوبهم، وهو وليّ أمرهم في ذلك، وإنما لي منهم ما ظهر وبدا، وقد أظهروا الإيمان باللَّه واتبعوني، فلا أطردهم، ولا أستحل ذلك؛ ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: إني إن قلت لهؤلاء الذين أظهروا الإيمان باللَّه وتصديقي: لن

---

(١) هود: الآية (٢٩).

يؤتيهم اللَّه خيرًا، وقضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته ألسنتهم لي على غير علم مني بما في نفوسهم، وطردتهم بفعلي ذلك؛ لَمِنَ الفاعلين ما ليس لهم فعله، المعتدين ما أمرهم اللَّه به، وذلك هو الظلم»[(١)].

وقال ابن القيم: «قال الزجاج[(٢)]: المعنى: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره، فليس عليّ أن أطّلع على ما في أنفسهم، فإذا رأيت من يوحّد اللَّه عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى اللَّه، وهذا معنى حسن. والذي يظهر من الآية: أن اللَّه يعلم ما في أنفسهم إذ أهَّلَهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله، واللَّه ﷻ عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه. وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[(٣)]؛ فإنهم أنكروا أن يكون اللَّه سبحانه أهّلهم للهدى والحق، وحَرَمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم؛ كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة؛ فأخبر اللَّه سبحانه أنه أعلم بمن يؤهّله لذلك؛ لسرّ عنده: من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر؛ فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء»[(٤)].

وقال ابن تيمية: «وقد أمر اللَّه تعالى نوحًا ومحمدًا أن يقولا: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾، فيريد الجهال من المتبوع أن يكون عالمًا بكل ما يُسأل عنه، قادرًا على كل ما يُطلب منه، غنيًّا عن الحاجات البشرية كالملائكة. وهذا الاقتراح من ولاة الأمر كاقتراح الخوارج في عموم الأمة أن لا يكون لأحدهم ذنب، ومن كان له ذنب كان عندهم كافرًا مخلّدًا في النار.

وكل هذا باطل خلاف ما خلقه اللَّه، وخلاف ما شرعه اللَّه. فاقتراح هؤلاء فيمن يولّيه، كاقتراح أولئك عليه فيمن يرسله، وكاقتراح هؤلاء فيمن يرحمه ويغفر له. والبدع مشتقة من الكفر؛ فما من قول مبتدَع إلا وفيه شعبة من شعب الكفر»[(٥)].

وقال محمد رشيد رضا: «أما خزائن اللَّه تعالى فالمراد منها: أنواع رزقه التي

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٣٠-٣١).
(٢) معاني القرآن (٣/ ٤٩).
(٣) الأنعام: الآية (٥٣).
(٤) مدارج السالكين (٣/ ١٧٠-١٧١).
(٥) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٦٧-٣٦٨).

يحتاج إليها عباده للإنفاق منها؛ كما قال: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾[1]. والمعنى: لا أقول لكم بادعائي للنبوة والرسالة: إن عندي خزائن رزق الله تعالى؛ أتصرف فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس، بحيث أنفق على نفسي وعلى من اتبعني بالتصرف فيها بخوارق العادات؛ بل أنا وغيري من البشر في كسبها سواء؛ إذ ليست من موضوع الرسالة، ولا من خصائصها ووظائفها، ولو كانت كذلك لاتبع الناس الرسل لأجلها، لا لما بعثوا لأجله من تزكية الأنفس بمعرفة الله وعبادته، وتأهيلها للقائه تعالى ومثوبته في دار كرامته.

وأما علم الغيب فالمراد به: امتياز النبي على سائر البشر بعلم ما لا يصل إليه علمهم الكسبي من مصالحهم ومنافعهم ومضارهم في معايشهم وكسبهم، فيخبر بها أتباعه ليفضلوا غيرهم بالتبع له؛ ولهذا أمر الله خاتم النبيين أن يقول لقومه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾[2]. وقال بعض المفسرين: إن نفي ادعائه الغيب يتضمن الرد على قولهم في أتباعه أنهم اتبعوه بادي الرأي من غير تفكر ولا استدلال فهم غير موقنين بإيمانهم، وإنما يظنون ظنًّا، فهو يقول: إنه لم يعط علم الغيب فيحكم على بواطنهم، وإنما أمر أن يأخذ بالظاهر، والله هو الذي يعلم السرائر. وهذان الأمران اللذان نفاهما كتاب الله عن رسله يثبتهما مبتدعة المسلمين وأهل الكتاب لمن يسمونهم الأولياء والقديسين منهم، وقد بيّنّا بطلان هذا مرارًا.

وأما نفي كونه ملكًا؛ فهو داحض لشبهتهم أن الرسول من الله إلى البشر يجب أن يفضلهم ويمتاز عليهم، وإذن لا بد أن يكون ملكًا من ملائكة الله يعلم ما لا يعلم البشر، ويقدر على ما لا يقدر عليه البشر»[3].

* * *

---

(١) الإسراء: الآية (١٠٠).

(٢) الأعراف: الآية (١٨٨).

(٣) تفسير المنار (١٢/ ٦٧).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

جادلتنا: المجادلة: المخاصمة بالحجج على سبيل المغالبة. وأصل الجدل من قولك: جَدَلْتُ الحبلَ: إذا فَتَلْتهُ فَتْلًا مُحْكَمًا، وهو الجَدِيلُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن استعجال قوم نوح نقمة اللَّه وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾؛ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم اللَّه الذي لا يعجزه شيء»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي: قد خاصمتنا وحاججتنا فأكثرت جدالنا، واستقصيت فيه، فلم تدع لنا حجة إلا دحضتها؛ حتى مللنا وسئمنا، ولم يبق عندنا شيء نقوله. يدل على هذا قوله في سورة (نوح): ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[2] إلخ، وقوله لهم في التعبير عن هذه الحالة من سورة (يونس): ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[3] إلخ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) نوح: الآيتان (٥و٦).

(٣) يونس: الآية (٧١).

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من عذاب اللَّه الدنيوي الذي تخافه علينا، الأقرب أن يكون المراد به قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾[1]. ويجوز أن يكون غيره؛ كما تقدم.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك أن اللَّه يعاقبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: إن هذا لله وبيده، لا أملكه أنا؛ وإنما هو الذي يأتيكم به إن تعلقت مشيئته به في الوقت الذي تقتضيه حكمته. وهذا بيان للواقع لا شك فيه، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ ولا فائتين له إن أخّره لحكمة يعلمها، فهو متى شاء واقع ما له من دافع»[2].

* * *

(١) هود: الآية (٢٦).

(٢) تفسير المنار (١٢/ ٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يغويكم: أي: يضلكم ويهلككم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: من يرد اللَّه فتنته فلن يملك أحد هدايته؛ هو الذي يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء، وهو الفعّال لما يريد، وهو العزيز الحكيم، العليم بمن يستحقّ الهداية ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة»[1].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾: «أي: يضلكم. وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن اللَّه تعالى لا يريد أن يعصي العاصي، ولا يكفر الكافر، ولا يغوي الغاوي؛ وأنه يفعل ذلك، واللَّه لا يريد ذلك؛ فردّ اللَّه عليهم بقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾. وقد مضى هذا المعنى في (الفاتحة) وغيرها.

وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيناه في (الأعراف) في إغواء اللَّه تعالى إياه حيث قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾[2]، ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، فأضاف إغواءهم إلى اللَّه ﷻ؛ إذ هو الهادي والمضل؛ سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علوًّا كبيرًا»[3].

وقال البقاعي: «ولما كان مضمون هذه الآية نحو مضمون قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[4]؛ فإن النذير من ينصح المنذر، والوكيل هو المرجوع

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٠٢).
(٢) الأعراف: الآية (١٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٨).
(٤) هود: الآية (١٢).

إليه في أمر الشيء الموكول إليه، وما قبلها تعريض بنسبة نوح ﷺ إلى الافتراء، تلاه بما تلا به ذاك من النسبة إلى الافتراء وإشارة إلى أن هذه القصص كلها للتسلية في أمر النذارة والتأسية»[1].

وقال **محمد بن الطاهر بن عاشور**: «وأشار بقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ إلى ما هم فيه من كراهية دعوة نوح ﷺ سببه خذلان اللَّه إيّاهم، ولولاه لنفعهم نصحه، ولكن نوحًا ﷺ لا يعلم مراد اللَّه من إغوائهم، ولا مدى استمرار غوايتهم، فلذلك كان عليه أن ينصح لهم إلى نهاية الأمر»[2].

* * *

(١) نظم الدرر (٩/ ٢٨٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥﴾

★ غريب الآية:

افتراه: اختلقه ووضعه. والافتراء: أقبح الكذب.

إجرامي: يقال: أَجْرَمَ وجَرَمَ بمعنى واحد. قال الشاعر:

طريد عشيرة ورهين ذنب   بما جَرَمَتْ يدي وجنى لساني

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح؛ كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى: أن قومه يقولون: افترى على الله كذبًا، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ أي: كلٌّ عليه وزره، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

ويحتمل أن يكون عائدًا إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه؛ لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته؛ ذكر تكذيب قومه مع البيان التام»[2].

قال محمد رشيد رضا: «اختلف المفسرون في هذه الآية، فقال مقاتل وغيره: هي معترضة في قصة نوح حكاية لقول مشركي مكة في تكذيب هذه القصص الذي تقدم الرد عليه في الآية الثالثة عشرة من هذه السورة.

وقال الجمهور: إنها من قصة نوح لا مقتضي لاعتراضها في وسطها؛ وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) الأنعام: الآية (١٦٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٢٢-٤٢٣).

وفيه أن مثل هذه الجمل الاعتراضية معهود في القرآن؛ كآيتي الوصية بالوالدين في أثناء موعظة لقمان لابنه بعد نهيه عن الشرك من سورته، وهما: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾[1] إلى آخر الآية، وبعدها: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾[2] إلخ، وكذلك الآيات (٥٣-٥٦) من سورة (طه)؛ قالوا: إنها معترضة في المحاورة بين موسى عليه السلام وفرعون عليه اللعنة.

وللجمل والآيات المعترضة في القرآن حكم وفوائد يقتضيها تلوين الخطاب لتنبيه الأذهان، ومنع السآمة، وتجديد النشاط في الانتقال، والتشويق إلى سماع بقية الكلام؛ فمن المتوقع هنا أن يخطر في بال المشركين عند سماع ما تقدم من هذه القصة أنها مفتراة كما زعموا؛ لاستغرابهم هذا السبك في الجدال والقوة في الاحتجاج، وأن يصدهم هذا عن استماع بقيتها، فيكون إيراد هذه الآية تجديدًا للرد عليهم ولنشاطهم، وأَعظِمْ بوقعها في قلوبهم إذا كان هذا الخاطر عرض لهم عند سماع ما تقدم من القصة! فما قاله مقاتل له وجه وجيه من وجهة الأسلوب الخاصّ بالقرآن، وهو أقرب إلى تعبيرها عن الإنكار بـ﴿يَقُولُونَ﴾، وعن الرد عليهم بـ﴿قُلْ﴾ الدالين على الحال، وأبعد عن سياقِ حُكيَ كلُّه بفعل الماضي من الجانبين (قالوا.. قال) وهو سياق قصة نوح عليه السلام، ولكنه ليس قطعيًّا في الأول، وإنما هو الأرجح عندي، وعليه ابن جرير، ومقابله ضعيف وهو لجمهور المفسرين»[3].

وقال محمد بن عاشور: «﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ جملة معترضة بين جملة أجزاء القصة وليست من القصة، ومن جعلها منها فقد أبعد، وهي تأكيد لنظيرها السابق في أول السورة. ومناسبة هذا الاعتراض أن تفاصيل القصة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة تدعو المنكرين إلى أن يتذكروا إنكارهم ويعيدوا ذكره.

وكون ذلك مطابقًا لما حصل في زمن نوح عليه السلام وشاهدة به كتب بني إسرائيل يدل على صدق النبي ﷺ؛ لأن علمه بذلك -مع أميته وبعد قومه عن أهل الكتاب- آية على أنه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[4].

---

(١) لقمان: الآية (١٤).
(٢) لقمان: الآية (١٦).
(٣) تفسير المنار (١٢/ ٧١).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٣-٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا تبتئس: أي لا تحزن ولا تضعف. يقال: ابتأس يبتئس: إذا أصابه البؤس. وأنشد أبو عبيد:

ما يَقسم اللهُ أَقْبَلْ غير مبتئسٍ   منه وأَقْعُدْ كريمًا ناعمَ البالِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

أورد الإمام البخاري هذه الآية في كتاب القدر، باب ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[(١)] ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[(٢)].

وقال الحافظ: «كذا جمع بين بعض كل من الآيتين وهما من سورتين إشارة إلى ما ورد في تفسير ذلك، وقد أخرج الطبري من طريق يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ما قال نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ إلى قوله: ﴿كَفَّارًا﴾ إلا بعد أن نزل عليه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾. قلت: ودخول ذلك في أبواب القدر ظاهر؛ فإنه يقتضي سبق علم اللَّه بما يقع من عبيده»[(٣)].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومُهُ نقمة اللَّه بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال اللَّه تعالى مخبرًا عنه أنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[(٤)]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾[(٥)]، فعند ذلك

---

(١) الأنبياء: الآية (٩٥).
(٢) نوح: الآية (٢٧).
(٣) فتح الباري (١١/ ٦١٥).
(٤) نوح: الآية (٢٦).
(٥) القمر: الآية (١٠).

أوحى اللَّه تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، فلا تحزن عليهم ولا يهُمّنّك أمرهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبق علم اللَّه بما يقع من عبيده

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيتُ شيئًا أشبه باللَّمَم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: **«إن اللَّه كتب على ابن آدم حظّه من الزنا؛ أدرك ذلك لا محالة: فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنّى وتشتهي، والفرج يصدّق ذلك ويكذّبه»**[٢].

★ غريب الحديث:

اللمم: هو ما يلِمّ به الشخص من شهوات النفس. وقيل: هو مقارفة الذنوب الصغار. ومحصل كلام ابن عباس تخصيصه ببعضها. ويحتمل أن يكون أراد أن ذلك من جملة اللمم، أو في حكم اللمم[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال المهلب: وكل ما كتبه اللَّه على ابن آدم فهو سابق في علم اللَّه، لا بد أن يدركه المكتوب عليه، وإن الإنسان لا يملك دفع ذلك عن نفسه؛ غير أن اللَّه تعالى تفضل على عباده، وجعل ذلك لممًا وصغائر لا يطالب بها عباده إذا لم يكن للفرج تصديق لها؛ فإذا صدّقها الفرج كان ذلك من الكبائر؛ رفقًا من اللَّه بعباده، ورحمة لهم؛ لما جبلهم عليه من ضعف الخلقة. ولو آخذ عباده باللمم أو ما دونه من حديث النفس؛ لكان ذلك عدلًا منه في عباده وحكمة، لا يسأل عما يفعل وله الحجة البالغة، لكن قبل منهم اليسير وعفا لهم عن الكثير تفضلًا منه وإحسانًا»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٦)، والبخاري (١١/ ٦١٤/ ٦٦١٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٦/ ٢٦٥٧)، وأبو داود (٢/ ٦١١-٦١٢/ ٢١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٣-٤٧٤/ ١١٥٤٤).

(٣) فتح الباري (١١/ ٦١٦).

(٤) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٣-٢٤).

قلت: وهذا الذي ذكره ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ عن المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ من أن كل مكتوب قد سبق به علمه فيه؛ بيان للمرتبتين الأوليين من مراتب القضاء والقدر، وهي العلم السابق والكتابة.

أما الأولى فيقول فيها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما المرتبة الأولى، وهي العلم السابق؛ فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة، وخالفهم مجوس الأمة. وكتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، قال مجاهد: عَلِمَ مِنْ إبليسَ المعصيةَ وخَلَقَه لها. وقال قتادة: كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياءُ ورسلٌ وقوم صالحون وساكنو الجنة. وقال ابن مسعود: أعلمُ ما لا يعلمون من إبليس. وقال مجاهد أيضًا: علم من إبليس أنه لا يسجد لآدم»[2].

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو سبحانه كما هو العليم الحكيم في اختياره مَنْ يختاره مِنْ خلقه، وإضلالِه مَنْ يضله منهم؛ فهو العليم الحكيم بما في أمره وشرعه من العواقب الحميدة، والغايات العظيمة؛ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

بين سبحانه أن ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به، وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم، وإما لنفور الطبع. فهذا علمه بما في عواقب أمره مما لا يعلمونه، وذلك علمه بما في اختياره مِن خلقه بما لا يعلمونه. فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر اللَّه وإن شق على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس»[4].

وقال: «واللَّه سبحانه قد علم قبل أن يوجِد عبادَهُ أحوالَهم، وما هم عاملون،

---

(١) البقرة: الآية (٣٠).
(٢) شفاء العليل (١/ ٩١).
(٣) البقرة: الآية (٢١٦).
(٤) شفاء العليل (١/ ١٠١).

وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليُظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه؛ إعذارًا إليهم، وإقامةً للحجة عليهم؛ لئلاّ يقولوا: كيف تعاقبنا على علمك فينا وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم؛ حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار. وكما ابتلاهم بأمره ونهيه؛ ابتلاهم بما زين لهم من الدنيا، وبما ركب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]»[2].

ويقول في المرتبة الثانية: «وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب. وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه، فـ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[3] في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب»[4].

* * *

(١) الكهف: الآية (٧).

(٢) شفاء العليل (١/ ١٠٦).

(٣) المسد: الآية (١).

(٤) شفاء العليل (١/ ١٢٠-١٢١).

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

★ غريب الآية:

اصنع: الصنع: جعل الشيء موجودًا بعد عدمه. والصناعة: الحرفة التي يُكْتَسَبُ بها.

الفلك: السفينة. ويكون جمعًا وواحدًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما كان نهيه عن الابتئاس بفعلهم مع شدة جرمهم مؤذنًا بأن اللَّه ينتصر له؛ أعقبه بالأمر بصنع الفلك لتهيئة نجاته ونجاة من قد آمن به من العذاب الذي قدره اللَّه لقومه؛ كما حكى اللَّه عنه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾[1] الآية، فجملة ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ عطف على جملة ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾[2]، وهي بذلك داخلة في الموحى به، فتدل على أن اللَّه أوحى إليه كيفية صنع الفلك؛ كما دل عليه قوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾، ولذلك فنوح عليه السلام أول من صنع الفلك ولم يكن ذلك معروفًا للبشر، وكان ذلك منذ قرون لا يحصيها إلاّ اللَّه تعالى، ولا يعتد بما يوجد في الإسرائيليات من إحصاء قرونها»[3].

وفي الآية فوائد؛ منها ما ذكره ابن القيم عن السهيلي قال: «ومن فوائد هذه المسألة أن يسأل عن المعنى الذي لأجله قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[4] بحرف (على)، وقال تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[5]، بالباء، و﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وما الفرق؟فالفرق أن الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيًّا، وإبداء ما كان

---

(١) القمر: الآيتان (١٠و١١).

(٢) الآية (٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٦٦).

(٤) طه: الآية (٣٩).

(٥) القمر: الآية (١٤).

مكتومًا؛ فإن الأطفال إذ ذاك كانوا يغذون ويصنعون سرًّا، فلما أراد أن يصنع موسى ويغذى ويربى على حال أمن وظهور، لا تحت خوف واستسرار؛ دخلت (على) في اللفظ؛ تنبيهًا على المعنى؛ لأنها تعطي الاستعلاء، والاستعلاء ظهور وإبداء، فكأنه يقول ﷺ: ولتصنع على أمن، لا تحت خوف. وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة. وأما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، فإنه إنما يريد: برعاية منّا وحفظ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى (على)، بخلاف ما تقدم.

هذا كلامه، ولم يتعرض -رحمه اللَّه تعالى- لوجه الإفراد هناك والجمع هنا، وهو من ألطف معاني الآية. والفرق بينهما يظهر من الاختصاص الذي خص به موسى في قوله تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[1]، فاقتضى هذا الاختصاصُ الاختصاصَ الآخرَ في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ فإن هذه الإضافة إضافة تخصيص. وأما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ فليس فيه من الاختصاص ما في صنع موسى على عينه ﷺ، واصطناعه إياه لنفسه، وما يسنده سبحانه إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع قد يريد به ملائكته؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[2]، وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾[3] ونظائره، فتأمله»[4].

وهذه الآية مما يطعن بها الجهمية على أهل السنة؛ يقولون: إن الأخذ بظاهرها يلزمنا إثبات شخص له وجه، وعلى ذلك الوجه أعين كثيرة. وقد رد هذه الشبهة العلامة ابن القيم، وخصّ لها فصلًا في «الصواعق». ومما قال فيه:

«إن دعوى الجهمي أن ظاهر القرآن يدل على أن لله سبحانه أيديًا كثيرة على جنب واحد، وأعينًا كثيرة على وجه واحد؛ عَضْهٌ للقرآن، وتنقّصٌ له وذمٌّ؛ ولا يدل ظاهر القرآن ولا باطنه على ذلك بوجه ما، ولا فهمه من له عقل، ولو كان ذلك ظاهر القرآن لكان المخبر به منفرًا للمدعوين عن الإيمان باللَّه ورسوله، ومطرقًا لهم إلى الطعن عليه، واللَّه سبحانه قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، وقال: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[5]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم

---

(١) طه: الآية (٤١).
(٢) القيامة: الآية (١٨).
(٣) يوسف: الآية (٣).
(٤) بدائع الفوائد (٢/ ٥-٦).
(٥) الطور: الآية (٤٨).

﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾[١]، وقال في قصة موسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾. فذكر العين المفردة مضافة إلى الضمير المفرد، والأعين مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع، وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة ليس إلا؛ كما يقول القائل: أفعل هذا على عيني، وأجيئك على عيني، وأحمله على عيني، ولا يريد به أن له عينًا واحدة، فلو فهم أحد هذا من ظاهر كلام المخلوق لعدّ أخرق. وأما إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرًا أو مضمرًا؛ فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ؛ كقوله: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾، وقوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾. وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد؛ كقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾[٢]، و﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾[٣].

وإن أضيفت إلى ضمير جمع؛ جمعت؛ كقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾، وكذلك إضافة اليد والعين إلى اسم الجمع الظاهر؛ كقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾[٤]، وقوله: ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾[٥]. وقد نطق القرآن والسنة بذكر اليد مضافة إليه سبحانه مفردة ومثناة ومجموعة، وبلفظ العين مضافة إليه مفردة ومجموعة، ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناة؛ كما قال عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إن العبد إذا قام في الصلاة؛ قام بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له ربه: إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني؟**»[٦]. وقول النبي ﷺ: «**إن ربكم ليس بأعور**»[٧] صريح في أنه ليس المراد إثبات عين واحدة ليس إلا؛ فإن ذلك عورٌ ظاهر، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا. وهل يفهم من قول الداعي: (اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام) أنها عين واحدة ليس إلا، إلا ذهن أقلف، وقلب أغلف. قال خلف بن تميم: حدثنا عبدالجبار بن كثير قال: قيل لإبراهيم بن أدهم:

---

(١) يس: الآية (٧١).
(٢) الملك: الآية (١).
(٣) آل عمران: الآية (٢٦).
(٤) الروم: الآية (٤١).
(٥) الأنبياء: الآية (٦١).
(٦) أخرجه من حديث أنس ﷺ: أحمد (٣/ ١٩٩) بنحوه، وليس فيه: «بين عيني الرحمن»؛ بل لفظه: «فإنما يناجي ربه فيما بينه وبين القبلة».
(٧) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: أحمد (٣/ ١٠٣)، والبخاري (١٣/ ٤٨٠/ ٧٤٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٨/ ٢٩٣٣)، وأبو داود (٤/ ٤٩٤/ ٤٣١٦)، والترمذي (٤/ ٤٤٧/ ٢٢٤٥). وقد تقدم من حديث ابن عمر ﷺ في أحاديث الباب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ الآية (٢٥) من هذه السورة.

هذا السبع، فنادى: يا قسورة! إن كنت أمرت فينا بشيء وإلا، يعني: فاذهب، فضرب بذنبه وولى مدبرًا، فنظر إبراهيم إلى أصحابه وقال: قولوا: (اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، وأكنفنا بكنفك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا ولا نهلك وأنت الرجاء). قال عثمان الدارمي: الأعور ضد البصير بالعينين، وقد قال النبي ﷺ في الدجال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور». وقد احتج السلف على إثبات العينين له سبحانه بقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾. وممن صرح بذلك إثباتًا واستدلالًا أبو الحسن الأشعري في كتبه كلها، فقال في «المقالات» و«الموجز» و«الإبانة» وهذا لفظه فيها: (وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله) إلى أن قال: (وإن الله مستوٍ على عرشه؛ كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1]، وأن له وجهًا؛ كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[2]، وأن له يدين؛ كما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[3]، وقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[4]، وأن له عينين بلا كيف؛ كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾). فهذا الأشعري والناس قبله وبعده ومعه لم يفهموا من الأعين أعينًا كثيرة على وجه، ولم يفهموا من الأيدي أيديًا كثيرة على شق واحد؛ حتى جاء هذا الجهمي فعضه القرآن، وادعى أن هذا ظاهره، وإنما قصد هذا وأمثاله التشنيع على من بدّعه وضلّله من أهل السنة والحديث، وهذا شأن الجهمية في القديم والحديث، وهم بهذا الصنيع على الله ورسوله وكتابه يشنعون، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5].

فما ذنب أهل السنة والحديث إذا نطقوا بما نطقت به النصوص، وأمسكوا عما أمسكت عنه، ووصفوا الله بما وصف به نفسه ووصفه رسوله، وردّوا تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، الذين عقدوا ألوية الفتنة، وأطلقوا أعنة المحنة، وقالوا على الله وفي الله بغير علم، فردّوا باطلهم، وبيّنوا زيفهم، وكشفوا إفكهم، ونافحوا عن الله ورسوله، فلم يقدروا على أخذ الثأر منهم إلا بأن سموهم مشبهة ممثلة مجسمة حشوية! ولو كان لهؤلاء عقول لعلموا أن التلقيب بهذه الألقاب ليس لهم، وإنما هو لمن جاء بهذه النصوص، وتكلم بها، ودعا الأمة إلى الإيمان بها

---

(١) طه: الآية (٥).
(٢) الرحمن: الآية (٢٧).
(٣) المائدة: الآية (٦٤).
(٤) ص: الآية (٧٥).
(٥) التوبة: الآية (١٠٥).

ومعرفتها، ونهاهم عن تحريفها وتبديلها، فدعوا التشنيع بما تعلمون أنتم وكل عاقل منصف أنه كذب ظاهر، وإفك مفترى، لا يعلم به قائل يناظر عن مقالته، فهل تدفعون عن أنفسكم التعطيل، ونفي حقائق صفات الكمال عن رب العالمين، وأنها مجاز لا حقيقة لها، وأن ظاهرها كفر وتشبيه وإلحاد، فلو كان خصومكم كما زعمتم -وحاشاهم- مشبهة ممثلة مجسمة؛ لكانوا أقل تنقّصًا لرب العالمين وكتابه وأسمائه وصفاته منكم بكثير كثير لو كان قولهم يقتضي التنقص، فكيف وهو لا يقتضيه، ولو صرحوا به فإنهم يقولون: نحن أثبتنا لله غاية الكمال ونعوت الجلال، ووصفناه بكل صفة كمال، فإن لزم من هذا تجسيم أو تشبيه؛ لم يكن هذا نقصًا ولا عيبًا ولا ذمًّا بوجه من الوجوه؛ فإن لازم الحق حق، وما لزم من إثبات كمال الرب ليس بنقص. وأما أنتم فنفيتم عنه صفات الكمال، ولا ريب أن لازم هذا النفي وصفه بأضدادها من العيوب والنقائص، فما سوى اللَّه ولا رسوله ولا عقلاء عباده بين من نفى كماله المقدس حذرًا من التجسيم، وبين من أثبت كماله الأعظم وصفاته العلى بلوازم ذلك كائنة ما كانت. فلو فرضنا في الأمة من يقول: له سمع كسمع المخلوق، وبصر كبصره؛ لكان أدنى إلى الحق ممن يقول: لا سمع له ولا بصر. ولو فرضنا في الأمة من يقول: إنه متحيز على عرشه تحيط به الحدود والجهات؛ لكان أقرب إلى الصواب من قول من يقول: ليس فوق العرش إله يعبد، ولا رب يصلى له ويسجد، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا ينزل من عنده شيء، ولا يصعد إليه شيء، ولا هو فوق خلقه، ولا محايثهم ولا مباينهم. ولو فرضنا في الأمة من يقول: إنه يتكلم كما يتكلم الآدمي، وأن كلامه بآلات وأدوات تشبه آلات الآدميين وأدواتهم؛ لكان خيرًا ممن يقول: إنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، ولا يقوم به كلام ألبتة؛ فإن هذا القائل يشبهه بالأحجار والجمادات التي لا تعقل، وذلك المشبه وصفه بصفات الأحياء الناطقين. وكذلك لو فرضنا في الأمة من يقول: له يدان كأيدينا؛ لكان خيرًا ممن يقول: ليس له يدان؛ فإن هذا معطل مكذب لله، رادّ على اللَّه ورسوله، وذلك المشبه غالط مخطئ في فهمه، فالمشبه على زعمكم الكاذب لم يشبهه تنقيصًا له وجحدًا لكماله؛ بل ظنًّا أن إثبات الكمال لا يمكن إلا بذلك، فقابلتموه بتعطيل كماله، وذلك غاية التنقص»[١].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٤-٢٦٥).

قلت: رحم اللَّه الإمام ابن تيمية إذ دائمًا يردد قولته: (المشبه يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا)، فعبادة الأصنام شرك وكفر وعبث وانحراف يرفضها العقلاء وأهل الفطر السليمة، والعدم حمق وسفاهة وإنكار لصريح العقول وفطرها، فالعقل دائمًا يقف في حدود الوجود ويتساءل عن الآيات الكبرى التي لا يستطيع دفعها ولا نسبتها لنفسه ولا لأحد، فلا يجد لها جوابًا إلا إثباتها لمبدع أبدعها، وخالق خلقها، ومدبر لشؤونها يدبرها في كل لحظات وجودها. فالتشبيه قبيح، وصاحبه مشابه في إثباته لعباد الأصنام، فلا خير فيه، ولا ينبغي أن يخطر ببال، والعدم المحض هو وقوع في سراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فلهذا ما قاله العلامة ابن القيم من فرضيات بين التشبيه والتعطيل لا يفهم منه الإقرار بالتشبيه وأن فيه فضيلة؛ بل هو ذم له وتحقير وتبشيع؛ لكن أحيانًا قد تضرب الأمثلة للتقريب والتفهيم، كما ضرب اللَّه الأمثلة بالذباب في حقارة عبادة الأصنام وأنها أضعف وأحقر من أن يتجه لها بعبادة، فالتشبيه مذموم على كل حال وإن كان الإمام ابن القيم يريد به التقريب لأذهان المعطلة وأن فيه وجودًا، والوجود أفضل من العدم، وإلا فلا خير لا في هذا ولا في هذا، واللَّه أعلم.

وفي الآية فائدة أخرى، وهي أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

قال ابن تيمية: «فالقرآن دل على أن المفعولات الخارجة مصنوعة لهم، وما كان مصنوعًا لهم فهو مقدور بالضرورة والاتفاق، والمنازع يقول: ليس شيء خارجًا عن محل قدرتهم مصنوعًا لهم، وهذا خلاف القرآن؛ قال تعالى لنوح: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ وقال: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾، وقد أخبر أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبني آدم، وجعلها من آياته، فقال: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾[1]، ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾[2]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾[3]، وقال: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[4].

---

(١) يس: الآية (٤١).

(٢) الحج: الآية (٦٥).

(٣) الزخرف: الآية (١٢).

(٤) الصافات: الآيتان (٩٥و٩٦).

فجعل الأصنام منحوتة معمولة لهم، وأخبر أنه خالقهم وخالق معمولهم؛ فإن (ما) ههنا بمعنى: الذي، والمراد خلق ما تعملونه من الأصنام، وإذا كان خالقًا للمعمول وفيه أثر الفعل؛ دل على أنه خالق لأفعال العباد. وأما قول من قال: إن (ما) مصدرية؛ فضعيف جدًّا»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٦-١٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سخروا منه: السخرية: الاستهزاء والتنقيص.

يَحِلّ عليه: ينزل به ويصيبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «فامتثل أمر ربه، وجعل يصنع الفلك، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ ورأوا ما يصنع ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ الآن ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ نحن أم أنتم. وقد علموا ذلك حين حلّ بهم العقاب»[(١)].

قلت: يكاد يطبق المفسرون في هذه الآية -أو التي قبلها- على إيراد كلام فَسْلٍ حول هيئة السفينة، وكيفية صناعتها، وسعتها للمخلوقات بأجناسها، وتفاصيل أخرى نحن في غنية عنها؛ لعدم إخبار اللَّه بها. وعمدتهم في هذا الكلام إما آثار لم تصح عن المعصوم ﷺ، أو نقولات عن أهل الكتاب. ويعجبني ما قاله الرازي في تفسيره، قال: «واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبني؛ لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلًا، وكان الخوض فيها من باب الفضول، لاسيما مع القطع بأنه ليس ههنا ما يدل على الجانب الصحيح، والذي نعلمه أنه كان في السعة بحيث يتسع للمؤمنين من قومه ولما يحتاجون إليه ولحصول زوجين من كل حيوان؛ لأن هذا القدر مذكور في القرآن، فأما غير ذلك القدر فغير مذكور»[(٢)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٢٤).

(٢) التفسير الكبير (١٧/ ٢٣٢).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠﴾

★ غريب الآية:

فَارَ التَّنّور: غَلَى. يقال: فار القدر يفور فَوْرًا: إذا ارتفع ما فيه بالغليان. قال ابن عاشور: «والفوران: غليان القدر، ويطلق على نبع الماء بشدة؛ تشبيهًا بفوران ماء في القدر إذا غلي، وحملوه على ما جاء في آيات أخرى من قصة نوح عليه السلام مثل قوله: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾[1]. ولذلك لم يتضح لهم إسناده إلى التنور؛ فإن التنور هو الموقد الذي ينضج فيه الخبز، فكثرت الأقوال في تفسير (التنور)، بلغت نسبة أقوال منها ما لا ينبغي قبوله. ومنها ما له وجه وهو متفاوت.

فمن المفسرين من أبقى (التنور) على حقيقته، فجعل الفوران خروج الماء من أحد التنانير، وأنه علامة جعلها اللَّه لنوح عليه السلام إذا أفار الماء من تنوره علم أن ذلك مبدأ الطوفان، فركِب الفلكَ وأركبَ من معه»[2].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه مواعدة من اللَّه تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر اللَّه من الأمطار المتتابعة، والهتّان الذي لا يقلع ولا يفتُر؛ بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[3].

وأما قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾؛ فعن ابن عباس: «**التنور: وجه الأرض**»؛ أي:

---

(١) القمر: الآية (١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٧٠).

(٣) القمر: الآيات (١١-١٤).

صارت الأرض عيونًا تفور؛ حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار؛ صارت تفور ماءً. وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ: «التنور: فَلَق الصبح، وتنوير الفجر»، وهو ضياؤه وإشراقه. والأول أظهر.

وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة. وعن ابن عباس: عين بالهند. وعن قتادة: عين بالجزيرة يقال لها: عين الوردة. وهذه أقوال غريبة»[١].

وقال القاسمي: «﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: وجه الأرض أو كل مفجر ماء، أو محفل ماء الوادي، أو عين ماء معروفة، أو الكانون الذي يخبز فيه، أو تنوير الفجر -أقوال حكاها اللغويون والمفسرون- زاد بعضهم احتمال أن يكون هذا كناية عن اشتداد الأمر؛ كما يقال: حمي الوطيس، والوطيس: التنور، وهو من فصيح الكلام وبليغه، وعندي أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها وأبلغها، وإن حاول الرازي ردّه؛ كأنه قيل: واشتد الأمر، وقوي انهمار الماء ونبوعه. وهذا الإيجاز في مجازه الرهيب قد بينته آيات أخر، وهي: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[٢] الآيات. ومما يؤيده شموله لشدة الأمر من السماء والأرض، فيطابق هذه الآيات. وأما غيره فمقصور على ناحية الأرض فقط. وجليّ أن الأمر كان أعم، والله أعلم»[٣].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الآية: ذكر الله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه أمر نبيّه نوحًا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: أن يحمل في سفينته من كل زوجين اثنين. وبيّن في سورة (قد أفلح المؤمنون) أنه أمره أن يسلكهم؛ أي: يدخلهم فيها؛ فدل ذلك على أن فيها بيوتًا يدخل فيها الراكبون؛ وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[٤]. ومعنى (اسلُكْ): أدخل فيها من كل زوجين اثنين؛ تقول العرب: سلكتُ الشيءَ في الشيءِ: أدخلتُهُ فيه. وفيه لغة أخرى وهي: أسلكتُهُ فيه، رباعيًا بوزن (أفعل)، والثلاثية لغة القرآن؛ كقوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٤).
(٢) القمر: الآيتان (١١و١٢).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٢٠).
(٤) المؤمنون: الآية (٢٧).

﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ الآية، وقوله: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾[4] الآية. ومنه قول الشاعر:

وكنت لزاز خصمك لم أعرد   وقد سلكوك في يوم عصيب

ومن الرباعية قول عبد مناف بن ربع الهذلي:

حتى إذا أسلكوهم في قتائده   شلا كما تطرد الجمالة الشردا

قال مقيده -عفا اللَّه عنه-: الذي يظهر أن أصل (السِّلْك) الذي هو الخيط: (فِعْل) بمعنى (مفعول)؛ كذِبْح بمعنى مذبوح، وقِتْلٍ بمعنى مقتول؛ لأن الخيط يسلك؛ أي: يدخل في الخرز لينظمه؛ كما قال العباس بن مرداس السلمي:

عين تأوبها من شجوها أرق   فالماء يغمرها طورًا وينحدر

كأنه نظم در عند ناظمة   تقطع السلك منه فهو منتثر

واللَّه تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ الآية:

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه أمر نوحًا أن يحمل في السفينة أهله إلا من سبق عليه القول؛ أي: سبق عليه من اللَّه القول بأنه شقي، وأنه هالك مع الكافرين.

ولم يبين هنا من سبق عليه القول منهم، ولكنه بين بعد هذا أن الذي سبق عليه القول من أهله هو ابنه وامرأته. قال في ابنه الذي سبق عليه القول: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ -إلى قوله- ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾[5]، وقال فيه أيضًا: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[6] الآية. وقال في امرأته: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ﴾ -إلى قوله- ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[7]»[8].

---

(١) القصص: الآية (٣٢).
(٢) الشعراء: الآية (٢٠٠).
(٣) الحجر: الآية (١٢).
(٤) المدثر: الآية (٤٢).
(٥) هود: الآيتان (٤٢و٤٣).
(٦) هود: الآية (٤٦).
(٧) التحريم: الآية (١٠).
(٨) أضواء البيان (٣/ ٢٥-٢٧).

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مرساها: أي مكان إرسائها. والإرساء: إمساك السفينة بما تقف. قال عنترة:

فصبرت نفسا عند ذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾؛ أي: باسم اللَّه يكون جريُها على وجه الماء، وباسم اللَّه يكون منتهى سيرها، وهو رسوّها.

وقرأ أبو رجاء العطاردي: (بِسْمِ اللهِ مُجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا).

وقال اللَّه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[1]؛ ولهذا تستحبّ التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[2]، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه»[3].

وقال الشنقيطي: «ذكر اللَّه تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه نوحًا -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- أمر أصحابه الذين قيل له: احملهم فيها؛ أن يركبوا فيها قائلًا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾؛ أي: بسم اللَّه يكون جريها على وجه

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٢٨و٢٩).

(٢) الزخرف: الآيات (١٢-١٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٥).

الماء، وبسم اللَّه يكون منتهى سيرها، وهو رسوها.

وبين في سورة (الفلاح): أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدوا اللَّه الذي نجاهم من الكفرة الظالمين، ويسألوه أن ينزلهم منزلًا مباركًا؛ وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[1].

وبين في سورة (الزخرف) ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[2].

ومعنى قوله: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين، ومنه قول عمرو بن معديكرب:

لقد علم القبائل ما عقيل ... لنا في النائبات بمقرنينا

وقول الآخر:

ركبتم صعبتي أشر وجبن ... ولستم للصعاب بمقرنينا

وقول ابن هرمة:

وأقرنت ما حملتني ولقلما ... يطاق احتمال الصد يا دعد والهجر»[3].

قلت: وقد مضى في تفسير (الفاتحة) تعيين مواطن التسمية، وذكرنا بعض ما يتعلق بها أيضًا في تفسير سورة (الزخرف).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: قال ابن كثير: « اسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكرُ أنه غفور رحيم. ما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ ،و مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات ي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته»[6].

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٢٨و٢٩).
(٢) الزخرف لآيات (١٢-١٤).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٧-٢٨).
(٤) الأعراف لآية (١٦٧).
(٥) الرعد: الآية (٦).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٦).

وقال الرازي: «وأما ـه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ففيه سؤال، وهو أن ذلك الوقت وقت الإهلاك وإظها ـهر، فكيف يليق به هذا الذكر؟

وجوابه: لعل القوم الذ ركبوا السفينة اعتقدوا في أنفسهم أنا إنما نجونا ببركة علمنا، فالله تعالى نبههم به كلام لإزالة ذلك العجب منهم؛ فإن الإنسان لا ينفك عن أنواع الزلات وظلمات بوات، وفي جميع الأحوال فهو محتاج إلى إعانة الله وفضله وإحسانه، وأن يكو يمًا لعقوبته، غفورًا لذنوبه»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٧/ ٢٣٨-٢٣٩)

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبّق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال.. وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن اللَّه وتحت كَنَفه وعنايته، وحراسته وامتنانه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2]»[3].

وقال الشنقيطي: «ذكر اللَّه تعالى في هذه الآية الكريمة: أن السفينة تجري بنوح ومن معه في ماء عظيم، أمواجه كالجبال.

وبين جريانها هذا في ذلك الماء الهائل في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[4]، وقوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[5].

وبين في موضع آخر: أن أمواج البحر الذي أغرق اللَّه فيه فرعون وقومه كالجبال أيضًا بقوله: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[6]، والطود: الجبل العظيم»[7].

قال محمد رشيد رضا: «وأصل الموج: الاضطراب، ومنه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾[8]، ومن عرف ما يحدث في البحار العظيمة من الأمواج عندما تهيجها

---

(١) الحاقة: الآيتان (١١و١٢).

(٢) القمر: الآيات (١٣-١٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٦).

(٤) الحاقة: الآيتان (١١و١٢).

(٥) القمر: الآيات (١١-١٥).

(٦) الشعراء: الآية (٦٣).

(٧) أضواء البيان (٣/ ٢٨).

(٨) الكهف: الآية (٩٩).

الرياح الشديدة؛ رأى أن المبالغة في هذا التشبيه غير بعيدة؛ وصف لي بعضهم سفره في المحيط الهندي في زمن رياح الصيف -التي يسمونها الموسمية- بما معناه: كنت أرى السفينة تهبط بنا في غور عميق، كواد سحيق، نرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها، فإذا بها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها في شاهق جبل تريد أن تنقض منه، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها؛ لئلاّ يجرفهم ما يفيض من الموج عليها»[1].

قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾: قال الرازي: «اختلفوا في أنه كان ابنًا له، وفيه أقوال:

القول الأول: أنه ابنه في الحقيقة؛ والدليل عليه: أنه تعالى نص عليه فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، ونوح أيضًا نص عليه فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، وصرفُ هذا اللفظ إلى أنه ربّاه فأطلق عليه اسم (الابن) لهذا السبب؛ صرفٌ للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة وأنه لا يجوز، والذين خالفوا هذا الظاهر إنما خالفوه لأنهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافرًا، وهذا بعيد؛ فإنه ثبت أن والد رسولنا ﷺ كان كافرًا، ووالد إبراهيم عليه السلام كان كافرًا بنص القرآن، فكذلك ههنا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام لما قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2]، فكيف ناداه مع كفره؟

فأجابوا عنه من وجوه: الأول: أنه كان ينافق أباه، فظن نوح أنه مؤمن، فلذلك ناداه، ولولا ذلك لما أحب نجاته. والثاني: أنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر، لكنه ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فإنه يقبل الإيمان، فصار قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان، وتأكد هذا بقوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: تابعهم في الكفر واركب معنا. والثالث: أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء، والذي تقدم من قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[3] كان كالمجمل، فلعله عليه السلام جوز عليه أن لا يكون هو داخلًا فيه.

(١) تفسير المنار (١٢/ ٧٨).
(٢) نوح: الآية (٢٦).
(٣) الآية (٤٠).

القول الثاني: أنه كان ابن امرأته. وهو قول محمد بن علي الباقر، وقول الحسن البصري، ويروى أن عليًا ﷺ قرأ: (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهَا)، والضمير لامرأته. وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير: (ابْنَهَ) بفتح الهاء؛ يريد أن ابنها، إلا أنهما اكتفيا بالفتحة عن الألف، وقال قتادة: سألت الحسن عنه فقال: واللَّه ما كان ابنه، فقلت: إن اللَّه حكى عنه أنه قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾[1]، وأنت تقول: ما كان ابنًا له! فقال: لم يقل: (إنه منّي)، ولكنه قال: ﴿مِنْ أَهْلِى﴾، وهذا يدل على قولي.

القول الثالث: أنه ولد على فراشه لغير رشدة. والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[2]، وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن تلك الفضيحة، لا سيما وهو على خلاف نص القرآن. وأما قوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾؛ فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكروه. قيل لابن عباس ﷺ: ما كانت تلك الخيانة؟ فقال: كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به. ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾[3]، وأيضًا قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4][5]، وبالجملة فقد دلّلنا على أن الحق هو مقول الأول»[6].

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: «وهؤلاء الرافضة يرمون أزواج الأنبياء: عائشة وامرأة نوح بالفاحشة؛ فيؤذون نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء من الأذى بما هو من جنس أذى المنافقين المكذّبين للرسل، ثم ينكرون على طلحة والزبير أخذهما لعائشة معهما لما سافرا معها من مكة إلى البصرة، ولم يكن في ذلك ريبة فاحشة بوجه من الوجوه. فهل هؤلاء إلا من أعظم الناس جهلًا وتناقضًا؟وأما أهل السنة فعندهم أنه ما بغت امرأة نبي قط، وأن ابن نوح كان ابنه؛ كما قال اللَّه تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، وكما قال نوح: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾،

---

(١) هود: الآية (٤٥).
(٢) التحريم: الآية (١٠).
(٣) النور: الآية (٢٦).
(٤) النور: الآية (٣).
(٥) وقد سبق أن نبهنا على ذلك في قصة لوط عند تفسير: الآية (٨٣) من سورة (الأعراف).
(٦) التفسير الكبير (١٧/ ٢٣٩-٢٤١).

وقال: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾[1]، فاللَّه ورسوله يقولان: إنه ابنه، وهؤلاء الكذابون المفترون المؤذون للأنبياء يقولون: إنه ليس ابنه. واللَّه تعالى لم يقل: إنه ليس ابنك، ولكن قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾[2]. وهو ﷺ قال: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾، ثم قال: ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾[3]؛ أي: واحمل من آمن، فلم يأمره بحمل أهله كلهم؛ بل استثنى من سبق عليه القول منهم، وكان ابنه قد سبق عليه القول، ولم يكن نوح يعلم ذلك؛ فلذلك قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾؛ ظانًّا أنه دخل في جملة من وُعِد بنجاتهم؛ ولهذا قال من قال من العلماء: إنه ليس من أهلك الذين وعدت بإنجائهم، وهو وإن كان من الأهل نسبًا، فليس هو منهم دينًا، والكفر قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين؛ كما نقول: إن أبا لهب ليس من آل محمد، ولا من أهل بيته وإن كان من أقاربه، فلا يدخل في قولنا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد. وخيانة امرأة نوح لزوجها كانت في الدين؛ فإنها كانت تقول: إنه مجنون. وخيانة امرأة لوط أيضًا كانت في الدين؛ فإنها كانت تدلّ قومها على الأضياف، وقومها كانوا يأتون الذكران، لم تكن معصيتهم الزنا بالنساء حتى يُظَنّ أنها أتت فاحشة؛ بل كانت تعينهم على المعصية، وترضى عملهم. ثم من جهل الرافضة أنهم يعظّمون أنساب الأنبياء: آباءهم، وأبناءهم، ويقدحون في أزواجهم؛ كل ذلك عصبية واتّباع هوى؛ حتى يعظّمون فاطمة والحسن والحسين، ويقدحون في عائشة أم المؤمنين، فيقولون -أو من يقول منهم-: إن آزر أبا إبراهيم كان مؤمنًا، وإن أبوي النبي ﷺ كانا مؤمنين، حتى لا يقولون: إن النبي يكون أبوه كافرًا، فإذا كان أبوه كافرًا أمكن أن يكون ابنه كافرًا، فلا يكون في مجرد النسب فضيلة. وهذا مما يدفعون به أن ابن نوح كان كافرًا لكونه ابن نبي، فلا يجعلونه كافرًا مع كونه ابنه، ويقولون أيضًا: إن أبا طالب كان مؤمنًا. ومنهم من يقول: كان اسمه عمران، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4]. وهذا الذي فعلوه مع ما

---

(١) هود: الآية (٤٥).

(٢) هود: الآية (٤٦).

(٣) هود: الآية (٤٠).

(٤) آل عمران: الآية (٣٣).

فيه من الافتراء والبهتان ففيه من التناقض وعدم حصول مقصودهم ما لا يخفى؛ وذلك أن كون الرجل أبيه أو ابنه كافرًا لا ينقصه ذلك عند اللَّه شيئًا؛ فإن اللَّه يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي. ومن المعلوم أن الصحابة أفضل من آبائهم، وكان آباؤهم كفارًا»[١].

* * *

(١) منهاج السنة (٤/ ٣٤٨-٣٥٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

★ غريب الآية:

عاصم: مانع. يقال: عَصَمَكَ يَعْصِمك: إذا منعك وحفظك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا مانع؛ فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار.

وانتصب ﴿عَاصِمَ﴾ على التبرئة. ويجوز (لا عاصمٌ اليومَ) تكون (لا) بمعنى (ليس). ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ في موضع نصب استثناء ليس من الأول؛ أي: لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج.

ويجوز أن يكون في موضع رفع، على أن عاصمًا بمعنى معصوم، مثل: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[1]؛ أي: مدفوق، فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر:

بطيءُ القيام رخيمُ الكلا ... مِ أمسى فؤادي به فاتنا

أي: مفتونًا. وقال آخر:

دَعِ المكارمَ لا تنهض لبغيتها ... واقعد فإنّك أنتَ الطاعمُ الكاسي

أي: المطعوم المكسوّ. قال النحاس: ومن أحسن ما قيل فيه أن تكون (مَنْ) في موضع رفع؛ بمعنى: لا يعصم اليوم من أمر اللّه إلا الراحم؛ أي: إلا اللّه. وهذا اختيار الطبري. ويحسّن هذا أنك لم تجعل عاصمًا بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا (إلاّ) بمعنى (لكن)»[2].

(١) الطارق: الآية (٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٩-٤٠).

قال الراغب: «﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا شيء يعصم منه. ومن قال: معناه: لا معصوم؛ فليس يعني أن العاصم بمعنى المعصوم، وإنما ذلك تنبيه منه على المعنى المقصود بذلك، وذلك أن العاصم والمعصوم يتلازمان، فأيهما حصل حصل معه الآخر»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير أن الاستثناء إذا كان منقطعًا فلا بد من أن يكون الكلام الذي قبل (إلا) قد دل على ما يستثنى، فلا يحتاج إلى تقدير، وإلا احتاج إليه، وضرب لذلك أمثلة؛ منها: «قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ على أصح الوجوه في الآية؛ فإنه تعالى لما ذكر العاصم استدعى معصومًا مفهومًا من السياق، فكأنه قيل: لا معصوم اليوم من أمره إلا من رحمه؛ فإنه لما قال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بقي الذهن طالبًا للمعصوم، فكأنه قيل: فمن الذي يُعصَم؟ فأجيب بأنه لا يُعصَم إلا من رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ودلّ هذا اللفظ باختصاره وجلالته وفصاحته على نفي كل عاصم سواه، وعلى نفي كل معصوم سوى من رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فدل الاستثناء على أمرين: على المعصوم من هو، وعلى العاصم وهو ذو الرحمة. وهذا من أبلغ الكلام، وأفصحه، وأوجزه. ولا يلتفت إلى ما قيل في الآية بعد ذلك، وقد قالوا فيها ثلاثة أقوال أخر: أحدها: إن (عاصمًا) بمعنى (معصوم)؛ كـ(ماء دافق) و(عيشة راضية)، والمعنى: لا معصوم إلا من رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وهذا فاسد لأن كل واحد من اسم الفاعل واسم المفعول موضوع لمعناه الخاص به، فلا يشاركه فيه الآخر؛ وليس الماء الدافق بمعنى المدفوق؛ بل هو فاعل على بابه؛ كما يقال: ماء جارٍ، فـ(دافق) كـ(جارٍ)، فما الموجب للتكلف البارد؟ وأما (عيشة راضية)؛ فهي عند سيبويه على النسب؛ كـ(تامر) و(لابن)؛ أي: ذات رضيّ، وعند غيره كـ(نهار صائم) و(ليل قائم)؛ على المبالغة. والقول الثاني: إنّ ﴿مَن رَّحِمَ﴾: فاعل، لا مفعول، والمعنى: لا يعصم اليوم من أمر اللّه إلا الراحم، فهو استثناء فاعل من فاعل؛ وهذا وإن كان أقل تكلفًا فهو أيضًا ضعيف جدًا، وجزالة الكلام وبلاغته تأباه بأول نظر.

والقول الثالث: إن في الكلام مضافًا محذوفًا قام المضاف إليه مقامه، والتقدير: لا معصومَ عاصمِ اليومَ من أمر اللّه إلا من رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وهذا من أنكر

---

(١) مفردات القرآن (ص: ٥٦٩-٥٧٠).

الأقوال، وأشدها منافاة للفصاحة والبلاغة، ولو صرح به لكان مستغثًا»[1].

قال الطبري: «ولا وجه لهذه الأقوال التي حكيناها عن هؤلاء؛ لأن كلام اللَّه تعالى إنما يوجَّه إلى الأفصح الأشهر من كلام من نزل بلسانه، ما وُجد إلى ذلك سبيل. ولم يضطرنا شيء إلى أن نجعل (عاصمًا) في معنى (معصوم)، ولا أن نجعل (إلا) بمعنى (لكن)، إذ كنا نجد لذلك في معناه الذي هو معناه، في المشهور من كلام العرب، مخرجًا صحيحًا، وهو ما قلنا من أنّ معنى ذلك: قال نوح: لا عاصم اليوم من أمر اللَّه إلا من رحمنا فأنجانا من عذابه؛ كما يقال: لا مُنجي اليوم من عذاب اللَّه إلا اللَّه، ولا مُطعم اليوم من طعام زيد إلا زيد. فهذا هو الكلام المعروف والمعنى المفهوم»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أنه لا عاصم إلا الله

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما استُخْلِفَ خليفةٌ إلا له بِطانتان: بطانةٌ تأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانةٌ تأمره بالشّرّ وتحضّه عليه، والمعصومُ مَنْ عصم اللهُ**»[3].

★غريب الحديث:

بطانة: مصدر يسمى به الواحد والجمع، وبطانة الرجل: خاصّته الذين يستبطنون أمره. وأصله من البطن الذي هو خلاف الظهر. قال الشاعر:

أولئك خلصائي نَعَم وبطانتي وهم عَيْبتي[4] من دون كل قريب

★فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «أي: من عصمه اللَّه بأن حماه من الوقوع في الهلاك أو ما يجر إليه؛ يقال: عصمه اللَّه من المكروه: وقاه وحفظه. واعتصمت بالله: لجأت إليه. وعصمة الأنبياء -على نبينا وعليهم الصلاة والسلام-: حفظهم من النقائص،

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٧-٦٨).

(٢) جامع البيان (١٢/ ٤٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٩)، والبخاري (١١/ ٦١٣/ ٦٦١١)، والنسائي (٧/ ١٧٨/ ٤٢١٣).

(٤) خاصّتي وموضع سرّي.

وتخصيصهم بالكمالات النفسية، والنصرة، والثبات في الأمور، وإنزال السكينة. والفرق بينهم وبين غيرهم: أن العصمة في حقهم بطريق الوجوب، وفي حق غيرهم بطريق الجواز»[1].

* * *

(١) فتح الباري (١١/ ٦١٣).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾

★ غريب الآية:

ابلعي: الْبَلْعُ: تغييب الشيء في الجوف. يقال: بَلَعْتُهُ وابْتَلَعْتُهُ، بمعنى: سرَطْتُهُ.

أقلعي: أي: أَمْسِكي ماءَكِ؛ من قولك: أَقْلَعَتْ عنه الحمى: إذا زالت. والإقلاع: الإزالة.

غيض: نقص. يقال: غاض الماءُ يَغِيضُ غَيْضًا: إذا نقص ونَضَبَ وغاب في الأرض.

قُضِيَ الأمْرُ: أي: فُصل وأُحْكِمَ وأُتِمَّ من النجاة والهلاك.

استوت: أي: استقرّت.

الجوديّ: اسم جبل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة؛ أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلع عن المطر، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾؛ أي: شرع في النقص، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: فُرِغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله، لم يبق منهم ديّار، ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة»[(١)].

وقال الرازي: «وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ففيه وجهان: الأول: أنه من كلام الله تعالى؛ قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد. والثاني:

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٦).

أن يكون ذلك من كلام نوح ﷺ وأصحابه؛ لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة، فإذا هلكوا ونجا منهم؛ قال مثل هذا الكلام، ولأنه جارٍ مجرى الدعاء عليهم، فجعلُهُ من كلام البشر أليقُ»[١].

وهذه الآية -كما قال الزمخشري- استفصحها علماء البيان، ورقصوا لها رؤوسهم[٢].

وقال القاسمي: «هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وحوت من بدائع الفرائد نهايتها. وقد اهتم علماء البيان لإيضاح نخب من لطائفها. ومن أوسعهم مجالًا في مضمار معارفها الإمام السكاكي، فقد أطال وأطاب في كتابه «المفتاح»، وتلطف في التبيان بألطف من نسيم الصباح -ثم نقل كلامه- وقد تصدى أبو حيان أيضًا في تفسيره المسمى بـ«النهر» للطائفها، وساق أحدًا وعشرين نوعًا من البديع. وألف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها: «النهر المورود في تفسير آية هود» أورد تلك الأنواع البديعية أيضًا»[٣].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٧/ ٢٤٤).
(٢) الكشاف (٢/ ٢٧٢).
(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٢٥-١٣١).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: ونادى نوح ربه، فقال: ربِّ إنك وعدتني أن تنجيني من الغرق والهلاك وأهلي، وقد هلك ابني، وابني من أهلي، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا خلف له، ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بالحق، فاحكم لي بأن تفِيَ بما وعدتني من أن تنجيَ لي أهلي، وترجعَ إليّ ابني»[1].

وقال ابن عاشور: «موقع الآية يقتضي أنّ نداء نوح ﷺ هذا كان بعد استواء السفينة على الجوديّ نداءً دَعاه إليه داعي الشفقة، فأراد به نفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدّنيا؛ لأنّ اللّه أعلمه أنّه لا نجاة إلاّ للّذين يركبون السّفينة، ولأنّ نوحًا ﷺ لمّا دعا ابنه إلى ركوب السّفينة فأبى وجرت السفينة؛ قد علم أنّه لا وسيلة إلى نجاته، فكيف يسألها من الله؟! فتعيّن أنّه سأل له المغفرة؛ ويدلّ لذلك قوله تعالى: ﴿تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ كما سيأتي.

ويجوز أن يكون دعاء نوح ﷺ هذا وقع قبل غرق النّاس؛ أي: نادى ربّه أن ينجي ابنه من الغرق.

ويجوز أن يكون بعد غرق من غرقوا؛ أي: نادى ربّه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة.

والنّداء هنا نداء دعاء، فكأنّه قيل: ودعا نوح ربّه؛ لأنّ الدعاء يصدّر بالنّداء غالبًا، والتّعبير عن الجلالة بوصف الربّ مضافًا إلى نوح ﷺ تشريف لنوح، وإيماء إلى رأفة اللّه به، وأن نهيه الوارد بعده نهيُ عتاب»[2].

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٨٣-٨٤).

وقال ابن العربي: «قال علماؤنا: إنما سأل نوحٌ ربَّه لأجل قول الله: ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ﴾ إلى: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾[١]، وترك نوحٌ قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾[٢]؛ لأنه رآه استثناءً عائدًا إلى قوله: ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، وحمله الرجاءُ على ذلك، فأعلمه اللَّه أن الاستثناء عائد إلى الكل، وأنه قد سبق القول على بعض أهله، كما سبق على بعض من الزوجين، وأن الذي سبق عليه القول من أهله هو ابنُهُ تسليةً للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين. ونشأت عليه مسألة، وهي أنّ الابن من الأهل اسمًا ولغةً، ومن أهل البيت»[٣].

* * *

(١) هود: الآية (٤٠).

(٢) المؤمنون: الآية (٢٧).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٠٥٨-١٠٥٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾[1]، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحًا عليه السلام.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زِنْية، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد، والحسن، وعبيد بن عمير، وأبي جعفر الباقر، وابن جريج، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾، وبقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[2]، فممن قاله الحسن البصري؛ احتج بهاتين الآيتين. وبعضهم يقول: كان ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازًا لكونه كان ربيبًا عنده، فالله أعلم.

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط - قال: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾؛ أي: الذين وعدتك نجاتهم.

وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه؛ فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة؛ ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ

---

(١) المؤمنون: الآية (٢٧).

(٢) التحريم: الآية (١٠).

خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال عبدالكريم الخطيب: «وسمي الابن (عملًا)؛ لأنه غرسٌ من غرس أبيه، وثمرة من زَرْعِهِ، ولكن هذا الابن كان غريبًا، غُرِسَ في منبت سوء، هي أمه، فجاء ثمرة معطوبة فاسدة»[(٣)].

قال البقاعي: «ولهذا علل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ﴾ أي: ذو عمل، ولكنه جعله نفس العمل في قراءة الجماعة مبالغة في ذمه؛ وذلك لأن الجواهر متساوية الأقدام في نفس الوجود؛ لا تشرف إلا بآثارها، فبين أنه ليس فيه أثر صالح أصلًا، ويثبت قراءة يعقوب والكسائي بالفعل أن من باشر السوء مطلق مباشرة وجبت البراءة منه، ولا سيما للأمر فلا يواصل إلا بإذن، وعبر بالعمل دون الفعل لزعمه أن أعماله مبنية على العلم، وأكده لما لا يخص من سؤال نوح ﷺ هذا ﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ بعلمي، وقد حكمت في هذا الأمر أني لا أنجي منه إلا من اتصف بالصلاح، وأنا عليم بذات الصدور، وأنت يخفى عليك كثير من الأمور، فربما ظننت الإيمان بمن ليس بمؤمن لبنائك الأمر على ما تراه من ظاهره؛ وقد نقل الرماني عن الحسن أنه كان ينافق بإظهار الإيمان، وهذا يدل على أن الموافق في الدين ألصق ما يكون وإن كان في غاية البعد في النسب، والمخالف فيه أبعد ما يكون وإن كان في غاية القرب في النسب»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة رسول الله ﷺ للآية

* عن أم سلمة ﵂ «أن رسول الله ﷺ قرأها: ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيْرَ صَٰلِحٍ﴾[(٥)]»[(٦)].

---

(١) النور: الآيات (١١-١٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٨-٢٥٩).
(٣) التفسير القرآني للقرآن (٦/ ١١٤٧-١١٤٨).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٢٩٤-٢٩٥).
(٥) هذه قراءة يعقوب والكسائي. انظر النشر (٢/ ٢٨٦).
(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٩٤، ٣٢٢)، وأبو داود (٤/ ٢٨٥-٢٨٦/ ٣٩٨٣)، والترمذي (٥/ ١٧٢/ ٢٩٣٢). ورواه أيضًا: أحمد (٦/ ٤٥٤)، وأبو داود (٤/ ٢٨٥/ ٣٩٨٢)، والترمذي (٥/ ١٧٢/ ٢٩٣١)، فقالوا فيه: عن أسماء بنت يزيد. ونقل الترمذي عن عبد بن حميد أن أسماء بنت يزيد هي أم سلمة الأنصارية، ووافقه. واستظهره ابن كثير أيضًا (انظر التفسير (٣/ ٢٦٠)). والحديث في إسناده شهر بن حوشب؛ مختلف فيه، لكن له شواهد عن عائشة وابن عباس ﵃. وانظر السلسلة الصحيحة (٦/ ٧٢٩-٧٣٢). وللشيخ أحمد شاكر بحث في هذا الحديث في تعليقه على تفسير الطبري (١٥/ ٣٤٨-٣٥٠).

★ **فوائد الحديث:**

هذه القراءة منه ﷺ للآية تدل على قوة ما ذهب إليه بعض المفسرين في تفسيرها، وهو أنه سبحانه بيّن انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح؛ أي: إنه مخالف له في النية والعمل؛ تنبيهًا على أن أهله هم الصلحاء؛ أهل دينه وشريعته، وإنه لتماديه في الفساد والغيّ كأن نفسه عملٌ غير صالح، وتلويحًا بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح؛ لا القرابة[1].

غير أن ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومعه جماعة من المفسرين ذهبوا مذهبًا آخر في الآية، وهو أن نفس الدعاء الذي دعا به نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله عملٌ غير صالح، يعني أن سؤالك في ابنك المخالف دينك، الموالي أهل الشرك بي، من النجاة من الهلاك؛ عملٌ غير صالح. فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واختلف الذين قرؤوا ذلك كذلك في تأويله، فقال بعضهم: معناه: إن مسألتك إياي هذه عملٌ غيرُ صالح..

وقال آخرون: بل معناه: إن الذي ذكرت أنه ابنك، فسألتني أن أنجيَهُ؛ عملٌ غيرُ صالح؛ أي: أنه لغير رِشْدَة، وقالوا: (الهاء) في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدة على الابن..

والصواب من القراءة في ذلك عندنا ما عليه قرّاء الأمصار، وذلك رفع (عملٌ) بالتنوين، ورفع (غَيْرُ)، يعني أن سؤالك إياي ما تسألنيه في ابنك المخالف دينك، الموالي أهل الشرك بي، من النجاة من الهلاك، وقد مضت إجابتي إياك في دعائك: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2] ما قد مضى من غير استثناء أحد منهم؛ عملٌ غير صالح؛ لأنه مسألة منك إليّ أن لا أفعل ما قد تقدم مني القول بأني أفعله في إجابتي مسألتك إياي فعله، فذلك هو العمل غير الصالح»[3]. والله تعالى أعلم.

* عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي اجتاح مالي. فقال: **«أنت ومالك لأبيك»**. وقال رسول الله ﷺ: **«إنّ أولادكم مِنْ أطيبِ كسبِكم، فكلوا من أموالهم»**[4].

---

(١) أفاده القاسمي في محاسن التأويل (٩/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) نوح: الآية (٢٦).

(٣) جامع البيان (١٢/ ٥٢-٥٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٤)، وأبو داود (٣/ ٨٠١-٨٠٢/ ٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٩/ ٢٢٩٢).

★**فوائد الحديث:**

في الآية: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾، فسمى الابن (عملًا) على اعتبار أن (الهاء) عائدة على الابن كما سماه في هذا الحديث كسبًا. أفاده القرطبي. ويقوي أيضًا كلام عبد الكريم الخطيب السالف.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا نبيه محمدًا ﷺ عن إنابة نوح عليه السلام بالتوبة إليه من زلته في مسألته التي سألها ربه في ابنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾؛ أي: أستجير بك أن أتكلف مسألتك ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ مما قد استأثرت بعلمه، وطويت علمه عن خلقك، فاغفر لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني، وإن أنت لم تغفرها لي ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ فتنقذني من غضبك ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يقول: من الذين غَبَنوا أنفسهم حظوظَها وهلكوا»[1].

وقال السعدي: «ودل هذا على أن نوحًا عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربّه في نجاة ابنه محرَّم، داخل في قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[2]، بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾[3].

وبعد هذا تبيّن له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم، والمراجعة فيهم»[4].

* * *

(١) جامع البيان (١٢/ ٥٤).
(٢) الآية (٣٧).
(٣) الآية (٤٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٢٨).

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يمسّهم: يصيبهم. وأصل المسّ: اللمس باليد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾ من الفلك إلى الأرض ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ يقول: بأمن منا أنت ومن معك من إهلاكنا، ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ يقول: وبركات عليك، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ يقول: وعلى قرون تجيء من ذرية من معك من ولدك، فهؤلاء المؤمنون من ذرية نوح الذين سبقت لهم من اللَّه السعادة، وبارك عليهم قبل أن يخلقهم في بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم، ثم أخبر -تعالى ذكره- نوحًا عما هو فاعل بأهل الشقاء من ذريته، فقال له: ﴿وَأُمَمٞ﴾ يقول: وقرون، وجماعة ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الحياة الدنيا، يقول: نرزقهم فيها ما يتمتعون به إلى أن يبلغوا آجالهم، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يقول: ثم نذيقهم إذا وردوا علينا عذابًا مؤلمًا موجعًا»[1].

وقال ابن عاشور: «والمقصود: تحذير قوم نوح من اتباع سبيل الذين أغرقوا، والمقصود من حكاية ذلك في القرآن التعريض بالمشركين من العرب؛ فإنهم من ذريّة نوح ولم يتبعوا سبيل جدّهم، فأشعروا بأنّهم من الأمم التي أنبأ اللَّه نوحًا بأنه سيمتعهم ثم يمسهم عذاب أليم. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[2]؛ أي: وكان المتحدث عنهم غير شاكرين للنعمة»[3].

وقال السعدي: «أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك أحللنا

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٥٤-٥٥).
(٢) الإسراء: الآية (٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ٩١).

به العقاب، وإن متعوا قليلًا، فسيؤخذون بعد ذلك»[1].

يذكر بعض المفسرين هنا قضية عموم الطوفان لجميع الأرض بين النفي والإثبات، والذي يدل عليه ظاهر القرآن عمومه لجميع الأرض.

وفي الأخذ بالظاهر غنية عن البحث والتفصيل بغير بينة وهدى ونور من اللَّه، واللَّه تعالى أعلم.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٢٨).

قوله تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «يقول تعالى لنبيه ﷺ : هذه القصة وأشباهها ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ، يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها ، كأنك شاهدها . ﴿نوحيها إِلَيْكَ﴾ ؛ أي : نعلمك بها وحيًا منّا إليك ، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ ؛ أي : لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك : إنك تعلمتها منه ؛ بل أخبرك اللّه بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح ؛ كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك ، وأذاهم لك ، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[١] الآية ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾[٢] الآية ، وقال تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾»[٣] .

وقال ابن تيمية : «ذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب ؛ ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا . فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك ، لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم ، وهو لم يعاشر إلا قومه ، وقومه يعلمون ذلك منه ، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ، ويعلمون أيضًا أنه هو لم يكن تعلم ذلك ، وأنه لم يكن يعاشر غيرهم ، وهم لا يعلمون ذلك ؛ صار هذا حجة على قومه ، وعلى من بلغه خبر قومه»[٤] .

(١) غافر : الآية (٥١) .
(٢) الصافات : الآيتان (١٧١و١٧٢) .
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦١) .
(٤) الجواب الصحيح (٥/ ٣٢٣) .

وقال ابن عاشور: «وجه تفريع أمر الرسول بالصبر على هذه القصة أن فيها قياس حاله مع قومه على حال نوح عليه السلام مع قومه، فكما صبر نوح عليه السلام فكانت العاقبة له؛ كذلك تكون العاقبة لك على قومك. وخبر نوح عليه السلام مستفاد مما حكي من مقاومة قومه ومن ثباته على دعوتهم؛ لأن ذلك الثبات مع تلك المقاومة من مسمى الصبر»[(١)].

خاتمة

قال ابن عطية: «وفي أمر نوح عليه السلام تدافع في ظاهر الآيات والأحاديث ينبغي أن نُخَلِّصَ القول فيه؛ وذلك أن ظاهر أمره أنه عليه السلام دعا على الكافرين عامة من جميع الأمم ولم يخصّ قومه دون غيرهم، وتظاهرت الروايات وكتب التفاسير بأن الغرق نال جميع أهل الأرض وعمّ الماء جميعها؛ قاله ابن عباس وغيره. ويوجب ذلك أمر نوح بحمل الأزواج من الحيوان، ولولا خوف إفناء أجناسها من جميع الأرض ما كان ذلك، فلا يتفق لنا أن نقول: إنه لم يكن في الأرض غير قوم نوح في ذلك الوقت؛ لأنه يجب أن يكون نوح بعث إلى جميع الناس، وقد صح أن هذه الفضيلة خاصة لمحمد ﷺ بقوله: **«أوتيتُ خمسًا لم يؤتهنّ أحد قبلي»**[(٢)]. فلا بد أن نقرر كثيرًا من الأمم كان في ذلك الوقت، وإذا كان ذلك فكيف استحقوا العقوبة في جمعهم ونوح لم يبعث إلى كلهم؟ وكنّا نقدر هنا أن اللَّه تعالى بعث إليهم رسلًا قبل نوح، فكفروا بهم، واستمر كفرهم، لولا أنا نجد الحديث ينطق بأن نوحًا هو أول الرسل إلى أهل الأرض؛ ولا يمكن أيضًا أن نقول: عُذّبوا دون رسالة، ونحن نجد القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(٣)].

والتأويل المخلص من هذا كله هو أن نقول: إن نوحًا عليه السلام أوّلُ رسول بعث إلى كفار من أهل الأرض ليصلح الخلق، ويبالغ في التبليغ، ويحتمل المشقة من الناس -بحسب ما ثبت في الحديث- ثم نقول: إنه بعث إلى قومه خاصة بالتبليغ والدعاء

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٩٣).

(٢) أخرجه من حديث جابر بن عبد اللَّه الأنصاري رضي الله عنه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠).

(٣) الإسراء: الآية (١٥).

والتنبيه، وبقي أممٌ في الأرض لم يكلف القولَ لهم، فتصح الخاصة لمحمد ﷺ، ثم نقول: إن الأمم التي لم يبعث ليخاطبها إذا كانت بحال كفر وعبادة أوثان، وكانت الأدلة على اللَّه تعالى منصوبة معرضة للنظر، وكانوا متمكنين من النظر من جهة إدراكهم، وكان الشرع -ببعث نوح- موجودًا مستقرًا؛ فقد وجب عليهم النظر، وصاروا بتركه بحال من يجب تعذيبه؛ فإن هذا رسول مبعوث وإن كان لم يبعث إليهم معينين؛ ألا ترى أن لفظ الآية إنما هو: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي: حتى نوجده؟ لأن بعثة الأنبياء إلى قوم مخصوصين إنما هو في معنى القتال والشدة، وأما من جهة بذل النصيحة وقبول من آمن؛ فالناس أجمع في ذلك سواء؛ ونوح قد لبث ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعو إلى اللَّه، فغير ممكن أن لم تبلغ نبوءته للقريب والبعيد، ويجيء تعذيب الكل بالغرق بعد بعثة رسول وهو نوح ﷺ.

ولا يعارضنا مع هذه التأويلات شيء من الحديث ولا الآيات، واللَّه الموفق للصواب»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «جاء في القرآن أن اللَّه تعالى عاقب غير قوم نوح من أقوام الأنبياء -عليهم السلام- بعذاب الاستئصال لما عمهم وشملهم الشرك والظلم والفساد؛ كما قال بعد ذكر أشهرهم في التاريخ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2]، وسيأتي تفصيل عقاب هؤلاء الأقوام بعد قصة نوح هذه.

وقد بيّنّا في هذا التفسير أن عذاب الاستئصال إنما وقع على الأمم التي عمها الفساد وأنذرها الرسل وقوعه فلم يرجعوا، وأنه ما وقع على قوم وفيهم مؤمن صالح، وإنما كان اللَّه تعالى يخرج منهم رسوله ومن آمن معه ويهلك الباقين؛ كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3]، وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ١٦٨-١٦٩).

(٢) العنكبوت: الآية (٤٠).

(٣) الإسراء: الآية (١٥).

إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[1]. ولما كان في قوم فرعون مؤمنون لا يعلم عددهم إلى الله تعالى؛ لم يغرقهم كلهم، وإنما أغرق من خرجوا معه لإعادة بني إسرائيل إلى الاستعباد والظلم.

وبيّنّا أيضًا أن أمة محمد ﷺ التي وجهت إليها دعوته هم جميع البشر، وأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين؛ ولهذا لا يهلكها بعذاب الاستئصال؛ لأنها لا تُجْمِع على الكفر والفساد في الأرض، وإنما يكون هلاكها العام بقيام الساعة العامة التي يهلك بها البشر كلهم، وهذا إنما يكون إذا عمهم الكفر؛ كما ورد في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أنس مرفوعًا إليه ﷺ وهو: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله»[2].

وقد ثبت في آيات كثيرة أن العذاب يقع في هذه الأمة -أمة الدعوة وأمة الإجابة- خاصًا بالظالمين والفاسقين، لا عامًا للبشر كلهم، ولكنه قد يعمّ أفراد من يقع فيهم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[3]، وكل هذه الأنواع واقعة؛ وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن هذه الآية فيمن يأتي بعد؛ أي: بعد عصر النبي ﷺ وأصحابه في المستقبل، وقد ظهرت في هذا العصر بأشكال لم تكن تخطر على بال بشر في العصور السابقة، وهي عذاب الطيارات الجوية، والألغام الأرضية، والغواصات البحرية، وتفرق الأقوام إلى شيع في العداوات فوق المعهود ممن قبلهم، وقد فصلنا ذلك في تفسيرها من سورة (الأنعام).

كذلك يكثر في الأمم المختلفة في كل عصر مثل ما عذب به الأقوام الأولون المجرمون الظالمون من الطوفان الخاص، وخسف الأرض، وحسبان النار من البراكين والصواعق، وشدة القيظ المحرق للنبات، القاتل للإنسان والحيوان؛ وقد اشتدت هذه الأنواع في هذين العامين فكانت على أشدها في صيف عامنا هذا (١٣٥٣هـ-١٩٣٤م) في أمريكة وأوربة، ولا سيما إنكلترة والهند والترك والفرس

---

(١) القصص: الآيتان (٥٨و٥٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٧)، ومسلم (١/ ١٣١/ ١٤٨)، والترمذي (٤/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٢٢٠٧).

(٣) الأنعام: الآية (٦٥).

والشرق الأقصى، وخسفت بعض الأرض بالزلازل في الهند. وحدث في مصر وسورية والعراق وشمال إفريقية شيء من الجوع وهلاك الحرث ونقص الأنفس والثمرات، وهي مما ورد في القرآن أيضًا، ولا يزال القيظ على أشده في الولايات المتحدة وإنكلترة.

ونسأل اللَّه تعالى أن يجير مصر من طغيان في النيل كطغيان بعض أنهار الصين والهند أخيرًا وفرنسة قبلهما؛ عقابًا لنا بظلم الظالمين من حكامنا، وفسق الفاسقين من دهمائنا. اللهم قد كثر الفساد في البر والبحر، وقلّ من يعرفك في الشدة والرخاء، ومن يدعوك وحدك في السراء أو الضراء، اللهم تب علينا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منّا، وأدِمْ لنا هذا النيل رحمة، ولا تجعل منه عقوبة للأمة.

اعتبار المؤمنين بالمصائب العامة وتوبتهم رجاء رفعها

كان المؤمنون باللَّه من جميع الأمم إذا وقع عذاب مثل هذا يعتبرون ويتذكرون اللَّه تعالى، فيتوبون إليه، ويستغفرونه؛ كما كان أنبياؤهم يوصونهم ويعلمونهم أن التوبة إلى اللَّه واستغفاره من الذنوب -ولا سيما الظلم والفسق- من أسباب إدرار الغيث والرزق؛ كما قال تعالى في أول هذه السورة: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[1]، ثم قال حكاية عن نبيه هود ﷺ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[2]، وقال حكاية عن نوح في سورته: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[3]، ولم يخطر في بال رجال الدين ولا غيرهم في الولايات المتحدة وإنكلترة أن يذكروا الناس بغضب اللَّه تعالى عليهم بفسقهم وظلمهم عندما اشتد القيظ ومنع المطر واحترقت الزروع وهلكت المواشي، ويدعوهم إلى التوبة والاستغفار والاستسقاء العامّ، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ

---

(١) الآية (٣). (٢) الآية (٥٢).
(٣) نوح: الآيات (١٠-١٢).

﴿أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[١]؛ أي: خائبون متحسرون، أو يائسون.

وقال في مشركي أهل مكة: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[٢]، فلما خرج ﷺ منهم ودعا عليهم أصابهم القحط الشديد حتى أكلوا العلهز، وأرسلوا إليه يستشفعون به؛ حتى كان أبو سفيان -أعدى أعدائه- هو الذي كلمه واستعطفه على قومه، وفيهم أنزل اللّٰه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾[٣]؛ وما جعل اللّٰه هذا مثلًا إلا لأنه يشمل الأولين والآخرين؛ حتى كانت أغنى عواصم الأرض وقراها -كلندن وباريس- ذاقت ألم الجوع والخوف في سني الحرب العامّة ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾[٤].

الأفكار المادية المانعة من الاتعاظ بالنوازل

فإن قيل: إن أكثر الظالمين في هذا العصر ماديّون يعتقدون أن طوفان نوح الذي اختلف فيه هل كان عامًّا هلك به جميع أهل الأرض إلا من نجا في السفينة أو خاصًّا بقوم نوح؛ يعتقدون أنه حدث بأسباب طبيعية كما حدث في هذا العام في مواضع في فرنسة وغيرها من أوربة وفي اليابان والهند والصين، فأهلك كثيرًا من الناس والحيوان، وأتلف من المباني والمزارع ما قدرت قيمته بألوف الألوف من الدراهم والدنانير، وهم يعتقدون أن الطوفان العامّ لن يحدث في الأرض بعد؛ فإن طوفان نوح إنما كان عظيمًا عامًّا كان أو خاصًّا؛ لأنه كان قريب العهد بتكوين الأرض إذ كان أكثرها مغمورًا بالمياه، ثم صار يتقلص وتتسع اليابسة بالتدريج. وقد صرح المتكلمون من علمائنا بهذا الرأي، ففي كتاب «المواقف» وغيره: الأشبه أن هذا المعمور كان مغمورًا بالمياه؛ بدليل ما يوجد في أعالي الجبال من الأصداف البحرية والأسماك المتحجرة.

---

(١) الأنعام: الآيتان (٤٣و٤٤).
(٢) الأنفال: الآيتان (٣٢و٣٣).
(٣) النحل: الآيتان (١١٢و١١٣).
(٤) التوبة: الآية (١٢٦).

وهكذا يقولون فيما يعذبون به من الأحداث الجوية كقحط المطر وانحباسه، وجفاف المياه وغؤورها، وشدة صخد الشمس ورمضائها؛ وقد اشتد هذا في أكثر بلاد الإنكليز وأمريكة، فاحترق جل زرعهم الصيفي، وهلك به كثير من مواشيهم؛ بل مات به ألوف منهم؛ مئات من أهل مدينة نيويورك وحدها، وهي أعظم ثغور العالم، فأكثر بلاد الإفرنج في هذا العام في سخط اللَّه تعالى بين حريق وغريق؛ جزاءً بما أفسدوا في الأرض بالقتل والتخريب والتدمير في سني الحرب الأربع الأخيرة، ثم بما أسرفوا بعدها في الفجور والشرور وإباحة الفواحش والمنكرات، وإنفاق ما زاد من أموالهم على الاستعداد لحرب شرّ منها، وباشتداد ظلمهم للمستضعفين في مستعمراتهم الرسمية وغير الرسمية، ولا يعتبر أحد بهذه المصائب فيتوبوا من ظلمهم وفسقهم؛ لأنهم لا يؤمنون بأنها عذاب ولا نذر من اللَّه تعالى: فأما الماديون منهم فأمرهم ظاهر، وأما المؤمنون بوجود إله للعالم فلا يسندون إلى مشيئته وحكمته إلا ما يجهلون له سببًا من نظام الطبيعة، ويظنون أن كل ما يجري في نظام الأسباب فليس لله تعالى فيه مشيئة وحكمة غير سببه، وأن الأسباب لا تتبدل باختلاف الناس صلاحًا وفسادًا؛ بل يعدّ الماديّون هذه المعرفة بنظام الأسباب برهانًا على الكفر والتعطيل! وعلى جهل المؤمنين بترقي العلوم! وجملة القول فيهم أن المستحوذ على عقولهم هو ما يسمونه (نظرية الميكانيكية)، وخلاصة معناها أن العالم كله كآلة كبيرة تدار بقوة كهربائية، فيتحرك بعض أجزائها بحركة الآخر، وليس للقوة المحركة لها كلها علمٌ ولا إرادةٌ ولا اختيارٌ في شيء منها، ونقول لهم: من أوجد القوة؟ ومن يحركها ويحفظ وحدة النظام فيها؟

وأما قولهم: إن لكل شيء من أحداث العالم سببًا، وإن لهذه الأسباب نواميس وسننًا، وإنها عامة لا خاصة؛ فصحيح تدل عليه آيات القرآن المحكمة، وأولها آيات القدر والتقدير -التي يفهمها الجماهير بضد معناها-، ومنها الآيات الناطقة بأن سنن اللَّه لا تتبدل ولا تتحول، ومنها قوله تعالى في المصائب والنقم: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾[1]، وقوله في الأرزاق والنعم: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾[2]؛ أي: ما كان ممنوعًا عن

(١) الأنفال: الآية (٢٥). (٢) الإسراء: الآية (٢٠).

أحد من مؤمن وكافر، ولا برّ ولا فاجر.

ولكنه أخبرنا مع هذه القواعد العامّة أن له في بعض المصائب مشيئة خاصة وحكمة بالغة؛ كقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[٢]؛ فإن كان هذا في أسباب المصائب الطبيعية فمما جاء في الأسباب المعنوية قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣]، الصِّرُّ، بالكسر وتشديد الراء: البرد الشديد أو الحر الشديد. وفي معناه مثل أصحاب الجنة الظالمين في سورة (القلم)، ومثل صاحب الجنتين الظالم لنفسه في سورة (الكهف)، وقد أهلك اللَّه جناتهم بظلمهم. ولله في خلقه عقاب خفيّ، وله فيهم لطف خفيّ، فنسأله اللطف بنا.

وإذا أراد اللَّه شيئًا فإنه لا ينفذه بإبطال السنن والأقدار، ولكن بالترجيح أو بالتوفيق بينها؛ كما قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾[٤]. ولله درّ صريع الغواني حيث قال: وتوفيق أقدار لأقدار»[٥].

وقال السعدي: «يستفاد من هذه القصة أمور:

منها: أن جميع الرسل -من نوح إلى محمد صلى اللَّه عليهم وسلم- متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك، فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[٦]، ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة.

ومنها: آداب الدعوة وتمامها، فإن نوحًا دعا قومه ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، بكل وقت وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة، وأنه رغبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب، وبالتمتيع بالأموال والبنين، وإدرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل؛ وحذرهم من ضد ذلك، وصبر على هذا صبرًا عظيمًا كغيره من الرسل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصّل للمطلوب،

---

(١) الروم: الآية (٤١).
(٢) الشورى: الآية (٣٠).
(٣) آل عمران: الآية (١١٧).
(٤) طه: الآية (٤٠).
(٥) تفسير المنار (١٢/ ١٠٩-١١٤).
(٦) الأعراف: الآية (٥٩).

وأقام الآيات، وبيّن البراهين.

ومنها: أن الشُّبَه التي قدح فيها أعداء الرسل برسالتهم من الأدلة على إبطال قول المكذبين؛ فإن الأقوال التي قالوها، ولم يكن عندهم غيرها؛ ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل؛ فقول قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[1]؛ تأمل جملها تجدها تمويهات دالة على أنهم مبطلون مكابرون للحقيقة؛ فقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فهل في كون الحق جاء على يد بَشَرٍ شيءٌ من الشبهة تدل على أنه ليس بحق؟ ومضمون هذا الكلام أن كل قول قاله البشر من أي مصدر يكون باطلًا، وهذا قدح منهم في جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر، ومعلوم أن هذا يبطل العلوم كلها، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدها بعضهم من بعض وهي متفاوتة، فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقاه الناس عن الرسل الذين علومهم عن وحي إلهي.

وكذلك قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾؛ أي: نحن وأنتم بشر. وقد أجابت الرسل لهم عن هذه المقالة فقالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2]، فمنّ اللهُ على الرسل، وخصّهم بالوحي والرسالة، مع أن إنكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القدح في نعمة الله؛ فإن رحمة اللّه وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر؛ ليتمكن العباد من الأخذ عنهم، وتتيسر عليهم هذه النعمة، ويسهّل اللّه لهم طرقها؛ فهؤلاء المكذّبون كفروا بأصل النعمة، وبالطريق المستقيم النافع الذي جاءتهم به.

وكذلك قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، من المعلوم لكل أحد عاقل أن الحق يُعرَف أنه حق بنفسه لا بمن تَبِعه، وأن هذا القول الذي قالوه صدر عن كِبْرٍ وتِيهٍ، والكِبْر مانع للعبد من معرفة الحق ومن اتباعه.

وأيضًا قولهم: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾، إن أرادوا الفقر فالفقر ليس من العيوب، وإن أرادوا أراذلنا في الأخلاق فهذا كذب معلوم بالبديهة، وإنما الأراذل الذين قالوا

---

(١) هود: الآية (٢٧).

(٢) إبراهيم: الآية (١١).

هذه المقالة، فهل الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، والانقياد للحق، والسلامة من كل خصلة ذميمة - هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل؟ أم الرذيلة بضده من ترك أفرض الفروض توحيد الله وشكره وحده، وامتلاء القلب من التكبر على الحق وعلى الخلق؟ هذا والله أرذل الرذائل، ولكن القوم مباهتون، فما نَقَموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ ؛ أي: مبادرة منهم إلى الإيمان بك يا نوح، لم يشاوروا ولم يتأنّوا ويتروّوا. لو فُرِض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق؛ فإن الحق عليه من البراهين والنور والجلالة والبهاء والصدق والطمأنينة ما لا يحتاج إلى مشاورة أحد باتباعه، وإنما التي تحتاج إلى مشاورة هي الأمور الخفية، التي لا تُعلم حقيقتها ولا منفعتها، أما الإيمان الذي هو أجلى من الشمس في نورها، وأحلى من كل شيء؛ فما يتأخر عنه إلا كل متكبر جبار أمثال هؤلاء الطغاة البغاة.

وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾، هل في هذا الكلام شيء من الإنصاف بوجه؛ لأنهم يخبرون عن أنفسهم، وكلامهم يحتمل أنه الذي في قلوبهم، ويحتمل أنهم يقولون ما لا يعتقدون، وعلى كلا الأمرين فالحق يجب قبوله، سواء أقاله الفاضل أو المفضول، الحق أعلى من كل شيء.

وكذلك قولهم: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾، معلوم أن الظن أكذب الحديث، ثم لو قالوا: بل نعلمكم كاذبين؛ فهذه كل مبطل يقدر أن يقولها، ولكن بأي شيء استدللتم أنهم كاذبون؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى، فكيف وقد قابلها الرسل بالأدلة المتنوعة التي لا تُبقي ريبًا لأحد في بطلانها.

ومنها: أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم إخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهم لله القاصرة، وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق، كالدعوة والتعليم وتوابع ذلك؛ ولذلك يُبدون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم، كلٌّ منهم يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[1]؛ ولهذا كان من أجلّ الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

---

(١) هود: الآية (٢٩).

ومنها: أن القدح في نيّات المؤمنين وفيما منّ اللَّه عليهم به من الفضائل والتألّي على اللَّه أنه لا يؤتيهم من فضله - من مواريث أعداء الرسل؛ فلهذا قال نوح لقومه حين تألوا على اللَّه، وتوسلوا في ذم المؤمنين به بذلك، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

ومنها: أنه ينبغي الاستعانة باللَّه، وأن يُذكر اسمه عند الركوب والنزول، وفي جميع التقلبات والحركات، وحمد اللَّه والإكثار من ذكره عند النعم لاسيما النجاة من الكربات والمشقات؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[2]، وقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، وأنه ينبغي أيضًا الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة كالمنازل في إقامات السفر وغيره، والمنازل المستقرة كالمساكن والدّور؛ لقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[4]؛ وفي ذلك كله من استصحاب ذكر اللَّه، ومن القوة على الحركات والسكنات، ومن قوة الثقة باللَّه، ومن نزول بركة اللَّه التي هي خير ما صحبت العبدَ في أحواله كلها ما لا غنى للعبد عنه طرفة عين.

ومنها: أن تقوى اللَّه والقيام بواجبات الإيمان من جملة الأسباب التي تُنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان -وإن كان لذلك أيضًا أسباب أُخر-، وهي السبب الوحيد الذي ليس هناك سبب سواه في نيل خير الآخرة، والسلامة من عقابها.

ومنها: أن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هي للمؤمنين، وهم الرسل وأتباعهم، وأما العقوبات الدنيوية العامة فإنها تختص بالمجرمين، ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان، وإن لم يكن لها ذنوب؛ لأن الوقائع التي أوقع اللَّه بأصناف المكذّبين شملت الأطفال والبهائم، وأما ما يُذكر في بعض الإسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد اللَّه إهلاكهم أعقم الأرحام حتى لا يتبعهم في العقوبة أطفالهم؛ فهذا ليس له أصل، وهو منافٍ للأمر المعلوم، وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[5]»[6].

---

(١) هود: الآية (٣١).
(٢) هود: الآية (٤١).
(٣) المؤمنون: الآية (٢٨).
(٤) المؤمنون: الآية (٢٩).
(٥) الأنفال: الآية (٢٥).
(٦) تيسير اللطيف المنان (ص: ٢٧٤-٢٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «تقدمت قصته في ثماني آيات من سورة (الأعراف)، وهي هنا في إحدى عشرة آية، ولكل منهما سياق وأسلوب ونظم، وفي كل منهما من العلم والعبرة والموعظة ما ليس في الأخرى، وستأتي في سورة (الشعراء) بأسلوب ونظم وسياق آخر، وكذا في سورتي (المؤمنون) و(الأحقاف) بدون ذكر اسمه ﷺ، وذكر عقاب قومه (عاد) في سور (فصلت) و(الذاريات) و(القمر) و(الحاقة) و(الفجر)»[1].

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو القصة الثانية من القصص التي ذكرها اللّٰه تعالى في هذه السورة، واعلم أن هذا معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾[2]، والتقدير: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، وقوله: ﴿هُودًا﴾ عطف بيان.

واعلم أنه تعالى وصف هودًا بأنه أخوهم، ومعلوم أن تلك الأخوة ما كانت في الدين، وإنما كانت في النسب؛ لأن هودًا كان رجلًا من قبيلة عاد، وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن، ونظيره ما يقال للرجل: يا أخا تميم، ويا أخا سليم، والمراد رجل منهم.

فإن قيل: إنه تعالى قال في ابن نوح: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[3]، فبين أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين، وههنا أثبت هذه الأخوة مع الاختلاف في الدين، فما الفرق بينهما؟

قلنا: المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد ﷺ؛ لأن قومه كانوا يستبعدون

(١) تفسير المنار (١٢/ ١١٤).

(٢) هود: الآية (٢٥).

(٣) هود: الآية (٤٦).

في محمد -مع أنه واحد من قبيلتهم- أن يكون رسولًا إليهم من عند اللَّه، فذكر اللَّه تعالى أن هودًا كان واحدًا من عاد، وأن صالحًا كان واحدًا من ثمود؛ لإزالة هذا الاستبعاد.

واعلم أنه تعالى حكى عن هود ﷺ أنه دعا قومه إلى أنواع من التكاليف:

فالنوع الأول: أنه دعاهم إلى التوحيد، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾، وفيه سؤال وهو أنه كيف دعاهم إلى عبادة اللَّه تعالى قبل أن أقام الدلالة على ثبوت الإله تعالى؟

قلنا: دلائل وجود اللَّه تعالى ظاهرة، وهي دلائل الآفاق والأنفس، وقلما توجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الإله تعالى؛ ولذلك قال تعالى في صفة الكفار: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾[1]..

ثم قال: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾، يعني أنكم كاذبون في قولكم: إن هذه الأصنام تحسن عبادتها، أو في قولكم: إنها تستحق العبادة؛ وكيف لا يكون هذا كذبًا وافتراءً وهي جمادات لا حسّ لها ولا إدراك؟! والإنسان هو الذي ركبها وصورها، فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيمًا لها؟!

ثم إنه -عليه الصلاة والسلام- لما أرشدهم إلى التوحيد، ومنعهم عن عبادة الأوثان؛ قال: و﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾، وهو عين ما ذكره نوح ﷺ؛ وذلك لأن الدعوة إلى اللَّه تعالى إذا كانت مطهرة عن دنس الطمع؛ قوي تأثيرها في القلب»[2].

* * *

(١) لقمان: الآية (٢٥)، الزمر: الآية (٣٨).

(٢) التفسير الكبير (١٨/ ١٠-١١).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

★ غريب الآية:

فطرني: خلقني وأوجدني. يقال: فَطَرَ الْبِئْرَ: إذا أنشأها وابتدأها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

هذا الكلام من هود عليه السلام جرى على سنة سلفه نوح عليه السلام، وقد تقدم بيانه في قصة نوح.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢﴾

★ غريب الآية:

مدرارًا: أي: كثيرًا متتابعًا. وصيغة (مفعال) للمبالغة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو النوع الثاني من التكاليف التي ذكرها هود عليه السلام لقومه؛ وذلك لأنه في المقام الأول دعاهم إلى التوحيد، وفي هذا المقام دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة، والفرق بينهما قد تقدم في أول هذه السورة. قال أبو بكر الأصم: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾؛ أي: سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ من بعده بالندم على ما مضى، وبالعزم على أن لا تعودوا إلى مثله. ثم إنه عليه السلام قال: إنكم متى فعلتم ذلك؛ فالله تعالى يكثر النعم عندكم، ويقوّيكم على الانتفاع بتلك النعم، وهذا غاية ما يراد من السعادات. فقوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ إشارة إلى تكثير النعم؛ لأن مادة حصول النعم هي الأمطار الموافقة، وقوله: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة. ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات، وأن الزيادة عليها ممتنعة في صريح العقل. ويجب على العاقل أن يتأمل في هذه اللطائف ليعرف ما في هذا الكتاب الكريم من الأسرار المخفية.

وأما المفسرون فإنهم قالوا: القوم كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال: أحدهما: أن بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة؛ والدليل عليه قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[1]، والثاني: أنهم كانوا في غاية القوة والبطش، ولذلك قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[2]، ولما كان القوم

---

(١) الفجر: الآيتان (٧و٨).
(٢) فصلت: الآية (١٥).

مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين؛ وعدهم هود ﷺ أنهم لو تركوا عبادة الأصنام، واشتغلوا بالاستغفار والتوبة؛ فإن اللَّه تعالى يقوي حالهم في هذين المطلوبين، ويزيدهم فيها درجات كثيرة.

ونقل أيضًا أن اللَّه تعالى لما بعث هودًا ﷺ إليهم وكذبوه، وحبس اللَّه عنهم المطر سنين، وأعقم أرحام نسائهم؛ فقال لهم هود: إن آمنتم باللَّه أحيا اللَّه بلادكم، ورزقكم المال والولد؛ فذلك قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، والمدرار: الكثير الدّرّ، وهو من أبنية المبالغة، وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، ففسروا هذه القوة بالمال والولد، والشدة في الأعضاء؛ لأن كل ذلك مما يتقوى به الإنسان»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٨/ ١٢).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾

★ غريب الآية:

اعتراك: أصابك؛ من عراهُ الخَطْبُ يَعْرُوهُ: إذا أصابه ومَسَّهُ.

تُنظِرُونِ: الإنظار: الإمهال والتأخير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ما ذكره للقوم؛ حكى أيضًا ما ذكره القوم له، وهو أشياء:

أولها: قولهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: بحجة؛ والبينة سميت بينة لأنها تبين الحق من الباطل، ومن المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات إلا أن القوم بجهلهم أنكروها، وزعموا أنه ما جاء بشيء من المعجزات.

وثانيها: قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾، وهذا أيضًا ركيك؛ لأنهم كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو اللّٰه تعالى، وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر، ومتى كان الأمر كذلك فقد ظهر في بديهة العقل أنه لا تجوز عبادتها، وتركهم آلهتهم لا يكون عن مجرد قوله؛ بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس.

وثالثها: قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ وهذا يدل على الإصرار والتقليد والجحود.

ورابعها: قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾. يقال: اعتراهُ كذا: إذا غشيه وأصابه. والمعنى: أنك شتمت آلهتنا فجعلتك مجنونًا، وأفسدت عقلك.

ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك؛ قال هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا أَنِّي

بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾، وهو ظاهر.

ثم قال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، وهذا نظير ما قاله نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾[1].

واعلم أن هذا معجزة قاهرة؛ وذلك أن الرجل الواحد إذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم: بالغوا في عداوتي، وفي موجبات إيذائي، ولا تؤجلون؛ فإنه لا يقول هذا إلا إذا كان واثقًا من عند اللَّه تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كيد الأعداء»[2].

وقال القرطبي: «وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر اللَّه تعالى، وهو من أعلام النبوة أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾. وكذلك قال النبي ﷺ لقريش، وقال نوح ﷺ: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾[3] الآية»[4].

وقال أبو حيان: «ومثله قول نوح لقومه: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[5]»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أنه ما من نبي إلا أوتي من الآيات المستلزمة للإيمان

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبيّ إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُه وحيًا أوحاه اللَّه إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[7].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عطية: «وهذا يقضي بأن هودًا وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضها»[8].

وقد تقدمت فوائد هذا الحديث عند تفسير الآيتين (٣٧و٣٨) من سورة (يونس).

---

(١) يونس: الآية (٧١).
(٢) التفسير الكبير (١٨/ ١٣-١٤).
(٣) يونس: الآية (٧١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٥٢).
(٥) يونس: الآية (٧١).
(٦) البحر المحيط (٥/ ٢٣٣).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤١، ٤٥١)، والبخاري (٩/ ٣/ ٤٩٨١) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣/ ٧٩٧٧).
(٨) المحرر الوجيز (٣/ ١٨١).

قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾

★ غريب الآية:

ناصية: الناصية: مقدم الرأس، وهي قصاص الشعر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول: إني على اللَّه -الذي هو مالكي ومالككم، والقيّم على جميع خلقه- توكلتُ من أن تصيبوني أنتم وغيركم من الخلق بسوء؛ فإنه ليس من شيء يدبُّ على الأرض إلا واللَّه مالكه، وهو في قبضته وسلطانه، ذليل له خاضع. فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، فخصّ بالأخذ الناصية دون سائر أماكن الجسد؟ قيل: لأن العرب كانت تستعمل ذلك في وصفها من وصفته بالذلة والخضوع، فتقول: ما ناصية فلان إلا بيد فلان؛ أي: إنه له مطيع، يصرّفه كيف شاء. وكانوا إذا أسروا الأسير، فأرادوا إطلاقه والمنّ عليه؛ جزّوا ناصيته؛ ليعتدّوا بذلك عليه فخرًا عند المفاخرة. فخاطبهم اللَّه بما يعرفون في كلامهم، والمعنى ما ذكرت. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يقول: إن ربي على طريق الحق، يجازي المحسن من خلقه بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحدًا منهم شيئًا، ولا يقبل منهم إلا الإسلام والإيمان به»[1].

وقال ابن القيم: «فقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ نظير قوله: «**ناصيتي بيدك**»[2]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ نظير قوله: «**عدل فيّ قضاؤك**»؛ فالأول

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٦٠).

(٢) أخرجه من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ: أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣/ ٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩-٥١٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد اللَّه عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه»، وتعقبه الذهبي قال: «وأبو سلمة لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة». وجزم الشيخ الألباني أنه موسى بن عبد اللَّه الجهني الذي يكنى بأبي سلمة. وله تحقيق في=

ملكه، والثاني حمده، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق، ولا يأمر إلا بالعدل، ولا يفعل إلا ما هو مصلحة ورحمة وحكمة وعدل؛ فهو على الحق في أقواله وأفعاله؛ فلا يقضي على العبد بما يكون ظالمًا له به، ولا يأخذه بغير ذنبه، ولا ينقصه من حسناته شيئًا، ولا يحمل عليه من سيئات غيره التي لم يعملها ولم يتسبب إليها شيئًا، ولا يؤاخذ أحدًا بذنب غيره، ولا يفعل قط ما لا يُحمد عليه ويُثنى به عليه، ويكون له فيه العواقب الحميدة، والغايات المطلوبة؛ فإن كونه على صراط مستقيم يأبى ذلك كله.. وقالت فرقة: هي مثل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[1]، وهذا اختلاف عبارة؛ فإن كونه بالمرصاد هو مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره: إن ربي يحثكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه. وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها؛ فليس كما زعموا، ولا دليل على هذا المقدَّر، وقد فرق سبحانه بين كونه آمرًا بالعدل، وبين كونه على صراط مستقيم. وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة كونه على صراط مستقيم؛ فقد أصابوا. وقالت فرقة أخرى: معنى كونه على صراط مستقيم: أن مرد العباد والأمور كلها إلى الله، لا يفوته شيء منها. وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية؛ فليس كذلك. وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه؛ فهو حق. وقالت فرقة أخرى: معناه: كل شيء تحت قدرته وقهره، وفي ملكه وقبضته. وهذا وإن كان حقًّا؛ فليس هو معنى الآية، وقد فرق هود بين قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ وبين قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فهما معنيان مستقلاّن. فالقول قول مجاهد، وهو قول أئمة التفسير، ولا تحتمل العربية غيرَهُ إلا على استكراه، وقال جرير يمدح عمر بن عبدالعزيز:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

وقد قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]؛ وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم

= ذلك في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٨٤)، وبين كذلك أن عبد الرحمن بن عبد الله قد سمع من أبيه (السلسلة الصحيحة ١/ ٣٨٥). وقد مضى تخريجه في سورتي (الفاتحة) و(الأعراف).

(١) الفجر: الآية (١٤).

(٢) الأنعام: الآية (٣٩).

وأفعالهم؛ فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله. وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره؛ فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله، وبالله التوفيق»[(١)].

قلت: لله در العلامة ابن القيم في هذا التوجيه الطيب للآية، وإن وصف الله تعالى بكونه على الصراط المستقيم هو الحق الذي لا مرية فيه؛ فإن حكمه عدل، ورحمته عدل، وعذابه عدل، وهو الآمر بالعدل، وإليه يرجع الفضل، فالكل عبيده، والكتب حكمه، والرسل رسله يبلغون عنه. فنظر ابن القيم نظر ثاقب، ويده في الفهم مبسوطة، فرحمة الله عليه رحمة واسعة.

وقال ابن كثير: «قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾؛ أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه؛ فإنه على صراط مستقيم.

قال الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أيفع بن عبد الكلاعي أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قال: فيأخذ بنواصي عباده فيلقى المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد لولده، ويقال للكافر: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[(٢)].

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر؛ بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه»[(٣)].

وقال ابن القيم: «قال هود -عليه الصلاة والسلام- لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فأخبر عن عموم قدرته، ونفوذ مشيئته، وتصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم على صراط مستقيم.

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٦٢-١٦٤).

(٢) الانفطار: الآية (٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٢).

وقال أبو إسحق: أي: هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالهم بما شاء، فإنه لا يشاء إلا العدل.

وقال ابن الأنباري: لما قال: ﴿هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾؛ كان في معنى لا يخرج من قبضته، وأنه قاهر بعظيم سلطانه لكل دابة، فأتبعه قولَهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، قال: وهذا نحوُ كلام العرب إذا وصفوا بحسن السيرة والعدل والإنصاف؛ قالوا: فلان على طريقة حسنة، وليس ثم طريق. ثم ذكر وجهًا آخر فقال: لما ذَكر أن سلطانه قد قهر كل دابة؛ أتبع هذا قولَهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ أي: لا تخفى عليه مشيئة، ولا يعدل عنه هارب، فذَكر الصراطَ المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه؛ كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾[1]. قلت: فعلى هذا القول الأول يكون المراد أنه في تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب أحدًا بما لم يجنه، ولا يهضمه ثواب ما عمله، ولا يحمل عليه ذنب غيره، ولا يأخذ أحدًا بجريرة أحد، ولا يكلّف نفسًا ما لا تطيقه، فيكون من باب: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾[2]، ومن باب: «ماضٍ فيّ حكمُك، عدلٌ فيّ قضاؤك»، ومن باب: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: كما أنه رب العالمين المتصرف فيهم بقدرته ومشيئته؛ فهو المحمود على هذا التصرف، وله الحمد على جميعه.

وعلى القول الثاني المرادُ به التهديدُ والوعيد، وأن مصير العباد إليه، وطريقهم عليه، لا يفوته منهم أحد؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾[3].

قال الفراء: يقول: مرجعهم إليّ فأجازيهم؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾. قال: وهذا كما تقول في الكلام: طريقُك عليّ وأنا على طريقك؛ لمن أوعدتَهُ، وكذلك قال الكلبي والكسائي، ومثلُ قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾[4] على أحد القولين في الآية. وقال مجاهد: الحق يرجع إلى اللّه وعليه طريقُه. ﴿وَمِنۡهَا﴾ أي: ومن السبيل ما هو جائر عن الحق. ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ﴾، فأخبر عن عموم مشيئته، وأن طريق الحق عليه موصلة إليه، فمن سلكه فإليه يصل، ومن عدل

---

(١) الفجر: الآية (١٤).
(٢) التغابن: الآية (١).
(٣) الحجر: الآية (٤١).
(٤) النحل: الآية (٩).

عنها فإنه يضل عنه.

والمقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى، وتوحيده، والله يتصرف في خلقه بملكه، وحمده، وعدله، وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله، وفعله، وشرعه، وقدره، وثوابه، وعقابه، يقول الحق، ويفعل العدل، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾[1].

فهذا العدل والتوحيد اللذان دلّ عليهما القرآن لا يتناقضان، وأما توحيد أهل القدر والجبر وعدلهم؛ فكل منهما يبطل الآخر ويناقضه»[2].

وقال: «فتأمل ألفاظ هذه الآية، وما جمعته من عموم القدرة، وكمال المُلك، ومن تمام الحكمة والعدل والإحسان، وما تضمّنته من الرّدّ على الطائفتين؛ فإنها من كنوز القرآن، ولقد كَفَتْ وشَفَتْ لمن فُتِح عليه بفهمها؛ فكونه تعالى على صراط مستقيم ينفي ظُلمه للعباد، وتكليفه إياهم ما لا يطيقون، وينفي العيب من أفعاله وشرعه، ويثبت لها غاية الحكمة والسداد؛ ردًّا على منكري ذلك، وكونُ كل دابة تحت قبضته وقدرته وهو آخذ بناصيتها؛ ينفي أن يقع في ملكه من أحد من المخلوقات شيءٌ بغير مشيئته وقدرته، وأنّ من ناصيته بيد الله وفي قبضته لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحريكه، ولا يفعل إلا بإقداره، ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى؛ ردًّا على منكري ذلك من القدرية.

فالطائفتان ما وفّيا الآية معناها، ولا قدَرُوها حق قدرها؛ فهو سبحانه على صراط مستقيم في عطائه ومنعه، وهدايته وإضلاله، وفي نفعه وضُرّه، وعافيته وبلائه، وإغناءُه وإفقاره، وإعزازه وإذلاله، وإنعامه وانتقامه، وثوابه وعقابه، وإحيائه وإماتته، وأمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، وفي كل ما يخلق وكل ما يأمر به. وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، فالمثل الأول للصنم وعابديه، والمثل الثاني

(١) الأحزاب: الآية (٤).
(٢) شفاء العليل (١/ ٢٣٠-٢٣٢).
(٣) النحل: الآية (٧٦).

ضربه اللَّه تعالى لنفسه، وأنه يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فكيف يُسوّى بينه وبين الصنم الذي له مثل السَّوء؟!

فما فَعَله الرب تبارك وتعالى مع عباده هو غاية الحكمة والإحسان والعدل في إقدارهم، وإعطائهم، ومنعهم، وأمرهم، ونهيهم»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «والتعبير بالأخذ بالناصية -وهو مقدم شعر الرأس- تمثيل لتصرف القهر، والخضوع الذي لا مهرب منه ولا مفرّ. وتقدمت الجملة في أول الآية السادسة من هذه السورة. ويؤيده من سورة (العلق): ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[(٢)]؛ أي: لنأخذن بها أخذ القاهر المؤدب. قال في «الأساس»: وسفع بناصية الفرس ليلجمه أو يركبه، وسفع بناصية الرجل ليلطمه ويؤدبه»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستسلام لله تعالى واللياذ به

* عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهم إني عبدك، ابنُ عبدك، ابنُ أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمّيتَ به نفسك، أو علّمتَهُ أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجِلاء حُزني، وذهاب همّي؛ إلاّ أذهب اللَّه همّه وحُزنه، وأبدله مكانَهُ فرحًا». قال: فقيل: يا رسول الله! ألا نتعلّمها؟ فقال: «بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلّمها»[(٤)].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٨٦-٤٨٧).

(٢) العلق: الآية (١٥). (٣) تفسير المنار (١٢/ ١١٨).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣/ ٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩-٥١٠) وقال: «صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد اللَّه عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه من أبيه»، وتعقبه الذهبي قال: «وأبو سلمة لا يدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة».

قلت: وأبو سلمة هذا اختلفوا فيه من هو، فرجح الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند أن يكون هو موسى ابن عبد اللَّه أو ابن عبد الرحمن الجهني. وجزم به الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة قال: «وما استقر به الشيخ هو الذي أجزم به؛ بدليل ما ذكره، مع ضميمة شيء آخر، وهو أن موسى الجهني قد روى حديثًا آخر عن القاسم بن عبد الرحمن به، وهو الحديث الذي قبله، فإذا ضمت إحدى الروايتين إلى الأخرى؛ ينتج أن=

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «تضمن هذا الحديث العظيم أمورًا من المعرفة والتوحيد والعبودية: منها أن الداعي به صدّر سؤاله بقوله: «**إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك**»، وهذا يتناول مَنْ فوقه مِنْ آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفي ذلك تملق له، واستخذاء بين يديه، واعتراف بأنه مملوكه، وآباؤه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك ولم يُؤوِه أحد ولم يعطف عليه؛ بل يضيع أعظم ضيعة؛ فَتَحْتَ هذا الاعتراف: إني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس لي من أعوذ به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده؛ وفي ضمن ذلك الاعترافُ بأنه مربوب مدبَّر، مأمورٌ منهيٌّ، إنما يتصرف بحكم العبودية، لا بحكم الاختيار لنفسه؛ فليس هذا شأن العبد؛ بل شأن الملوك والأحرار، وأما العبيد فتصرّفهم على محض العبودية؛ فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[1]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[2]؛ ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[3]، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[4]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾[5].

وفي التحقيق بمعنى قوله: «**إني عبدك**» التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة، وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجإ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به، ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره

= الراوي عن القاسم هو موسى أبو سلمة الجهني، وليس في الرواة من اسمه موسى الجهني؛ إلا موسى بن عبد الله الجهني، وهو الذي يُكنى بأبي سلمة، وهو ثقة من رجال مسلم، وكأن الحاكم رحمه الله أشار إلى هذه الحقيقة حين قال في الحديث: «صحيح على شرط مسلم..»؛ فإن معنى ذلك أن رجاله رجال مسلم، ومنهم أبو سلمة الجهني، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كان هو موسى بن عبد الله الجهني، فاغتنم هذا التحقيق؛ فإنك لا تراه في غير هذا الموضع. والحمد لله على توفيقه». [السلسلة الصحيحة (١٩٩)]. وقد سبق تخريجه في سورة (الفاتحة).

(١) الحجر: الآية (٤٢).
(٢) الفرقان: الآية (٦٣).
(٣) البقرة: الآية (٢٣).
(٤) الإسراء: الآية (١).
(٥) الجن: الآية (١٩).

محبةً وخوفًا ورجاءً.

وفيه أيضًا: إني عبد من جميع الوجوه: صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميّتًا، مطيعًا وعاصيًا، معافىً ومبتلىً، بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضًا: إن مالي ونفسي مُلكٌ لك؛ فإن العبد وما يملك لسيده.

وفيه أيضًا: إنك أنت الذي مننتَ عليّ بكلّ ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضًا: إني لا أتصرف فيما خوّلتني من مالي ونفسي إلا بأمرك؛ كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، وإني لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. فإن صح له شهود ذلك؛ فقد قال: إني عبدك حقيقة.

ثم قال: «ناصيتي بيدك»؛ أي: أنت المتصرف فيّ تصرفني كيف تشاء، لست أنا المتصرف في نفسي. وكيف يكون له في نفسه تصرف مَنْ نفسُهُ بيد ربّه وسيّده، وناصيته بيده، وقلبه بين إصبعين من أصابعه، وموته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كله إليه سبحانه، ليس إلى العبد منه شيء؛ بل هو في قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير، ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره؛ بل الأمر فوق ذلك.

ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصي العباد كلها بيد اللّه وحده، يصرفهم كيف يشاء؛ لم يَخَفْهُم بعد ذلك، ولم يَرْجُهُم، ولم يُنزلهم منزلة المالكين؛ بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم، والمدبر لهم غيرهم؛ فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقرُه وضرورته إلى ربه وصفًا لازمًا له، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر إليهم، ولم يعلق أمله ورجاءه بهم، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته؛ ولهذا قال هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله: «ماضٍ فيّ حكمُكَ، عدلٌ فيّ قضاؤك»؛ تضمن هذا الكلام أمرين: أحدهما: مضاء حكمه في عبده، والثاني: يتضمن حمده وعدله، وهو سبحانه له الملك وله الحمد؛ وهذا معنى قول نبيه هود: ﴿مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: مع كونه مالكًا قاهرًا متصرفًا في عباده، نواصيهم بيده؛ فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم؛ فهو على صراط مستقيم في قوله، وفعله، وقضائه، وقدره، وأمره، ونهيه، وثوابه،

وعقابه؛ فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة، وثوابُه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وعقابُه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته»[1].

* * *

(١) الفوائد (ص: ٣٣-٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يعني: فإن تتولوا، ثم فيه وجهان: الأول: تقدير الكلام: فإن تتولوا لم أعاتَب على تقصير في الإبلاغ وكنتم محجوجين؛ كأنه يقول: أنتم الذين أصررتم على التكذيب. الثاني: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعني: يخلق بعدكم من هو أطوع لله منكم؛ وهذا إشارة إلى نزول عذاب الاستئصال، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾، يعني أن إهلاككم لا ينقص من ملكه شيئًا.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، وفيه ثلاثة أوجه: الأول: حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها. الثاني: يحفظني من شرّكم ومكركم. الثالث: حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء، ويهلكه إذا شاء»[١].

وقال ابن عطية: «والمعنى: أنه ما عليّ كبير همّ منكم إن توليتم؛ فقد برئت ساحتي بالتبليغ، وأنتم أصحاب الذنب في الإعراض عن الإيمان»[٢].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٨/ ١٥).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا أمره الذي جاء، الذي نجى منه هودًا والذين آمنوا معه عند مجيئه؛ ولكنه بين في مواضع أخر: أنه الإهلاك المستأصل بالريح العقيم، التي أهلكهم الله بها فقطع دابرهم؛ كقوله: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[2] الآية، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[3]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾[4] الآية»[5].

وذهب بعض المفسرين إلى تفسير العذاب الغليظ في هذه الآية بعذاب الآخرة، وقال البقاعي: «هو الريح الصرصر، وهذا أولى من حمله على عذاب الآخرة؛ لما يأتي من قوله: ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾[6]، كأنهم كانوا إذا رأوا مخايل العذاب؛ قصدوا نبيهم ومن آمن به ليهلكوهم قبلهم؛ كما صرح به في قصة صالح»[7].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استئصال عاد بالدبور وهو العذاب الغليظ في الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ

(١) الذاريات: الآيتان (٤١و٤٢).
(٢) الحاقة: الآيتان (٦و٧).
(٣) القمر: الآيتان (١٩و٢٠).
(٤) فصلت: الآية (١٦).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٢٨-٢٩).
(٦) هود: الآية (٦٦).
(٧) نظم الدرر (٩/ ٣١٤-٣١٥).

بالدَّبور»[١].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: «بالصَّبا».. يقال لها: القَبول -بفتح القاف- لأنها تقابل باب الكعبة إذ مهبُّها من مشرق الشمس، وضدها الدَّبور وهي التي أُهلكَتْ بها قوم عاد. ومن لطيف المناسبة كون القَبول نَصَرَتْ أهلَ القَبول، وكون الدَّبور أهلكت أهلَ الإدبار، وأن الدبور أشد من الصبا لما سنذكره في قصة عاد أنها لم يخرج منها إلا قدر يسير، ومع ذلك استأصلتهم، قال اللّه تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[٢]»[٣].

قال ابن بطال: «وفيه تفضيل المخلوقات بعضها على بعض.

وفيه إخبار المرء عن نفسه بما خصه اللّه به على جهة التحدث بنعمة اللّه، والاعتراف بها، والشكر له؛ لا على الفخر.

وفيه الإخبار عن الأمم الماضية وإهلاكها»[٤].

قال العيني: «وأما عاد.. فتفرعت أولاده، فكانوا ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الأحقاف وبلادها، وكانت ديارهم بالدهناء وعالج وبثرين ووبار إلى حضرموت، وكانت أخصب البلاد، فلما سخط اللّه تعالى عليهم جعلها مفاوز، فأرسل اللّه عليهم الدبور فأهلكتهم، وكانت ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[٥] أي: متتابعة.. واعتزل هود نبي اللّه ﷺ ومن معه من المؤمنين في حظيرة، لا يصيبهم منها إلا ما يلين الجلود وتلذ الأعين.. فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾. وكانت الريح تقلع الشجر وتهدم البيوت، ومن لم يكن في بيته منهم أهلكته في البراري والجبال»[٦].

❋ عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذُهَيبة، فقسمها بين

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاري (٦/ ٤٦٣/ ٣٣٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦١٧/ ٩٠٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٩/ ١١٥٢٦).

(٢) الحاقة: الآية (٨).

(٣) فتح الباري (٢/ ٦٦٢).

(٤) شرح صحيح البخاري (٣/ ٢٥).

(٥) الحاقة: الآية (٧).

(٦) عمدة القاري (٥/ ٢٨٨).

الأربعة: الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري أحد بني كلاب. فغضبت قريش والأنصار؛ قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا. قال: «**إنما أتألفهم**». فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كَثّ اللحية، محلوق، فقال: اتق اللّه يا محمد! فقال: «**من يطع اللّه إذا عصيتُ؟ أيأمنني اللّه على أهل الأرض ولا تأمنوني؟**». فسأله رجلٌ قَتْلَهُ -أحسبه خالد بن الوليد- فمنعه، فلما ولى قال: «**إنّ مِن ضئضئ هذا -أو في عقب هذا- قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرُقون من الدين مروقَ السهم من الرَّميّة، يقتلون أهل الإسلام ويَدَعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتُهم لأقتلنّهم قَتْلَ عادٍ**»(١).

★ **غريب الحديث:**

صناديد: هو جمع صنديد، وأريد بهم الرؤساء.

أتألفهم: من التألف، وهو المداراة والإيناس؛ ليثبتوا على الإسلام رغبة فيما يصل إليهم من المال.

غائر العينين: أي: غارت عيناه فدخلتا، وهو ضد الجاحظ. قال الكرماني: غائر العينين؛ أي: داخلتين في الرأس، لاصقتين بقعر الحدقة.

مشرف الوجنتين: أي غليظهما. ويقال: أي ليس بسهل الخد. وقد أشرفت وجنتاه؛ أي: عَلَتا. وأصله من الشرف، وهو العلو. والوجنتان: العظمان المشرفان على الخدين. وقيل: لحم الجلد. وكل واحدة وجنة.

ناتئ الجبين: أي مرتفعه. وقيل: مرتفع على ما حوله.

كَث اللحية: أي كثير شعرها غير مسبلة. والكث، بفتح الكاف، والكثاثة في اللحية: أن تكون غير دقيقة ولا طويلة ولا فيها كثافة. يقال: رجل كَثّ اللحية، بفتح الكاف، وقومٌ كُثٌّ، بالضم.

من ضئضئ: بكسر الضادين المعجمتين وسكون الهمزة الأولى، وهو الأصل

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٨)، والبخاري (٦/ ٤٦٣-٤٦٤/ ٣٣٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٤١و٧٤٢/ ١٠٦٤)، وأبو داود (٥/ ١٢١-١٢٣/ ٤٧٦٤)، والنسائي (٧/ ١٣٤-١٣٥/ ٤١١٢).

والعَقِب. وحكي إهمالهما، وهو شائع في اللغة. قال ابن سيده: الضئضئ والضؤضؤ: الأصل، وقيل: كثرة النسل.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «والغرض منه هنا قوله: «**لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**» أي: قتلًا لا يبقي منهم أحدًا؛ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[١]، ولم يرد أنه يقتلهم بالآلة التي قتلت بها عاد بعينها، ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل، ويراد به القتل الشديد القوي؛ إشارة إلى أنهم موصوفون بالشدة والقوة»[٢].

وقال العيني: «فإن قلت: كيف المطابقة وعاد أهلكوا بريح صرصر؟ قلت: التقدير: كقتل عاد، والتشبيه لا عموم له، والغرض منه استئصالهم بالكلية كاستئصال عاد؛ لأن الإضافة في قتل عاد إلى المفعول. فإن قلت: إذا كان من الإضافة إلى الفاعل يكون المراد القتل الشديد القوي؛ لأنهم كانوا مشهورين بالشدة والقوة. وعلى التقديرين المراد استئصالهم بأيّ وجه كان، وليس المراد التعيين بشيء»[٣].

* * *

(١) الحاقة: الآية (٨).
(٢) فتح الباري (٦/ ٤٦٥).
(٣) عمدة القاري (١١/ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾

★ غريب الآية:

عنيد: العنيد: الطاغية الذي يحيد عن الحق ولا يقبله. قال الطبري: «يقال منه: عند عن الحق، فهو يَعْند عُنودًا، والرجل عاند وعَنود؛ ومن ذلك قيل للعرق الذي ينفجر فلا يرقأ: عرق عاند؛ أي: ضارّ، ومنه قول الراجز:

إنّي كبيرٌ لا أُطيقُ العُنَّدا»[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾: كفروا بها، وعصوا رسل الله؛ وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعادٌ كفروا بهود، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾: تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ الآية.

قال السدي: ما بُعِث نبيّ بعد عادٍ إلا لُعِنوا على لسانه»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هودًا معصية تكذيب لجنس الرسل، فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[3]، ومعصية من كذب وتولى، قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[4]؛ أي: كذب بالخبر، وتولى عن طاعة الأمر؛ وإنما على

(١) جامع البيان (١٢/ ٦١-٦٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٣).
(٣) الملك: الآية (٩).
(٤) الليل: الآيتان (١٥و١٦).

الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا، ويطيعوهم فيما أمروا. وكذلك قال في فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾[1]، وقال عن جنس الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[2]، فالتكذيب للخبر، والتولي عن الأمر. وإنما الإيمان: تصديق الرسل فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا؛ ومنه قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾[3]»[4].

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ الآية، حكم عليهم بهذا الحكم لكفرهم وإصرارهم حتى حل العذاب بهم. واللعنة: الإبعاد والخزي، وقد تيقن أن هؤلاء وافوا على الكفر، فيلعن الكافر الموافي على كفره، ولا يلعن معيّن حيّ؛ لا من كافر، ولا من فاسق، ولا من بهيمة؛ كل ذلك مكروه بالأحاديث»[5].

وقال أبو حيان الأندلسي: «وفائدة قوله: ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾: مزيد التأكيد للمبالغة في التنصيص، أو تعيين عاد هذه من عاد إرم؛ لأن عادًا اثنان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾[6]، فتحقق أن الدعاء على عاد هذه، ولم تلتبس بغيرها»[7].

وقال البقاعي: «وفيه من أدلة النبوة وأعلام الرسالة: الرد على طائفة قد حدثت بالقرب من زماننا، يصوّبون جميع الملل، وخصّوا عادًا هذه لكونها أغناهم بأن قالوا: إنهم من المقربين إلى الله، وإنهم بعين الرضى منه!! فالله المسؤول في الإدالة عليهم وشفاء الصدور منهم، وهم أتباع ابن عربي الكافر العنيد أهل الاتحاد، المجاهرون بعظيم الإلحاد، المستخفون برب العباد؛ فلذلك قال تعالى مبينًا لحالهم بيانًا لا خفاء معه: ﴿إِنَّ عَادًا كَفَرُوا﴾، ولم يقصر الفعل؛ بل عداه إعظامًا لطغيانهم فقال: ﴿رَبَّهُمْ﴾؛ أي: غطوا جميع أنوار الظاهر الذي لا يصح أصلًا خفاؤه؛ لأنه لا نعمة على مخلوق إلا منه؛ فكان كفرهم أغلظ الكفر، ومع ذلك فلم ينثن هود ﷺ عن إبلاغهم جميع ما أمر به، ولا ترك شيئًا مما أوحي إليه، فلك به أسوة حسنة، وفيهم قدوة، ومن كفر من أحسن إليه بَعُدَ بعدًا لا قربَ معه»[8].

---

(١) النازعات: الآية (٢١).
(٢) القيامة: الآيتان (٣١و٣٢).
(٣) المزمل: الآيتان (١٥و١٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٩).
(٥) المحرر الوجيز (٣/ ١٨٢-١٨٣).
(٦) النجم: الآية (٥٠).
(٧) البحر المحيط (٥/ ٢٣٥).
(٨) نظم الدرر (٩/ ٣١٦-٣١٧).

قلت: ما قاله البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ابن عربي الزنديق هو قليل؛ بل كتبه كفريات وزندقة، وأتباعه زنادقة، والمدافعون عنه مدافعون عن الزندقة، وما أكثرهم في زماننا هذا! وقد نبتت نابتة في الكويت والمغرب ومصر وفي غيرها من ديار الإسلام يرفعون ألوية هذا الزنديق، ويلمعونه، ويدافعون عنه، حتى إن أحد الكويتيين ممن ينسب إلى العلم، وأصله رافضي، يقول في ابن عربي الزنديق: «إنه الطود الشامخ»!! ولا شك أنه الطود الشامخ في الكفر والزندقة. فرحمة اللَّه على أئمتنا من المفسرين والمحدثين، الغيورين على المعتقد الصحيح إذ بينوا حقيقة هذا الزنديق، وألفوا في مثالبه الكتب، ونظموا القصائد، كما أثبت ذلك في كتابي (موسوعة مواقف السلف في العقيدة والتربية والمنهج).

* * *

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أنشأكم: الإنشاء: ابتداء الخلق. وكل من ابتدأ شيئًا واخترعه فقد أنشأه. ومنه: أنشأ الشاعر القصيدة.

استعمركم فيها: أي فَوَّضَ إليكم عمارتها وسكناها. وقيل: أطال أعماركم.

تخسير: أي تضليل وإبعاد عن الخير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: وأرسلنا إلى ثمود، وهم عاد الثانية المعروفون، الذين يسكنون الحجر ووادي القرى، أخاهم في النسب صالحًا عبد اللَّه ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة اللَّه وحده، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وحدوه، وأخلصوا له الدين، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم منها، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض؛ تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك؛ فلا تشركوا به في عبادته.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي، وأقلِعوا عنها، ﴿ثُمَّ

﴿تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤاله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجلّ الثواب.

واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص. فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾[1].

والقرب الخاص: قربه من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[2]، وفي هذه الآية، وفي قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ﴾[3]؛ وهذا النوع قربٌ يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم؛ ولهذا يقرن باسمه (القريب) اسمَهُ (المجيب).

فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده؛ ردّوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾؛ أي: قد كنّا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع. وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفًا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه. ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة؛ قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنت كاملًا، والآن أخلفت ظنّنا فيك، وصرت بحالة لا يُرجى منك خير. وذنبه ما قالوه عنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئًا؛ من الأحجار والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم، الذي لم تزل نعمه عليهم تترى، وإحسانه عليهم دائمًا ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾؛ أي: ما زلنا شاكّين فيما دعوتنا إليه شكًّا مؤثّرًا في قلوبنا الريب. وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم

---

(١) ق: الآية (١٦).

(٢) العلق: الآية (١٩).

(٣) البقرة: الآية (١٨٦).

كذبة في ذلك؛ ولهذا بيّن كذبهم في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾؛ أي: برهان ويقين منه، ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾؛ أي: منَّ عليّ برسالته ووحيه؛ أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه؟ ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾؛ أي: غير خسار وتباب وضرر»[١].

وقال ابن عاشور: «والإنشاء من الأرض خلقُ آدم من الأرض؛ لأنّ إنشاءه إنشاء لنسله؛ وإنّما ذكر تعلّق خلقهم بالأرض لأنّهم كانوا أهل غرس وزرع؛ كما قال في سورة (الشعراء): ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[٢]، ولأنّهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتًا، ويبنون في الأرض قصورًا؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[٣]، فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض، فلأجل منافعهم في الأرض قيّدت نعمة الخلق بأنّها من الأرض التي أنشئوا منها، ولذلك عطف عليه ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

والاستعمار: الإعمار؛ أي: جعلكم عامرينها، فالسّين والتاء للمبالغة كالتي في استبقى واستفاق. ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع؛ لأنّ ذلك يعدّ تعميرًا للأرض؛ حتى سمي الحرث عِمارة؛ لأنّ المقصود منه عَمر الأرض.

وفرع على التذكير بهذه النعم أمرهم باستغفاره والتّوبة إليه؛ أي: طلب مغفرة إجرامهم، والإقلاع عمّا لا يرضاه من الشرك والفساد. ومن تفنّن الأسلوب أن جعلت هذه النعم علّة لأمرهم بعبادة اللّه وحده بطريق جملة التّعليل، وجعلت علّة أيضًا للأمر بالاستغفار والتّوبة بطريق التّفريع»[٤].

وقال إلكيا الهرّاسي: «قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ الآية؛ يدل على وجوب عمارة الأرض؛ فإن الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من اللّه تعالى للوجوب»[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٣٦-٤٣٨).
(٢) الشعراء: الآيات (١٤٦-١٤٨).
(٣) الأعراف: الآية (٧٤).
(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ١٠٨).
(٥) أحكام القرآن (٢/ ٢٢٦).

وقال ابن الجوزي: «في قوله: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أعمركم فيها؛ أي: جعلكم ساكنيها مدة أعماركم، ومنه العمرى، وهذا قول مجاهد.

والثاني: أطال أعماركم، وكانت أعمارهم من ألف سنة إلى ثلاثمائة، قاله الضحاك.

والثالث: جعلكم عُمّارها، قاله أبو عبيدة»[1].

قلت: ومنه تعلم خطأ من سمى دخول الكفار بلدان المسلمين والسيطرة عليها استعمارًا، وهذا قلب للحقائق إذ ليس في دخولهم بلدان المسلمين إلا نشر الفساد، وقتل الأنفس، وهتك الحرمات، واستنفاد الخيرات. ولا تغتر بما قاموا به من بنايات وإصلاح الطرق؛ فإن ذلك لم يكن منهم إلا لمصالحهم الخاصة. وشتان بين غزوهم لبلاد المسلمين وغزو المسلمين لبلدانهم، فإن بينهما من الفرق كما بين السماء والأرض. والتاريخ شاهد على ذلك، ولا نطيل بذكر النماذج.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في العمرى

* عن جابر رضي الله عنه قال: «قضى النبي ﷺ بالعُمرى أنها لمن وُهِبَت له»[2].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**العُمرى جائزة**»[3].

★ **غريب الحديثين:**

العُمرى: بضم المهملة وسكون الميم مع القصر، وحكي ضم الميم مع ضم أوله، وحكي فتح أوله مع السكون؛ مأخوذ من العمر[4]. وصورة العمرى أن يقول الرجل: أعمرتُكَ داري هذه، أو هي لك عمري، أو ما عشت، أو مدة حياتك، أو ما حييت، أو نحو هذا. سُمّيت عمرى لتقييدها بالعمر[5].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٢)، والبخاري (٥/ ٢٩٨/ ٢٦٢٥)، ومسلم (٣/ ١٢٤٦/ ١٦٢٥[٢٥])، وأبو داود (٣/ ٨١٧/ ٣٥٥٠)، والترمذي (٣/ ٦٣٢/ ١٣٥٠)، وابن ماجه (٢/ ٧٩٦/ ٢٣٨٠)، والنسائي (٦/ ٥٩١/ ٣٧٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٧)، والبخاري (٥/ ٢٩٨/ ٢٦٢٦)، ومسلم (٣/ ١٢٤٨/ ١٦٢٦)، وأبو داود (٣/ ٨١٦-٨١٧/ ٣٥٤٨)، والنسائي (٦/ ٥٩٢/ ٣٧٥٩)، وابن ماجه (٢/ ٧٩٦/ ٢٣٧٩).

(٤) فتح الباري (٥/ ٢٩٨). (٥) المغني (٨/ ٢٨٢).

★ **فوائد الحديثين:**

قال النووي: «العمرى ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يقول: أعمرتك هذه الدار، فإذا متّ فهي لورثتك أو لعقبك. فتصحّ بلا خلاف، ويملك بهذا اللفظ رقبة الدار، وهي هبة، لكنها بعبارة طويلة. فإذا مات فالدار لورثته. فإن لم يكن له وارث فلبيت المال، ولا تعود إلى الواهب بحال، خلافًا لمالك.

الحال الثاني: أن يقتصر على قوله: جعلتها لك عمرك، ولا يتعرض لما سواه؛ ففي صحة هذا العقد قولان للشافعي؛ أصحهما -وهو الجديد- صحته، وله حكم الحال الأول. والثاني -وهو القديم-: أنه باطل. وقال بعض أصحابنا: إنما القول القديم أن الدار تكون للمعمَر حياتَهُ، فإذا مات عادت إلى الواهب أو ورثته؛ لأنه خصّه بها حياتَهُ فقط. وقال بعضهم: القديم أنها عارية يستردها الواهب متى شاء، فإذا مات عادت إلى ورثته.

الثالث: أن يقول: جعلتها لك عمرك، فإذا متَّ عادت إليّ أو إلى ورثتي إن كنتُ متُّ؛ ففي صحته خلاف عند أصحابنا؛ منهم من أبطله، والأصح عندهم صحته، ويكون له حكم الحال الأول، واعتمدوا على الأحاديث الصحيحة المطلقة: **«العمرى جائزة»**، وعدلوا به عن قياس الشروط الفاسدة، والأصح: الصحة في جميع الأحوال، وأن الموهوب له يملكها ملكًا تامًّا، يتصرف فيها بالبيع وغيره من التصرفات. هذا مذهبنا»[١].

قلت: وكون المِلك ينتقل من المُعْمِر إلى المعمَر هو قول جابر بن عبد اللَّه وابن عمر.

قال ابن قدامة: «إذا ثبت هذا؛ فإن العمرى تنقل المِلك إلى المعمَر. وبهذا قال جابر بن عبد اللَّه، وابن عمر، وابن عباس، وشريح، ومجاهد، وطاوس، والثوري، والشافعي، وأصحاب الرأي، ورُوي ذلك عن علي.

وقال مالك والليث: العمرى تمليكُ المنافع، لا تُملَكُ بها رقبةُ المعمِر بحال،

---

(١) شرح صحيح مسلم (١١/ ٦٠-٦١).

ويكون للمعمَر السكنى، فإذا مات عادت إلى المعمِر.

وإن قال: له ولعقبه؛ كان سكناها لهم، فإذا انقرضوا عادت إلى المعمِر.

واحتجّا بما روى يحيى بن سعيد، عن عبدالرحمن بن القاسم، قال: سمعتُ مكحولًا يسأل القاسمَ بن محمد عن العمرى، ما يقول الناس فيها؟ فقال القاسم: ما أدركتُ الناسَ إلا على شروطهم في أموالهم وما أَعْطَوا.

وقال إبراهيم بن إسحق الحربي، عن ابن الأعرابي: لم يختلف العرب في العمرى، والرُّقْبى، والإفقار، والإخبال، والمِنْحَة، والعَرِيّة، والعارِيّة، والسُّكْنى، والإطراق؛ أنها على مِلْكِ أربابها، ومنافِعُها لمن جُعِلت له. ولأن التمليك لا يتأقّت، كما لو باعه إلى مدّة، فإذا كان لا يتأقّت؛ حُمِل قوله على تمليك المنافع؛ لأنه يصحّ توقيته..

-ثم ذكر حديث جابر وما في معناه، ثم قال:-

وقول القاسم لا يُقبَل في مخالفة من سمّينا من الصحابة والتابعين، فكيف يُقبَل في مخالفة قول سيد المرسلين، ولا يصح أن يُدَّعى إجماع أهل المدينة لكثرة من قال بها منهم، وقضى بها طارقٌ بالمدينة بأمر عبدالملك بن مروان.

وقولُ ابن الأعرابي: إنها عند العرب تمليكُ المنافع؛ لا يضرّ إذا نقلها الشرع إلى تمليك الرقبة، كما نقل الصلاة من الدعاء إلى الأفعال المنظومة، ونقل الظِّهار والإيلاء من الطلاق إلى أحكام مخصوصة.

قولُهم: إن التمليك لا يتأقّت؛ قلنا: فلذلك أبطل الشرع تَأْقِيتَها، وجعلها تمليكًا مطلقًا»[1].

ثم قال: «إذا شرط في العمرى أنها للمعمَر وعَقِبه؛ فهذا تأكيد لحكمها، وتكون للمعمَر وورثته. وهذا قول جميع القائلين بها. وإذا أطلقها فهي للمعمَر وورثته أيضًا؛ لأنها تمليك للرقبة، فأشبهت الهبة.

فإن شَرَطَ أنك إذا متَّ فهي لي؛ فعن أحمد روايتان؛ إحداهما: صحة العقد والشرط، ومتى مات المعمَر رجعت إلى المعمِر. وبه قال القاسم بن محمد، وزيد

(١) المغني (٨/ ٢٨٣-٢٨٤).

بن قسيط، والزهري، ومالك، وأبو سلمة بن عبدالرحمن، وابن أبي ذئب، وأبو ثور، وداود، وهو أحد قولي الشافعي؛ لما روى جابر، قال: «إنما العمرى التي أجاز رسولُ اللَّه ﷺ أن يقول: هي لك ولعَقِبك. فأما إذا قال: هي لك ما عشتَ؛ فإنها ترجع إلى صاحبها»[1]»[2]. وحينئذ يكون لها حكم العارية[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٤)، ومسلم (٣/ ١٢٤٦/ ١٦٢٥[٢٣])، وأبو داود (٣/ ٨١٩-٨٢٠/ ٣٥٥٥).
(٢) المغني (٨/ ٢٨٥).
(٣) أفاده البسام [تيسير العلام (٢/ ٣٨٢)].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

* **غريب الآية:**

عقروها: أي: نَحَرُوها.

جاثمين: أي: باركين على رُكَبِهِمْ؛ مأخوذ من الجثوم وهو البروك. وقيل: ملقىً بعضهم فوق بعض(١).

لم يغنوا: لم يقيموا. أصله من: غَنِيَ بالمكان إذا أقام به. والمغاني المنازل. قال النابغة:

غنيت بذلك إذ هم لك جيرة منها بعطف رسالة وتودد

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل صالح لقومه من ثمود إذ قالوا له: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾(٢)، وسألوه الآية على ما دعاهم إليه: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ يقول: حجة وعلامة ودلالة على حقيقة ما أدعوكم إليه،

---

(١) عمدة الحفاظ (١/ ٣٥٤).

(٢) هود: الآية (٦٢).

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾؛ فليس عليكم رزقها ولا مؤنتها، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ يقول: لا تقتلوها ولا تنالوها بعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: فإنكم إن تمسوها بسوء يأخذكم عذاب من اللَّه غير بعيد فيهلككم..

فعقرت ثمود ناقة اللَّه -وفي الكلام محذوف قد ترك ذكرُه استغناءً بدلالة الظاهر عليه، وهو: فكذّبوه، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، فقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ يقول: استمتعوا في دار الدنيا بحياتكم ثلاثة أيام، ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ يقول: هذا الأجل الذي أجّلتكم وعدٌ من اللَّه، وعدكم بانقضائه الهلاكَ ونزول العذاب بكم، ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ يقول: لم يكذبكم فيه من أعلمكم ذلك..

فلما جاء ثمود عذابنا؛ نجينا صالحًا والذين آمنوا به معه برحمة منا، يقول: بنعمة وفضل من اللَّه، ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يقول: ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذُلّه بذلك العذاب، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ في بطشه، إذا بطش بشيء أهلكه؛ كما أهلك ثمود حين بطش بها، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يغلبه غالب، ولا يقهره قاهر؛ بل يغلب كل شيء ويقهره»[1].

وقال الرازي: «فإن قيل: فما السبب في كون الصيحة موجبة للموت؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أن الصيحة العظيمة إنما تحدث عند سبب قويّ يوجب تموّج الهواء، وذلك التموّج الشديد ربما يتعدّى إلى صماخ الإنسان فيمزّق غشاء الدماغ، فيورث الموت.

والثاني: أنها شيء مهيب، فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها، والأعراض النفسانية إذا قويت أوجبت الموت.

الثالث: أن الصيحة العظيمة إذا حدثت من السحاب؛ فلا بد وأن يصحبها برق شديد محرق؛ وذلك هو الصاعقة التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما»[2].

فائدة: قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾؛ اختلفوا في صرف (ثمود) وترك إجرائه في خمسة مواضع: في (هود): ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٦٤-٦٥).

(٢) التفسير الكبير (١٨/ ٢٣).

بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[١]، وفي (الفرقان): ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾[٢]، وفي (العنكبوت): ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾[٣]، وفي (النجم): ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾[٤]؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر بالتنوين في أربعة مواضع منها، وتركوا ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ فلم يصرفوه، وقرأ حمزة بترك صرف هذه الخمسة الأحرف، وصرفهن الكسائي، واختُلف عن عاصم، فروى حسين الجعفي عن أبي بكر عنه أنه أجرى الأربعة الأحرف مثل أبي عمرو، وروى يحيى بن آدم أنه أجرى ثلاثة: في (هود) ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟﴾، وفي (الفرقان)، و(العنكبوت)، وروى حفص عنه أنه لم يجر شيئًا منها مثل حمزة. واعلم أن (ثمودًا) يراد به القبيلة تارة، ويراد به الحي تارة، فإذا أريد به القبيلة لم يُصرَف، وإذا أريد به الحي صُرِفَ»[٥].

وأكثر المفسرين يوردون ههنا حديث عمرو بن خارجة الطويل في قصة عقر الناقة، وهو حديث لا يصحّ.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر عاقر الناقة وصفته والتحذير من نزول مساكن المعذبين

* عن عبد اللَّه بن زمعة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ -وذكر الذي عقر الناقة- قال: «**انتدب لها رجل ذو عز ومنعة في قومه كأبي زَمعة**»[٦].

* عن ابن عمر ﷺ: «**أن رسول اللَّه ﷺ** لما نزل الحجر في غزوة تبوك؛ أمرهم أن لا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنّا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجينَ ويُهريقوا ذلك الماء». ويُروى عن سَبرة بن معبد وأبي الشموس: «أن النبي ﷺ أمر بإلقاء الطعام». وقال أبو ذر عن النبي ﷺ: «**مَن اعتجن بمائه**»[٧].

---

(١) الآية (٦٨).
(٢) الآية (٣٨).
(٣) الآية (٣٨).
(٤) النجم: الآية (٥١).
(٥) زاد المسير (٤/ ١٠٠-١٠١).
(٦) أخرجه: البخاري (٦/ ٤٦٦/ ٣٣٧٧)، ومسلم (٤/ ٢١٩١/ ٢٨٥٥)، والترمذي (٥/ ٤١٠/ ٣٣٤٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٥/ ١١٦٧٥).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٧)، والبخاري (٦/ ٤٦٦/ ٣٣٧٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٦/ ٢٩٨١).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ لما مر بالحجر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم**». ثم تقنّع بردائه وهو على الرَّحْل[1].

★ فوائد الأحاديث:

تقدمت فوائد هذه الأحاديث في خبر ثمود من سورة (الأعراف).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٦)، والبخاري (٦/ ٤٦٦-٤٦٧/ ٣٣٨٠و٣٣٨١)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٥و٢٢٨٦/ ٢٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٤-٣٧٥/ ١١٢٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩)﴾

★غريب الآية:

حنيذ: أي محنوذ، بمعنى: مشوي؛ يقال: حَنَذَهُ يحنذه حنذًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

أراد بالرسل الملائكةَ، واختلفوا في عددهم، والبحث في ذلك يعوزه الدليل، وغاية ما في ذلك آثار مختلفة.

قال الطبري: «واختلفوا في تلك البشارة التي أتوه بها، فقال بعضهم: هي البشارة بإسحق. وقال بعضهم: هي البشارة بهلاك قوم لوط»[(١)].

وقال ابن تيمية: «البشارة بإسحق كانت معجزة؛ لأن العجوز عقيم؛ ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[(٢)]، وقالت امرأته: ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[(٣)]، وقد سبق أن البشارة بإسحق في حال الكبر، وكانت البشارة مشتركة بين إبراهيم وامرأته»[(٤)].

وقال الشنقيطي: «لم يبين هنا ما المراد بهذه البشرى التي جاءت بها رسل الملائكة إبراهيم؛ ولكنه أشار بعد هذا إلى أنها البشارة بإسحق ويعقوب في قوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[(٥)]؛ لأن البشارة بالذرية الطيبة شاملة للأم والأب؛ كما يدل لذلك قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[(٦)]، وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[(٧)]، وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٦٨).
(٢) الحجر: الآية (٥٤).
(٣) هود: الآية (٧٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٣٤).
(٥) هود: الآية (٧١).
(٦) الصافات: الآية (١١٢).
(٧) الذاريات: الآية (٢٨).

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[(١)].

وقيل: البشرى هي إخبارهم له بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط. وعليه فالآيات المبينة لها كقوله هنا في هذه السورة: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[(٢)] الآية، وقوله: ﴿قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾[(٣)] الآية، وقوله: ﴿قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾[(٥)].

والظاهر القول الأول، وهذه الآية الأخيرة تدل عليه؛ لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى؛ لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي (لما) كما ترى»[(٦)].

وقال ابن كثير: «وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة»[(٧)].

قال ابن العربي ضمن مسائل هذه الآية: «قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ قدمه إليهم نزلًا وضيافة، وهو أول من ضيّف الضيفَ حسبما ورد في الحديث[(٨)]»[(٩)].

وقال القرطبي: «في هذه الآية من أدب الضيف أن يُعجّل قِراه، فيقدّم الموجود الميسّر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدَة، ولا يتكلّف ما يضرّ به. والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين»[(١٠)].

وقال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن إبراهيم لما سلم على رسل الملائكة وكان يظنهم ضيوفًا من الآدميين؛ أسرع إليهم بالإتيان بالقِرى، وهو لحم عجل حنيذ -أي: منضج بالنار-، وأنهم لما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة،

---

(١) الحجر: الآية (٥٣).
(٢) هود: الآية (٧٠).
(٣) الحجر: الآيتان (٥٨و٥٩).
(٤) الذاريات: الآيتان (٣٢و٣٣).
(٥) العنكبوت: الآية (٣١).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٢٩-٣٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٤).
(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة: ابن عساكر، وهو مخرج في السلسلة الصحيحة (٧٢٥).
(٩) أحكام القرآن (٣/ ١٠٦١).
(١٠) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٦٤).

فقالوا: لا تخف، وأخبروه بخبرهم. وبين في (الذاريات): أنه راغ إلى أهله -أي: مال إليهم- فجاء بذلك العجل، وبين أنه سمين، وأنه قربه إليهم، وعرض عليهم الأكل برفق فقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[1]، وأنه أوجس منهم خيفة؛ وذلك في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ﴾[2] الآية.

يؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة:

منها: تعجيل القِرى؛ لقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

ومنها: كون القِرى من أحسن ما عنده؛ لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر، وأطيبه لحمًا الفتيّ السمين المنضَج.

ومنها: تقريب الطعام إلى الضيف.

ومنها: ملاطفته بالكلام بغاية الرفق؛ كقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾»[3].

وقال ابن العربي: «مبادرة إبراهيم بالنزول حين ظنّ أنهم أضياف مشكورة من اللَّه، متلوّة من كلامه في الثناء بها عليه، تبيّن ذلك من إنزاله فيه حين قال في موضع: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[4]، وفي آخر: ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾؛ أي: مشويّ، ووصفه بالطيبين: طيب السمن، وطيب العمل بالإشواء، وهو أطيبُ للمحاولة في تناوله»[5].

وقال ابن القيم عن السر في نصب سلام ضيف إبراهيم الملائكة ورفع سلامه: «إنك قد عرفت قول النحاة فيه أن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية؛ لأن نصب السلام يدل على (سلّمنا عليك سلامًا)، وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية؛ لأن رفعه يدل على أن المعنى (سلامٌ عليكم)؛ والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه ﷺ، وهو مقام الفضل إذ

---

(١) الذاريات: الآية (٢٧).
(٢) الذاريات: الآيات (٢٤-٢٨).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٠-٣١).
(٤) الذاريات: الآية (٢٦).
(٥) أحكام القرآن (٣/ ١٠٦٢-١٠٦٣).

حياهم بأحسن من تحيتهم. هذا تقرير ما قالوه. وعندي فيه جواب أحسن من هذا: وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة، فنصب قوله: (سلامًا) انتصاب مفعول القول المفرد؛ كأنه قيل: قالوا قولًا سلامًا، وقالوا سدادًا وصوابًا، ونحو ذلك؛ فإن القول إنما تحكي به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكيًّا به؛ بل منصوب به انتصاب المفعول به؛ ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾[1]، ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب؛ وإنما معناه: قالوا قولًا سلامًا؛ مثل: سدادًا، وصوابًا. وسمي القول سلامًا؛ لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه؛ من رفع الوحشة، وحصول الاستيناس. وحكي عن إبراهيم لفظ سلامه، فأتى به على لفظه مرفوعًا بالابتداء، محكيًّا بالقول. ولولا قصد الحكاية لقال: سلامًا؛ بالنصب؛ لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعًا فعلى الحكاية ليس إلا، فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه ونصب ذلك إشارةٌ إلى معنىً لطيف جدًّا، وهو أن قوله: سلام عليكم؛ من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم التي أمر اللَّه بها وباتباعها، فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيافه، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل، واللَّه أعلم. فزن هذا الجواب والذي قبله بميزان غير جائر يظهر لك أقواهما، وباللَّه التوفيق»[2].

وقال السعدي: «ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء؛ لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، وردّه بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير (حنيذ)

* عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: «أتي النبي ﷺ بضب مشويّ، فأهوى إليه ليأكل، فقيل له: إنه ضبّ، فأمسك يده. فقال خالد: أحرام هو؟ قال: لا، ولكنه

---

(١) الفرقان: الآية (٦٣).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٧-١٥٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٤٠).

لا يكون بأرض قومي، فأجدني أعافه. فأكل خالد ورسول اللَّه ﷺ ينظر». قال مالك عن ابن شهاب: «بضبّ محنوذ»(١).

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث تفسير لفظة «حنيذ» الواردة بها الآية؛ أي: محنوذ، وهو المشويّ. وقد بوّب به البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب الشّواء وقول اللَّه تعالى: ﴿أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ أي: مشويّ»(٢).

قال الخطابي: «المحنوذ: المشوي. ويقال: هو ما شوي بالرضف، وهي الحجارة المحماة، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾»(٣).

وقال ابن بطال: «وفيه جواز أكل الشّواء؛ لأنه ﷺ أهوى ليأكل منه»(٤).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٨)، والبخاري (٩/ ٦٧٧/ ٥٤٠٠)، ومسلم (٣/ ١٥٤٣/ ١٥٤٤/ ١٩٤٦)، وأبو داود (٤/ ١٥٣-١٥٤/ ٣٧٩٤)، والنسائي (٧/ ٢٢٥/ ٤٣٢٧)، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٩-١٠٨٠/ ٣٢٤١).

(٢) فتح الباري (٩/ ٦٧٧).

(٣) حاشية السنن (٤/ ١٥٤).

(٤) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٧٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾

★غريب الآية:

نكرهم: يقال: نَكِرَ الشيء وأَنْكَرَهُ بمعنى واحد. والإنكار: ضد العرفان. قال الأعشى جامعًا بين اللغتين:

وأنكرَتْني وما كان الذي نَكِرَتْ ... من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعا

قال السمين الحلبي: «وفرّق بعضهم بينهما، فقال: الثلاثي فيما يُرى بالبصر، والرباعي فيما لا يُرى من المعاني، وجعل البيت من ذلك؛ فإنها أنكرت مودته وهي من المعاني التي لا ترى، ونكِرَتْ شيبته وصَلَعه، وهما يُبصَران»[1].

أوجس: أَحَسَّ. يقال: أوجس وتَوَجَّسَ: إذا أَحَسَّ واستشعر. قال ذو الرمة:

وقد توجس ركزًا مغفر ندس ... بنبأة الصوت ما في سمعه كذب

قال السمين الحلبي: «الإيجاس: حديث النفس؛ وأصله من الدخول؛ كأن الخوف داخله. وقال الأخفش: خامَرَ قلبه. وقال الفراء: استشعر وأحسّ. والوجيس: ما يعتري النفس أوائل الفزع. ووَجَسَ في نفسه كذا؛ أي: خَطَر بها، يَجِسُ وَجْسًا ووُجوسًا ووَجيسًا، ويَوْجَس ويَجِس بمعنى يسمع، وأنشدوا:

وصادقتا سَمْعِ التوجُّسِ للسُّرى ... لِلَمْحِ خَفِيٍّ أو لصوتٍ مُنَدَّدِ

فـ(خيفةً) مفعول به؛ أي: أحسَّ خيفة أو أضمر خيفة»[2].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الفراء: «وذلك أنها كانت سنّةً في زمانهم إذا ورد عليهم القوم، فأُتُوا بالطعام، فلم يمسّوه؛ ظنوا أنهم عدوّ أو لصوص. فهناك أوجس في نفسه خيفة،

(١) الدر المصون (٦/ ٣٥٣).

(٢) المصدر السابق (٦/ ٣٥٣-٣٥٤).

فرأوا ذلك في وجهه، فقالوا: لا تخف»[١].

وقال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: فلما رأى إبراهيم أيديَهُم لا تصل إلى العجل الذي أتاهم به، والطعام الذي قدّم إليهم؛ نكرهم؛ وذلك أنه لما قدم طعامه ﷺ إليهم -فيما ذكر- كفّوا عن أكله؛ لأنهم لم يكونوا ممن يأكله. وكان إمساكهم عن أكله عند إبراهيم -وهم ضيفانه- مستنكرًا، ولم تكن بينهم معرفةٌ، وراعه أمرهم، وأوجس في نفسه منهم خيفة. وكان قتادة يقول: كان إنكاره ذلك من أمرهم؛ كما حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، وكانت العرب إذا نزل بهم ضيفٌ، فلم يطعم من طعامهم؛ ظنّوا أنه لم يجيء بخير، وأنه يحدّث نفسه بشرّ»[٢].

قال الألوسي: «وذهب بعضهم إلى أنه عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة حتى قالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾؛ وكأن سبب خوفه منهم أنهم لم يتحرموا بطعامه، فظن أنهم يريدون به سوءًا؛ إذ كانت العادة إذ ذاك كذلك، وكان عليه السلام نازلًا في طرف من الأرض منفردًا عن قومه، وهي رواية عن ابن عباس أخرجها إسحق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عنه. وقيل: كان سبب خوفه أنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت.

وقال العلامة الطيبي: الحق أن الخوف إنما صدر عن مجموع كونهم منكرين وكونهم ممتنعين من الطعام؛ كما يعلم من الآيات الواردة في هذه القصة، ولأنه لو عرفهم بأنهم ملائكة لم يحضر بين أيديهم الطعام ولم يحرضهم على الأول؛ وإنما عدلوا إلى قولهم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ ليكون جامعًا للمعاني بحيث يفهم منه المقصود أيضًا، انتهى.

وفيه إشارة إلى الردّ على الزمخشري، وقد اختلف كلامه في تعليل الخوف؛ فعلّله تارة بعرفانه أنهم ملائكة، وأخرى بأنهم لم يتحرموا طعامه، ولعله أراد بذلك العرفان العرفان بعد إحضار الطعام، وما ذكره الطيبي من أنه لو عرفهم بأنهم ملائكة لم يحضر، إلخ؛ غير قادح؛ إذ يجوز أن يخافهم بعد الإحضار أولًا لعدم التحرم،

---

(١) معاني القرآن (٢/ ٢١-٢٢).

(٢) جامع البيان (١٢/ ٧٠-٧١).

ثم بعد تفرس أنهم ملائكة خافهم لأنهم ملائكة أرسلوا للعذاب؛ والزمخشري حكى أحد الخوفين في موضع، والآخر في آخر.

قال بعض المحققين: والتعليل بأنهم ملائكة هو الوجه لينتظم قوله سبحانه: ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[1] مع ما قبله؛ إذ لو كان الوجل لكونهم على غير زي من عرف ونحوه؛ لم يحسن التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾؛ فإنه إنما هو تعليل للنهي عن الوجل من أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب؛ كأنهم قالوا: ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ و﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، فجاء على اختصارات القرآن بذكر أحد التعليلين في أحد الموضعين والآخر في الآخر، ولا شك أن في (الحجر) اختصارًا لطي حديث الرواع، والتعجيل بالعجل الحنيذ وعدم تحرمهم بطعامه؛ لما أن المقصود من سوق القصة هنالك الترغيب والترهيب للاعتبار بحال إبراهيم عليه السلام وما لقي من البشرى والكرامة، وحال قوم لوط عليه السلام وما منوا به من السوأى والملامة؛ ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إلى قوله -جل وعلا-: ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾[2]، فاقتصر على ما يفيد ذلك الغرض، وأما في هذه السورة فجيء بها للإرشاد الذي بنى عليه السورة الكريمة مع إدماج التسلية، وردّ ما رموه به -عليه الصلاة والسلام- من الافتراء، وفي كل من أجزاء القصة ما يسد من هذه الأغراض فسرد على وجهها، وفي سورة (الذاريات) للأخيرين فقط، فجيء بما يفيد ذلك، فلا عليك إن رأيت اختصارًا أن تنقل إليه من المبسوط ما يتم به الكلام بعد أن تعرف نكتة الاختصار؛ وهذا من خواصّ كتاب اللَّه تعالى الكريم، انتهى. ولا يخلو عن حسن، وفيه ذهاب إلى كون جملة ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ استئنافًا في موضع التعليل؛ كما هو الظاهر»[3].

وقال ابن العربي: «السنة إذا قُدِّم للضيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل منه؛ فإن كرامة صاحب المنزل المبادرةُ بالقبول، فلما قبض الملائكة أيديهم؛ نكرهم إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه، وقد كان من الجائز -كما يسر اللَّه للملائكة أن يتشكلوا في صفة

---

(١) الحجر: الآية (٥٣).
(٢) الحجر: الآيات (٤٩-٥١).
(٣) روح المعاني (١٢/ ٩٥-٩٦).

الآدمي جسدًا وهيئةً- أن ييسر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه في قول العلماء: أرسلهم في صفة الآدميين، وتكلف إبراهيم الضيافة حتى إذا رأى التوقف وخاف؛ جاءته البشرى فجأة، وأكملُ المبشرات ما جاء فجأة ولم يظنه المسرور حسابًا»[١].

وقال ابن عطية الأندلسي: «وفي هذه الآية من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر من ضيفه هل يأكل أم لا. وذلك ينبغي أن يكون بتلفّت ومسارقة، لا بتحديد النظر؛ فروي أن أعرابيًّا أكل مع سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة، فقال له: أزل الشعرة عن لقمتك، فقال له: أتنظر إليّ نظر من يرى الشعر في لقمتي؟! والله لا أكلت معك!»[٢].

وقال القرطبي: «وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبدالملك، لا مع سليمان، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

وَلَلموتُ خيرٌ من زيارة باخل يلاحظ أطراف الأكيل على عمدِ»[٣].

وقال الرازي: «وأما إبراهيم ﷺ؛ فنقول: إما أن يقال: إنه ﷺ ما كان يعلم أنهم ملائكة؛ بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر، أو يقال: إنه كان عالمًا بأنهم من الملائكة.

أما على الاحتمال الأول؛ فسبب خوفه أمران: أحدهما: أنه كان ينزل في طرف من الأرض بعيد عن الناس، فلما امتنعوا من الأكل خاف أن يريدوا به مكروهًا. وثانيها: أن من لا يُعرف إذا حضر وقدم إليه طعام؛ فإن أكل حصل الأمن، وإن لم يأكل حصل الخوف.

وأما الاحتمال الثاني، وهو أنه عرف أنهم ملائكة الله تعالى؛ فسبب خوفه على هذا التقدير أيضًا أمران: أحدهما: أنه خاف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه. والثاني: أنه خاف أن يكون نزولهم لتعذيب قومه.

فإن قيل: فأي هذين الاحتمالين أقرب وأظهر؟

قلنا: أما الذي يقول: إنه ما عرف أنهم ملائكة الله تعالى؛ فله أن يحتج بأمور:

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٠٦٣).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٨٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٦٦).

أحدها: أنه تسارع إلى إحضار الطعام، ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك. وثانيها: أنه لما رآهم ممتنعين من الأكل خافهم، ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الأكل على حصول الشر. وثالثها: أنه رآهم في أول الأمر في صورة البشر، وذلك لا يدل على كونهم من الملائكة.

وأما الذي يقول: إنه عرف ذلك؛ احتج بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأيِّ سبب أرسلوا.

ثم بين تعالى أن الملائكة أزالوا ذلك الخوف عنه فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، ومعناه: أرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط؛ لأنه أضمر لقيام الدليل عليه في سورة أخرى، وهو قوله: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾[1]»[2].

وقال إلكيا الهرّاسي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، ثم ساق الكلام، إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾[3] حين قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ لنهلكهم.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾[4]: وذلك يحتج به من يجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة؛ لأن الملائكة أخبرت إبراهيم أنها تهلك قوم لوط، ولم تبين المنجين منهم، ومع ذلك إبراهيم ﷺ جادلهم، وقال: أتهلكونهم وفيهم كذا وكذا من المسلمين، وتعرف منهم أمر العذاب، وأنه عذاب واقع بهم لا محالة، أم يعفى عنهم إذا رجعوا؟ وهذا دلالة لا محالة على جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة، وهو بيّن حسن»[5].

* * *

(١) الذاريات: الآيتان (٣٢و٣٣).
(٢) التفسير الكبير (١٨/ ٢٥-٢٦).
(٣) الآية (٧٤).
(٤) العنكبوت: الآية (٣٢).
(٥) أحكام القرآن (٢/ ٢٢٦-٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البغوي: «قال مجاهد وعكرمة: ضحكت؛ أي: حاضت في الوقت؛ تقول العرب: ضحكت الأرنب؛ أي: حاضت. والأكثرون على أن المراد منه الضحك المعروف. واختلفوا في سبب ضحكها، قيل: ضحكت لزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا: لا تخف»[1].

وقال البقاعي: «والحال أن زوجة إبراهيم -التي هي كاملة المروءة، وهي سارة- ﴿قَآئِمَةٞ﴾، قيل: على باب الخيمة لأجل ما لعلها تفوز به من المعاونة على خدمتهم، فسمعت البشارة بالولد التي دل عليها فيما مضى قوله: ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾[2]، ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ أي: تعجبت من تلك البشرى لزوجها مع كبره، وربما ظنته من غيرها؛ لأنها -مع أنها كانت عقيمًا- عجوز، فهو من إطلاق المسبب على السبب إشارة إلى أنه تعجب عظيم، ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا﴾ أي: فتسبب عن تعجبها أنا أعدنا لها البشرى مشافهة بلسان الملائكة؛ تشريفًا لها، وتحقيقًا أنه منها، ﴿بِإِسۡحَٰقَ﴾ تلده، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ أي: يكون يعقوب ابنًا لإسحق»[3].

وقال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: فبشرنا سارة امرأة إبراهيم -ثوابًا منّا لها على نكيرها وعجبها من فعل قوم لوط- ﴿بِإِسۡحَٰقَ﴾ ولدًا لها، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ يقول: ومن خلف إسحق يعقوب من ابنها إسحق؛ و(الوراء) في كلام العرب: ولد الولد»[4].

---

(١) معالم التنزيل (٤/ ١٨٨).

(٢) الآية (٦٩).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٣٠-٣٣١).

(٤) جامع البيان (١٢/ ٧٤).

قال القرطبي: «لما وُلِد لإبراهيم إسماعيلُ مِنْ هاجر؛ تمنّت سارة أن يكون لها ابن، وأَيِست لِكِبر سنّها، فبُشِّرت بولد يكون نبيًا ويلد نبيًا، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها»[1].

وقال ابن كثير: «﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحق؛ كما قال في آية (البقرة): ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[2]. ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد اللّه حق لا خُلْفَ فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل. وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد»[3].

وقال ابن الجوزي: «واختلفوا أين كانت قائمة على ثلاثة أقوال: أحدها: وراء الستر تسمع كلامهم، قاله وهب. والثاني: كانت قائمة تخدمهم، قاله مجاهد والسدي. والثالث: كانت قائمة تصلي، قاله محمد بن إسحق.

وفي قوله: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: أن الضحك ههنا بمعنى التعجب، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: أن معنى (ضحكت): حاضت. قال ابن الأنباري: أنكر الفراء وأبو عبيدة وأبو عبيد أن يكون (ضحكت) بمعنى حاضت، وعرفه غيرهم. قال الشاعر:

تضحكُ الضّبعُ لقتلى هذيلٍ ... وترى الذئبَ لها يستهِلُّ

قال بعض أهل اللغة: معناه: تحيض. والثالث: أنه الضحك المعروف، وهو قول الأكثرين. وفي سبب ضحكها ستة أقوال: أحدها: أنها ضحكت من شدة خوف إبراهيم من أضيافه، وقالت: من ماذا يخاف إبراهيم، وإنما هم ثلاثة، وهو في أهله وغلمانه؟! رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مقاتل. والثاني: أنها ضحكت من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٦٩).
(٢) البقرة: الآية (١٣٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٥-٢٦٦).

بشارة الملائكة لإبراهيم بالولد، وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا ووهب بن منبه؛ فعلى هذا؛ إنما ضحكت سرورًا بالبشارة، ويكون في الآية تقديم وتأخير، المعنى: وامرأته قائمة فبشرناها فضحكت، وهو اختيار ابن قتيبة.

والثالث: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، قاله قتادة. والرابع: ضحكت من إمساك الأضياف عن الأكل، وقالت: عجبًا لأضيافنا، نخدمهم بأنفسنا، وهم لا يأكلون طعامنا! قاله السدي. والخامس: ضحكت سرورًا بالأمن؛ لأنها خافت كخوف إبراهيم، قاله الفراء. والسادس: أنها كانت قالت لإبراهيم: اضمم إليك ابن أخيك لوطًا؛ فإنه سينزل العذاب بقومه، فلما جاءت الملائكة بعذابهم؛ ضحكت سرورًا بموافقتها للصواب، ذكره ابن الأنباري»[1].

وقال السمين الحلبي: «والجمهور على أن الضحك على بابه»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز خدمة النساء للرجال بضوابط شرعية

* عن سهل بن سعد ﷺ قال: «دعا أبو أسيد الساعدي رسولَ اللَّه ﷺ في عرسه، فكانت امرأته يومئذ خادمَهُم وهي العروس. قال سهل: تدرون ما سقت رسولَ اللَّه ﷺ؟ أَنْقَعَتْ له تمرات من الليل في تَوْرٍ، فلما أكل سقته إياه»[3].

★ **غريب الحديث:**

أنقعت: من النقيع، وهو شراب يتخذ من زبيب أو تمر ينقع في الماء من غير طبخ.

تور: بفتح التاء المثناة فوق، وهو إناء من صفر أو حجارة ونحوهما.

★ **فوائد الحديث:**

ترجم البخاري لهذا الحديث: باب قيام المرأة على الرجال في العرس،

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٠٣).

(٢) الدر المصون (٦/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٨)، والبخاري (١٠/ ٦٩/ ٥٥٩١)، ومسلم (٣/ ١٥٩٠/ ٢٠٠٦).

وخدمتهم بالنفس.

قال القرطبي: «قال علماؤنا: فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه في عرسها. وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه ويستخدمهن لهم. ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب، واللَّه أعلم»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٦٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بعلي: أي زوجي. وأصل البعل: مالك الأمر والقائم به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «حكى قولها في هذه الآية؛ كما حكى فعلها في الآية الأخرى؛ فإنها ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾، وفي (الذاريات): ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾(١)؛ كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب»(٢).

قال الطبري: «وقد اختلف أهل العربية في هذه الألف التي في ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾، فقال بعض نحويي البصرة: هذه ألف حقيقة، إذا وقفت قلت: يا ويلتاه، وهي مثل ألف النُّدبة، فلطفت من أن تكون في السكت، وجعلت بعدها الهاء لتكون أبين لها وأبعد في الصوت؛ وذلك لأن الألف إذا كانت بين حرفين كان لها صدى كنحو الصوت يكون في جوف الشيء فيتردّد فيه، فتكون أكثر وأبين. وقال غيره: هذه ألف الندبة، فإذا وقفت عليها فجائز، وإن وقفت على الهاء فجائز. وقال: ألا ترى أنهم قد وقفوا على قوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾(٣)، فحذفوا الواو وأثبتوها، وكذلك: ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾(٤) بالياء وغير الياء. قال: وهذا أقوى من ألف الندبة وهائها. والصواب من القول في ذلك عندي: أن هذه الألف ألف الندبة، والوقف عليها بالهاء وغير الهاء جائز في الكلام؛ لاستعمال العرب ذلك في كلامهم»(٥).

---

(١) الآية (٢٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٦).
(٣) الإسراء: الآية (١١).
(٤) الكهف: الآية (٦٤).
(٥) جامع البيان (١٢/ ٧٦-٧٧).

وقال الرازي: «القائل أن يقول: إنها تعجبت من قدرة اللَّه تعالى، والتعجب من قدرة اللَّه تعالى يوجب الكفر؛ بيان المقدمة الأولى من ثلاثة أوجه: أولها: قوله تعالى حكاية عنها في معرض التعجب: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾، وثانيها: قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، وثالثها: قول الملائكة لها: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. وأما بيان أن التعجب من قدرة اللَّه تعالى يوجب الكفر؛ فلأن هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة اللَّه تعالى، وذلك يوجب الكفر.

والجواب: أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة، لا بحسب القدرة؛ فإن الرجل المسلم لو أخبره مخبر صادق بأن اللَّه تعالى يقلب هذا الجبل ذهبًا إبريزًا؛ فلا شك أنه يتعجب نظرًا إلى أحوال العادة؛ لا لأجل أنه استنكر قدرة اللَّه تعالى على ذلك»[١].

وقال الألوسي: «ومقصدها كما قيل: استعظام نعمة اللَّه تعالى عليها في ضمن الاستعجاب العادي؛ لا استبعاد ذلك من حيث القدرة»[٢].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٢٩).

(٢) روح المعاني (١٢/ ١٠٠).

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول اللَّه -تعالى ذكره-: قالت الرسل لها: أتعجبين من أمر أَمَرَ اللَّه به أن يكون، وقضاءٍ قضاهُ اللَّه فيكِ وفي بعلِكِ؟وقوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ يقول: رحمة اللَّه وسعادته لكم أهل بيت إبراهيم. وجعلت الألف واللام خلفًا من الإضافة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ يقول: إن اللَّه محمود في تفضله عليكم بما تفضل به من النعم عليكم وعلى سائر خلقه، ﴿مَّجِيدٞ﴾ يقول: ذو مجد ومدح وثناء كريم؛ يقال في فعل منه: مجد الرجل يمجد مجادة: إذا صار كذلك. وإذا أردت أنك مدحته؛ قلت: مجّدته تمجيدًا»[(١)].

وقال ابن عطية الأندلسي: «وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته؛ لأنها خوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي ﷺ بأنهنّ من أهل بيته الذين أذهب اللَّه عنهم الرجس؛ بخلاف ما تذهب إليه الشيعة، وقد قاله أيضًا بعض أهل العلم، قالوا: أهل بيته: الذين حرموا الصدقة. والأول أقوى، وهو ظاهر جليّ من سورة (الأحزاب)؛ لأنه ناداهنّ بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾[(٢)]، ثم بقوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال الألوسي: «وخالف في ذلك الشيعة فقالوا: لا تدخل إلا إذا كانت قريب الزوج ومن نسبه؛ فإن المراد من البيت بيت النسب؛ لا بيت الطين والخشب، ودخول سارة رضي اللَّه تعالى عنها هنا لأنها بنت عمه؛ وكأنهم حملوا البيت على

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٧٧).
(٢) الأحزاب: الآية (٣٢).
(٣) الآية (٣٣).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ١٩١-١٩٢).

الشرف كما هو أحد معانيه، وبه فسر في قول العباس -رضي اللَّه تعالى عنه- يمدح النبي ﷺ:

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطف

ثم خصوا الشرف بالشرف النسبي، وإلا فالبيت بمعنى النسب مما لم يشع عند اللغويين، ولعل الذي دعاهم لذلك بغضهم لعائشة رضي اللَّه تعالى عنها، فراموا إخراجها من حكم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]»[2].

وقال القرطبي: «ودلّت الآية أيضًا على أن منتهى السلام: (وبركاته)؛ كما أخبر اللَّه عن صالحي عباده: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾. والبركة: النموّ والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة»[3].

قلت: مضى الكلام على ما يتعلق بأحكام السلام عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ الآية (٨٦) من سورة (النساء).

* * *

(١) الأحزاب: الآية (٣٣).

(٢) روح المعاني (١٢/ ١٠١-١٠٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٧١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الروع: الفزع. تقول: رَاعَهُ يَرُوعُهُ: إذا أفزعه. قال عنترة:

ما راعني إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: فلما ذهب عن إبراهيم الخوف الذي أوجسه في نفسه من رسلنا حين رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، وأمن أن يكون قصد في نفسه وأهله بسوء، وجاءته البشرى بإسحق؛ ظلّ يجادلنا في قوم لوط»[1].

وقال: «زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن معنى قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾: يكلّمنا، وقال: لأن إبراهيم لا يجادل الله؛ إنما يسأله ويطلب منه. وهذا من الكلام جهلٌ؛ لأن اللّه -تعالى ذكره- أخبرنا في كتابه أنه يجادل في قوم لوط، فقول القائل: إبراهيم لا يجادل -موهمًا بذلك أن قول من قال في تأويل قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾: يخاصمنا، أن إبراهيم كان يخاصم ربَّه- جهلٌ من الكلام؛ وإنما كان جدالُه الرسلَ على وجه المحاجّة لهم. ومعنى ذلك: وجاءته البشرى يجادل رسلنا، ولكنه لما عرف المراد من الكلام حذف (الرسل)»[2].

وقال الشنقيطي: «لم يبيّن هنا ما جادل به إبراهيم الملائكة في قوم لوط؛ ولكنه أشار إليه في (العنكبوت) بقوله: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾[3] الآية.

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٧٧). (٢) المصدر السابق (١٢/ ٧٨).

(٣) الآيتان (٣١و٣٢).

فحاصل جداله لهم أنه يقول: إن أهلكتم القرية وفيها أحد من المؤمنين؛ أهلكتم ذلك المؤمن بغير ذنب، فأجابوه عن هذا بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ الآية.

ونظير ذلك قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(1)]»[(2)].

قلت: جدال إبراهيم ﷺ لرسل الله في قوم لوط منبعث من الرأفة والرحمة التي أودعها الله في صدور أنبيائه لخلقه، وسعيهم في إنقاذ العباد من سخط الله وعذابه، وسياق القرآن يدل على أن الجدال كان في رد أو تأخير العذاب؛ فقد قال بعد هذه الآية: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[(3)]، وقد ذكر ذلك البقاعي في تفسيره. وقال الألوسي: «والمقصود من وصفه ﷺ بهذه الصفات المنبئة عن الشفقة ورقة القلب؛ بيان ما حمله على ما صدر عنه من المجادلة، وحمل الحلم على عدم العجلة، والتأني في الشيء مطلقًا، وجعل المقصود من الوصف بتلك الصفات بيان ما حمله على المجادلة وإيقاعها بعد أن تحقق ذهاب الروع ومجيء البشرى؛ لا يخفى حالُه»[(4)].

* * *

(١) الذاريات: الآيتان (٣٥و٣٦).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٣١).

(٣) هود: الآية (٧٦).

(٤) روح المعاني (١٢/ ١٠٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أوّاهٌ: الأوَّاهُ: الكثير التَّأَوُّه. والمعنى: الخاشع المتضرع الطائع، وكل كلام يدل على حزن يقال له: التأوه.

منيب: الإنابة: الرجوع إلى اللَّه بالتوبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: إن إبراهيم لبطيء الغضب، متذلل لربه، خاشع له، منقاد لأمره، منيب رجّاع إلى طاعته»[(١)].

وقد مضى الكلام على ما يتعلق بهذين الخلُقين الكريمين في تفسير الآية (١١٤) من سورة (التوبة).

* * *

(١) جامع البيان (١٢/ ٨٠).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾

★ **غريب الآية:**

مردود: مدفوع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قول رسله لإبراهيم: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾، وذلك قيلهم له حين جادلهم في قوم لوط، فقالوا: دع عنك الجدال في أمرهم، والخصومة فيه؛ فـ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ بعذابهم، وحُقّ عليهم كلمة العذاب، ومضى فيهم بهلاكهم القضاء، ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ يقول: وإن قوم لوط نازلٌ بهم عذاب من اللَّه غير مدفوع»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ بجدال ولا شفاعة؛ فهو واقع ما له من دافع.

فهل يعتبر بهذا من يتخذون لله أندادًا من أوليائه أو أوليائهم يزعمون أنهم يتصرفون في الكون كما يشاؤون، وأن قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾[2] هو لهؤلاء الأولياء في الدنيا، فلا يرد لهم طلبًا ولا شفاعة، ولا يريد ما لا يريدونه! يكذبون على اللَّه، ويحرّفون كتابه، وهم يدعون أنهم مسلمون مؤمنون بأن أفضل الخلق بعد محمد جده إبراهيم الخليل عليهما وآلهما الصلاة والسلام»[3].

قلت: وما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ من حالة المشركين وصفاتهم، وأندادهم وعقائدهم فيهم، وأنهم يشفعون لمن أرادوا، وأن الأمر بيدهم، لهم ما

(١) جامع البيان (١٢/ ٨٠).

(٢) الزمر: الآية (٣٤).

(٣) تفسير المنار (١٢/ ١٣٢).

يشاءون وما يشتهون؛ ما يزال معتقدو هذه الفتنة الكفرية الشركية قائمون ومنتشرون إلى اليوم، يجددون هذه الفتن، ويرتزقون بها، ويرفعون شعارات كاذبة، وكذلك دعاة التخريب من الملاحدة، والمخنثين، والشاذين، ودعاة الدعارة، وأكلة الرشوة، وأصحاب العصابات، أي قطاع الطرق، وكل أصحاب الموبقات على هذا المنهاج الفاسد، فإنهم يجددون عهود الشيطان من حين لآخر. اللهم عليك بهم، وجدد عليهم بأسك وعذابك، وأرح منهم أمة الإسلام، يا من لا تخفى عليك خافية، إنك أنت العزيز الحكيم.

وقال الشنقيطي: «هذا العذاب الذي صرح هنا بأنه آتٍ قومَ لوط لا محالة، وأنه لا مردّ له؛ بيّنه في مواضع متعددة؛ كقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[١]، وقوله في (الحجر): ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ﴾[٣] الآية، وقوله: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[٤]، وقوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾[٥]، إلى غير ذلك من الآيات»[٦].

قال القاسمي: «قال بعض المفسرين: لهذه الآيات ثمرات: وهي أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة، وهلاك العاصي نعمة؛ لأن البشرى قد فُسِّرت بولادة إسحق؛ كما في آخر الآية، وهي: ..﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ﴾[٧] إلخ، وفُسِّرت بهلاك قوم لوط.

ومنها: استحباب نزول المبشِّر على المبشَّر؛ لأن الملائكة أرسلهم اللّٰه بذلك.

ومنها: أنه يستحب للمبشَّر تلقّي ذلك بالطاعة؛ شكرًا لله تعالى على ما بُشّر به»[٨].

---

(١) هود: الآيتان (٨٢و٨٣).
(٢) الحجر: الآيتان (٧٤و٧٥).
(٣) الفرقان: الآية (٤٠).
(٤) الشعراء: الآيتان (١٧٢و١٧٣).
(٥) الذاريات: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٣٢).
(٧) الآية (٧١).
(٨) محاسن التأويل (٩/ ١٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سِيءَ بِهِمْ: أي حَلَّ بهم ما يسوؤهم.

ذرعًا: أي طاقة ووسعًا.

عصيب: أي شديد في الشر خاصة. وأصله من الشد؛ يقال: عصبت الشيء؛ أي: شددته. قال الشاعر:

وإنك إن لم ترض بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: ولما جاءت ملائكتُنا لوطًا؛ ساءه مجيئهم، وهو فعل من السَّوء، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ﴾ بمجيئهم ﴿ذَرْعًا﴾، يقول: وضاقت نفسه غمًّا بمجيئهم، وذلك أنه لم يكن يعلم أنهم رسل اللَّه في حال ما ساءه مجيئهم، وعلم من قومه ما هم عليه من إتيانهم الفاحشة، وخاف عليهم، فضاق من أجل ذلك بمجيئهم ذرعًا، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه، ولذلك قال: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾»[1].

وقال ابن كثير: «خشي إن لم يُضفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء»[2].

وقال الشنقيطي: «ذكر اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن لوطًا -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- لما جاءته رسل ربه من الملائكة؛ حصلت له بسبب مجيئهم مساءة عظيمة ضاق صدره بها، وأشار في مواضع متعددة إلى أن سبب مساءته وكونه ضاق بهم ذرعًا وقال: هذا يوم عصيب؛ أنه ظن أنهم ضيوف من بني

(١) جامع البيان (١٢/ ٨١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٧).

آدم كما ظنه إبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-، وظن أن قومه ينتهكون حرمة ضيوفه فيفعلون بهم فاحشة اللواط؛ لأنهم إن علموا بقدوم ضيف فرحوا واستبشروا به ليفعلوا به الفاحشة المذكورة. فمن ذلك قوله هنا: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ۝٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[1]، وقوله في (الحجر): ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) هود: الآيتان (٧٨و٧٩).

(٢) الحجر: الآيات (٦٧-٧٢).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٢-٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾

★ غريب الآية:

يهرعون: أي يساقون سَوْقًا بعنف. والإهراع: السوق الحثيث. قال مهلهل:

فجاؤوا يهرعون وهم أسارى   تقودهم على رغم الأنوف

تخزون: الخزي: الهوان والذل. قال حسان:

فأخزاك رَبّي يا عُتَيْبُ بن مالِك   وَلَقَّاكَ قبل الموتِ إِحْدَى الصّواعِقِ

رشيد: عاقل مهتد. والرشاد: الهداية والاستقامة. قال دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزيّة إن غَوَتْ   غَويتُ وإن ترشُدْ غزيَّةُ أَرْشُدِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: وجاء لوطًا قومه يستحثون إليه يَرْعَدون مع سرعة المشي ممّا بهم من طلب الفاحشة؛ يقال: أُهْرِع الرجل من برد أو غضب أو حمّى: إذا أُرعد، وهو مُهْرِع: إذا كان مُعْجَلًا حريصًا؛ كما قال الراجز:

بِمُعْجَلاتٍ نَحْوَهُ مَهارِعِ

ومنه قول مهلهل:

فجاؤوا يُهْرَعون وهم أُسارى   نقودُهُمُ على رَغْمِ الأُنوفِ»[1].

وقال الألوسي: «والمراد من ذكر عملهم السيئات من قبل: بيان أنهم اعتادوا المنكر، فلم يستحيوا؛ فلذلك أسرعوا لطلب الفاحشة من ضيوفه، مظهرين غير

(١) جامع البيان (١٢/ ٨٣).

مكترثين»(١).

وقال الشنقيطي: «اختلف العلماء في المراد بقول لوط -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾؛ في الموضعين على أقوال:

أحدها: أنه أراد المدافعة عن ضيفه فقط، ولم يرد إمضاء ما قال. وبهذا قال عكرمة وأبو عبيدة.

الثاني: أن المراد بناته لصلبه، وأن المعنى: دعوا فاحشة اللواط وأزوّجكم بناتي.

وعلى هذا فتزويج الكافر المسلمة كان جائزًا في شرعه؛ كما كانت بنات نبينا ﷺ تحت الكفار في أول الإسلام كما هو معروف. وقد أرسلت زينب بنت رسول اللَّه ﷺ عقدها الذي زفتها به أمها خديجة بنت خويلد ﵂ إلى زوجها أبي العاص بن الربيع؛ أرسلته إليه في فداء زوجها أبي العاص المذكور لما أسره المسلمون كافرًا يوم بدر، والقصة مشهورة، وقد عقدها الشيخ أحمد البدوي الشنقيطي في مغازيه بقوله في غزوة بدر:

وابن الربيع صهر هادي الملة ... إذ في فداه زينب أرسلت
بعقدها الذي به أهدتها ... له خديجة وزفتها
سرحه بعقدها وعهدا ... إليه أن يردها له غدا

إلخ.

القول الثالث: أن المراد بالبنات: جميع نساء قومه؛ لأن نبي القوم أب ديني لهم؛ كما يدل له قوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾(٢)، وفي قراءة أبي بن كعب: (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ)، وروي نحوها عن ابن عباس. وبهذا القول قال كثير من العلماء.

وهذا القول تقربه قرينة وتبعده أخرى. أما القرينة التي تقربه؛ فهي أن بنات لوط لا تسع جميع رجال قومه كما هو ظاهر، فإذا زوجهن لرجال بقدر عددهن؛ بقي عامة

---

(١) روح المعاني (١٢/ ١٠٦).
(٢) الأحزاب: الآية (٦).

رجال قومه لا أزواج لهم. فيتعين أن المراد عموم نساء قومه؛ ويدل للعموم قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾[2]، ونحو ذلك من الآيات.

وأما القرينة التي تبعده؛ فهي أن النبي ليس أبًا للكافرات؛ بل أبوة الأنبياء الدينية للمؤمنين دون الكافرين؛ كما يدل عليه قوله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية.

وقد صرح تعالى في (الذاريات): بأن قوم لوط ليس فيهم مسلم إلا أهل بيت واحد، وهم أهل بيت لوط، وذلك في قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]»[4].

وقال ابن عاشور: «كيف كانت صفة هذه التخلية بين القوم وبين البنات وهم عدد كثير، فإن كان تزويجًا لم يكفين القوم، وإن كان غير تزويج فما هو؟

والجواب عن الأول: أنه يجوز أن يكون عدد القوم الذين جاؤوه بقدر عدد بناته، أو أن يكون مع بناته حتى من قومه. وعن الثاني: أنه يجوز أن يكون تصرف لوط عليه السلام في بناته بوصف الأبوة، ويجوز أن يكون تصرفًا بوصف النبوءة بالوحي للمصلحة أن يكون من شرع لوط عليه السلام إباحة تمليك الأب بناته إذا شاء، فإن كان أولئك الرهط شركاء في ملك بناته؛ كان استمتاع كل واحد بكل واحدة منهنّ حلالًا في شريعته على نحو ما كان البغاء من بقايا الجاهلية في صدر الإسلام قبل أن ينسخ.

وأما لحاق النسب في أولاد من تحمل منهنّ؛ فيجوز أن يكون الولد لاحقًا بالذي تُليطه أمه به من الرجال الذين دخلوا عليها؛ كما كان الأمر في البغايا في صدر الإسلام، ويجوز أن لا يلحق الأولاد بآباء، فيكونوا لاحقين بأمّهاتهم مثل ابن الزنى وولد اللّعان، ويكون هذا التحليل مباحًا ارتكابًا لأخف الضررين، وهو ممّا يشرع شرعًا مؤقتًا مثل ما شرع نكاح المتعة في أوّل الإسلام على القول بأنه صار محرّمًا، وهو قول الجمهور.

---

(١) الشعراء: الآيتان (١٦٥و١٦٦).

(٢) الأعراف: الآية (٨١).

(٣) الذاريات: الآية (٣٦).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٣٤-٣٦).

وقد اشتغل المفسرون عن تحرير هذا بمسألة تزويج المؤمنات بالكفّار، وهو فضول»[١].

قلت: وما ذكره ابن عاشور يعوزه النقل عمن لا ينطق عن الهوى.

وقال البقاعي: «ولما كان في مقام المدافعة باللين؛ قال إرخاء للعنان في تسليم طهارة ما يفعلونه على زعمهم، مشيرًا بلطافة إلى خبث ما يريدونه: ﴿أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، وليس المراد من هذا حقيقته؛ بل تنبيه القوم على أنهم لا يصلون إليهم إلا إن وصلوا إلى بناته؛ لأن الخزي فيهما على حد سواء أو في الضيف أعظم، ومثل هذا أن يشفع الإنسان فيمن يضرب، فإذا عظم الأمر ألقى نفسه عليه، فصورته أنه فعله ليقيه الضرب بنفسه، ومعناه احترامه باحترامه؛ وعلى هذا يدل قوله في الآية الأخرى: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[٢]»[٣].

قال ابن القيم: «قول لوط لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يجمع أنواعًا من الاستعطاف: أحدها: خطابهم بخطاب الناصح المشفق بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، ولم يقل: يا هؤلاء.

الثاني: عرضه بناته عليهم بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾. الثالث: تنجيز ذلك بالإشارة بلفظ الحضور. الرابع: ترغيبه فيهن لطهارتهن وطيبهن. الخامس: تذكيرهم بالله بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾. السادس: المطالبة بحفظ الذمام وترك الأذى بقوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾. السابع: التوبيخ الشديد بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾»[٤].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٢٧-١٢٨).

(٢) الحجر: الآية (٧١).

(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٤٠-٣٤١).

(٤) بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٣-٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهنّ، ولا نشتهيهنّ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾؛ أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأيّ حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟»[1].

وقال الرازي: «فيه وجوه: الأول: ما لنا في بناتك من حاجة ولا شهوة، والتقدير: أن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حقّ؛ فلهذا السبب جعل نفي الحق كناية عن نفي الحاجة.

الثاني: أن نجري اللفظ على ظاهره، فنقول: معناه: إنهنّ لسن لنا بأزواج، ولا حقّ لنا فيهن ألبتة، ولا يميل أيضًا طبعنا إليهنّ، فكيف قيامهن مقام العمل الذي نريده، وهو إشارة إلى العمل الخبيث.

الثالث: ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ لأنك دعوتنا إلى نكاحهنّ بشرط الإيمان، ونحن لا نجيبك إلى ذلك، فلا يكون لنا فيهنّ حقّ»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فإنهن محرمات علينا في دينك، أو يعنون أن الحق عندهم نكاح الذكور مستشهدين بعلمه به تهكمًا، أو الحق هنا الحاجة والأرب، والمعنى: لقد علمت من قبل أنه ليس لنا في بناتك من حاجة أو رغبة في تزوجهن فتصرفنا بعرضهن علينا عما نريده، أو لقد علمت الذي لنا في نسائنا اللواتي تسميهن بناتك من حق الاستمتاع وما نحن عليه معهن، فلا معنى لعرضك إياهن علينا لصرفنا عما نريده، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من الاستمتاع بالذكران، وأننا لا نؤثر عليه شيئًا؛ أي: تعرف ذلك حق المعرفة لا ترتاب فيه، فلم تحاول صدنا عنه؟»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٨).

(٢) التفسير الكبير (١٨/ ٣٥).

(٣) تفسير المنار (١٢/ ١٣٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾

⋆ غريب الآية:

ركن: الركن: معتمد البناء. وهو كناية عمن يستند إليه.

شديد: قوي ومتين. وأصل الشّدّة: العَقْدُ القويُّ. وشددتُ الشيءَ: قَوَّيْتُ عَقْدَهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «قال لوط لقومه حين أبوا إلا المضيّ لما قد جاؤوا له من طلب الفاحشة، وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ بأنصار تنصرني عليكم وأعوان تعينني، ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: أو أنضمّ إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم؛ لحلت بينكم وبين ما جئتم تريدونه منّي في أضيافي. وحذف جواب (لو) لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم»[١].

وقال الرازي: «فيه مسألتان:

المسألة الأولى: جواب (لو) محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، والتقدير: لمنعتكم ولبالغت في دفعكم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[٣]، قال الواحدي: وحذف الجواب ههنا لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من المنع والدفع.

المسألة الثانية: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: لو أنّ لي ما أتقوّى به عليكم. وتسمية موجب القوة بالقوة جائز؛ قال اللّٰه تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[٤]، والمراد السلاح. وقال آخرون: القدرة على دفعهم. وقوله: ﴿أَوْ

(١) جامع البيان (١٢/ ٨٦). (٢) الرعد: الآية (٣١).
(٣) الأنعام: الآية (٢٧).
(٤) الأنفال: الآية (٦٠).

ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾؛ المراد منه الموضع الحصين المنيع؛ تشبيهًا له بالركن الشديد من الجبل.

فإن قيل: ما الوجه ههنا في عطف الفعل على الاسم؟

قلنا: قال صاحب «الكشاف»: قرئ: (أَوْ آوِيَ) بالنصب بإضمار (أَنْ)؛ كأنه قيل: لو أن لي بكم قوة أو آويًا.

واعلم أن قوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾؛ لا بدّ من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة، وفيه وجوه:

الأول: المراد بقوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾: كونه بنفسه قادرًا على الدفع، وكونه متمكّنًا إما بنفسه، وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم. والمراد بقوله: ﴿أَوۡ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته. الثالث: أنه لما شاهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب؛ تمنى حصول قوة قوية على الدفع، ثم استدرك على نفسه وقال: بل الأولى أن آوي إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية اللّه تعالى، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَوۡ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ كلام منفصل عما قبله، ولا تعلق له به، وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**رحم اللّه أخي لوطًا؛ كان يأوي إلى ركن شديد**»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن لوطًا عليه السلام كان يأوي إلى ركن شديد

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، قال: ولو لبثتُ في السجن ما لبث ثم جاءني الرسول؛ أجبتُ**». ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾[2]. قال: «**ورحمة اللّه على لوط إنْ كان ليأوي إلى ركن شديد، إذ قال**: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾، **فما بعث اللّه من**

---

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٣٥-٣٦).

(٢) يوسف: الآية (٥٠).

بعده نبيًّا إلا في ذِرْوَةٍ من قومه»[1].

★ **غريب الحديث:**

في ذروة من قومه: أي: في أعلى نسب منهم.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يرحم اللَّه لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبتُ الداعي، ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾**[2]»[3].

★ **فوائد الحديثين:**

قد ذكر بعض المفسرين وشراح الحديث أن لوطًا عليه السلام أنساه ضيق صدره من قومه اللجأ إلى اللَّه تعالى الذي هو أشد الأركان، فانتقد ﷺ هذا القول، وترحم عليه منه. وهذا قول بعيد مردود؛ قال محمد بن خليفة الأبي: «لا يخفى عليك إيحاش هذا اللفظ مع عدم صحة معناه؛ إذ رسول اللَّه ﷺ لم ينتقد، ولوط عليه السلام لم ينس اللجأ إلى اللَّه تعالى في القضية؛ وإنما قال ذلك تطييبًا لنفوس الأضياف وإبداء العذر لهم بحسب ما ألف في العادة من أن الدفع إنما يكون بقوة أو عشيرة، وهذا في الحقيقة محمدة وكرم أخلاق يستحق صاحبها الحمد. فقوله ﷺ: «يرحم اللَّه لوطًا» ثناء؛ لا نقد، وهو جارٍ على عرف العرب في خطابها حيث يقولون: أيّد اللَّه الملك وأصلح الأمير. وهو نظير ما لو قيل: يرحم اللَّه خالد بن الوليد لقد كان يبلي في العدو. والمستند في هذا الأصل آية: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[4]؛ لأنه ﷺ إنما أذن لهم رفقًا بهم، واستئلافًا لهم، وكرم أخلاق منه ﷺ، فقيل: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾؛ أي: لم شققت على نفسك، وتكلفت الإذن؛ من باب ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[5]. ولا تلتفت إلى عجمة الزمخشري حيث جعل ما في الآية

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٢و٣٨٤)، والترمذي (٥/ ٢٧٣-٢٧٤/ ٣١١٦) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن»، والبخاري في الأدب المفرد (٦٠٥)، والحاكم (٢/ ٣٤٦-٣٤٧/ ٣٣٢٥) وليس فيه موضع الشاهد، وصححه على شرط مسلم.

(٢) البقرة: الآية (٢٦٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٦)، والبخاري (٨/ ٤٦٦/ ٤٦٩٤) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٣٣/ ١٥١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥/ ٤٠٢٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٨/ ١١٢٥٣).

(٤) التوبة: الآية (٤٣).

(٥) طه: الآيتان (١و٢).

كناية عن الجناية؛ بل هو تلطف في الخطاب على طريقة العرب؛ كما ذكرنا»[1].

وقال السنوسي تعليقًا على ما قاله الأبي: «جزاه اللَّه خيرًا؛ لقد قام بحق المقام كما يجب. ويدل على ما ذكره أن السياق إنما يدل على أن المقصود إظهار كمال هؤلاء السادة، ورزانة عقولهم، فمعنى قوله: «**لقد كان يأوي إلى ركن شديد**» أن لوطًا ﵇ كان مطمئن القلب بالاستناد إلى اللَّه تعالى، غير ملتفت عنه أصلًا؛ وإنما قال ما قال بلسانه إظهارًا للعذر عند أضيافه. وقد وكد النبي ﷺ ثبوت لجإ لوط ﵇ إلى اللَّه تعالى بـ(اللام) المؤذنة بالقسم، وبـ(قد) المؤذنة بالتحقيق، وعبر بالمضارع، وهو «**يأوي**»؛ للتنبيه على استقرار ذلك منه، وعدم مفارقته إياه؛ فالكلام مسوق لدفع توهم إواء لوط -عليه الصلاة السلام- لغير اللَّه تعالى؛ كما أن قوله قبله: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» مسوق لتنزيه ساحة إبراهيم ﵇ من الشكوك، وأن ما صدر منه من سؤاله تعالى فالمقصود به شيء آخر»[2].

وقال أبو محمد بن حزم ﵀ في معرض دحض حجج القائلين بأن رسل اللَّه يعصون اللَّه في جميع الكبائر والصغائر عمدًا حاشى الكذب في التبليغ فقط: «وذكروا قول اللَّه تعالى في لوط ﵇ أنه قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**رحم اللَّه لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»، فظنوا أن هذا القول منه ﵇ إنكار على لوط ﵇ أيضًا..

وهذا لا حجة لهم فيه؛ أما قوله ﵇: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾؛ فليس مخالفًا لقول رسول اللَّه ﷺ: «**رحم اللَّه لوطًا؛ لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»؛ بل كلا القولين منهما ﵉ حق متفق عليه؛ لأن لوطًا ﵇ إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين، وما جهل قط لوط ﵇ أنه يأوي من ربه تعالى إلى أمنع قوة وأشد ركن، ولا جناح على لوط ﵇ في طلب قوة من الناس؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[3]؛ فهذا الذي طلب لوط ﵇، وقد طلب رسول اللَّه ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعة حتى يبلغ كلام ربه تعالى، فكيف

---

(١) إكمال إكمال المعلم (١/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٢) مكمل إكمال الإكمال (١/ ٤٣٧).

(٣) البقرة: الآية (٢٥١).

ينكر على لوط أمرًا هو فعله ﷺ؟! تالله ما أنكر ذلك رسول الله ﷺ؛ وإنما أخبر ﷺ أن لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد، يعني من نصر الله له بالملائكة، ولم يكن لوط علم بذلك. ومن اعتقد أن لوطًا كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد؛ فقد كفر؛ إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر. وهذا أيضًا ظن سخيف؛ إذ من الممتنع أن يظن برب أراه المعجزات وهو دائبًا يدعو إليه هذا الظن.

وأما قوله ﷺ: ﴿هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾؛ فإنما أراد التزويج والوطء في المكان المباح، فصح ما قلنا؛ إذ من المحال أن يدعوهم إلى منكر وهو ينهاهم عن المنكر»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في (اللّو)

* ذكر ابن عباس المتلاعنَين، فقال عبد الله بن شداد: أهي التي قال رسول الله ﷺ: «**لو كنت راجمًا امرأة من غير بينة**»؟ قال: لا، تلك امرأةٌ أعلنَت[٢].

* عن عطاء قال: أعتم النبي ﷺ بالعشاء، فخرج عمر فقال: الصلاةَ يا رسول الله، رقد النساء والصبيان. فخرج ورأسه يقطر يقول: «**لولا أن أشق على أمتي -أو على الناس. وقال سفيان أيضًا: على أمتي- لأمرتهم بالصلاة هذه الساعة**». وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: أخّر النبي ﷺ هذه الصلاة، فجاء عمر فقال: يا رسول الله! رقد النساء والولدان، فخرج وهو يمسح الماء عن شقه يقول: «**إنه للوقت، لولا أن أشق على أمتي..**». وقال عمرو: حدثنا عطاء ليس فيه ابن عباس، أما عمرو فقال: «**رأسه يقطر**»، وقال ابن جريج: «**يمسح الماء عن شقه**»، وقال عمرو: «**لولا أن أشق على أمتي**»، وقال ابن جريج: «**إنه للوقت، لولا أن أشق على أمتي**». وقال إبراهيم بن المنذر: حدثنا معنٌ: حدثني محمد بن مسلم عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس عن النبي ﷺ[٣].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٥-٣٣٦)، والبخاري (١٣/ ٢٧٨/ ٧٢٣٨) واللفظ له، ومسلم (٢/ ١١٣٤/ ١٤٩٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٢١-٣٢٢/ ٧٣٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٥/ ٢٥٥٩).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢١)، والبخاري (١٣/ ٢٧٨/ ٧٢٣٩) واللفظ له، ومسلم (١/ ٤٤٤/ ٦٤٢)، والنسائي (١/ ٢٨٧-٢٨٨/ ٥٣١).

★ **غريب الحديث:**

أعتم: أعتم الشيءَ وعتمه: إذا أخّره. وعتمت الحاجة وأعتمت: إذا تأخرت.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك**»[١].

* عن أنس رضي الله عنه قال: واصلَ النبي ﷺ آخرَ الشهر، وواصل أناس من الناس، فبلغ النبيَّ ﷺ فقال: «**لو مدّ بي الشهرُ لواصلت وصالًا يدَعُ المتعمقون تعمقهم، إني لست مثلكم، إني أظل يطعمني ربي ويسقيني**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

المتعمقون: المتعمق: المبالغ في الأمر المتشدد فيه، الذي يطلب أقصى غايته.

واصل: صوم الوصال: هو أن يصل صوم النهار بإمساك الليل مع صوم الذي بعده من غير أن يطعم شيئًا.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول اللَّه ﷺ عن الوصال، قالوا: فإنك تواصل. قال: «**أيكم مثلي؟ إني أَبِيتُ يطعمني ربي ويسقين**». فلما أبوا أن ينتهوا؛ واصل بهم يومًا ثم يومًا، ثم رأوا الهلال فقال: «**لو تأخر لزدتكم**» كالمنكِّل لهم[٣].

★ **غريب الحديث:**

المنكِّل: نكَّل به تنكيلًا ونكَل به: إذا جعله عبرة لغيره. والنكال: العقوبة التي تُنكل الناس عن فعل ما جعلت له جزاءً.

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت النبي ﷺ عن الجدر؛ أمن البيت هو؟ قال:

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٠)، والبخاري ر(١٣/ ٢٧٨/ ٧٢٤٠) واللفظ له، ومسلم (١/ ٢٢٠/ ٢٥٢)، وأبو داود (١/ ٤٠/ ٤٦)، والنسائي (١/ ٢٨٨/ ٥٣٣)، وفي الكبرى (٢/ ١٩٨/ ٣٠٤٦)، وابن ماجه (١/ ١٠٥/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠٠)، والبخاري (١٣/ ٢٧٨-٢٧٩/ ٧٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٧٦/ ١١٠٤[٦٠])، والترمذي (٣/ ١٤٨/ ٧٧٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨١)، والبخاري (١٣/ ٢٧٩/ ٧٢٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٧٤/ ١١٠٣[٥٧])، والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٤٢/ ٣٢٦٤).

«نعم». قلت: فما بالهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «إن قومك قصرت بهم النفقة». قلت: فما شأن بابه مرتفعًا؟ قال: «فعل ذاك قومك؛ ليدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن قومك حديث عهدٍ بالجاهلية فأخاف أن تُنكر قلوبهم أن أُدخل الجدرَ في البيت وأن ألصق بابه في الأرض»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا -أو شِعبًا-؛ لسلكتُ وادي الأنصار، أو شِعب الأنصار»[٢].

* عن عبد اللَّه بن زيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا أو شعبًا؛ لسلكت وادي الأنصار وشعبها»[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ. احرص على ما ينفعك، واستعن باللَّه، ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا؛ ولكن قل: قَدَرُ اللهِ وما شاء فعل؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»[٤].

★ فوائد الأحاديث:

قال القاضي عياض: «قوله: «إن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت، ولكن قل: قدر اللَّه وما شاء اللَّه فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»[٥]: قال بعض أهل العلم: معنى هذا الحديث والنهي عن قول هذا؛ إنما هو لمن قاله معتقدًا ذلك حتمًا؛ فإنه لو فعل ذلك لم يصبه ذلك قطعًا، فأما مَنْ ردّ ذلك إلى مشيئة اللَّه، وأنه

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٩)، والبخاري (١٣/ ٢٧٩/ ٧٢٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٩٦٨/ ١٣٣٣)، والترمذي (٣/ ٢٢٤-٢٢٥/ ٨٧٥)، والنسائي (٥/ ٢٣٧/ ٢٩٠٣) بألفاظ مختلفة.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٩)، والبخاري (١٣/ ٢٧٩/ ٧٢٤٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٨٦/ ٨٣٢٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢)، والبخاري (١٣/ ٢٧٩/ ٧٢٤٥)، ومسلم (٢/ ٧٣٨و٧٣٩/ ١٠٦١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٢/ ٢٦٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٩/ ١٠٤٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٥/ ٤١٦٨).

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٢/ ٢٦٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٩/ ١٠٤٥٧)، وابن ماجه (١/ ٣١/ ٧٩).

لن يصيبه -فعل ذلك أو لم يفعله- إلا ما شاء اللَّه وقدره؛ فليس من هذا.

واستدل بما ورد من قول النبي ﷺ وأصحابه في هذا، مثل قول أبي بكر في الغار: «**لو أنّ أحدهم رفع رأسه لرآنا**»[1]، وهذا لا حجة له فيه عندي؛ لأنه إنما أخبر عما يستقبل، وليس فيه دعوى لرد قدر بقدر، وكذلك جميع ما أدخل البخاري في باب ما يجوز من اللو، مثل قوله: «**لولا حدثان قومك بالكفر؛ لأتممت البيت على قواعد إبراهيم**»، و«**ولو كنت راجمًا أحدًا بغير بينة لرجمت هذه**»، و«**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك**»، وشبه هذا كله مما يستقبل مما لا اعتراض فيه على قدر، ولا كراهة في قوله جملة؛ لأنه إنما أخبر عما يعتقد أنه كان يفعله لولا المانع له، وما في قدرته فعله، وما انقضى وذهب ليس في القدرة ولا في الإمكان فعله بعد.

وقد تكلمنا قبل على مثل هذا بأشبع من هذا الكلام، والذي عندي في هذا الحديث المتقدم أنّ النهي فيه على وجهه عمومًا، لكن على طريق الندب والتنزيه؛ ويدل عليه قوله: «**فإنّ (لو) تفتح عمل الشيطان**» أي: تلقي في القلب معارضة القدر، وتشوش به تشويش الشيطان»[2].

قال أبو العباس القرطبي: «إن الذي يتعين بعد وقوع المقدور التسليمُ لأمر اللَّه، والرضا بما قدره اللَّه تعالى، والإعراض عن الالتفات لما مضى وفات. فإن افتكر فيما فاته من ذلك وقال: لو أني فعلتُ كذا لكان كذا؛ جاءته وساوس الشيطان، ولا تزال به حتى تفضي به إلى الخسران؛ لتعارض توهُّم التدبير سابق المقادير، وهذا هو عمل الشيطان الذي نهى عنه النبي ﷺ بقوله: «**فلا تقل: لو؛ فإنّ (لو) تفتح عمل الشيطان**». ولا يُفهم من هذا: أنّه لا يجوز النطق بـ(لو) مطلقًا؛ إذ قد نطق بها النبي ﷺ فقال: «**لو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لم أسق الهدي، ولجعلتُها عمرة**»[3]، و«**لو كنت راجمًا أحدًا بغير بينة لرجمتُ هذه**»، وقال أبو بكر ﷺ: «لو

---

(١) أخرجه من حديث أبي بكر الصديق ﷺ: أحمد (١/ ٤)، والبخاري (٧/ ١٠/ ٣٦٥٣)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤/ ٢٣٨١)، والترمذي (٥/ ٢٦٠/ ٣٠٩٦).

(٢) إكمال المعلم (٨/ ١٥٧-١٥٨).

(٣) أخرجه من حديث جابر بن عبد اللَّه ﷺ: أحمد (٣/ ٣٠٥)، والبخاري (٣/ ٦٤٢-٦٤٣/ ١٦٥١)، ومسلم (٢/ ٨٨٣-٨٨٤/ ١٢١٦)، وأبو داود (٢/ ٣٨٦-٣٨٧/ ١٧٨٩).

أن أحدهم نظر إلى رجليه لرآنا»، ومثله كثير؛ لأنّ محل النهي عن إطلاقها إنما هو فيما إذا أطلقت في معارضة القدر، أو مع اعتقاد أن ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور، فأمّا لو أخبر بالمانع على جهة أن تتعلق به فائدة في المستقبل؛ فلا يختلف في جواز إطلاقه؛ إذ ليس في ذلك فتحٌ لعمل الشيطان، ولا شيءٌ يفضي إلى ممنوع ولا حرام، والله تعالى أعلم»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في حديث «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله..»** الحديث: «فتضمن هذا الحديث الشريف أصولًا عظيمةً من أصول الإيمان.. منها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرصُ هو بذل الجهد واستفراغُ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريصُ كان حرصه محمودًا، وكمالُه كلّه في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصًا، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به. فإن حرص على ما لا ينفعه، أو فَعَلَ ما ينفعه بغير حرص؛ فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك؛ فالخير كله في الحرص على ما ينفع. ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه؛ أَمَرَهُ أن يستعين به؛ ليجتمع له مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فإنّ حرصه على ما ينفعه عبادةٌ لله، ولا تتم إلا بمعونته، فأمرَه بأن يعبده وأن يستعين به.

ثم قال: «**ولا تعجز**»؛ فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه، وينافي استعانته بالله، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه. فإن فاته ما لم يقدَّر له؛ فله حالتان:

حالة عجز، وهي مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى (لو)، ولا فائدة في (لو) هنا؛ بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح.

وأَمَرَهُ بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظتُه وأنه لو قُدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبقَ له ههنا أنفعُ من شهود القدر ومشيئةِ الرب النافذة التي توجب وجودَ المقدور، وإذا انتفت امتنع وجودُه، فلهذا قال: «**فإن غلبك أمرٌ**؛

---

(١) المفهم (٦/ ٦٨٣).

فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل» فأرشدَهُ إلى ما ينفعه في الحالتين؛ حالةِ حصول مطلوبه، وحالةِ فواته. فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبدُ أبدًا، بل هو أشدُّ شيءٍ إليه ضرورةً، وهو يتضمن إثباتَ القدر والكَسْبِ والاختيار والقيامِ والعبوديةِ ظاهرًا وباطنًا في حالتي حصول المطلوب وعدمِهِ، وبالله التوفيق»[1].

قال الشيخ العثيمين: «(لو) تستعمل على عدة أوجه:

الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرّم؛ قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[2] في غزوة أُحُد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أُبيّ في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلًا؛ اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ، وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا؛ ما قتلوا، فرأيُنا خير من شرع محمد، وهذا محرم، وقد يصل إلى الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[3] أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا؛ فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسّر، وهذا محرم أيضًا؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه؛ لأن الندم يكسب النفس حزنًا وانقباضًا، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط؛ قال ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان». مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئًا يظن أن فيه ربحًا فخسر، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة؛ فهذا ندم وتحسّر، ويقع كثيرًا، وقد نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية؛ كقول المشركين: ﴿لَوْ

---

(١) شفاء العليل (١/ ٥٨-٥٩).

(٢) آل عمران: الآية (١٦٨).

(٣) آل عمران: الآية (١٥٦).

شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾[1]، وقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾[2]، وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب المتمنى: إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشرّ، وفي الحديث عن النبي ﷺ في قصة النفر الأربعة: قال أحدهم: «**لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان**»[3] فهذا تمنى خيرًا، وقال الثاني: «**لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان**» فهذا تمنى شرًّا، فقال النبي ﷺ في الأول: «**فهو بنيته، فأجرهما سواء**»، وقال في الثاني: «**فهو بنيته، فوزرهما سواء**».

السادس: أن تستعمل في الخبر المحض، وهذا جائز، مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ: «**لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ؛ ما سقت الهدي ولأحللت معكم**»؛ فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأحل، وهذا هو الظاهر لي. وبعضهم قال: إنه من باب التمني، كأنه قال: ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي.

لكن الظاهر: أنه خبر لما رأى من أصحابه، والنبي ﷺ لا يتمنى شيئًا قدر اللَّه خلافه»[4].

قال ابن القيم: «نهيه ﷺ عن قول القائل بعد فوات الأمر: لو أني فعلت كذا وكذا، وقال: «**إن (لو) تفتح عمل الشيطان**»، وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة، وهو أن يقول: «**قدر اللَّه وما شاء فعل**»؛ وذلك لأن قوله: لو كنت فعلت كذا وكذا لم يفتني ما فاتني، أو لم أقع فيما وقعت فيه؛ كلامٌ لا يجدي عليه فائدة ألبتة؛ فإنه غير مستقبِل لما استدبر من أمره، وغيرُ مستقيلٍ عثرتَهُ بـ(لو)، وفي ضمن (لو) ادعاء أن الأمر لو كان كما قدّره في نفسه لكان غيرَ ما قضاه اللَّه وقدّره وشاءه، فإنّ ما وقع مما يتمنى خلافَهُ إنما وقع بقضاء اللَّه وقدره ومشيئته، فإذا قال: لو أني فعلت كذا لكان خلافَ ما وقع؛ فهو محال؛ إذ خلاف المقدَّر المقضيّ محال، فقد تضمن كلامُهُ كذبًا وجهلًا ومحالًا، وإن سلم من التكذيب بالقدر؛ لم يسلم من معارضته بقوله: لو أني فعلت كذا لدفعتُ ما قدر اللهُ عليّ. فإن قيل: ليس في هذا ردٌّ

---

(١) الأنعام: الآية (١٤٨).	(٢) الزخرف: الآية (٢٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي (٤/ ٤٨٧/ ٢٣٢٥) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٨).

(٤) مجموع رسائل وفتاوى الشيخ العثيمين (١٠/ ٩٤٨-٩٥٠).

للقدر ولا جحدٌ له؛ إذ تلك الأسباب التي تمناها أيضًا من القدر، فهو يقول: لو وقفت لهذا القدر؛ لاندفع به عني ذلك القدر؛ فإن القدر يُدفع بعضُهُ ببعض كما يُدفع قدر المرض بالدواء، وقدر الذنوب بالتوبة، وقدر العدو بالجهاد، فكلاهما من القدر. قيل: هذا حق، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه، وأما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر؛ فهو أولى به من قوله: لو كنتُ فعلته؛ بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف أثر ما وقع، ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه؛ فإنه عجز محض، والله يلوم على العجز، ويحب الكَيْس ويأمر به، والكيس: هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان؛ فإنه إذا عجز عما ينفعه، وصار إلى الأماني الباطلة بقوله: لو كان كذا وكذا، ولو فعلت كذا؛ يفتح عليه عمل الشيطان؛ فإن بابه العجز والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاح كل شر، ويصدر عنهما الهم والحزن، والجبن والبخل، وضلع الدَّين وغلبة الرجال، فمصدرها كلها عن العجز والكسل، وعنوانها (لو)، فلذلك قال النبي ﷺ: «**فإن (لو) تفتح عمل الشيطان**»، فالمتمني من أعجز الناس وأفلسهم؛ فإن التمني رأس أموال المفاليس، والعجز مفتاح كل شر»[1].

* * *

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٥٦-٣٥٨).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

★ غريب الآية:

قطع: القطعة العظيمة تمضي من الليل. قال الشاعر:

افتحي البابَ فانظري في النجوم كم علينا من قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ

يلتَفِتْ: التفَتَ: لَوَى عنقه إلى الخلف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: قالت الملائكة للوط -لما قال لوط لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، ورأوا ما لَقِيَ من الكرب بسببهم منهم-: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أُرْسِلْنا لإهلاكهم، وإنهم ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ وإلى ضيفك بمكروه، فهوّن عليك الأمر، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ يقول: فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل؛ يقال منه: أسرى وسَرَى: وذلك إذا سار بليل، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾. واختلفت القراءة في قراءة قوله: ﴿فَأَسْرِ﴾، فقرأ ذلك عامة قرّاء المكيين والمدنيين: «فَاسْرِ» وصل بغير همز الألف من (سَرَى). وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة والبصرة: ﴿فَأَسْرِ﴾ بهمز الألف من (أَسْرَى).

والقول عندي في ذلك أنهما قراءتان قد قرأ بكل واحدة منهما أهل قُدوة في القراءة، وهما لغتان مشهورتان في العرب، معناهما واحد، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب في ذلك. وأما قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾؛ فإن عامة القرّاء من الحجاز والكوفة، وبعض أهل البصرة؛ قرؤوا بالنصب: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بتأويل: فأسرِ بأهلك إلا امرأتك. وعلى أن لوطًا أُمِرَ أن يُسرِيَ بأهله سوى زوجته؛ فإنه نُهِيَ أن يسري بها، وأُمِرَ بتخليفها مع قومها. وقرأ ذلك بعض البصريين: (إِلاّ امْرَأَتُكَ)

رفعًا، بمعنى: ولا يلتفتْ منكم أحدٌ إلا امرأتُكَ؛ فإن لوطًا قد أخرجها معه، وإنه نُهي لوط ومن معه ممن أسرى معه أن يلتفت سوى زوجته، وإنها التفتت فهلكت لذلك. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ﴾ يقول: إنه مصيب امرأتك ما أصاب قومك من العذاب، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ﴾ يقول: إن موعد قومك الهلاك الصبح، فاستبطأ ذلك منهم لوطٌ، وقال لهم: بل عجلوا لهم الهلاك! فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ أي: عند الصبح نزول العذاب بهم؛ كما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحق: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أي: إنما ينزل بهم من صبح ليلتك هذه، فامضِ لما تؤمر»[1].

وقال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه أمر نبيه لوطًا أن يسري بأهله بقطع من الليل، ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل، أو وسطه أو أوله، ولكنه بين في (القمر) أن ذلك من آخر الليل وقت السحر، وذلك في قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[2]. ولم يبين هنا أنه أمره أن يكون من ورائهم وهم أمامه، ولكنه بين ذلك في (الحجر) بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ﴾؛ قرأه جمهور القراء: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ﴾ بالنصب، وعليه فالأمر واضح؛ لأنه استثناء من الأهل؛ أي: أسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسرِ بها، واتركها في قومها فإنها هالكة معهم.

ويدل لهذا الوجه قوله فيها في مواضع: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[4]، والغابر: الباقي؛ أي: من الباقين في الهلاك.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: (إِلاَّ امْرَأَتُكَ) بالرفع على أنه بدل من ﴿أَحَدٌ﴾، وعليه فالمعنى: أنه أمر لوطًا أن ينهى جميع أهله عن الالتفات إلا امرأته فإنه أوحى إليه أنها هالكة لا محالة، ولا فائدة في نهيها عن الالتفات لكونها من جملة الهالكين.

---

(١) جامع البيان (١٢/ ٨٩).

(٢) القمر: الآية (٣٤).

(٣) الآية (٦٥).

(٤) الأعراف: الآية (٨٣).

وعلى قراءة الجمهور فهو لم يسر بها. وظاهر قراءة ابن عمرو وابن كثير: أنه أسرى بها والتفتت فهلكت.

قال بعض العلماء: لما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت: واقوماه! فأدركها حجر فقتلها.

قال مقيده -عفا اللَّه عنه-: الظاهر أن وجه الجمع بين القراءتين المذكورتين أن السر في أمر لوط بأن يسري بأهله هو النجاة من العذاب الواقع صبحًا بقوم لوط، وامرأة لوط مصيبها ذلك العذاب الذي أصاب قومها لا محالة، فنتيجة إسراء لوط بأهله لم تدخل فيها امرأته على كلا القولين، وما لا فائدة فيه كالعدم، فيستوي معنى أنه تركها ولم يسر بها أصلًا، وأنه أسرى بها وهلكت مع الهالكين.

فمعنى القولين راجع إلى أنها هالكة وليس لها نفع في إسراء لوط بأهله؛ فلا فرق بين كونها بقيت معهم، أو خرجت وأصابها ما أصابهم.

فإذا كان الإسراء مع لوط لم ينجها من العذاب؛ فهي ومن لم يسر معه سواء، والعلم عند اللَّه تعالى...

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ الآية؛ ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن موعد إهلاك قوم لوط وقت الصبح من تلك الليلة، وكذلك قال في (الحجر) في قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[1]، وزاد في (الحجر) أن صيحة العذاب وقعت عليهم وقت الإشراق، وهو وقت طلوع الشمس؛ بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) الحجر: الآية (٦٦).

(٢) الحجر: الآية (٧٣).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٦-٣٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

★ غريب الآية:

سجيل: أي طين وحجر مختلطان، ويقال أيضًا: سجين. قال الشاعر:

ورجلة يضربون البيض ضاحية ضربًا تواصى به الأبطال سجينا

منضود: أي متراكب بعضه على بعض. يقال: نَضَدْتُ المتَاعَ: إذا ألقيت بعضه فوق بعض، فهو نضيد ومنضود. قال ابن الجوزي في «زاد المسير»: «في قوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: يتبع بعضه بعضًا، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه مصفوف، قاله عكرمة وقتادة.

والثالث: نضد بعضه على بعض؛ لأنه طين جُمع فجُعل حجارة، قاله الربيع بن أنس»[1].

مُسَوَّمة: مُعَلَّمة؛ من سَوَّمْتُه؛ أي: جَعَلْتُ له سُومَةً يُعْرَفُ بها. والسُّومة: العلامةُ. قال ابن الجوزي: «وفي علامتها ستة أقوال: أحدها: بياض في حمرة، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال الحسن. والثاني: أنها كانت مختومة، فالحجر أبيض وفيه نقطة سوداء، أو أسود وفيه نقطة بيضاء، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: أنها المخططة بالسواد والحمرة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: عليها نضح من حمرة فيها خطوط حمر على هيأة الجِزع، قاله عكرمة وقتادة.

والخامس: أنها كانت معلَّمة بعلامة يُعرف بها أنها ليست من حجارة الدنيا،

(١) زاد المسير (٤/ ١١٣).

قاله ابن جريج. والسادس: أنه كان على كل حجر منها اسم صاحبه، قاله الربيع. وحكي عن بعض من رأى تلك الحجارة أنه قال: كانت مثل رأس الإبل، ومثل مبارك الإبل، ومثل قبضة الرجل»[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «ولما جاء أمرنا بالعذاب، وقضاؤنا فيهم بالهلاك؛ ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ يعني: عالي قريتهم ﴿سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يقول: وأرسلنا عليها ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾»[2].

واختلفوا في معنى ﴿سِجِّيلٍ﴾؛ قال القرطبي: «واختلف في (السِّجّيل)، فقال النحاس: السجيل: الشديد الكثير؛ وسجّيلٌ وسِجّينٌ؛ اللام والنون أختان.

وقال أبو عبيدة: السجيل: الشديد؛ وأنشد:

ضربًا تواصى به الأبطالُ سِجّينَا

قال النحاس: وردّ عليه هذا القول عبد اللّه بن مسلم وقال: هذا سجين وذلك سجيل، فكيف يستشهد به؟!

قال النحاس: وهذا الرد لا يلزم؛ لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن (اللام) تبدل من (النون) لقرب إحداهما من الأخرى؛ وقول أبي عبيدة يردّ من جهة أخرى؛ وهي أنه لو كان على قوله لكان (حجارةً سجيلًا)؛ لأنه لا يقال: حجارة من شديد؛ لأن شديدًا نعت.

وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء: سجيل.

وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلًا: طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء.

وقالت طائفة -منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق-: إن سجيلًا لفظة غير عربية عرّبت، أصلها: سَنْج وجِيل. ويقال: سَنْك وكِيل؛ بالكاف موضع الجيم، وهما بالفارسية: حجر وطين؛ عرّبتهما العربُ فجعلتهما اسمًا واحدًا.

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١١٣).

(٢) جامع البيان (١٢/ ٩٣).

وقيل: هو من لغة العرب.

وقال قتادة وعكرمة: السجيل: الطين؛ بدليل قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[1]. وقال الحسن: كان أصل الحجارة طينًا فشددت. والسجيل عند العرب: كل شديد صُلْب. وقال الضحاك: يعني الآجر. وقال ابن زيد: طين طبخ حتى كان كالآجر؛ وعنه أن سجيلًا اسم السماء الدنيا؛ ذكره المهدوي، وحكاه الثعلبي عن أبي العالية؛ وقال ابن عطية: وهذا ضعيف يرده وصفه بـ﴿مَّنضُودٍ﴾.

وعن عكرمة: أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض؛ منه نزلت الحجارة.

وقيل: هي جبال في السماء، وهي التي أشار اللَّه تعالى إليها بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾[2].

وقيل: هو مما سُجِّل لهم؛ أي: كتب لهم أن يصيبهم؛ فهو في معنى سجّين؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾[3]؛ قاله الزجاج واختاره.

وقيل: هو (فِعِّيل) من أسجلته؛ أي: أرسلته؛ فكأنها مرسَلة عليهم. وقيل: هو من أسجلته: إذا أعطيته؛ فكأنه عذاب أُعطوه؛ قال:

من يساجِلْني يساجِلْ ماجدًا يملأ الدلو إلى عَقْدِ الكَرَب

وقال أهل المعاني: السجيل والسجين: الشديد من الحجر والضرب؛ قال ابن مقبل:

ورَجْلةٍ يضربون البَيْضَ ضاحية ضربًا تواصى به الأبطالُ سِجّينا»[4].

قال الطبري: «والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله المفسرون، وهو أنها من طين، وبذلك وصفها اللَّه في كتابه في موضع، وذلك قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾[5]»[6].

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾؛ في المراد

---

(١) الذاريات: الآية (٣٣).
(٢) النور: الآية (٤٣).
(٣) المطففين: الآيتان (٨و٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٨١-٨٣).
(٥) الذاريات: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٦) جامع البيان (١٢/ ٩٤).

بالظالمين ههنا ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بالظالمين ههنا: كفار قريش؛ خوّفهم اللَّه بها، قاله الأكثرون. والثاني: أنه عامّ في كل ظالم؛ قال قتادة: واللَّه ما أجار اللَّه منها ظالمًا بعد قوم لوط، فاتقوا اللَّه وكونوا منه على حذر. والثالث: أنهم قوم لوط، فالمعنى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من قوم لوط ﴿بِبَعِيدٍ﴾، والمعنى: لم تكن لتخطئهم، قاله الفراء»[١].

وقال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من التفسير للعلماء؛ اثنان منها كلاهما يشهد له القرآن، وواحد يظهر أنه ضعيف.

أما الذي يظهر أنه ضعيف؛ فهو أن المعنى: أن تلك الحجارة ليست بعيدة من قوم لوط؛ أي: لم تكن تخطئهم. قاله القرطبي وغيره؛ لأن هذا يكفي عنه قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾[٢]، ونحوها من الآيات.

أما الوجهان اللذان يشهد لكل واحد منهما قرآن؛ فالأول منهما: أن ديار قوم لوط ليست ببعيدة من الكفار المكذبين لنبينا؛ فكان عليهم أن يعتبروا بما وقع لأهلها إذا مروا عليها في أسفارهم إلى الشام، ويخافوا أن يوقع اللَّه بهم بسبب تكذيب نبينا محمد ﷺ مثل ما وقع من العذاب بأولئك، بسبب تكذيبهم لوطًا -عليه الصلاة والسلام-. والآيات الدالة على هذا كثيرة جدًّا؛ كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وعلى هذا القول فالضمير في قوله: ﴿وَمَا هِيَ﴾؛ راجع إلى ديار قوم لوط المفهومة من المقام.

الوجه الثاني: أن المعنى: وما تلك الحجارة التي أمطرت على قوم لوط ببعيد من الظالمين للفاعلين مثل فعلهم، فهو تهديد لمشركي العرب كالذي قبله.

ومن الآيات الدالة على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾[٧]؛ فإن قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾

(١) زاد المسير (٤/ ١١٤).
(٢) الحجر: الآية (٧٤).
(٣) الصافات: الآيتان (١٣٧و١٣٨).
(٤) الحجر: الآيتان (٧٦و٧٧).
(٥) الذاريات: الآية (٣٧).
(٦) العنكبوت: الآية (٣٥).
(٧) محمد: الآية (١٠).

ظاهر جدًّا في ذلك، والآيات بنحو ذلك كثيرة»[١].

خلاصة قصة قوم لوط:

قال ابن القيم: «تأمل خبث اللوطية، وفرط تمرّدهم على اللَّه حيث جاؤوا نبيهم لوطًا لمّا سمعوا بأنه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صورًا، فأقبل اللوطية إليه يهرولون، فلما رآهم قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾[٢]، ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهنّ؛ خوفًا على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾، فردّوا عليه، ولكن رد جبار عنيد: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[٣]، فنفث نبي اللَّه نفثة مصدور، خرجت من قلب مكروب، فقال: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾[٤]، فنفس له رسل اللَّه، وكشفوا له عن حقيقة الحال، وأعلموه أنهم ليسوا ممّن يوصل إليهم، ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم، وهوّن عليك، فقالوا: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾[٥]، وبشروه بما جاؤوا به من الوعد له، ولقومه من الوعيد المصيب، فقالوا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾[٦]، فاستبطأ نبي اللَّه موعد هلاكهم، وقال: أريد أعجل من هذا، فقالت الملائكة: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾، فواللَّه ما كان بين إهلاك أعداء اللَّه ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها، ورُفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكةُ نباحَ الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يردّ عن الرب الجليل، إلى عبده ورسوله جبرائيل بأن يقلبها عليهم؛ كما أخبر به في محكم التنزيل، فقال عزّ من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾[٧]، فجعلهم آية للعالمين، وموعظة للمتقين، ونكالًا وسلفًا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٩-٤٠).
(٢) الآية (٧٨).
(٣) الآية (٧٩).
(٤) الآية (٨٠).
(٥) الآية (٨١).
(٦) الآية (٨١).
(٧) الآية (٨٢).

لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، أخذهم على غرة وهم نائمون، وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فقلبت تلك اللذات آلامًا، فأصبحوا بها يعذَّبون.

مآربُ كانت في الحياة لأهلها عِذابًا فصارتْ في الممات عَذابا

ذهبت اللذات، وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات، تمتعوا قليلًا، وعُذِّبوا طويلًا، رتعوا مرتعًا وخيمًا، فأعقبهم عذابًا أليمًا، أسكرتهم خمرة تلك الشهوة، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين، فندموا واللَّه أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوا بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يُسحبون: ذوقوا ما كنتم تكسبون! ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

وقد قرّب اللَّه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوّفًا لهم أن يقع الوعيد: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[3].

فيا ناكحي الذُّكران يَهْنِيكم البشرى فيومَ معاد الناس إنّ لكم أجْرَا!!
كلوا واشربوا وازْنوا ولوطوا وأبشروا فإن لكم زَفًّا إلى الجنة الحمْرا
فإخوانكم قد مهّدوا الدار قبلكم وقالوا إلينا عجِّلوا، لكم البشرى
وها نحن أسلافٌ لكم في انتظاركم سيجمعنا الجبّارُ في ناره الكبرى
فلا تحسَبوا أن الذين نكحتمو يغيبون عنكم، بل ترونهم جهرا
ويلعن كلٌّ منكم لخليله ويشقى به المحزون في الكرّة الأخرى
يعذِّب كلاًّ منهما بشريكه كما اشتركا في لذّةٍ توجب الوِزْرا»[4].

---

(١) الحجر: الآيات (٧٥-٧٧).
(٢) الطور: الآية (١٦).
(٣) هود: الآية (٨٣).
(٤) الداء والدواء (ص: ٢٩٨-٣٠٠).

قال ابن عطية: «و(أمطر) أبدًا إنما يستعمل في المكروه، و(مطر) يستعمل في المحبوب، هذا قول أبي عبيدة. قال القاضي أبو محمد: وليس كذلك، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾[١] يردّ هذا القول؛ لأنهم إنما ظنوه معتاد الرحمة»[٢].

قلت: وكذلك ما جاء في الحديث: «مُطِرنا بفضل اللّه ورحمته»[٣].

* * *

(١) الأحقاف: الآية (٢٤).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ١٩٧).

(٣) أخرجه من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ: أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٢/ ٤٢٤/ ٨٤٦)، ومسلم (١/ ٨٣-٨٤/ ٧١)، وأبو داود (٤/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٣٩٠٦)، والنسائي (٣/ ١٨٣-١٨٤/ ١٥٢٤).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة. . . واعلم أنا بيّنّا أن الأنبياء عليهم السلام يشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد؛ فلهذا قال شعيب ﷺ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، ثم إنهم بعد الدعوة إلى التوحيد يشرعون في الأهم ثم الأهم»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريبًا من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها: (مدين)، فأرسل اللَّه إليهم شعيبًا، وكان من أشرفهم نسبًا؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة اللَّه تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان. ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم، فأخاف أن تُسلَبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم اللَّه، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾؛ أي: في الدار الآخرة»[٢].

وقال محمد بن عاشور: «قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ نظير قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[٣] إلخ. أمرهم

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٤١). (٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٢).
(٣) هود: الآية (٦١).

بثلاثة أمور:

أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر.

وثالثها: صلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض.

ووسط بينهما الثاني: وهو شيء من صلاح العمل خص بالنهي؛ لأنّ إقدامهم عليه كان فاشيًا فيهم حتّى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان.

فابتدأ بالأمر بالتوحيد؛ لأنه أصل الصلاح، ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم، وهي خيانة المكيال والميزان. وقد تقدّم ذلك في سورة (الأعراف). وهي مفسدة عظيمة؛ لأنها تجمع خصلتي السرقة والغدْر؛ لأن المكتال مسترسل مستسلم. ونهاهم عن الإفساد في الأرض وعن نقص المكيال والميزان فعزّزه بالأمر بضده وهو إيفاؤهما»[1].

وقال: «وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرج، فابتدأه بنهيهم عن نوع من الفساد فاشٍ فيهم، وهو التطفيف. ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع، وهو أكل أموال الناس. ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد، وهو الإفساد في الأرض كلّه. وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال»[2].

قال أبو حيان الأندلسي في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾: «ونبه بقوله: ﴿بِخَيۡرٖ﴾ على العلة المقتضية للوفاء، لا للنقص»[3].

وقال الرازي: «فإن قيل: وقع التكرير في هذه الآية من ثلاثة أوجه؛ لأنه قال أولًا: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾، ثم قال: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، وهذا عين الأول، ثم قال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، وهذا عين ما تقدم، فما الفائدة في هذا التكرير؟

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) المصدر السابق (١٢/ ١٣٨).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٥٢).

قلنا: إن فيه وجوهًا:

الوجه الأول: أن القوم كانوا مصرّين على ذلك العمل، فاحتاج في المنع منه إلى المبالغة والتأكيد، والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام.

والوجه الثاني: أن قوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ نهيٌ عن التنقيص، وقوله: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أمرٌ بإيفاء العدل، والنهي عن ضد الشيء مغاير للأمر به، وليس لقائل أن يقول: النهي عن ضد الشيء أمر به، فكان التكرير لازمًا من هذا الوجه؛ لأنا نقول: الجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى جمع بين الأمر بالشيء، وبين النهي عن ضده للمبالغة؛ كما تقول: صِلْ قرابتك ولا تقطعهم، فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد. الثاني: أن نقول: لا نسلم أن الأمر كما ذكرتم؛ لأنه يجوز أن ينهى عن التنقيص وينهى أيضًا عن أصل المعاملة، فهو تعالى منع من التنقيص وأمر بإيفاء الحق؛ ليدل ذلك على أنه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبايعات، وإنما منع من التطفيف؛ وذلك لأن طائفة من الناس يقولون: إن المبايعات لا تنفك عن التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبايعات محرمة بالكلية. فلأجل إبطال هذا الخيال؛ منع تعالى في الآية الأولى من التطفيف، وفي الآية الأخرى أمر بالإيفاء.

وأما قوله ثالثًا: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾؛ فليس بتكرير؛ لأنه تعالى خص المنع في الآية السابقة بالنقصان في المكيال والميزان، ثم إنه تعالى عم الحكم في جميع الأشياء، فظهر بهذا البيان أنها غير مكررة؛ بل في كل واحد منها فائدة زائدة.

والوجه الثالث: أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، وفي الثانية قال: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، والإيفاء عبارة عن الإتيان به على سبيل الكمال والتمام، ولا يحصل ذلك إلا إذا أعطى قدرًا زائدًا على الحق؛ ولهذا المعنى قال الفقهاء: إنه تعالى أمر بغسل الوجه، وذلك لا يحصل إلا عند غسل جزء من أجزاء الرأس. فالحاصل: أنه تعالى في الآية الأولى نهى عن النقصان، وفي الآية الثانية أمر بإعطاء قدر من الزيادة، ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب إلا عند أداء ذلك القدر من الزيادة، فكأنه تعالى نهى عن سعي الإنسان في أن يجعل مال غيره ناقصًا لتحصل له تلك الزيادة، وفي الثانية أمر

بالسعي في تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة.

وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِۖ﴾ يعني بالعدل، ومعناه الأمر بإيفاء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة بالأمر بإيتاء الزيادة على ذلك.

ثم قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، والبخس هو النقص في كل الأشياء، وقد ذكرنا أن الآية الأولى دلت على المنع من النقص في المكيال والميزان، وهذه الآية دلت على المنع من النقص في كل الأشياء. ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

فإن قيل: العثو: الفساد التام؛ فقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ جارٍ مجرى أن يقال: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين.

قلنا: فيه وجوه: الأول: أن من سعى في إيصال الضرر إلى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعي إلى إيصال الضرر إليه، فقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ معناه: ولا تسعوا في إفساد مصالح الغير؛ فإن ذلك في الحقيقة سعيٌ منكم في إفساد مصالح أنفسكم. والثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ مصالح دنياكم وآخرتكم. والثالث: ولا تعثوا في الأرض مفسدين مصالح الأديان»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عقوبة نقص المكيال والميزان

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: **«يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتُلِيتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمتهم**

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٤٢-٤٣).

بكتاب اللَّه، ويتخيّروا مما أنزل اللَّه، إلا جعل اللَّه بأسهم بينهم»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قد تحدثنا عن هذه الصفة الذميمة، وهي نقص المكيال والميزان والتطفيف في سورة (الأعراف)، وسيأتي مزيد بيان في سورة (الشعراء) و(المطففين).

وفي هذا الحديث ترتيب عقوبة معينة على نقص المكيال والميزان، وهي الأخذ بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان. وقوم شعيب جمعوا إلى نقص المكيال والميزان بخسَ الناس أشياءهم، والعثو في الأرض بالفساد، وقاصمة الظهر: الشرك باللَّه تبارك وتعالى، فلا ضير أن أخذهم اللَّه ﷻ بالصيحة.

* * *

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٣٢-١٣٣٣/ ٤٠١٩)، وصححه الحاكم (٤/ ٥٤٠)، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: ما أبقاه الله لكم بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان بالقسط، فأحله لكم؛ خير لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم الناس من حقوقهم بالمكيال والميزان»[1].

وقال الرازي: «المراد من هذه البقية: إما المال الذي يبقى عليه في الدنيا، وإما ثواب الله، وإما كونه تعالى راضيًا عنه، والكل خير من قدر التطفيف؛ أما المال الباقي فلأن الناس إذا عرفوا إنسانًا بالصدق والأمانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه، ورجعوا في كل المعاملات إليه، فيفتح عليه باب الرزق، وإذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه، ولم يخالطوه ألبتة، فتضيق أبواب الرزق عليه. وأما إن حملنا هذه البقية على الثواب فالأمر ظاهر؛ لأن كل الدنيا تفنى وتنقرض وثواب الله باقٍ. وأما إن حملناه على حصول رضا الله تعالى فالأمر فيه ظاهر، فثبت بهذا البرهان أن بقية الله خير»[2].

وقال البقاعي: «ولما كان نظرهم -بعد الشرك- مقصورًا على الأموال، وكان نهيه عما نهى عنه موجبًا لِمَحْقِها في زعمهم؛ كانوا كأنهم قالوا: إنا إذا اتبعناك فيما قلت فنيت أموالنا، أو قلّت، فتضعضعت أحوالنا، فلا يبقى لنا شيء، فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فضل الملك الأعلى المستجمع لصفات الكمال، وبركته في أموالكم وجميع أحوالكم، وإبقاؤه عليكم نظره إليكم الموجب لعفوه الذي هو ثمرة اتباع أمره؛ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تظنونه زيادة بالنقص والظلم، وذلك أن بقية الشيء ما فضل منه، وتكون أيضًا بمعنى البقيا؛ من أبقى عليه يبقي إبقاءً، واستبقيت فلانًا: إذا عفوت عن ذنبه، كأن ذلك الذنب أوجب فناء وده أو فناه عندك، فإذا استبقيته فقد

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١٠٠).
(٢) التفسير الكبير (١٨/ ٤٣).

تركت ما كان وجب»[١].

وقال أبو حيان الأندلسي: «ويجوز أن يريد ما يبقى لهم عند اللَّه من الطاعات؛ كقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾[٢]»[٣].

وقال ابن كثير: «ويشبه قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[٤]»[٥].

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ قال أبو حيان: «شرط في أن يكون البقية خيرًا لهم، وأما مع الكفر فلا خير لهم في شيء من الأعمال. وجواب هذا الشرط متقدم»[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ قال ابن كثير: «أي: برقيب ولا حفيظ؛ أي: افعلوا ذلك لله ﷻ، لا تفعلوه ليراكم الناس، بل لله ﷻ»[٧].

وقال الرازي: «﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ فيه وجهان: الأول: أن يكون المعنى: إني نصحتكم وأرشدتكم إلى الخير، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: لا قدرة لي على منعكم عن هذا العمل القبيح. الثاني: أنه قد أشار فيما تقدم إلى أن الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة اللَّه تعالى، فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، يعني: لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعم اللَّه عنكم، وأنا لا أقدر على حفظها عليكم في تلك الحالة»[٨].

وقال البقاعي: «﴿إِن كُنتُم﴾ أي: جبلّةً وطبعًا ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: راسخين في الإيمان؛ إشارة إلى أن خيريتها لغير المؤمن مبنية على غير أساس، فهي غير مجدية إلا في الدنيا، فهي عدم لسرعة الزوال والنزوح عنها والارتحال. ودلّت (الواو) العاطفة على غير مذكور أن المعنى: فآمنوا فاعلين ما أمرتكم به لتظفروا بالخير؛ فإنما أنا نذير، ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ وقدم ما يتوهمونه من قصده للاستعلاء نافيًا له، فقال: ﴿عَلَيْكُم﴾، وأغرق في النفي، فقال: ﴿بِحَفِيظٍ﴾ أعلم جميع أعمالكم وأحوالكم، وأقدر على كفّكم عمّا يكون منها فسادًا»[٩].

---

(١) نظم الدرر (٩/ ٣٥٤-٣٥٥).
(٢) الكهف: الآية (٤٦).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٥٣).
(٤) المائدة: الآية (١٠٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٣).
(٦) البحر المحيط (٥/ ٢٥٣).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٣).
(٨) التفسير الكبير (١٨/ ٤٤).
(٩) نظم الدرر (٩/ ٣٥٥).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «كانت الصلاة من عماد الأديان كلّها. وكان المكذبون الملحدون قد تمالؤوا في كل أمة على إنكارها والاستهزاء بفاعلها ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[(٢)]، فلما كانت الصلاة أخص أعماله المخالفة لمعتادهم؛ جعلوها المشيرة عليه بما بلّغه إليهم من أمور مخالفة لمعتادهم -بناءً على التناسب بين السبب والمسبب في مخالفة المعتاد- قصدًا للتهكم به والسخرية عليه تكذيبًا له فيما جاءهم به»[(٣)].

وقال البقاعي: «ولما كان حاصل ما دعاهم إليه ترك ما كان عليه آباؤهم من السفه في حق الخالق بالشرك والخلائق بالخيانة، وكان ذلك الترك عندهم قطيعة وسفهًا، كان ذلك محكًا للعقول، ومحزًا للآراء، يعرف به نافذها من جامدها، فكان كأنه قيل: ما قالوا؟ فقيل: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ﴾؛ سموه باسمه جفاءً وغلظةً، وأنكروا عليه مستهزئين بصلاته: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾»[(٤)].

وقال إلكيا الهراسي: «قوله تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؛ يستدل به على أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقد قيل: الصلاة ههنا: الدين، فيستدل به على أن الصلاة تطلق بمعنى الدين»[(٥)].

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾[(٦)]. وما كان عليه قوم شعيب من أعظم المنكر، وهو الشرك بالله، ونقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، وهذا اعتراف منهم ضمنيًا بنكارة ما

---

(١) هود: الآية (٨٧).
(٢) الذاريات: الآية (٥٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٤١).
(٤) نظم الدرر (٩/ ٣٥٦).
(٥) أحكام القرآن (٢/ ٢٢٧).
(٦) العنكبوت: الآية (٤٥).

هم عليه وإن أبَوْهُ في الظاهر. وهو نظير قول قوم لوط عن لوط عليه السلام ومن آمن معه: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[١]. وكل ذلك منهم إنكار للمعروف على أسلوب السخرية والاستهزاء.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن إضاعة المال

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل للنبي ﷺ: إني أُخدَعُ في البيوع، فقال: **«إذا بايعتَ فقل: لا خِلابة»**، فكان الرجل يقوله[٢].

★ غريب الحديث:

خِلابة: بخاء معجمة مكسورة وتخفيف اللام بالباء الموحدة؛ أي: لا خديعة.

★ فوائد الحديث:

أورد البخاري الحديث في كتاب الاستقراض: باب ما ينهى عن إضاعة المال. وترجم عليه بقول اللّه تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[٣] و﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤] وقال: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾[٥]؛ لبيان أن الخديعة في البيوع مما ينهى عنه، فلا يجوز لأحد أن يتعدى حدود اللّه في مال نفسه أو مال غيره؛ هذا هو أمر اللّه تعالى لقوم شعيب، وأمر نبينا ﷺ لأصحابه وأمته.

* عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إن اللّه حرّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومَنَعَ وهات. وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»**[٦].

---

(١) الأعراف: الآية (٨٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٦)، والبخاري (٥/ ٨٦/ ٢٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١١٦٥/ ١٥٣٣)، وأبو داود (٣/ ٧٦٥-٧٦٧/ ٣٥٠٠)، والنسائي (٧/ ٢٨٩/ ٤٤٩٦).

(٣) البقرة: الآية (٢٠٥).

(٤) يونس: الآية (٨١).

(٥) النساء: الآية (٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٦)، والبخاري (٥/ ٨٦/ ٢٤٠٨) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٤١/ ٥٩٣).

★ **غريب الحديث:**

هات: آت.

وأد: بسكون الهمزة: هو دفن البنات بالحياة.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «الأكثر حملوه على الإسراف في الإنفاق. وقيّده بعضهم بالإنفاق في الحرام. والأقوى أنه ما أُنفق في غير وجهه المأذون فيه شرعًا؛ سواء كانت دينية أو دنيوية، فمنع منه؛ لأن اللَّه تعالى جعل المال قيامًا لمصالح العباد، وفي تبذيرها تفويت تلك المصالح؛ إما في حق مضيعها وإما في حق غيره. ويستثنى من ذلك كثرة إنفاقه في وجوه البر لتحصيل ثواب الآخرة؛ ما لم يفوت حقًّا أخرويًّا أهمّ منه.

والحاصل في كثرة الإنفاق ثلاثة أوجه:

الأول: إنفاقه في الوجوه المذمومة شرعًا؛ فلا شك في منعه.

والثاني: إنفاقه في الوجوه المحمودة شرعًا؛ فلا شك في كونه مطلوبًا بالشرط المذكور.

والثالث: إنفاقه في المباحات بالأصالة كملاذّ النفس؛ فهذا ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون على وجه يليق بحال المنفِق وبقدر ماله؛ فهذا ليس بإسراف.

والثاني: ما لا يليق به عرفًا، وهو ينقسم أيضًا إلى قسمين:

أحدهما: ما يكون لدفع مفسدة إما ناجزة أو متوقعة؛ فهذا ليس بإسراف.

والثاني: ما لا يكون في شيء من ذلك؛ فالجمهور على أنه إسراف. وذهب بعض الشافعية إلى أنه ليس بإسراف؛ قال: لأنه تقوم به مصلحة البدن، وهو غرض صحيح، وإذا كان في غير معصية فهو مباح له. قال ابن دقيق العيد: وظاهر القرآن يمنع ما قال، اهـ. وقد صرح بالمنع القاضي حسين، فقال في كتاب «قسم الصدقات»: هو حرام. وتبعه الغزالي، وجزم به الرافعي في الكلام على المغارم، وصحح في باب الحجر من الشرح وفي «المحرر» أنه ليس بتبذير، وتبعه النووي. والذي يترجح أنه ليس مذمومًا لذاته؛ لكنه يفضي غالبًا إلى ارتكاب المحذور

كسؤال الناس، وما أدى إلى المحذور فهو محذور. وقد تقدم في كتاب الزكاة البحث في جواز التصدق بجميع المال، وأن ذلك يجوز لمن عرف من نفسه الصبر على المضايقة. وجزم الباجي من المالكية بمنع استيعاب جميع المال بالصدقة، قال: ويكره كثرة إنفاقه في مصالح الدنيا، ولا بأس به إذا وقع نادرًا لحادث يحدث كضيف أو عيد أو وليمة.

ومما لا خلاف في كراهته مجاوزة الحد في الإنفاق على البناء زيادة على قدر الحاجة، ولاسيما إن أضاف إلى ذلك المبالغة في الزخرفة. ومنه احتمال الغبن الفاحش في البياعات بغير سبب.

وأما إضاعة المال في المعصية؛ فلا يختص بارتكاب الفواحش؛ بل يدخل فيها سوء القيام على الرقيق والبهائم حتى يهلكوا، ودفع مال من لم يؤنس منه الرشد إليه، وقسمه ما لا ينتفع بجزئه كالجوهرة النفيسة. وقال السبكي الكبير في «الحلبيّات»: الضابط في إضاعة المال: أن لا يكون لغرض ديني ولا دنيوي، فإن انتفيا حرم قطعًا، وإن وُجد أحدهما وجودًا له بال، وكان الإنفاق لائقًا بالحال، ولا معصية فيه؛ جاز قطعًا. وبين الرتبتين وسائط كثيرة، لا تدخل تحت ضابط. فعلى المفتي أن يرى فيما تيسر منها رأيه، وأما ما لا يتيسر فقد تعرض له؛ فالإنفاق في المعصية حرام كله، ولا نظر إلى ما يحصل في مطلوبه من قضاء شهوة ولذة حسنة. وأما إنفاقه في الملاذّ المباحة فهو موضع الاختلاف، فظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1] أن الزائد الذي لا يليق بحال المنفق إسراف. ثم قال: ومن بذل مالًا كثيرًا في غرض يسير تافه؛ عدّه العقلاء مضيِّعًا، بخلاف عكسه. والله أعلم»[2].

وقد مضى الكلام على حديث ابن عمر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾[3] من سورة (النساء)، وفي قصة شعيب من سورة (الأعراف)، وتقدم الكلام على حديث المغيرة بن شعبة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾[4] من سورة (البقرة)، والآية السالفة الذكر من سورة (النساء).

---

(١) الفرقان: الآية (٦٧).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٠٠-٥٠١).

(٣) النساء: الآية (٥).

(٤) البقرة: الآية (٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

هذا الكلام عدّه ابن القيم من الكلام المحتمل الضدين، وهو أن يكون الكلام محتملًا للشيء وضده، ومنه في القرآن العظيم كثير، قال: «وينخرط في هذا السلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ إذا جُعل هذا من باب التهكم به، والإزراء عليه؛ كان ذمًا. ولهذا قال بعض المفسرين: أرادوا: إنك لأنت الأحمق السفيه. وإن أريد به المدح؛ فالتقدير: إنك أنت الكامل الحليم الرشيد، فكيف يبدو منك مثل هذا؛ لأنه ذكر الحليم والرشيد بالألف واللام التي هي لاستغراق الجنس أو للعهد»[(١)].

وقال القرطبي: «يعنون: عند نفسك بزعمك؛ ومثله في صفة أبي جهل: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[(٢)] أي: عند نفسك بزعمك.

وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة. ومنه قولهم للحبشي: أبو البيضاء، وللأبيض: أبو الجَون؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾.

وقال سفيان بن عيينة: العرب تصف الشيء بضدّه للتطير والتفاؤل؛ كما قيل للّديغ: سليم، وللفلاة: مفازة.

وقيل: هو تعريض أرادوا به السّبّ.

وأحسن من هذا كله، ويدلّ ما قبله على صحته؛ أي: إنك أنت الحليم الرشيد حقًا، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا؟! ويدل عليه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾[(٣)]؛ أنكروا -لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد- بأن

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن (ص: ١٦٦). (٢) الدخان: الآية (٤٩).

(٣) هود: الآية (٨٧).

يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم. وبعده أيضًا ما يدل عليه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾[1]؛ أي: أفلا أنهاكم عن الضلال؟! وهذا كله يدل على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه»[2].

وصوّب هذا الوجه الرازي، قال: «كان مشهورًا عندهم بأنه حليم رشيد، فلما أمرهم بمفارقة طريقتهم؛ قالوا له: إنك لأنت الحليم الرشيد المعروف الطريقة في هذا الباب، فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا وأسلافنا، والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممّن كان موصوفًا بالحلم والرشد. وهذا الوجه أصوب الوجوه»[3].

وقال البغوي: «وقيل: هو على الصحة؛ أي: إنك يا شعيب فينا حليم رشيد، لا يجمل بك شقّ عصا قومك ومخالفة دينهم؛ كما قال قوم صالح ﷺ: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾[4]»[5].

* * *

(١) هود: الآية (٨٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٨٧).
(٣) التفسير الكبير (١٨/ ٤٥).
(٤) هود: الآية (٦٢).
(٥) تفسير البغوي (٤/ ١٩٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

★ غريب الآية:

التوفيق: اختص في العرف بالخير والصواب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «في الآية مسائل: المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ما ذكره في الجواب عن كلماتهم، فالأول قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾، وفيه وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ إشارة إلى ما آتاه اللَّه تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة، وقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ إشارة إلى ما آتاه اللَّه من المال الحلال؛ فإنه يروى أن شعيبًا عليه السلام كان كثير المال.

واعلم أن جواب (إن) الشرطية محذوف، والتقدير: أنه تعالى لما آتاني جميع السعادات الروحانية، وهي البينة، والسعادات الجسمانية، وهي المال والرزق الحسن؛ فهل يسعني مع هذا الإنعام العظيم أن أخون في وحيه، وأن أخالفه في أمره ونهيه؟! وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم؛ وذلك لأنهم قالوا له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا؟! فكأنه قال: إنما أقدمت على هذا العمل؛ لأن نعم اللَّه تعالى عندي كثيرة، وهو أمرني بهذا التبليغ والرسالة، فكيف يليق بي مع كثرة نعم اللَّه تعالى عليّ أن أخالف أمره وتكليفه؟!

الثاني: أن يكون التقدير كأنه يقول: لما ثبت عندي أن الاشتغال بعبادة غير اللَّه

والاشتغال بالبخس والتطفيف عمل منكر، ثم أنا رجل أريد إصلاح أحوالكم، ولا أحتاج إلى أموالكم لأجل أن اللَّه تعالى آتاني رزقًا حسنًا، فهل يسعني مع هذه الأحوال أن أخون في وحي اللَّه تعالى وفي حكمه؟!

الثالث: قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: ما حصل عنده من المعجزة، وقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ المراد: أنه لا يسألهم أجرًا ولا جعلًا، وهو الذي ذكره سائر الأنبياء من قولهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ يدل على أن ذلك الرزق إنما حصل من عند اللَّه تعالى، وبإعانته، وأنه لا مدخل للكسب فيه، وفيه تنبيه على أن الإعزاز من اللَّه تعالى، والإذلال من اللَّه تعالى، وإذا كان الكل من اللَّه تعالى؛ فأنا لا أبالي بمخالفتكم، ولا أفرح بموافقتكم، وإنما أكون على تقرير دين اللَّه تعالى، وإيضاح شرائع اللَّه تعالى.

وأما الوجه الثاني من الأجوبة التي ذكرها شعيب ﷺ فقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾. قال صاحب «الكشاف»: يقال: خالفني فلان إلى كذا: إذا قصده وأنت مُوَلٍّ عنه، وخالفني عنه: إذا ولَّى عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادرًا عن الماء فتسأله عن صاحبه، فيقول: خالفني إلى الماء، يريد أنه قد ذهب إليه واردًا، وأنا ذاهب عنه صادرًا، ومنه قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبدّ بها دونكم، فهذا بيان اللغة. وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حليم رشيد؛ وذلك يدل على كمال العقل، وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصوب الأصلح، فكأنه ﷺ قال لهم: لما اعترفتم بكمال عقلي؛ فاعلموا أن الذي اختاره عقلي لنفسي لا بدّ وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها، والدعوة إلى توحيد اللَّه تعالى وترك البخس والنقصان يرجع حاصلها إلى جزأين: التعظيم لأمر اللَّه تعالى، والشفقة على خلق اللَّه تعالى، وأنا مواظب عليهما، غير تارك لهما في شيء من الأحوال ألبتة، فلما اعترفتم لي بالحلم والرشد، وترون أني لا أترك هذه الطريقة؛ فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق، وأشرف الأديان والشرائع.

---

(١) الشعراء: الآيات (١٠٩)، (١٢٧)، (١٤٥)، (١٦٤)، (١٨٠).

وأما الوجه الثالث من الوجوه التي ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾، والمعنى: ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي.

وقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ فيه وجوه: الأول: أنه ظرف، والتقدير: مدة استطاعتي للإصلاح، وما دمت متمكنًا منه لا آلو فيه جهدًا. والثاني: أنه بدلٌ من ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾؛ أي: المقدار الذي استطعت منه. والثالث: أن يكون مفعولًا له؛ أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه.

واعلم أن المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بأنه حليم رشيد؛ وإنما أقروا له بذلك لأنه كان مشهورًا فيما بين الخلق بهذه الصفة، فكأنه عليه السلام قال لهم: إنكم تعرفون من حالي أني لا أسعى إلا في الإصلاح وإزالة الفساد والخصومة، فلما أمرتكم بالتوحيد وترك إيذاء الناس؛ فاعلموا أنه دين حق، وأنه ليس غرضي منه إيقاع الخصومة وإثارة الفتنة؛ فإنكم تعرفون أني أبغض ذلك الطريق، ولا أدور إلا على ما يوجب الصلح والصلاح بقدر طاقتي، وذلك هو الإبلاغ والإنذار، وأما الإجبار على الطاعة فلا أقدر عليه. ثم إنه عليه السلام أكّد ذلك بقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وبيّن بهذا أن توكله واعتماده في تنفيذ كل الأعمال الصالحة على توفيق اللَّه تعالى وهدايته»[(١)].

قال البيضاوي: «ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة؛ أهمها وأعلاها: حق اللَّه تعالى، وثانيها: حق النفس، وثالثها: حق الناس. وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به، وأنهاكم عما نهيتكم عنه»[(٢)].

وقال الشهاب: «وقوله: (ولهذه الأجوبة الثلاثة)؛ أي: أجوبة شعيب عليه السلام، يعني من قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إلى هنا؛ لأنها جواب عما أنكروه، وكونها أجوبة يقتضي أن يعطف قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ إلخ؛ لكنه ترك عطفه لكونه مؤكدًا لما قبله ومقرّرًا له؛ لأنه لو أراد الاستئثار بما نهى عنه؛ لم يكن مريدًا للإصلاح، وكونه مؤكدًا لا ينافي تضمنه لجواب آخر، والأول هو قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ فإنه بيان لحق اللَّه عليه؛ من شكر نعمته، والاجتهاد في خدمته، والثاني:

---

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٤٦-٤٨).

(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٢٥٧).

قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾؛ فإنه بيان لحق نفسه من كفّها عمّا ينبغي أن ينتهي عنه غيره، والثالث: قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ إلخ؛ فإن حق الغير عليه إصلاحه وإرشاده، ووجه ترتيبها ظاهر»[1].

وقال الشنقيطي: «ذكر اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عن نبيه شعيب -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- أنه أخبر قومه: أنه إذا نهاهم عن شيء انتهى هو عنه، وأن فعله لا يخالف قوله.

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن الإنسان يجب عليه أن يكون منتهيًا عما ينهى عنه غيره، مؤتمرًا بما يأمر به غيره.

وقد بين تعالى ذلك في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[3].

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: أي فلان! ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»**[4].

ومعنى قوله ﷺ: **«فتندلق أقتابه»** أي: تتدلى أمعاؤه.

وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو نُعيم في الحلية، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«رأيت ليلة أسري بي رجالًا تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت رجعت. فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟»**[5] قاله صاحب «الدر المنثور» اهـ. وقد قال الشاعر:

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٥/ ١٢٧).

(٢) البقرة: الآية (٤٤). (٣) الصف: الآية (٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٥)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠-٢٢٩١/ ٢٩٨٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت (ص: ٢٤٩، رقم: ٥٠٩)، والخطيب في التاريخ (٦/ ١٩٩-٢٠٠)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٥٣/ ٤١٥٩) وقال: «هذا حديث حسن» وفي إسناده=

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقد أجاد من قال:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو مريض

ومعلوم أن عمل الإنسان بما ينصح به غيره أدعى لقبول غيره منه؛ كما قال الشاعر:

فإنك إذما تأت ما أنت آمر به تلفِ من إياه تأمر آتيا»[(١)].

وقال البيضاوي: «وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذره من اللَّه تعالى، والاستعانة به في مجامع أمره، والإقبال عليه بشراشره، وحسم أطماع الكفار، وإظهار الفراغ عنهم، وعدم المبالاة بمعاداتهم، وتهديدهم بالرجوع إلى اللَّه للجزاء»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التزام الداعية العمل بما يدعو إليه من خير

* عن معاوية بن حيدة ﷺ أن أخاه مالكًا قال: يا معاوية! إن محمدًا أخذ جيراني، فانطلِقْ إليه؛ فإنه قد عرفك وكلّمك. قال: فانطلقتُ معه، فقال: دع لي جيراني؛ فإنهم قد كانوا أسلموا. فأعرَضَ عنه، فقام متمعّطًا، فقال: أما واللَّه لئن فعلتَ، إنّ الناس ليزعمون أنّك تأمرُ بالأمر وتخالف إلى غيره. وجعلتُ أجرُّهُ وهو يتكلّم. فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما يقولُ»؟ فقالوا: إنّك واللَّه لئن فعلتَ ذلك، إنّ الناس ليزعمون أنّك لتأمرُ بالأمر وتخالف إلى غيره. قال: فقال: «أَوَقَدْ قالوها -أو قائلُهم-؟ فلئن فعلتُ ذاك، وما ذاك إلاّ عليّ، وما عليهم من ذلك من شيء، أَرسِلوا له جيرانَهُ»[(٣)].

= علي بن زيد بن جدعان؛ لكن الحديث روي من طرق أخرى عن أنس ﷺ؛ رواه: ابن حبان (١/ ٢٤٩/ ٥٣)، وأبو يعلى (٧/ ١٨٠/ ٤١٦٠)، وأبو نعيم (٨/ ٤٣-٤٤)، وابن المبارك في الزهد (٩/ ٨)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٣/ ١٧٧٣)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣٥/ ٣٦٥٧٦)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٩١).

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٥-٤٧).

(٢) تفسير البيضاوي (١/ ٢٥٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٤٧) واللفظ له، وأبو داود (٤/ ٤٧/ ٣٦٣١) مختصرًا. وحسّن إسناده الشيخ الألباني في صحيح أبي داود، والحاكم (٣/ ٦٤٢)، وسكت عنه الذهبي. وأخرجه بنحوه مختصرًا: الترمذي (٤/ ٢٠/ ١٤١٧) وقال: «حديث حسن»، والنسائي (٨/ ٤٣٧/ ٤٨٩٠).

* عن مسروق: «أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود، فقالت: أُنبِئْتُ أنّك تنهى عن الواصلة. قال: نعم. فقالت: أشيءٌ تجده في كتاب اللَّه، أم سمعتَهُ من رسول اللَّه ﷺ؟ فقال: أجدُهُ في كتاب اللَّه، وعن رسول اللَّه. فقالت: واللَّه لقد تصفّحتُ ما بين دفّتي المصحف، فما وجدتُ فيه الذي تقولُ! قال: فهل وجدْتِ فيه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1]؟ قالت: نعم. قال: فإني سمعتُ رسول اللَّه ﷺ نهى عن النّامصة والواشرة والواصلة والواشمة إلاّ من داءٍ. قالت المرأة: فلعلّه في بعض نسائك؟ قال لها: ادخُلي، فدخلَتْ ثم خرجَتْ، فقالت: ما رأيتُ بأسًا، قال: ما حفظتُ إذًا وصيّةَ العبد الصالحِ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾»[2].

* غريب الحديث:

الواصلة: هي التي تصل شعر المرأة بشعر آخر. والمستوصلة: التي تطلب من يفعل بها ذلك، ويقال لها: موصولة.

الواشمة: فاعلة الوشم، وهو أن تغرز إبرة أو مسلة أو نحوهما في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم، ثم تحشو ذلك الموضع بالكحل أو النورة، فيخضرّ. وفاعلة هذا واشمة، وإن طلبت فعل ذلك فهي مستوشمة.

النامصة: هي التي تزيل الشعر من الوجه، والمتنمصة: هي التي تطلب فعل ذلك بها.

الواشرة: من الوَشَر: وهو تحديد المرأة أسنانها وترقيقها.

* * *

(١) الحشر: الآية (٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٥-٤١٦) واللفظ له، والنسائي (٨/ ٥٢٣/ ٥١١٣) مختصرًا، وابن ماجه (١/ ٦٤٠/ ١٩٨٩)، وأصل الحديث في صحيح البخاري (٨/ ٨١٢/ ٤٨٨٦)، ومسلم (٣/ ١٦٧٨/ ٢١٢٥) وغيرهما، وسيأتي مفصلًا في تفسير سورة (الحشر).

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩﴾

★ **غريب الآية:**

شقاقي: أصل الشقاق: العداوة والمخاصمة. قال الشاعر:

ألا من مبلغ عني رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل شعيب لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾، يقول: لا يحملنكم عداوتي وبغضي وفراق الدين الذي أنا عليه على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله، وعبادة الأوثان، وبخس الناس في المكيال والميزان، وترك الإنابة والتوبة، فيصيبكم ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ من الغرق، ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ من العذاب، ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ من الرجفة، ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ﴾ الذين ائتفكت بهم الأرض ﴿مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ هلاكهم، أفلا تتعظون به وتعتبرون؟ يقول: فاعتبروا بهؤلاء، واحذروا أن يصيبكم بشقاقي مثل الذي أصابهم»[1].

وقال الرازي: «وأما قوله: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾؛ ففيه وجهان: الأول: أن المراد نفي البعد في المكان؛ لأن بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين. والثاني: أن المراد نفي البعد في الزمان؛ لأن إهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الإهلاكات التي عرفها الناس في زمان شعيب عليه السلام.

وعلى هذين التقديرين؛ فإن القرب في المكان وفي الزمان يفيد زيادة المعرفة، وكمال الوقوف على الأحوال، فكأنه يقول: اعتبروا بأحوالهم، واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب»[2].

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١٠٤).

(٢) التفسير الكبير (١٨/ ٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل شعيب لقومه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أيها القوم من ذنوبكم بينكم وبين ربكم التي أنتم عليها مقيمون من عبادة الآلهة والأصنام، وبخس الناس حقوقهم في المكاييل والموازين، ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ يقول: ثم ارجعوا إلى طاعته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ يقول: هو رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة، ﴿وَدُودٞ﴾ يقول: ذو محبة لمن أناب وتاب إليه؛ يوده ويحبه»[1].

وتقدم الكلام على الاستغفار والتوبة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[2] من هذه السورة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير (الودود): «الوَدود: فَعُول من الوُدّ. وقال شعيب: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾[3]؛ فقرنه بـ(الرحيم) في موضع، وبـ(الغفور) في موضع.

قال أبو بكر بن الأنباري: (الودود) معناه: المحبّ لعباده؛ من قولهم: وددتُ الرجل أودّه وُدًّا ووِدًّا ووَدًّا، ويقال: وددتُ الرجلَ وَدادًا ووِدادًا ووَدادةً.

وقال الخطابي: (هو اسم مأخوذ من الودّ، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون فَعولًا في محلّ مفعول؛ كما قيل: رجل هَيُوب بمعنى مهيب، وفرس رَكوب بمعنى مركوب. والله ﷻ مودود في قلوب أوليائه؛ لما يتعرّفونه من إحسانه إليهم. والوجه الآخر: أن يكون بمعنى الوادّ؛ أي: أنه يودّ عباده الصالحين؛ بمعنى أنه يرضى عنهم، ويتقبّل أعمالهم. ويكون معناه أن يُودّدهم إلى خلقه؛ كقوله:

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١٠٥).

(٢) هود: الآية (٣).

(٣) البروج: الآية (١٤).

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[(١)]. . . والأكثرون على ما ذكره ابن الأنباري، وأنه فعولٌ بمعنى فاعل؛ أي: هو الوادّ، كما قرنه بالغفور؛ وهو الذي يغفر، وبالرحيم؛ وهو الذي يرحم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن جعفر؛ قاضي الري، حدثنا سفيان في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، قال: مُحِبّ، وقال: قرئ على يونس: حدثنا ابن وهب، قال: وقال ابن زيد: قوله: (الودود)، قال: الرحيم. وقد ذكر فيه قولين؛ القول الأول رواه من تفسير الوالبي عن ابن عباس قوله: (الودود)، قال: الحبيب. والثاني: قول ابن زيد: الرحيم. وما ذكره الوالبي أنه الحبيب؛ قد يراد به المعنيان: أنه يحِبّ ويحَبّ؛ فإن الله يحب من يحبه، وأولياؤه يحبهم ويحبونه.

والبغوي ذكر الأمرين، فقال: وللودود معنيان: أنه يحب المؤمنين، وقيل: هو بمعنى المودود؛ أي محبوب المؤمنين.

وقال أيضًا في قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾[(٢)]؛ أي: المحب لهم، وقيل: معناه المودود؛ كالحَلُوب، والرَّكوب؛ بمعنى المحلوب والمركوب، وقيل: يغفر، ويود أن يغفر، وقيل: المتودِّد إلى أوليائه بالمغفرة.

قلت: هذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل؛ كقول النبي ﷺ: «تزوجوا الودود الولود»[(٣)]. وفَعول بمعنى فاعل كثيرٌ؛ كالصبور، والشكور، وأما بمعنى مفعول؛ فقليلٌ. وأيضًا: فإن سياق القرآن يدل على أنه أراد أنه هو الذي يود عباده؛ كما أنه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم؛ فإن شعيبًا قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾؛ فذكر رحمته ووده؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[(٤)]. وهو أراد وصفًا يبيّن لهم أنه سبحانه يغفر الذنب، ويُقبل على التائب؛ وهو كونه ودودًا؛ كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[(٥)]. وقد

---

(١) مريم: الآية (٩٦).
(٢) البروج: الآية (١٤).
(٣) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أحمد (٣/ ١٥٨)، وابن حبان (٩/ ٣٣٨/ ٤٠٢٨)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٤٦/ ٥٠٩٥) وقال: «لم يرو هذا الحديث عن حفص بن أخي أنس إلا خلف بن خليفة»، والبيهقي (٧/ ٨١-٨٢). كلهم من طريق خلف بن خليفة عن حفص بن أخي أنس بن مالك عن أنس به، وفيه خلف بن خليفة قال عنه الحافظ في التقريب: «صدوق اختلط بآخرة». وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٥٨) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الأوسط وإسناده حسن».
(٤) الروم: الآية (٢١).
(٥) البقرة: الآية (٢٢٢).

ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أن اللَّه يفرح بتوبة التائب أشد من فرح من فقد راحلته بأرضٍ دَوِّيّة مُهلكة، ثم وجدها بعد اليأس[1]. فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له، ومودته له. وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[2]، فإنه مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾[3].

وأيضًا: فإن كونه مودودًا؛ أي: محبوبًا، يُذكر على الوجه الكامل الذي يتبيّن اختصاصه به؛ مثل: اسم الإله؛ فإن الإله المعبود هو مودودٌ بذلك، ومثل اسمه الصمد، ومثل ذي الجلال والإكرام، ونحو ذلك.

وكونه مودودًا ليس بعجيب، وإنما العجب: جوده، وإحسانه؛ فإنه يتودد إلى عباده...

وأيضًا: فمبدأ الحبّ والودّ منه، لكن اسمه الودود يجمع المعنيين؛ كما قال الوالبي عن ابن عباس: أنّه الحبيب؛ وذلك أنه إذا كان يودّ عباده؛ فهو مستحق لأن يوده العباد بالضرورة. ولهذا من قال: إنه يحب المؤمنين؛ قال: إنهم يحبونه؛ فإن كثيرًا من الناس يقول: إنه محبوب، وهو لا يحب شيئًا مخصوصًا، لكن محبته بمعنى مشيئته العامة. ومن الناس من قال: إنه لا يُحَبّ، مع أنه يُثبت محبته للمؤمنين.

فالقسمة في المحبة رباعية؛ فالسلف وأهل المعرفة أثبتوا النوعين؛ قالوا: إنه يحِبّ ويحَبّ. والجهمية والمعتزلة تنكر الأمرين. ومن الناس من قال: إنه يحبه المؤمنون، وأما هو؛ فلا يحب شيئًا دون شيء. ومنهم من عكس فقال: بل هو يحب المؤمنين، مع أن ذاتَه لا يُحَبّ؛ كما يقولون: إنه يَرْحَم ولا يُرْحَم. فإذا قيل: إن الودود بمعنى الوادّ؛ لزم أن يكون مودودًا، بخلاف العكس. فالصواب القطع بأن الودود هو الذي يُوَدّ، وإن كان ذلك متضمَّنًا؛ لأنه يستحق أن يُوَدّ، ليس هو بمعنى الودود فقط.

ولفظ الوِداد بالكسر هو مثل الموادّة والتوادّ، وذاك يكون من الطرفين؛ كالتحابّ. وهو سبحانه لمّا جعل بين الزوجين مودّة ورحمة؛ كان كلٌّ منهما يودّ الآخر ويرحمه.

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣١٦)، ومسلم (٤/ ٢١٠٢/ ٢٦٧٥)، والترمذي (٥/ ٥١١/ ٣٥٣٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٩/ ٤٢٤٧).

(٢) البروج: الآية (١٤). (٣) سبأ: الآية (٢).

وهو سبحانه -كما ثبت في الحديث الصحيح- أرحم بعباده من الوالدة بولدها[١]، وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة، إذ وجدهما بعد اليأس. وهذا الفرح يقتضي أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض. كيف وكلُّ وُدٍّ في الوجود فهو من فعله. فالذي جعل الودّ في القلوب هو أولى بالودّ؛ كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[٢]؛ قال: يحبّهم، ويحبّبهم. وقد دل الحديث الذي في الصحيحين على أن ما يجعل من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه، وأمر جبريل أن ينادي بأن اللّه يحبه. فنادى جبريل في السماء أنّ اللّه يحبّ فلانًا فأحبّوه[٣]..

وودّه سبحانه هو لمن تاب إليه وأناب إليه؛ كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٤]؛ فلا يستوحش أهل الذنوب، وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة؛ فإنه ودود رحيم بالمؤمنين، يحبّ التّوّابين، ويحبّ المتطهّرين.

ولهذا قال شعيب: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، وقال هنا: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[٥]؛ فذكر (الودود) في الموضعين لبيان مودته للمذنب إذا تاب إليه، بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ودّ فيه»[٦].

وبالجمع بين المعنيين في تفسير (الودود) يقول تلميذه ابن القيم في «التبيان في أقسام القرآن»، قال: «والتحقيق أن اللفظ يدلّ على الأمرين: على كونه وادًّا لأوليائه، ومودودًا لهم. فأحدهما بالوضع، والآخر باللزوم؛ فهو الحبيب المحب لأوليائه، يحبهم ويحبونه؛ وقال شعيب ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾»[٧].

* * *

(١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ: البخاري (١٠/ ٥٢٣/ ٥٩٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩/ ٢٧٥٤).

(٢) مريم: الآية (٩٦).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٠/ ٢٦٣٧)، والترمذي (٥/ ٢٩٧-٢٩٨/ ٣١٦).

(٤) البقرة: الآية (٢٢٢).

(٥) البروج: الآية (١٤).

(٦) النبوات (١/ ٣٥٢-٣٦٩).

(٧) (ص: ٦١).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾

★ غريب الآية:

نفقه: أصل الفقه: الفهم. يقال: فَقُهَ، بالضم: إذا صار الفقه سجيه له وطبعًا. وفَقِهَ، بالكسر: إذا حصل له فهم. وفَقَهَ، بالفتح: إذا غلب غيره في الفقه.

رهطك: الرهط: عشيرة الرجل وجماعته التي يتقوى بهم. وأصله: الشد. قال النابغة:

رَهْطُ ابْنِ كوزٍ مُحْقِبُو أَدْرَاعِهِم فِيهِمْ ورَهْطُ ربيعةَ بنِ حُذَارِ

رجمناك: الرجم: الرمي بالحجارة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه شعيبًا -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- منعه اللَّه من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية من قومه الذين هم كفار.

وهو دليل على أن المتمسك بدينه قد يعينه اللَّه ويعزه بنصرة قريبه الكافر؛ كما بينه تعالى في مواضع أخر؛ كقوله في صالح وقومه: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾[1] الآية.

ففي الآية دليل على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا السوء بصالح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- إلا في حال الخفاء، وأنهم لو فعلوا به ذلك خفاء وسرقة؛ لكانوا يحلفون لأوليائه الذين هم عصبته أنهم ما فعلوا به سوءًا، ولا شهدوا ذلك ولا حضروه؛ خوفًا من عصبته؛ فهو عزيز الجانب بسبب عصبته الكفار. وقد قال

(١) النمل: الآية (٤٩).

تعالى لنبينا ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[1]؛ أي: آواك بأن ضمّك إلى عمّك أبي طالب.

وذلك بسبب العواطف العصبية، والأواصر النسبية، ولا صلة له بالدين ألبتة؛ فكونه -جل وعلا- يمتن على رسوله ﷺ بإيواء أبي طالب له؛ دليل على أن اللَّه قد ينعم على المتمسك بدينه بنصرة قريبه الكافر.

ومن ثمرات تلك العصبية النسبية قول أبي طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة أبشر بذاك وقر منه عيونا

وقوله أيضًا:

ونمنعه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ولهذا لما كان نبي اللَّه لوط -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- ليس له عصبة في قومه الذين أرسل إليهم؛ ظهر فيه أثر عدم العصبة؛ بدليل قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[2].

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن المسلمين قد تنفعهم عصبية إخوانهم الكافرين.

ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم، ولم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف وبنو نوفل بن عبد مناف؛ عرف النبي ﷺ لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية نسبية لا صلة لها بالدين، فأعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم، وقال: «إنا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام»[3]، ومنع بني عبد شمس وبني نوفل من خمس الغنيمة، مع أن الجميع أولاد عبد مناف بن قصي.

وقال أبو طالب في بني عبد شمس وبني نوفل:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجل غير آجل

---

(١) الضحى: الآية (٦).

(٢) هود: الآية (٨٠).

(٣) أخرجه من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٨١)، والبخاري (٦/ ٣٠٠/ ٣١٤٠)، وأبو داود (٣/ ٣٣٨-٣٨٤/ ٢٩٨٠)، والنسائي (٧/ ١٤٨-١٤٩/ ٤١٤٨).

بميزان قسط لا يخيس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل
لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا ... بني خلف قيضا بنا والغياطل

و(الغياطل) بالغين المعجمة، ومراد أبي طالب بهم: بنو سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤي؛ القبيلة المشهورة من قبائل قريش. وإنما سموا (الغياطل)؛ لأن قيس بن عدي بن سعد بن سهم الذي هو من سادات قريش العظام، وهو الذي يعنيه عبد المطلب بقوله يرقص ابنه عبد الله وهو صغير:

كأنه في العز قيس بن عدي ... في دار سعد ينتدي أهل الندى

تزوج امرأة من كنانة تسمى (الغيطلة) وهي أم بعض أولاده؛ فسمي بنو سهم (الغياطل)؛ لأن قيس بن عدي المذكور سيدهم.

فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله قد يعين المؤمن بالكافر لتعصبه له، وربما كان لذلك أثر حسن على الإسلام والمسلمين؛ وقد يكون من منن الله على بعض أنبيائه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[1]. وفي المثل: (اجتنِ الثمار وألقِ الخشبة في النار).

فإذا عرفت دلالة القرآن على أن المسلم قد ينتفع برابطة نسب وعصبية من كافر؛ فاعلم أن النداء بالروابط العصبية لا يجوز؛ لإجماع المسلمين على أن المسلم لا يجوز له الدعاء بـ(يا لبني فلان!) ونحوها.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر ﵁ أن النبي ﷺ قال في تلك الدعوة: «**دعوها فإنها منتنة**»[2]. وقوله ﷺ: «**دعوها**» يدل على وجوب تركها؛ لأن صيغة (افعل) للوجوب، إلا لدليل صارف عنه، وليس هنا دليل صارف عنه. ويؤكد ذلك تعليله الأمر بتركها بأنها منتنة، وما صرح النبي ﷺ بالأمر بتركه وأنه منتن؛ لا يجوز لأحد تعاطيه، وإنما الواجب على المسلمين النداء برابطة الإسلام التي هي

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: أحمد (٢/ ٣٠٩)، والبخاري (١١/ ٦٠٩-٦١٠/ ٦٦٠٦)، ومسلم (١/ ١٠٥-١٠٦/ ١١١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٨/ ٨٨٨٣).

(٢) أخرجه من حديث جابر ﵁: أحمد (٣/ ٣٩٢-٣٩٣)، والبخاري (٨/ ٨٣٦/ ٤٩٠٥)، ومسلم (٤/ ١٩٩٨-١٩٩٩/ ٢٥٨٤)، والترمذي (٥/ ٣٨٩-٣٩٠/ ٣٣١٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٢/ ١١٥٩٩).

من شدة قوتها تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد إنسان واحد؛ فهي تربطك بأخيك المسلم كربط أعضائك بعضها ببعض؛ قال ﷺ: «**إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1].

وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[2]؛ تحققت أن الروابط النسبية تتلاشى مع الروابط الإسلامية، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]، وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[4].

ولا يخفى أن أسلافنا معاشر المسلمين إنما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالرابطة الإسلامية، لا بروابط عصبية، ولا بأواصر نسبية»[5].

وقال الرازي: «اعلم أنه ﷺ لما بالغ في التقرير والبيان؛ أجابوه بكلمات فاسدة. فالأول: قولهم: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إنه ﷺ كان يخاطبهم بلسانهم، فلم قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ﴾؟

والعلماء ذكروا عنه أنواعًا من الجوابات: فالأول: أن المراد: ما نفهم كثيرًا مما تقول؛ لأنهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه، وهو كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[6]. الثاني: أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزنًا، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول. الثالث: أن هذه الدلائل التي ذكرها ما أقنعتهم في صحة التوحيد والنبوة والبعث، وما يجب من ترك الظلم والسرقة، فقولهم: ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ أي: لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب.

المسألة الثانية: من الناس من قال: (الفقه) اسم لعلم مخصوص، وهو معرفة

(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٢٧٠)، والبخاري (١٠/ ٥٣٧/ ٦٠١١)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩-٢٠٠٠/ ٢٥٨٦).
(٢) المجادلة: الآية (٢٢).
(٣) الحجرات: الآية (١٠).
(٤) التوبة: الآية (٧١).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٤٧-٥٠).
(٦) الأنعام: الآية (٢٥).

غرض المتكلم من كلامه؛ واحتجوا بهذه الآية وهي قوله: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، فأضاف الفقه إلى القول، ثم صار اسمًا لنوع معين من علوم الدين. ومنهم من قال: إنه اسم لمطلق الفهم؛ يقال: أوتي فلان فقهًا في الدين؛ أي: فهمًا. وقال النبي ﷺ: «من يرد اللَّه به خيرًا يفقّهه في الدين»[1] أي: يفهّمه تأويله.

والنوع الثاني من الأشياء التي ذكروها: قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، وفيه وجهان:

الأول: أنه الضعيف الذي يتعذر عليه منع القوم عن نفسه.

والثاني: أن الضعيف هو الأعمى بلغة حمير. واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوه: الأول: أنه ترك للظاهر من غير دليل، والثاني: أن قوله: ﴿فِينَا﴾ يبطل هذا الوجه؛ ألا ترى أنه لو قال: إنا لنراك أعمى فينا؛ كان فاسدًا؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم. الثالث: أنهم قالوا بعد ذلك: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾، فنفوا عنه القوة التي أثبتوها في رهطه، ولما كان المراد بالقوة التي أثبتوها للرهط هي النصرة؛ وجب أن تكون القوة التي نفوها عنه هي النصرة. والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلهم إنما حملوه عليه؛ لأنه سبب للضعف..

والنوع الثالث من الأشياء التي ذكروها: قولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال صاحب «الكشاف»: الرهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة، وقد كان رهطه على ملتهم. قالوا: لولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك. والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم، ولا وقع له في صدورهم، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترامهم رهطه.

المسألة الثانية: (الرجم) في اللغة عبارة عن الرمي، وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل، ولما كان هذا الرجم سببًا للقتل لا جرم سموا القتل رجمًا، وقد يكون بالقول الذي هو القذف؛ كقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[3]، وقد يكون بالشتم واللعن؛ ومنه قوله: ﴿الشَّيْطَٰنِ

---

(١) أخرجه من حديث معاوية رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٩٣)، والبخاري (١/ ٢١٧/ ٧١)، ومسلم (٢/ ٧١٨/ ١٠٣٧).
(٢) الكهف: الآية (٢٢). (٣) سبأ: الآية (٥٣).

ٱلرَّجِيمِ﴾[1]، وقد يكون بالطرد؛ كقوله: ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[2].

إذا عرفت هذا ففي الآية وجهان: الأول: ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾: لقتلناك. الثاني: لشتمناك وطردناك.

النوع الرابع من الأشياء التي ذكروها: قولهم: ﴿بِعَزِيزٍ﴾، ومعناه أنك لما لم تكن علينا عزيزًا؛ سهل علينا الإقدام على قتلك وإيذائك.

واعلم أن كل هذه الوجوه التي ذكروها ليست دافعًا لما قرره شعيب ﷺ من الدلائل والبينات؛ بل هي جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة»[3].

* * *

---

(١) النحل: الآية (٩٨).

(٢) الملك: الآية (٥).

(٣) التفسير الكبير (١٨/ ٤٩-٥١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

⋆ غريب الآية:

أعزّ: أقوى وأمنع. والأعزّ: خلاف الأذلّ.

ظِهْرِيًّا: أي غير معتد ولا ملتفت إليه. والظهري: ما تجعله خلف ظهرك فتنساه. ويقال لكل أمر لا يعبأ به: قد جعل بظهر. قال الشاعر:

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي ... بظهر فلا يعيا علي جوابها

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: قال شعيب لقومه: يا قوم! أعززتم قومكم، فكانوا أعزّ عليكم من اللَّه، واستخففتم بربكم، فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون لأمره، ولا تخافون عقابه، ولا تعظمونه حق عظمته؛ يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره؛ أي: تركها لا يلتفت إليها، وإذا قضاها قيل: جعلها أمامه ونُصْب عينيه. ويقال: ظهرتَ بحاجتي، وجعلتَها ظِهرِية؛ أي: خلف ظهرك؛ كما قال الشاعر:

وَجَدْنا بني البَرْصَاءِ مِنْ وَلَدِ الظَّهْرِ

بمعنى أنهم يظهرون بحوائج الناس فلا يلتفتون إليها»[1].

قال الرازي: «اعلم أن الكفار لما خوّفوا شعيبًا ﷺ بالقتل والإيذاء؛ حكى اللَّه تعالى عنه ما ذكره في هذا المقام، وهو نوعان من الكلام:

(١) جامع البيان (١٢/ ١٠٦).

النوع الأول: قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، والمعنى: أن القوم زعموا أنهم تركوا إيذاءه رعاية لجانب قومه، فقال: أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلي إكرامًا لرهطي، واللَّه تعالى أولى أن يُتَّبع أمرُه، فكأنه يقول: حفظكم إياي رعاية لأمر اللَّه تعالى أولى من حفظكم إياي رعاية لحق رهطي.

وأما قوله: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾؛ فالمعنى: أنكم نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به. قال صاحب «الكشاف»: والظِّهريّ منسوب إلى الظهر، والكسر من تغيرات النسب؛ ونظيره قولهم في النسبة إلى الأمس: إِمسِيّ، بكسر الهمزة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ يعني أنه عالم بأحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها.

والنوع الثاني: قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، والمكانة: الحالة يتمكن بها صاحبها من عمله، والمعنى: اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل ما في وسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إلي، فإني أيضًا عامل بقدر ما آتاني اللَّه تعالى من القدرة.

ثم قال: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: لِمَ لَمْ يقل: (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)؟

والجواب: إدخال (الفاء) وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، وإما بحذف (الفاء) فإنه يجعله جوابًا عن سؤال مقدر، والتقدير: أنه لما قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾؛ فكأنهم قالوا: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقال: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، فظهر أن حذف حرف (الفاء) ههنا أكمل في باب الفظاعة والتهويل.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾، والمعنى: فانتظروا العاقبة إني معكم رقيب؛ أي: منتظر. والرقيب بمعنى الراقب؛ من رقبه؛ كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم، أو بمعنى المراقب؛ كالعشير والنديم، أو بمعنى

المرتقب؛ كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع»[١].

وقال محمد بن عاشور: «لمّا أرادوا بالكلام الذي وجّهوه إليه تحذيره من الاستمرار على مخالفة دينهم؛ أجابهم بما يفيد أنه لم يكن قط معوّلًا على عزة رهطه ولكنّه متوكّل على اللَّه الذي هو أعزّ من كل عزيز، فالمقصود من الخَبَر لازمه، وهو أنّه يعلم مضمون هذا الخبر وليس غافلًا عنه؛ أي: لقد علمتُ ما رهطي أغلب لكم من اللَّه فلا أحتاج إلى أن تعاملوني بأنّي غيرُ عزيز عليكم، ولا بأنّ قرابتي فئة قليلة لا تعجزكم لو شئتم رجمي.

وإعادة النداء للتّنبيه لكلامه وأنه متبصّر فيه. والاستفهام إنكاريّ؛ أي: اللَّه أعز من رهطي، وهو كناية عن اعتزازه باللَّه لا برهطه فلا يريبه عدم عزة رهطه عليهم، وهذا تهديد لهم بأنّ اللَّه ناصره؛ لأنّه أرسله، فعزّته بعزّة مُرسلِهِ»[٢].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٥١-٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥١).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: ولما جاء قضاؤنا في قوم شعيب بعذابنا؛ ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ رسولنا، والذين آمنوا به، فصدقوه على ما جاءهم به من عند ربهم مع شعيب، من عذابنا الذي بعثنا على قومه، ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ له ولمن آمن به واتبعه على ما جاءهم به من عند ربهم، وأخذت الذين ظلموا الصيحة من السماء أخمدتهم فأهلكتهم بكفرهم بربهم، وقيل: إن جبريل ﷺ صاح بهم صيحة أخرجت أرواحهم من أجسامهم، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ على ركبهم وصرعى بأفنيتهم»[1].

وقال ابن كثير: «وذكر ههنا أنهم أتتهم صيحة، وفي (الأعراف) رجفة، وفي (الشعراء) عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يومَ عذابهم هذه النقم كلها. وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه؛ ففي (الأعراف) لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾[2]؛ ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وههنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم؛ ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي (الشعراء) لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3]؛ قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[4]. وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا»[5].

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١٠٨).
(٢) الأعراف: الآية (٨٨).
(٣) الشعراء: الآية (١٨٧).
(٤) الشعراء: الآية (١٨٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٦-٢٧٧).

ذكر ما في قصة شعيب من الفوائد والعبر:

قال السعدي: «وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير.

منها: أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه؛ لأن شعيبًا دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيال والميزان، وجعل الوعيد مرتبًا على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجبة للوعيد؛ فسرقتهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن بخس أموال الناس يريد زيادة ماله؛ عوقب بنقيض ذلك، وكان سببًا لزوال الخير الذي عنده من الرزق؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾[1]؛ أي: فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يقنع بما آتاه اللَّه، ويقنع بالحلال عن الحرام، وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له؛ لقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[2]؛ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المحق وضد البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل؛ فالإيمان ناقص أو معدوم.

ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال؛ حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه؛ فبإقامتها على وجهها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه اللَّه الإنسان -وإن كان اللَّه قد خوله إياه- فليس له

---

(١) الآية (٨٤).

(٢) الآية (٨٦).

أن يصنع فيه ما يشاء؛ فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق اللَّه فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها اللَّه ورسوله؛ لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواء وافق حكم اللَّه أو خالفه.

ومنها: أن من تكملة دعوة الداعي وتمامها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منتهٍ عما ينهى غيره عنه؛ كما قال شعيب ﷺ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾[1]، ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

ومنها: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم: إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان؛ بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، وبدفع المفاسد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح؛ لم يكن ملومًا ولا مذمومًا في عدم فعله ما لا يقدر عليه؛ فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين؛ بل لا يزال مستعينًا بربه، متوكّلًا عليه، سائلًا له التوفيق. وإذا حصل له شيء من التوفيق؛ فلينسبه لموليه ومسديه، ولا يعجب بنفسه؛ لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[3].

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر. كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم اللَّه به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ويعفى عنه؛ فإن اللَّه تعالى

---

(١) الآية (٨٨).

(٢) الصف: الآية (٢).

(٣) الآية (٨٨).

يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: (إن التائب إذا تاب؛ فحسبه أن يغفر له، ويعود عليه بالعفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود)؛ فإن اللَّه قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(١).

ومنها: أن اللَّه يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئًا منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، وأهل وطنهم الكفار؛ كما دفع اللَّه عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها؛ بل ربما تعين ذلك؛ لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية؛ لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها، وجعلهم عَمَلَةً وخَدَمًا لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام؛ فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة؛ فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة، واللَّه أعلم»(٢).

* * *

---

(١) هود: الآية (٩٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٥٣-٤٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

★غريب الآية:

يقدم قومه: أي يمشي أمامهم وهم متبعون له.

الورد: هنا المدخل. وأصل الورود: قصد الماء. ثم استعمل في غيره اتساعًا.

قال زهير:

فلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقًا جِمَامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

الرِّفد: العطاء والمعونة. يقال: رَفَدْتُهُ أَرْفده رفدًا: إذا أَنَلْتُهُ الرِّفْدَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن إرساله موسى عليه السلام بآياته وبيّناته وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط، ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: مسلكه ومنهجه وطريقته في الغي والضلال، ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ أي: ليس فيه رشد ولا هدىً؛ وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد. وكما أنهم اتبعوه في الدنيا، وكان مُقَدَّمهم ورئيسهم؛ كذلك هو يَقْدُمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رَدَاها، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر؛ كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[2]، وقال

---

(١) المزمل: الآية (١٦).

(٢) النازعات: الآيات (٢١-٢٦).

تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾، وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم المعاد؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال تعالى إخبارًا عن الكفرة أنهم يقولون في النار: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[2]»[3].

وقال الرازي: «اعلم أن هذه هي القصة السابعة من القصص التي ذكرها اللَّه تعالى في هذه السورة، وهي آخر القصص من هذه السورة. أما قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ ففيه وجوه:

الأول: أن المراد من الآيات: التوراة مع ما فيها من الشرائع والأحكام، ومن السلطان المبين: المعجزات القاهرة الباهرة، والتقدير: ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف، وأيّدناه بمعجزات قاهرة وبيّنات باهرة.

الثاني: أن الآيات هي المعجزات والبينات، وهو كقوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ﴾[4]، وقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ﴾[5]. وعلى هذا التقدير ففي الآية وجهان: الأول: أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته. الثاني: أن يراد بالسلطان المبين: العصا؛ لأنه أشهرها؛ وذلك لأنه تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات، وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والأنفس. ومنهم من أبدل نقص الثمرات والأنفس بإظلال الجبل وفلق البحر.

واختلفوا في الحجة لم سميت بالسلطان؟ فقال بعض المحققين: لأن صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره؛ فلهذا توصف الحجة بأنها سلطان. وقال الزجاج: السلطان هو الحجة. والسلطان سمي سلطانًا لأنه حجة اللَّه في أرضه؛ واشتقاقه من السليط، والسليط: ما يضاء به، ومن هذا قيل للزيت: السليط. وفيه قول ثالث: وهو أن السلطان مشتق من التسليط،

---

(١) الأعراف: الآية (٣٨).
(٢) الأحزاب: الآيتان (٦٧و٦٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٧).
(٤) يونس: الآية (٦٨).
(٥) النجم: الآية (٢٣).

والعلماء سلاطين بسبب كمالهم في القوة العلمية، والملوك سلاطين بسبب ما معهم من القدرة والمكنة، إلا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك؛ لأن سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل، وسلطنة الملوك تقبلهما، ولأن سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء، وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الأنبياء، وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة»[1].

* * *

---

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٥٣-٥٤).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾

★ **غريب الآية:**

حصيد: بمعنى محصود. والحصد: قَطْعُ الزرع من الأصل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين؛ قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ أي: من أخبارها، ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾؛ أي: عامر، ﴿وَحَصِيدٞ﴾؛ أي: هالك داثر»[1].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الأولين؛ قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾، والفائدة في ذكرها أمور:

أولها: أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل، وذلك إنما يكون في غاية الندرة. فأما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين؛ صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول.

الوجه الثاني: أنه تعالى خلط بهذه الأقاصيص أنواع الدلائل التي كان الأنبياء -عليهم السلام- يتمسكون بها، ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها، ثم يذكر عقيبهما أجوبة الأنبياء عنها، ثم يذكر عقيبها أنهم لما أصروا واستكبروا؛ وقعوا في عذاب الدنيا، وبقي عليهم اللعن والعقاب في الدنيا وفي الآخرة، فكان ذكر هذه القصص سببًا لإيصال الدلائل والجوابات عن الشبهات إلى قلوب المنكرين، وسببًا لإزالة القسوة والغلظة عن قلوبهم، فثبت أن أحسن الطرق في الدعوة إلى الله تعالى ما ذكرناه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٨).

الفائدة الثالثة: أنه ﷺ كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب، ولا تلمذ لأحد؛ وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه.

الفائدة الرابعة: أن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا والخروج عنها، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة، فإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع؛ فلا بد وأن يلين القلب، وتخضع النفس، وتزول العداوة، ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص»[1].

وقال ابن عاشور: «والمراد بالقائم ما كان من القرى التي قصّها اللّه في القرآن قُرى قائمًا بعضها كآثار بلد فرعون كالأهرام وبلهوبة -وهو المعروف بأبي الهول- وهيكل الكرنك بمصر، ومثل آثار نينوى بلد قوم يونس، وأنطاكية قرية المرسلين الثلاثة، وصنعاء بلد قوم تُبّع، وقرى بائدة مثل ديار عاد، وقرى قوم لوط، وقرية مدين. وليس المراد القرى المذكورة في هذه السورة خاصة. والمقصود من هذه الجملة الاعتبار»[2].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٥٦-٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

★ غريب الآية:

تَتْبِيب: خسران وهلاك. من تَبَّتْ يده: أي خَسِرَتْ. قال جرير:

عرابة من بقية قوم لوط ألا تبًّا لما فعلوا تَبَابَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: وما عاقبنا أهل هذه القرى التي اقتصصنا نبأها عليك -يا محمد- بغير استحقاق منهم عقوبتنا، فنكون بذلك قد وضعنا عقوبتناهم في غير موضعها، ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول: ولكنهم أوجبوا لأنفسهم بمعصيتهم اللَّه، وكفرهم به، عقوبته وعذابه، فأحلوا بها ما لم يكن لهم أن يحلوه بها، وأوجبوا لها ما لم يكن لهم أن يوجبوه لها، ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ يقول: فما دفعت عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون اللَّه ويدعونها أربابًا من عقاب اللَّه وعذابه إذا أحله بهم ربهم من شيء، ولا ردّت عنهم شيئًا منه ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يا محمد، يقول: لما جاء قضاء ربك بعذابهم، فحقّ عليهم عقابه، ونزل بهم سخطه، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ يقول: وما زادتهم آلهتهم عند مجيء أمر ربك هؤلاء المشركين بعقاب اللَّه غير تخسير وتدمير وإهلاك»[1].

وقال ابن عاشور: «وفرع على ظلمهم أنفسَهم انتفاء إغناء آلهتهم عنهم شيئًا، ووجه ذلك الترتب والتفريع أن ظلمهم أنفسهم مَظهره في عبادتهم الأصنام، وهم لمّا عبدوها كانوا يعبدونها للخلاص من طوارق الحدثان، ولتكون لهم شفعاء عند

(١) جامع البيان (١٢/ ١١٢-١١٣).

الله، وكانوا في أمن من أن ينالهم بأس في الدنيا اعتمادًا على دفع أصنامهم عنهم، فلمّا جاء أمرهم بضد ذلك كان ذلك الضدّ مضادًا لتأميلهم وتقديرهم.

والغرض من هذا التفريع التعريض بتحذير المشركين من العرب من الاعتماد على نفع الأصنام؛ فقد أيقن المشركون أن أولئك الأمم كانوا يعبدون الأصنام؛ كيف وهؤلاء اقتبسوا عبادة الأصنام من الأمم السّابقين، وأيقنوا أنهم قد حَلّ بهم من الاستئصال ما شاهدوا آثاره، فذلك موعظة لهم لو كانوا مهتدين»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

★ غريب الآية:

أليم: الألم: شدة الوجع. يقال: أَلِمَ الرَّجلُ يَأْلَمُ أَلَمًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: وكما أخذت -أيها الناس- أهل هذه القرى التي اقتصصت عليك نبأ أهلها بما أخذتهم به من العذاب، على خلافهم أمري، وتكذيبهم رسلي، وجحودهم آياتي، فكذلك أخذي القرى وأهلها إذا أخذتهم بعقابي وهم ظلمة لأنفسهم بكفرهم بالله، وإشراكهم به غيره، وتكذيبهم رسله. ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ﴾ يقول: إن أخذ ربكم بالعقاب من أخذه أليم، يقول: موجع شديد الإيجاع، وهذا أمر من الله تحذير لهذه الأمة أن يسلكوا في معصيته طريق من قبلهم من الأمم الفاجرة، فيحل بهم ما حل بهم من المثلات»[1].

وقال الرازي: «واعلم أن هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة؛ لئلاّ يقع في الأخذ الذي وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد، ولا ينبغي أن يظن أن هذه الأحكام مختصّة بأولئك المتقدّمين؛ لأنه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين؛ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾، فبيّن أن كل من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي؛ فلا بدّ وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد»[2].

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١١٤).

(٢) التفسير الكبير (١٨/ ٥٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إملاء الظالم من مشرك أو دونه في الظلم وأن كل ظلم مذموم

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ. قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»[١].

★ غريب الحديث:

يملي: أي يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة. وهو مشتق من الملوة، وهي المدة والزمان، بضم الميم وكسرها وفتحها.

لم يفلته: لم يطلقه ولم ينفلت منه. قال أهل اللغة: يقال: أفلته: أطلقه، وانفلت: تخلص منه[٢].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «**«إن اللَّه تعالى لَيُملي»** بفتح اللام الأولى؛ أي: لَيُمهل. والإملاء: الإمهال والتأخير وإطالة العمر، **«للظالم»** زيادة في استدراجه؛ ليطول عمره ويكثر ظلمه، فيزداد عقابه، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾[٣]، فإمهاله عين عقابه، **«حتى إذا أخذه»** أي: أنزل به نقمته، **«لم يفلته»** أي: لم يفلت منه، أو لم يفلته منه أحدٌ؛ أي: لم يخلصه أبدًا، بل يهلكه لكثرة ظلمه بالشرك، فإن كان مؤمنًا لم يخلصه مدة طويلة بقدر جنايته. وقول بعضهم: معنى **«لم يفلته»**: لم يؤخره؛ تعقّبه ابن حجر بأنه يفهم أن الظالم إذا صرف عن منصبه أو أهين لا يعود إلى غيره، والمشاهد في بعضهم بخلافه، فالأولى جعله غالبيًّا من الإفلات، وهو خروج من مضيق. وتمام الحديث في البخاري: «ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»، وفيه تسلية للمظلوم، ووعيد للظالم، وأنه لا يغتر

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ١١٢).

(٣) آل عمران: الآية (١٧٨).

بالإمهال؛ فإنه ليس بإهمال»[١].

وقال القاسمي: «فيه إشعار.. وإعلام بسنته تعالى في أخذ الظالمين التي لا تتبدل، وإنذار كلّ ظالم ظَلَم نفسه أو غيره من سوء العاقبة»[٢].

* * *

---

(١) فيض القدير (٢/ ٢٦٤).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ١٦٨-١٦٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين ونصرة الأنبياء وإنجائنا المؤمنين ﴿لَآيَةً﴾؛ أي: عظةً واعتبارًا على صدق موعودنا في الدار الآخرة، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾؛ أي: أولهم وآخرهم، فلا يبقى منهم أحد؛ كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[3].

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾؛ أي: يوم عظيم تحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الرسل جميعهم، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم؛ من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيهم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها»[4].

* * *

(١) غافر: الآية (٥١).

(٢) إبراهيم: الآيتان (١٣و١٤).

(٣) الكهف: الآية (٤٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: ما نؤخر إقامة يوم القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة اللَّه وقضاؤه وقدره، في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم من ذرية آدم؛ أقام اللَّه الساعة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾؛ أي: لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينقص منها»[1].

وقال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما ذكر الآخرة؛ وصف ذلك اليوم بوصفين:

أحدهما: أنه يوم مجموع له الناس، والمعنى أن خلق الأولين والآخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون.

والثاني: أنه يوم مشهود. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يشهده البر والفاجر. وقال آخرون: يشهده أهل السماء وأهل الأرض. والمراد من الشهود: الحضور. والمقصود من ذكره أنه ربما وقع في قلب إنسان أنهم لما جمعوا في ذلك الوقت لم يعرف كل أحد إلا واقعة نفسه، فبيّن تعالى أن تلك الوقائع تصير معلومة للكلّ بسبب المحاسبة والمساءلة»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٩).

(٢) التفسير الكبير (١٨/ ٦٠).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

شقي: الشقاء والشقاوة والشقوة: سوء الحظ. خلافها السعادة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «جملة ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ تفصيل لمدلول جملة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾[1] الآية، وبينت عظمة ذلك اليوم في الشرّ والخير تبعًا لذلك التفصيل. فالمقصد الأوّل من هذه الجملة هو قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وما بعده، وأمّا ما قبله فتمهيد له أفصح عن عظمة ذلك اليوم. وقد جاء نظم الكلام على تقديم وتأخير اقتضاه وضع الاستطراد بتعظيم هول اليوم في موضع الكلام المتّصل؛ لأنّه أسعد بتناسب أغراض الكلام»[2].

وقال الرازي: «فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التي توهم كونها مناقضة لهذه الآية؛ منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[3]، ومنها أنهم يكذبون ويحلفون باللَّه عليه، وهو قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[4]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[5]، ومنها قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[6]؟

والجواب من وجهين:

الأول: أنه حيث ورد المنع من الكلام فهو محمول على الجوابات الحقية الصحيحة.

---

(١) الآية (١٠٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦٣).
(٣) النحل: الآية (١١١).
(٤) الأنعام: الآية (٢٣).
(٥) الصافات: الآية (٢٤).
(٦) المرسلات: الآيتان (٣٥و٣٦).

الثاني: أن ذلك اليوم يوم طويل، وله مواقف، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفّون عن الكلام، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلّمون، وفي بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم»[١].

وقال ابن عطية: «وما ورد في القرآن من ذكر كلام أهل الموقف في التلاوم والتساؤل والتجادل، فإما أن يكون بإذن، وإما أن تكون هذه هنا مختصة في تكلم شفاعة أو إقامة حجة»[٢].

وقال البقاعي: «﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ ولو أقل كلام؛ بدلالة حذف التاء، ﴿نَفْسٌ﴾ من جميع الخلق في ذلك اليوم الذي هو يوم الآخرة، وهو ظرف هذا الأجل، وهو يوم طويل جدًّا ذو ألوان وفنون وأهوال وشؤون؛ تارة يؤذن فيه في الكلام، وتارة يكون على الأفواه الختام، وتارة يسكتهم الخوف والحسرة والآلام، وتارة ينطقهم الجدال والخصام»[٣].

وقال القرطبي: «وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدين. فيقول: لمَ قال: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ و﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[٤] وقال في موضع من ذكر القيامة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٥]، وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[٦]، وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[٧]، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[٨]؟

والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم؛ وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضًا، وطرح بعضهم الذنوب على بعض؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيرًا، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء، فسمّي من يتكلم بلا حجة فيه له: غير متكلم.

وقال قوم: ذلك اليوم طويل، وله مواطن ومواقف في بعضها يمنعون من الكلام، وفي بعضها يطلق لهم الكلام؛ فهذا يدل على أنه لا تتكلم نفس

---

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٦١).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٢٠٧).
(٣) نظم الدرر (٩/ ٣٨٠-٣٨١).
(٤) المرسلات: الآيتان (٣٥و٣٦).
(٥) الصافات: الآية (٢٧).
(٦) النحل: الآية (١١١).
(٧) الصافات: الآية (٢٤).
(٨) الرحمن: الآية (٣٩).

إلا بإذنه»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾؛ أي: فمن أهل الجمع شقي، ومنهم سعيد؛ كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[٢]»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نفي الاتكال على القدر السابق والأمر بالأعمال الصالحة

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾؛ سألتُ رسول اللَّه ﷺ فقلت: يا نبي الله! فعلى ما نعمل؟ على شيء قد فُرِغ منه، أو على شيء لم يُفْرَغ منه؟ قال: «بل على شيء قد فُرِغ منه، وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم في «شفاء العليل»: «إن القدر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه؛ بل يوجب الجد والاجتهاد.. فإن النبي ﷺ أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبد ينال ما قُدر له بالسبب الذي أُقدر عليه ومُكِّن منه وهُيِّئ له، فإذا أُتي بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أم الكتاب، وكلما زاد اجتهادًا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه».

وقال: «وقد فطر اللَّه سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التي بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية، بل فطر اللَّه على ذلك سائر الحيوانات، فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم؛ فإنه سبحانه رب الدنيا والآخرة، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسّر كلاً من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة، فهو مهيأ له، ميسر له».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٩٧-٩٨). (٢) الشورى: الآية (٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٠).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩) و(٢/ ٥٢)، والترمذي (٥/ ٢٧٠/ ٣١١١) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وأبو يعلى (٩/ ٤٢١-٤٢٢/ ٥٥٧١)، وابن جرير (١٥/ ٤٨٠-٤٨١/ ١٨٥٧١)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧١-٧٣/ ١٦١إلى١٦٦) من طرق عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقال: «فالقدر السابق معين على الأعمال وما يحث عليها، ومقتض لها، لا أنه مناف لها وصادّ عنها، وهذا موضع مزلة قدم، من ثبتت قدمه فاز بالنعيم المقيم، ومن زلت قدمه عنه هوى إلى قرار الجحيم.

فالنبي ﷺ أرشد الأمة في القدر إلى أمرين، هما سببا السعادة: الإيمان بالأقدار؛ فإنه نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع. فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر، فأبى المنحرفون إلا القدح بإنكاره في أصل التوحيد، أو القدح بإثباته في أصل الشرع، ولم تتسع عقولهم التي لم يُلْقِ اللَّه عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه، وهو القدر والشرع والخلق والأمر، فهدى اللَّه الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والنبي ﷺ شديد الحرص على جمع هذين الأمرين للأمة، وقد تقدم قوله: «**احرص على ما ينفعك، واستعن باللَّه، ولا تعجز**»[1]، وإن العاجز من لم يتسع للأمرين. وباللَّه التوفيق»[2].

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ علامات يتبين بها أهل السعادة من أهل الشقاوة، قال: «من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قَدْره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم. وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من اللَّه وامتحان يبتلي بها عباده، فيَسْعد بها أقوام، ويشقى بها أقوام»[3].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ، وهو الصادق المصدوق، قال: «**إن أحدكم يُجمَع في بطن أمه أربعين يومًا، ثم علقةً مثل ذلك،**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٢/ ٢٦٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٩/ ١٠٤٥٧)، وابن ماجه (١/ ٣١/ ٧٩).

(٢) شفاء العليل (١/ ٧٧-٧٨).

(٣) الفوائد (ص: ٢٠٣).

ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث اللَّه ملكًا فيؤمر بأربع: برزقه، وأجله، وشقي أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح. فواللَّه إن أحدكم -أو الرجل- لَيعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتابُ، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها. وإن الرجل لَيَعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها»[1].

* عن علي ﷺ قال: كنّا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول اللَّه ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرة، فنكّس، فجعل ينكُتُ بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحدٍ، وما من نفس منفوسةٍ إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار، وإلا قد كُتبت شقيّةً أو سعيدةً». قال رجل: يا رسول الله! أفلا نتّكل على كتابنا، وندع العمل؛ فمن كان منّا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منّا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: «أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيَسَّرون لعمل أهل الشقاء»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾[2] الآية[3].

وقد تقدم بيان هذين الحديثين في تفسير قوله تعالى من سورة (الأعراف): ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾[4].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢، ٤٣٠، ٤١٤)، والبخاري (١١/ ٥٨٣/ ٦٥٩٤) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

(٢) الليل: الآيتان (٥و٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٨٢، ١٣٢-١٣٣، ١٢٩)، والبخاري (٨/ ٩١٨-٩١٩/ ٤٩٤٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٣٩-٢٠٤٠/ ٢٦٤٧)، وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤)، والترمذي (٥/ ٤١٠-٤١١/ ٣٣٤٤) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٦-٥١٧/ ١١٦٧٨).

(٤) الآيتان (٢٩و٣٠).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قسم أهل القيامة إلى هذين القسمين؛ شرح حال كل واحد منهما، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في الفرق بين الزفير والشهيق وجوهًا:

الوجه الأول: قال الليث: الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ولم يخرجه، والشهيق أن يخرج ذلك النفس. وقال الفراء: يقال للفرس: إنه عظيم الزفرة؛ أي: عظيم البطن، وأقول: إن الإنسان إذا عظم غمه انحصر روح قلبه في داخل القلب، فإذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت، وعند ذلك يحتاج الإنسان إلى النفس القوي لأجل أن يستدخل هواءً كثيرًا باردًا حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة؛ فلهذا السبب يعظم في ذلك الوقت استدخال الهواء في داخل البدن، وحينئذ يرتفع صدره وينتفخ جنباه. ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيواني محصورًا في داخل القلب؛ استولت البرودة على الأعضاء الخارجة، فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستنشق، فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصرًا في الصدر، ويقرب من أن يختنق الإنسان منه، وحينئذ تجتهد الطبيعة في إخراج ذلك الهواء. فعلى قياس قول الأطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة في القلب بسبب انحصار الروح فيه، والشهيق هو إخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة في إخراجه، وكل واحدة من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم.

الوجه الثاني في الفرق بين الزفير والشهيق: قال بعضهم: الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق، وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار.

الوجه الثالث: قال الحسن: قد ذكرنا أن الزفير عبارة عن الارتفاع، فنقول:

الزفير لهيب جهنم يرفعهم بقوته حتى إذا وصلوا إلى أعلى درجات جهنم وطمعوا في أن يخرجوا منها؛ ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم إلى الدرك الأسفل من جهنم، وذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[1]، فارتفاعهم في النار هو الزفير، وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق.

الوجه الرابع: قال أبو مسلم: الزفير: ما يجتمع في الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس، والشهيق: هو الذي يظهر عند اشتداد الكربة والحزن، وربما تبعهما الغشية، وربما حصل عقيبه الموت.

الوجه الخامس: قال أبو العالية: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر.

الوجه السادس: قال قوم: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف.

الوجه السابع: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾، يريد ندامةً ونفسًا عاليةً، وبكاءً لا ينقطع، وحزنًا لا يندفع.

الوجه الثامن: الزفير مشعر بالقوة، والشهيق بالضعف على ما قررناه بحسب اللغة»[2].

وقال ابن عاشور: «وخص بالذكر من أحوالهم في جهنم الزفير والشهيق تنفيرًا من أسباب المصير إلى النار؛ لما في ذكر هاتين الحالتين من التشويه بهم، وذلك أخوف لهم من الألم»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة النار وأنها مخلوقة

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في سفر، فقال: «أبرد»، ثم قال: «أبرد»، حتى فاء الفيء -يعني للتلول- ثم قال: «أبردوا بالصلاة؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم»[4].

---

(١) السجدة: الآية (٢٠).

(٢) التفسير الكبير (١٨/ ٦٣-٦٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٥)، والبخاري (٦/ ٤٠٦/ ٣٢٥٨)، ومسلم (١/ ٤٣١/ ٦١٦)، وأبو داود (١/ ٢٨٣-٢٨٤/ ٤٠١)، والترمذي (١/ ٢٩٧-٢٩٨/ ١٥٨).

وفي الباب من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: ربِّ أكل بعضي بعضًا، فأذِن لها بنَفَسَين: نَفَسٍ في الشتاء ونَفَس في الصيف، فأشدُّ ما تجدون من الحر، وأشدُّ ما تجدون من الزمهرير»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «أما قوله: «**فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف**»؛ فيدل على أن نفسها في الشتاء غير الشتاء، ونفسها في الصيف غير الصيف. وفي رواية جماعة من الصحابة زيادة في هذا الحديث، وذلك قوله: «**فما ترون من شدة البرد؛ فذلك من زمهريرها، وما ترون من شدة الحر فهو من سمومها**» أو قال: «**من حرّها**»؛ وهذا أيضًا ليس على ظاهره، وقد فسره الحسن البصري في روايته فقال: «**اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب! أكل بعضي بعضًا، فخفف عني. قال: فخفف عنها، وجعل لها كل عام نفسين، فما كان من برد يهلك شيئًا فهو من زمهريرها، وما كان من سمومها يهلك شيئًا فهو من حرّها**».

وقوله في هذا الحديث: «**زمهرير يهلك شيئًا**» و«**حر يهلك شيئًا**»؛ تفسير ما أشكل من ذلك، والله أعلم.

وفي هذا الحديث أيضًا دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان لا تبيدان»[٣].

وقال أيضًا: «فلهذه الأحاديث وما كان مثلها قال أهل السنة: إن الجنة والنار مخلوقتان، وإنهما لا تبيدان؛ لأنهما إذا كانتا لا تبيدان حتى تبيد الدنيا، ومعلوم أن الدنيا إذا انقرضت بقيام الساعة؛ جاءت الآخرة، والآخرة غير خالية من جهنم، كما أنها غير خالية من الجنة؛ لأن الجنة رحمة الله تعالى، والنار عذابه يصيب بها من يشاء من عباده»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٥٣)، والبخاري (٦/ ٤٠٦/ ٣٢٥٩)، وابن ماجه (١/ ٢٢٣/ ٦٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٨)، والبخاري (٦/ ٤٠٦/ ٣٢٦٠)، ومسلم (١/ ٤٣١-٤٣٢/ ٦١٧)، والترمذي (٤/ ٦١٢-٦١٣/ ٢٥٩٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٤-١٤٤٥/ ٤٣١٩).

(٣) فتح البر (٢/ ١١٥).

(٤) المصدر السابق (٢/ ١١٦-١١٧).

وقال أيضًا: «وأما قوله في هذا الحديث: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب! أكل بعضي بعضًا» الحديث؛ فإن قومًا حملوه على الحقيقة، وأنها أنطقها الذي أنطق كل شيء، واحتجوا بقول اللَّه ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾[(١)]، وبقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[(٢)]، وبقوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[(٣)]؛ أي: سبّحي معه، وقال: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[(٤)]، وبقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[(٥)]، وما كان من مثل هذا، وهو في القرآن كثير؛ حملوا ذلك كله على الحقيقة، لا على المجاز، وكذلك قالوا في قوله ﷻ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[(٦)]، و﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾[(٧)]، وما كان مثل هذا كله.

وقال آخرون في قوله ﷻ: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ و﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾: هذا تعظيم لشأنها؛ ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[(٨)]؛ فأضاف إليه الإرادة مجازًا. وجعلوا ذلك من باب المجاز والتمثيل في كل ما تقدم ذكره؛ على معنى أن هذه الأشياء لو كانت مما تنطق أو تعقل لكان هذا نطقها وفعلها، وذكروا قول حسان بن ثابت:

لو أن اللؤم ينسب كان عبدًا ... قبيح الوجه أعور من ثقيف

.. فمن حمل قول النار وشكواها على هذا؛ احتج بما وصفنا. ومن حمل ذلك على الحقيقة؛ قال: جائز أن ينطقها اللَّه كما تنطق الأيدي والجلود والأرجل يوم القيامة؛ وهو الظاهر من قول اللَّه ﷻ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، ومن قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، و﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[(٩)]. قال: وقوله ﷻ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾؛ أي: تتقطع عليهم غيظًا؛ كما تقول: فلان يتّقد عليك غيظًا، وقال ﷻ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾؛ فأضاف إليها الرؤية والتغيظ إضافة حقيقية، وكذلك كل ما في القرآن من

---

(١) النور: الآية (٢٤).
(٢) الإسراء: الآية (٤٤).
(٣) سبأ: الآية (١٠).
(٤) ص: الآية (١٨).
(٥) ق: الآية (٣٠).
(٦) الفرقان: الآية (١٢).
(٧) الملك: الآية (٨).
(٨) الكهف: الآية (٧٧).
(٩) النمل: الآية (١٨).

مثل ذلك. واحتجوا بقول الله ﷻ: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾[١].

ومن هذا الباب عندهم قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾[٢]، و﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[٣]، و﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٤]، و﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[٥]. قالوا: وجائز أن تكون للجلود إرادة لا تشبه إرادتنا، كما للجمادات تسبيح وليس كتسبيحنا، وللجبال والشجر سجود وليس كسجودنا. والاحتجاج لكلا القولين يطول، وليس هذا موضع ذكره. وحمل كلام الله تعالى وكلام نبيه ﷺ على الحقيقة؛ أولى بذوي الدين والحق؛ لأنه يقص الحق، وقوله الحق، تبارك وتعالى علوًّا كبيرًا»[٦].

قلت: وهذا المذهب الأخير، وهو حمل الكلام على الحقيقة؛ هو الصواب بإذن الله، وعليه المعول.

وقد سبق الحديث عن فوائد هذين الحديثين عند تفسير قوله تعالى من سورة (البقرة): . . ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ . . . الآية (٢٤).

* عن أبي جمرة الضبعي قال: كنت أجالس ابن عباس بمكة، فأخذتني الحمّى، فقال: أبردها عنك بماء زمزم؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «**هي الحمّى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء**» أو قال: «**بماء زمزم**» - شك همام[٧].

وفي الباب من حديث عائشة ؓ[٨]، وعبد الله بن عمر ؓ[٩]، ورافع بن خديج ؓ، وفيه: «**من فور جهنم**»[١٠].

* عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**ناركم جزء من سبعين جزءًا من**

---

(١) الأنعام: الآية (٥٧). (٢) الدخان: الآية (٢٩).
(٣) مريم: الآية (٩٠). (٤) فصلت: الآية (١١).
(٥) البقرة: الآية (٧٤). (٦) فتح البر (٢/ ١١٧-١٢١).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩١)، والبخاري (٦/ ٤٠٦/ ٣٢٦١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٠/ ٧٦١٤).
(٨) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٠)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٣)، ومسلم (٤/ ١٧٣٢/ ٢٢١٠)، والترمذي (٤/ ٣٥٣/ ٢٠٧٤)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٩/ ٧٦٠٧)، وابن ماجه (٢/ ١١٤٩/ ٣٤٧١).
(٩) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٤)، ومسلم (٤/ ١٧٣١-١٧٣٢/ ٢٢٠٩)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٩/ ٧٦٠٩)، وابن ماجه (٢/ ١١٥٠/ ٣٤٧٢).
(١٠) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤١)، والبخاري (٦/ ٤٠٦/ ٣٢٦٢)، ومسلم (٤/ ١٧٣٣/ ٢٢١٢)، والترمذي (٤/ ٣٥٢-٣٥٣/ ٢٠٧٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨-٣٧٩/ ٧٦٠٦)، وابن ماجه (٢/ ١١٥٠/ ٣٤٧٣).

نار جهنم». قيل: يا رسول الله! إن كانت لكافية! قال: «**فُضِّلت عليهنّ بتسعة وستين جزءًا؛ كلهنّ مثل حرّها**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عمر: «ليس في هذا الحديث ما يحتاج إلى القول. وفيه إباحة الخبر عن القيامة والآخرة وحال النار -أجارنا الله منها وزحزحنا عنها-. وفيما نطق به القرآن من الخبر عن الآخرة والجنة والنار ما فيه معتبر لأولي الأبصار»[٢].

* عن صفوان بن يعلى عن أبيه «أنه سمع النبي ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ﴾[٣]»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال القسطلاني: «فإن قلت: كيف قال: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ﴾ بعدما وصفهم بالإبلاس؟ أجيب: بأنها أزمنة متطاولة، وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال، فيسكتون أوقاتًا لغلبة اليأس عليهم، ويستغيثون أوقاتًا لشدة ما بهم»[٥].

* عن أبي وائل قال: قيل لأسامة: لو أتيتَ فلانًا فكلّمتَهُ. قال: إنّكم لَتَرَون أنّي لا أكلّمُهُ إلاّ أُسمِعُكُمْ، إنّي أكلّمه في السّرّ دون أن أفتحَ بابًا لا أكونُ أوّلَ مَنْ فتَحَهُ. ولا أقولُ لرجلٍ -أنْ كان عليَّ أميرًا-: إنّه خيرُ النّاس؛ بعدَ شيءٍ سمعتُهُ من رسول اللّه ﷺ. قالوا: وما سمعتَهُ يقولُ؟ قال: سمعتُهُ يقولُ: «**يُجاءُ بالرّجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق أقتابُهُ في النّار، فيدور كما يدور الحمار بِرَحَاهُ، فيجتمعُ أهلُ النّار عليه، فيقولون: أَيْ فُلانُ! ما شأنُكَ؟! أليس كُنتَ تأمُرُنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! قال: كنتُ آمُرُكم بالمعروف ولا آتِيهِ، وأنهاكم عن المنكر وآتِيهِ**»[٦].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٥)، ومسلم (٤/ ٢١٨٤/ ٢٨٤٣)، والترمذي (٤/ ٦١١/ ٢٥٨٩) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) فتح البر (٢/ ١٢٨).

(٣) الزخرف: الآية (٧٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٣)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٦)، ومسلم (٢/ ٥٩٤-٥٩٥/ ٨٧١)، وأبو داود (٤/ ٢٩٠/ ٢٩٩٢)، والترمذي (٢/ ٣٨٢/ ٥٠٨) وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٤/ ١١٤٧٩).

(٥) إرشاد الساري (١١/ ٥٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٥)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠-٢٢٩١/ ٢٩٨٩).

★ **غريب الحديث:**

تندلق أقتابه: الاندلاق: خروج الشيء من مكانه. يريد خروج أمعائه من جوفه. ومنه: اندلق السيفُ من جفنه: إذا شقّه وخرج منه.

★ **فوائد الحديث:**

فيه ما أعدّ اللّه تعالى في جهنم من ألوان العذاب لمن أمر بالمعروف ولم يأته، ونهى عن المنكر وارتكبه. ولا يعني ذلك بحال ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن لم يكن مؤتمرًا في نفسه بالمعروف، منتهيًا عن المنكر؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حق متعلق بالغير، وتركه مفسدة عظمى، وسد باب الأمر إذا لم يكن هناك غيره؛ بل الذي يقال: ينبغي للآمر بالمعروف أن يجاهد نفسه في القيام بالمعروف، والانتهاء عن المنكر، وذلك الذي يظهر من فعل أسامة -كما قال الحافظ-؛ فإنه «كان يخشى على من ولِيَ ولاية -ولو صغرت- أنه لا بد له من أن يأمر الرعية بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ثم لا يأمن من أن يقع منه تقصير، فكان أسامة يرى أنه لا يتأمّر على أحد، وإلى ذلك أشار بقوله: «**لا أقول للأمير: إنّه خيرُ الناس**» أي: بل غايته أن ينجو كَفَافًا»[١].

دلت هذه الأحاديث على أن النار مخلوقة وموجودة الآن.

قال ابن أبي العز الحنفي: «اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما اللّه يوم القيامة! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله اللّه، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا!! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبّهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطّلة! وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث! لأنها تصير معطّلة مُدَدًا متطاولة!! فردّوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرّفوا النصوص عن مواضعها، وضلّلوا وبدّعوا من خالف شريعتهم.

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٦٦).

فمن نصوص الكتاب قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[2]، وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[3]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[4]»[5].

وقال: «وأما شبهة من قال: إنها لم تخلق بعد، وهي: أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارًا أن تفنى يوم القيامة، وأن يهلك كل من فيها ويموت؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[6]، و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[7].

وقد روى الترمذي في جامعه، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد! أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر»**، قال: هذا حديث حسن غريب[8].

وفيه أيضًا من حديث أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: **«من قال: سبحان اللَّه وبحمده؛ غرست له نخلة في الجنة»**، قال: هذا حديث حسن صحيح[9]. قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغًا منها؛ لم تكن قيعانًا، ولم يكن لهذا الغراس معنىً. قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[10].

فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم: إنها الآن معدومة؛ بمنزلة النفخ في الصور، وقيام الناس من القبور؛ فهذا باطل؛ يردّه ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر.

وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد اللَّه فيها لأهلها، وأنها لا يزال اللَّه

---

(١) آل عمران: الآية (١٣٣).
(٢) الحديد: الآية (٢١).
(٣) البقرة: الآية (٢٤).
(٤) النبأ: الآيتان (٢١و٢٢).
(٥) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٧٦).
(٦) القصص: الآية (٨٨).
(٧) آل عمران: الآية (١٨٥).
(٨) أخرجه: الترمذي (٥/ ٤٧٦/ ٣٤٦٢)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٤/ ١٠٣٦٣)، وفي الصغير (١/ ١٩٦)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٩١) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه عبد الرحمن بن إسحق أبو شيبة الكوفي، وهو ضعيف». وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٥).
(٩) أخرجه: الترمذي (٥/ ٤٧٧/ ٣٤٦٤)، وصححه ابن حبان (٣/ ١٠٩/ ٨٢٦)، والحاكم على شرط مسلم (١/ ٥٠١-٥٠٢)، وقال الذهبي: «على شرط البخاري».
(١٠) التحريم: الآية (١١).

يُحدِثُ فيها شيئًا بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث اللَّه فيها عند دخولهم أمورًا أخر؛ فهذا حقّ لا يمكن ردّه، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر.

وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ فأُتيتم من سوء فهمكم معنى الآية. واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن؛ نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما!! فلم تُوفَّقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وُفِّق لذلك أئمة الإسلام.

فمن كلامهم: أن المراد ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ مما كتب اللَّه عليه الفناء والهلاك ﴿هَالِكٌ﴾، والجنة والنار خلقتا للبقاء، لا للفناء، وكذلك العرش؛ فإنه سقف الجنة. وقيل: المراد: إلا ملكه. وقيل: إلا ما أريد به وجهه. وقيل: إن اللَّه تعالى أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[1]، فقالت الملائكة: هلك أهلُ الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾؛ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت. وإنما قالوا ذلك توفيقًا بينها وبين النصوص المحكمة، الدالة على بقاء الجنة، وعلى بقاء النار أيضًا، على ما يُذكَرُ عن قريب إن شاء اللَّه تعالى»[2].

* * *

(١) الرحمن: الآية (٢٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٧٩-٤٨٠).

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: أبدًا؛ وذلك أن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدًا؛ قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، بمعنى: أنه دائم أبدًا. وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار، وما سمر لنا سمير، وما لألأت العُفر بأذنابها؛ يعنون بذلك كله: أبدًا. فخاطبهم-جل ثناؤه- بما يتعارفون به بينهم، فقال: ، والمعنى في ذلك: خالدين فيها أبدًا»[1].

وقال ابن كثير: «ويحتمل أن المراد بـ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾: الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[2]؛ ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال: «**تُبدَّل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض**».

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، قال: «**لكل جنة سماء وأرض**».

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: «**ما دامت الأرض أرضًا، والسماء سماءً**».

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[3].

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١١٧).
(٢) إبراهيم: الآية (٤٨).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٨).

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة؛ حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «زاد المسير» وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيرًا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه، واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وأبي سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضًا: أن الاستثناء عائد على العُصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم اللَّه من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيرًا قط، وقال يومًا من الدهر: لا إله إلا الله؛ كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول اللَّه ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها. وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا في تفسير هذه الآية الكريمة»[1].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[2] الآية؛ هذه الآية الكريمة يُفْهَم منها كون عذاب أهل النار غير باقٍ بقاءً لا انقطاع له أبدًا، ونظيرها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾[3].

وقد جاءت آيات تدل على أن عذابهم لا انقطاع له، كقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[4].

والجواب عن هذا من أوجه:

أحدها: أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ معناه: إلا من شاء اللَّه عدم خلوده فيها من أهل الكبائر من الموحّدين.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن بعض أهل النار يخرجون منها وهم أهل

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٠-٢٨١).
(٢) الأنعام: الآية (١٢٨).
(٣) النبأ: الآية (٢٣).
(٤) النساء: الآية (١٦٩).

الكبائر من الموحّدين، ونقل ابن جرير هذا القول عن قتادة والضحاك وأبي سنان وخالد بن معدان، واختاره ابن جرير. وغاية ما في هذا القول إطلاق (ما) وإرادة (مَنْ). ونظيره في القرآن: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1].

الثاني: أن المدة التي استثناها اللَّه هي المدة التي بين بعثهم من قبورهم واستقرارهم في مصيرهم. قاله ابن جرير أيضًا.

الوجه الثالث: أن قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فيه إجمال، وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة مصرحة بأنهم خالدون فيها أبدًا. وظاهرها أنه خلود لا انقطاع له، والظهور من المرجِّحات؛ فالظاهر مقدم على المجمل؛ كما تقرر في الأصول.

ومنها: أن (إلا) في سورة (هود) بمعنى: سوى ما شاء اللَّه من الزيادة على مدة دوام السموات والأرض.

وقال بعض العلماء: إن الاستثناء على ظاهره، وإنه يأتي على النار زمان ليس فيها أحد.

وقال ابن مسعود: ليأتينّ على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد؛ وذلك بعدما يلبثون أحقابًا.

وعن ابن عباس: أنها تأكلهم بأمر اللَّه.

قال مقيده عفا اللَّه عنه: الذي يظهر لي -واللَّه تعالى أعلم- أن هذه النار التي لا يبقى فيها أحد؛ يتعين حملها على الطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين؛ كما جزم به البغوي في تفسيره؛ لأنه يحصل به الجمع بين الأدلة؛ وإعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما، وقد أطبق العلماء على وجوب الجمع إذا أمكن.

أما ما يقول كثير من العلماء من الصحابة ومن بعدهم من أن النار تفنى وينقطع العذاب عن أهلها؛ فالآيات القرآنية تقتضي عدم صحته.

وإيضاحه: أن المقام لا يخلو من إحدى خمس حالات بالتقسيم الصحيح، وغيرها راجع إليها:

---

(١) النساء: الآية (٣).

الأولى: أن يقال بفناء النار، وأن استراحتهم من العذاب بسبب فنائها.

الثانية: أن يقال: إنهم ماتوا وهي باقية.

الثالثة: أن يقال: إنهم أخرجوا منها وهي باقية.

الرابعة: أن يقال: إنهم باقون فيها إلا أن العذاب يخف عليهم.

وذهاب العذاب رأسًا واستحالته لذة؛ لم نذكرهما من الأقسام؛ لأنا نقيم البرهان على نفي تخفيف العذاب، ونفي تخفيفه يلزمه نفي ذهابه واستحالته لذة، فاكتفينا به لدلالة نفيه على نفيهما. وكل هذه الأقسام الأربعة يدل القرآن على بطلانه:

أما فناؤها؛ فقد نص تعالى على عدمه بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[1]، وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في خلود أهل الجنة وخلود أهل النار، وبيّن عدم الانقطاع في خلود أهل الجنة بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2]، وبقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[3]، وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[4]، وبيّن عدم الانقطاع في خلود أهل النار بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾؛ فمن يقول: إن للنار خبوة ليس بعدها زيادة سعير؛ رُدَّ عليه بهذه الآية الكريمة. ومعلوم أن (كلما) تقتضي التكرار بتكرار الفعل الذي بعدها، ونظيرها قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[5] الآية.

وأما موتهم؛ فقد نص تعالى على عدمه بقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾[6]، وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[7]، وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[8]، وقد بيّن ﷺ في الحديث الصحيح أن الموت يجاء به يوم القيامة في صورة كبش أملح فيُذبح، وإذا ذُبح الموت حصل اليقين بأنه لا موت؛ كما قال ﷺ: «**ويقال: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت**».

وأما إخراجهم منها؛ فنص تعالى على عدمه بقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ

---

(١) الإسراء: الآية (٩٧).
(٢) هود: الآية (١٠٨).
(٣) ص: الآية (٥٤).
(٤) النحل: الآية (٩٦).
(٥) النساء: الآية (٥٦).
(٦) فاطر: الآية (٣٦).
(٧) طه: الآية (٧٤).
(٨) إبراهيم: الآية (١٧).

﴿ٱلنَّارِ﴾[(١)]، وبقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[(٢)]، وبقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾[(٣)].

وأما تخفيف العذاب عنهم؛ فنصّ تعالى على عدمه بقوله: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾[(٥)]، وقوله: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾[(٦)]، وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[(٧)]، وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾[(٨)]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾[(٩)]، وقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾[(١٠)].

ولا يخفى أن قوله: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾، وقوله: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾؛ كلاهما فِعْل في سياق النفي، فحرف النفي ينفي المصدر الكامن في الفعل، فهو في معنى: لا تخفيف للعذاب عنهم، ولا تفتير له. والقول بفنائها يلزمه تخفيف العذاب وتفتيره المنفيان في هذه الآيات، بل يلزمه ذهابهما رأسًا، كما أنه يلزمه نفيُ ملازمة العذاب المنصوص عليها بقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، وإقامته المنصوص عليها بقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾. فظاهر هذه الآيات عدم فناء النار المصرَّح به في قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾.

وما احتج به بعض العلماء من أنه لو فرض أن الله أخبر بعدم فنائها أن ذلك لا يمنع فناءها؛ لأنه وعيد، وإخلاف الوعيد من الحسن، لا من القبيح، وأن الله تعالى ذكر أنه لا يخلف وعده، ولم يذكر أنه لا يخلف وعيده، وأن الشاعر قال:

وإني وإن أَوْعَدْتُهُ أو وعدتُهُ ... لَمُخلف إيعادي ومنجز موعدي

فالظاهر عدم صحته؛ لأمرين:

الأول: أنه يلزمه جواز ألا يدخل النار كافر؛ لأن الخبر بذلك وعيد، وإخلافه على هذا القول لا بأس به.

---

(١) البقرة: الآية (١٦٧).
(٢) السجدة: الآية (٢٠).
(٣) المائدة: الآية (٣٧).
(٤) فاطر: الآية (٣٦).
(٥) النبأ: الآية (٣٠).
(٦) الزخرف: الآية (٧٥).
(٧) الفرقان: الآية (٦٥).
(٨) الفرقان: الآية (٧٧).
(٩) النحل: الآية (٨٥).
(١٠) المائدة: الآية (٣٧)، التوبة: الآية (٦٨).

الثاني: أنه تعالى صرّح بحق وعيده على من كذّب رسله، حيث قال: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[١].

وقد تقرر في مسلك النص من مسالك العلة أن (الفاء) من حروف التعليل؛ كقولهم: سها فسجد؛ أي: سجد لعلة سهوه، وسرق فقُطعت يده؛ أي: لعلة سرقته. فقوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾؛ أي: وجب وقوع الوعيد عليهم لعلة تكذيب الرسل، ونظيرها قوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[٢].

ومن الأدلة الصريحة في ذلك: تصريحُهُ تعالى بأن قوله لا يبدل فيما أوعد به أهل النار، حيث قال: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٣].

ويستأنس لذلك بظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[٤]، وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾[٥]. فالظاهر أن الوعيد الذي يجوز إخلافه وعيدُ عصاة المؤمنين؛ لأن اللّٰه بين ذلك بقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٦].

فإذا تبين بهذه النصوص بطلان جميع هذه الأقسام؛ تعيّن القسم الخامس الذي هو خلودهم فيها أبدًا بلا انقطاع ولا تخفيف، بالتقسيم والسبر الصحيح.

ولا غرابة في ذلك؛ لأن خبثهم الطبيعي دائم لا يزول، فكان جزاؤهم دائمًا لا يزول؛ والدليل على أن خبثهم لا يزول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[٧] الآية؛ فقوله: ﴿خَيْرًا﴾؛ نكرة في سياق الشرط، فهي تعمّ، فلو كان فيهم خير ما، في وقت ما؛ لَعَلِمه اللّٰه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[٨]، وعودهم بعد معاينة العذاب؛ لا يستغرب بعده عودهم بعد مباشرة العذاب؛ لأن رؤية العذاب عيانًا كالوقوع فيه،

---

(١) ق: الآية (١٤).
(٢) ص: الآية (١٤).
(٣) ق: الآيتان (٢٨و٢٩).
(٤) لقمان: الآية (٣٣).
(٥) الطور: الآية (٧).
(٦) النساء: الآية (٤٨)،: الآية (١١٦).
(٧) الأنفال: الآية (٢٣).
(٨) الأنعام: الآية (٢٨).

لا سيما وقد قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١]، وقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[٢] الآية.

وعذاب الكفار للإهانة والانتقام، لا للتطهير والتمحيص؛ كما أشار له تعالى بقوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾[٣]، وبقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٤]. والعلم عند اللَّه تعالى»[٥].

تنبيه: وأما ما روي عن بعض الصحابة كعمر وابن مسعود وأبي هريرة ﷺ مما يخالف ما قرر؛ فلا يصح ذلك عنهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذبح الموت وفنائه

* عن عبد اللَّه بن عمر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار؛ جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يُذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة! لا موت، يا أهل النار! لا موت. فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم**»[٦].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة! فيشرئبّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار! فيشرئبّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٧]**»[٨].

---

(١) ق: الآية (٢٢). (٢) مريم: الآية (٣٨).

(٣) البقرة: الآية (١٧٤)، آل عمران: الآية (٧٧). (٤) آل عمران: الآية (١٧٨).

(٥) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص: ١٢٢-١٢٨).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٨و١٢٠-١٢١)، والبخاري (١١/ ٥٠٦/ ٦٥٤٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٨٩/ ٢٨٥٠). (٧) مريم: الآية (٣٩).

(٨) أخرجه: أحمد (٣/ ٩)، والبخاري (٨/ ٥٤٧/ ٤٧٣٠) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٨٨/ ٢٨٤٩)، والترمذي مختصرًا (٤/ ٥٩٧/ ٢٥٥٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٣/ ١١٣١٦).

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «قال القرطبي: وفي هذه الأحاديث التصريح بأن خلود أهل النار فيها لا إلى غاية أمد، وإقامتهم فيها على الدوام بلا موت ولا حياة نافعة ولا راحة؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[2]. قال: فمن زعم أنهم يخرجون منها، وأنها تبقى خالية، أو أنها تفنى وتزول؛ فهو خارج عن مقتضى ما جاء به الرسول وأجمع عليه أهل السنة»[3].

وقال القرطبي في «التذكرة»: «هذه الأحاديث مع صحتها نصّ في خلود أهل النار فيها لا إلى غاية، ولا إلى أمد، مقيمين على الدوام والسرمد من غير موت، ولا حياة، ولا راحة، ولا نجاة؛ بل كما قال في كتابه الكريم وأوضح فيه عن عذاب الكافرين: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾[4]، وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[5]، وقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾[6]؛ وقد تقدمت هذه المعاني كلها. فمن قال: إنهم يخرجون منها، وإن النار تبقى خالية، بجملتها خاوية على عروشها، وإنها تفنى وتزول؛ فهو خارج عن مقتضى المعقول، ومخالف لما جاء به الرسول، وما أجمع عليه أهل السنة والأئمة العدول، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[7]»[8].

وقوله ﷺ: **«كهيئة كبش» قال الترمذي**: «المذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وغيرهم: أنهم رووا هذه الأشياء، ثم قالوا: تُروى هذه الأحاديث، ونؤمن بها، ولا يقال: كيف؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تروى هذه الأشياء كما جاءت، ويؤمَنُ

(١) فاطر: الآية (٣٦).
(٢) السجدة: الآية (٢٠).
(٣) فتح الباري (١١/ ٥١٤).
(٤) فاطر: الآيتان (٣٦و٣٧).
(٥) النساء: الآية (٥٦).
(٦) الحج: الآيات (١٩-٢٢).
(٧) النساء: الآية (١١٥).
(٨) التذكرة (٢/ ٢١١).

بها، ولا تُفسَّر، ولا تُتوهَّم، ولا يقال: كيف؟ وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه»[١].

كما دل حديث ابن عمر رضي الله عنهما في ذبح الموت والإخبار عن خلود أهل الجنة وأهل النار على أن الجنة والنار لا تفنيان أبدًا.

قال ابن أبي العز رحمه الله: «هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.

وقال ببقاء الجنة وبفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها. وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط، لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة. وأنكره عليه عامة أهل السنة، وكفّروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض. وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث! وهو عمدة أهل الكلام المذموم، التي استدلوا بها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم. فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي؛ يمنعه في المستقبل! فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي! وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة؛ وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة! وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل ربًّا قادرًا فعّالًا لما يريد؛ فإنه لم يزل حيًّا عليمًا قديرًا. ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعًا عليه لذاته، ثم ينقلب فيصير ممكنًا لذاته، من غير تجدد شيء، وليس للأول حدّ محدود حتى يصير الفعل ممكنًا له عند ذلك الحد، ويكون قبله ممتنعًا عليه. فهذا القول تصوره كافٍ في الجزم بفساده»[٢].

وقال أيضًا: «وأما أبدية النار ودوامها؛ فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٥٩٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٨٠-٤٨١).

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد. وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي!

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون. وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ، وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

الرابع: يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تفنى بنفسها؛ لأنها حادثة، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه! وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار؛ كما تقدم.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جمادًا، لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاّف كما تقدم.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء؛ كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها؛ فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء؛ كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفّار بقاءً لا انقضاء له؛ كما قال الشيخ رحمه الله.

وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان»[2].

قلت: الصحيح القول الأخير: أن الله تعالى يخرج منها ما شاء كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار بقاءً لا انقضاء له. وقد تقدم بيان ذلك من كلام الشنقيطي -رحمه الله تعالى-. وهذه المسألة -أعني فناء النار- قد زلت فيها أقدام، فقالوا بفناء النار، واعتمدوا في ذلك آيات قد بيّنّا مدلولها فيما تقدم، واعتمدوا آثارًا تعوزها الصحة[3]. على أنها إذا صحت لم تقم بها حجة؛ وإنما تدل على بقاء النار،

---

(١) البقرة: الآيتان (٨٠و٨١).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٨٣-٤٨٤).

(٣) هذه الآثار بينها الشيخ الألباني رحمه الله في تحقيقه على رسالة «رفع الأستار» للصنعاني رحمه الله، فلتنظر.

وخروج الموحدين منها.

وقد نسبوا القول بفناء النار لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكلامه صريح وواضح في القول بأبدية النار، فانظر إن شئت «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٠٧)، و(١٥/ ١٠٩-١١٠).

أما تلميذه ابن القيم فقد مال إلى القول بالفناء والانتصار له في «حادي الأرواح»، و«شفاء العليل»، و«الصواعق المرسلة» (مختصره)، لكن المعول عليه من كلامه ما سطره في كتابه «الوابل الصيب»، قال: «ولما كان الناس على ثلاث طبقات: طيّب لا يشينه خبث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خُبث وطِيب؛ كانت دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض، ودار الخبيث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان، ودار لمن معه خبث وطيب، وهي الدار التي تفنى، وهي دار العصاة؛ فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد؛ فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم؛ أخرجوا من النار، فأدخلوا الجنة، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض، ودار الخبيث المحض»[1].

* * *

(١) الوابل الصيب (ص: ٤٩).

تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

ب الآية:

ذ: مقطوع. يقال: جذه يجذه جذًّا: إذا قطعه. قال النابغة:

لوقي المضاعف نسجه ويوقدن بالصفاح نار ال

أقوال المفسرين في تأويل الآية

بقاعي: «ولما تم أمر الأشقياء؛ عطف عليه قسيمهم، فقال:
ي: فازوا بمطالبهم، وتيسر أمرهم؛ ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: ال
الدين بالضرورة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ دائمًا أبدًا ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
رت به عادة العرب في إرادة التأبيد بلا آخر بمثل هذا،

ن عاشور: «وقد تكرر هذا الاستثناء في الآية مرتين -يعن
ي هذه الآية-.

لأوّل منهما فالمقصود أنّ أهل النّار مراتب في طول المدة،
عفى عنه؛ مثل أهل المعاصي من الموحّدين؛ كما جاء في الح
الجهنميون، في الجنّة، ومنهم الخالدون وهم المشركون والك
ة ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ استئناف بيانيّ ناشئ عن الاستثناء؛

المؤمنين غير التّائبين في العذاب إلى أن يعفو اللّه عنهم بف
بشفاعة كما في الصّحيح من حديث أنس: «يدخل ناسٌ جه
حُمَمَة أخرجوا وأدخلوا الجنّة، فيقال: هؤلاء الجهنميون»[1].

مل أن يقصد منه التّحذير من توهّم استحقاق أحد ذلك النعي
مظهر من مظاهر الفضل والرّحمة.

يلزم من الاستثناء المُعلّق على المشيئة وقوع المشيئة؛ بل إنّما
المشيئة لوقع المستثنى؛ وقد دلّت الوعود الإلهية على أنّ ا
الجنة منها. وأيًا ما كان فهُم إذا أدخلوا الجنّة كانوا خا
عنهم نعيمها، وهو معنى قوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾، وا
[1].

المعنى الأخير فسر به ابن كثير الاستثناء في الآية، قال: «معن
وامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته؛ بل هو
تعالى، فله المنة عليهم، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد ك

ابن أبي العز الحنفي: «فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد
ورة أن الرسول ﷺ أخبر به؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾؛ أي: غيـر
لك قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

ف السلف في هذا الاستثناء:

معناه: إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم
، لا لكلّهم.

وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله؛ كما تقول: واللَّه لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه.

وقيل: (إلا) بمعنى (الواو)، وهذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف. وسيبويه يجعل (إلا) بمعنى (لكن)، فيكون الاستثناء منقطعًا، ورجحه ابن جرير وقال: إن اللَّه تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولًا إلا ما شئتُ؛ أي: سوى ما شئت، ولكن ما شئت من الزيادة عليه.

وقيل: الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله؛ لا أنهم يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾[3]، ونظائره كثيرة، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن (ما) بمعنى (من)؛ أي: إلا من شاء اللَّه دخوله النار بذنوبه من السعداء.

وقيل غير ذلك.

وعلى كل تقدير، فهذا الاستثناء من المتشابه، وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ محكم. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[4]، وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[5]، وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[6].

وقد أكد اللَّه خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[7]، وهذا الاستثناء منقطع، وإذا

---

(١) الإسراء: الآية (٨٦).
(٢) الشورى: الآية (٢٤).
(٣) يونس: الآية (١٦).
(٤) ص: الآية (٥٤).
(٥) الرعد: الآية (٣٥).
(٦) الحجر: الآية (٤٨).
(٧) الدخان: الآية (٥٦).

ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قال طوائف من العلماء: إن قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أراد بها سماء الجنة وأرض الجنة؛ كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسقفه عرش الرحمن**»[٢]. وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٣]: هي أرض الجنة. وعلى هذا فلا منافاة بين انطواء هذه السماء وبقاء السماء التي هي سقف الجنة؛ إذ كل ما علا فإنه يسمى في اللغة سماءً؛ كما يسمى السحاب سماءً، والسقف سماءً.

وأيضًا فإن السموات وإن طويت، وكانت كالمهل، واستحالت عن صورتها؛ فإن ذلك لا يوجب عدمها وفسادها؛ بل أصلها باقٍ بتحويلها من حال إلى حال؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[٤]، وإذا بدلت فإنه لا يزال سماء دائمة، وأرض دائمة. والله أعلم»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دوام نعيم أهل الجنة

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة! فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار! فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم**

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٨١-٤٨٢).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٣٣٥)، والبخاري (٦/ ١٣/ ٢٧٩٠)، وأخرجه الترمذي مختصرًا (٤/ ٥٨٢/ ٢٥٢٩).

(٣) الأنبياء: الآية (١٠٥).

(٤) إبراهيم: الآية (٤٨).

(٥) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠٩-١١٠).

قد رآه. فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت. ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

* عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ينادي منادٍ: إنّ لكم أن تصحوا فلا تَسقَمُوا أبدًا، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإنّ لكم أن تشِبّوا فلا تهرموا أبدًا، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا. فذلك قوله ﷿: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)]»[(٤)].

★ **غريب الحديث:**

تسقموا: يصيبكم الضعف.

أن تشِبُّوا: بكسر الشين المعجمة وتشديد الموحدة؛ أي: تدوموا شبابًا.

فلا تبأسوا أبدًا: أي: لا يصيبكم البأس، وهو شدة الحال.

★ **فوائد الحديثين:**

دل هذان الحديثان على أن الجنة لا تفنى ولا تبيد. وقد تقدم الكلام على ذلك في أقوال المفسرين في هذه الآية.

* * *

(١) مريم: الآية (٣٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٩)، والبخاري (٨/ ٥٤٧/ ٤٧٣٠) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٨٨/ ٢٨٤٩)، والترمذي مختصرًا (٤/ ٥٩٧/ ٢٥٥٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٣/ ١١٣١٦).

(٣) الأعراف: الآية (٤٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٩٥)، ومسلم (٤/ ٢١٨٢/ ٢٨٣٧)، والترمذي (٥/ ٣٤٩/ ٣٢٤٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٥/ ١١١٨٤).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

★غريب الآية:

مرية: شكّ. أصلها من مَرَيْتُ الناقة: إذا مَسَحْتُ ضرعها للحلب.

نصيب: حظ، وهو القسم المجعول. جمعه: أَنْصِبَاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «لفظ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى له ولأمته، ولم يقع لأحد شك فيقع عنه نهي، ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة إخراجه في هذه العبارة؛ أي: حالهم أوضح من أن يمترى فيها»[1].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان، ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء؛ شرح للرسول -عليه الصلاة والسلام- أحوال الكفار من قومه فقال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾، والمعنى: فلا تكن، إلا أنه حذف (النون) لكثرة الاستعمال، ولأن (النون) إذا وقع على طرف الكلام لم يبق عند التلفظ به إلا مجرد الغنة، فلا جرم أسقطوه، والمعنى: فلا تك في شك من حال ما يعبدون في أنها لا تضر ولا تنفع.

ثم قال تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾، والمراد أنهم أشبهوا آباءهم في لزوم الجهل والتقليد.

ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، فيحتمل أن يكون المراد: إنا موفوهم نصيبهم؛ أي: ما يخصهم من العذاب. ويحتمل أن يكون المراد أنهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق فإنا موفّوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية.

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٢٠٩).

ويحتمل أيضًا أن يكون المراد: إنا موفّوهم نصيبهم من إزالة العذر، وإزاحة العلل، وإظهار الدلائل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب. ويحتمل أيضًا أن يكون الكلّ مرادًا»[١].

وقال الألوسي: «وفي هذا من الإشارة إلى مزيد فضل اللَّه تعالى وكرمه ما لا يخفى؛ حيث لم يقطع رزقهم مع ما هم عليه من عبادة غيره»[٢].

وقال ابن عاشور: «والخطاب في نحو ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ يقصد به أيُّ سامع، لا سامعٌ معيّن، سواء كان ممّن يظنّ به أن يشكّ في ذلك أم لا؛ إذ ليس المقصود معيّنًا.

ويجوز أن يكون الخطاب للنبي ﷺ، ويكون (لا تَكُ) مقصودًا به مجرّد تحقيق الخبر؛ فإنّه جرى مجرى المثل في ذلك في كلام العرب؛ مثل كلمة: لا شكّ، ولا محالة، ولا أعرفنّك، ونحوها.

ويجوز أن يكون تثبيتًا للنبي ﷺ على ما يلقاه من قومه من التصلّب في الشرك؛ أي: لا تكن شاكًّا في أنّك لقيت من قومك من التكذيب مثل ما لقيه الرّسل من أممهم؛ فإنّ هؤلاء ما يعبدون إلاّ عبادة كما يعبد آباؤهم من قبل متوارثينها عن أسلافهم من الأمم البائدة. . . ومعنى الشكّ في عبادتهم ليس إلاّ الشكّ في شأنها؛ لأنّ عبادتهم معلومة للنبي ﷺ، فلا وجه لنفي مريته فيها، وإنّما المراد نفي الشك فيما قد يعتريه من الشكّ من أنهم هل يعذّبهم اللَّه في الدنيا أو يتركهم إلى عقاب الآخرة.

وجملة ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ مستأنفة؛ تعليلًا لانتفاء الشكّ في عاقبة أمرهم في الدّنيا.

ووجه كونه علّة أنّه لمّا كان دينهم عين دين من كان قبلهم من آبائهم، وقد بلغكم ما فعل اللَّه بهم عقابًا على دينهم؛ فأنتم توقنون بأنّ جزاءهم سيكون مماثلًا لجزاء أسلافهم؛ لأنّ حكمة اللَّه تقتضي المساواة في الجزاء على الأعمال المتماثلة»[٣].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٦٩-٧٠). (٢) روح المعاني (١٢/ ١٤٨).
(٣) المصدر السابق (١٢/ ١٦٧-١٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية الأولى إصرار كفار مكة على إنكار التوحيد؛ بيّن أيضًا إصرارهم على إنكار نبوته ﷺ، وتكذيبهم بكتابه، وبيّن تعالى أن هؤلاء الكفار كانوا على هذه السيرة الفاسدة مع كل الأنبياء -عليهم السلام-، وضرب لذلك مثلًا: وهو أنه لما أنزل التوراة على موسى ﷺ اختلفوا فيه، فقبله بعضهم، وأنكره آخرون؛ وذلك يدل على أن عادة الخلق هكذا»[1].

وقال ابن عاشور: «قوله: ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: في الكتاب، وهو التّوراة. ومعنى الاختلاف فيه اختلاف أهل التّوراة في تقرير بعضها وإبطال بعض، وفي إظهار بعضها وإخفاء بعض مثل حكم الرجم، وفي تأويل البعض على هواهم، وفي إلحاق أشياء بالكتاب على أنها منه؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[2]. فهذا من شأنه أن يقع من بعضهم، لا من جميعهم، فيقتضي الاختلاف بينهم بين مُثبت ونافٍ، وهذا الاختلاف بأنواعه وأحواله يرجع إلى الاختلاف في شيء من الكتاب. فجمعت هذه المعاني جمعًا بديعًا في تعدية الاختلاف بحرف (في)...

ولأنّ الغرض لم يكن متعلّقًا ببيان المختلفين ولا بذمّهم؛ لأنّ منهم المذموم وهم الذين أقدموا على إدخال الاختلاف، ومنهم المحمود وهم المُنكرون على المبدّلين؛ كما قال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[3]، وسيجيء قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[4]؛ بل كان للتّحذير من الوقوع في مثله»[5].

---

(١) التفسير الكبير (١٨/ ٧٠).
(٢) البقرة: الآية (٧٩).
(٣) المائدة: الآية (٦٦).
(٤) الآية (١١١).
(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ١٦٩-١٧٠).

قال القاسمي: «﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾(١)»(٢).

وقال الرازي: «**وفيه وجوه**: **الأول**: أن المراد: ولولا ما تقدم من حكم اللَّه تعالى بتأخير عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم إنزال عذاب الاستئصال عليهم، لكن المتقدم من قضائه أخّر ذلك عنهم في دنياهم.

الثاني: لولا كلمة سبقت من ربك، وهي أن اللَّه تعالى إنما يحكم بين المختلفين يوم القيامة، وإلا لكان من الواجب تمييز المحق عن المبطل في دار الدنيا.

الثالث: ولولا كلمة سبقت من ربك، وهي أن رحمته سبقت غضبه، وأن إحسانه راجح على قهره، وإلا لقضي بينهم. ولما قرر تعالى هذا المعنى؛ قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، يعني أن كفار قومك لفي شك من هذا القرآن مريب»(٣).

وقال ابن كثير: «ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه؛ كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٤)؛ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾(٥)»(٦).

وقال ابن عاشور: «و(الكلمة) هي إرادة اللَّه الأزليّة وسننه في خلقه. وهي أنّه وكل النّاس إلى إرشاد الرسل للدّعوة إلى اللَّه، وإلى النّظر في الآيات، ثم إلى بذل الاجتهاد التّام في إصابة الحق، والسعي إلى الاتفاق ونبذ الخلاف بصرف الأفهام السديدة إلى المعاني، وبالمراجعة فيما بينهم، والتبصّر في الحق، والإنصاف في الجدل والاستدلال، وأن يجعلوا الحق غايتهم، والاجتهاد دأبهم وهجّيراهم.

وحكمة ذلك هي أنّ الفصل والاهتداء إلى الحقّ مصلحة للنّاس ومنفعة لهم، لا لله. وتمام المصلحة في ذلك يحصُلُ بأن يبذلوا اجتهادهم ويستعملوا أنظارهم؛ لأنّ ذلك وسيلة إلى زيادة تعقلهم وتفكيرهم»(٧).

---

(١) الأنفال: الآية (٣٣).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ١٧٢).

(٣) التفسير الكبير (١٨/ ٧٠).

(٤) الإسراء: الآية (١٥).

(٥) طه: الآيتان (١٢٩و١٣٠).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٣).

(٧) التحرير والتنوير (١٢/ ١٧١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «بمعنى: وإن كل هؤلاء الذين قصصنا عليك يا محمد قصصهم في هذه السورة؛ لمن ليوفينهم ربك أعمالهم بالصالح منها بالجزيل من الثواب، وبالطالح منها بالشديد من العقاب، فتكون (ما) بمعنى (من) واللام التي فيها جوابًا لـ(إن)، واللام في قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ لام قسم»[١].

والمعنى أعم من ذلك؛ قال ابن كثير: «ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، فقال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها.

وفي هذه الآية قراءات كثيرة، ويرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[٢]»[٣].

وقال الرازي: «المعنى: أن من عجلت عقوبته، ومن أخرت، ومن صدق الرسل، ومن كذب؛ فحالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة؛ فجمعت الآية الوعد والوعيد؛ فإن توفية جزاء الطاعات وعد عظيم، وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ توكيد الوعد والوعيد؛ فإنه لما كان عالمًا بجميع المعلومات؛ كان عالمًا بمقادير الطاعات والمعاصي، فكان عالمًا بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء، فحينئذ لا يضيع شيء من الحقوق والأجزية، وذلك نهاية البيان»[٤].

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١٢٦).
(٢) يس: الآية (٣٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٣).
(٤) التفسير الكبير (١٨/ ٧٠).

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تطغوا: الطغيان: تجاوز حد الاعتدال في كل شيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فاستقم أنت، يا محمد، على أمر ربك، والدين الذي ابتعثك به، والدعاء إليه، كما أمرك ربك، ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، يقول: ومن رجع معك إلى طاعة اللَّه والعمل بما أمره به ربه من بعد كفره، ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، يقول: ولا تعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يقول: إن ربكم، أيها الناس، بما تعملون من الأعمال كلِّها، طاعتها ومعصيتها ﴿بَصِيرٌ﴾، ذو علم بها، لا يخفى عليه منها شيء، وهو لجميعها مبصرٌ. يقول -تعالى ذكره-: فاتقوا اللَّه، أيها الناس، أن يطَّلع عليكم ربكم وأنتم عاملون بخلاف أمره، فإنه ذو علم بما تعملون، وهو لكم بالمرصاد.

وكان ابن عيينة يقول في معنى قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، ما حدثني المثنى قال: حدثنا إسحق قال: حدثنا عبد اللَّه بن الزبير، عن سفيان في قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، قال: استقم على القرآن»[1].

وقال الشوكاني: «أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه، فقال: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾؛ أي: كما أمرك اللَّه، فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه؛ لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه، كما أمره بفعل ما تعبده بفعله، وأمته أسوته في ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾؛ أي: رجع من الكفر إلى الإسلام، وشاركك في الإيمان، وهو معطوف على الضمير في

(١) جامع البيان (١٢/ ١٢٦).

﴿فَٱسْتَقِمْ﴾؛ لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد: أي: وليستقم من تاب معك، وما أعظم موقع هذه الآية وأشدّ أمرها! فإن الاستقامة كما أمر اللَّه لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة، والذوات المقدسة؛ ولهذا يقول المصطفى ﷺ: «شيبتني هود»[1] كما تقدّم. ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾، الطغيان: مجاوزة الحد. لما أمر اللَّه سبحانه بالاستقامة المذكورة؛ بين أن الغلوّ في العبادة، والإفراط في الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذي حدّه والمقدار الذي قدّره؛ ممنوع منه منهيّ عنه، وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلال الذي أذن اللَّه به ورغب فيه؛ ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: «**أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[2]. والخطاب للنبي ﷺ ولأمته تغليبًا لحالهم على حاله، أو النهي عن الطغيان خاص بالأمة. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون، والجملة تعليل لما قبلها»[3].

قال البغوي: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على رسول اللَّه ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية»[4].

وقال البيضاوي: «﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لما بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة، وأطنب في شرح الوعد والوعيد؛ أمر رسوله ﷺ بالاستقامة مثل ما أمر بها، وهي شاملة للاستقامة في العقائد، كالتوسط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصونًا من الطرفين، والأعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها، وهي في غاية العسر، ولذلك قال -عليه الصلاة والسلام-: «شيبتني هود»[5]. ﴿وَمَن تَابَ

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الترمذي (٥/ ٣٧٥/ ٣٢٩٧) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه»، وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٣) على شرط البخاري، ووافقه الذهبي. انظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٥٥). وفي الباب عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أحمد (٣/ ٢٤١)، والبخاري (٩/ ١٢٩/ ٥٠٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠/ ١٤٠١)، والنسائي (٦/ ٣٦٨-٣٦٩/ ٣٢١٧).

(٣) فتح القدير (٢/ ٧٣٨).

(٤) تفسير البغوي (٤/ ٢٠٣).

(٥) تقدم تخريجه قريبًا.

مَعَكَ﴾ أي: تاب من الشرك والكفر وآمن معك، وهو عطف على المستكن في (استقم) وإن لم يؤكد بمنفصل؛ لقيام الفاصل مقامه. ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾: ولا تخرجوا عما حد لكم؛ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو مجازيكم عليه، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي. وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف»[(١)].

وقال أبو السعود في قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الآية:

«أُمر رسول اللَّه ﷺ بالاستقامة كما أُمر به في العقائد والأعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولاسيما الأعمال الخاصة به ﷺ من تبليغ الأحكام الشرعية، والقيام بوظائف النبوة، وتحمل أعباء الرسالة، بحيث يدخل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾[(٢)] الآية، وبالجملة فهذا الأمرُ منتظمٌ لجميع محاسنِ الأحكام الأصلية والفرعية، والكمالات النظرية والعملية. والخروجُ من عُهدته في غاية ما يكون من الصعوبة؛ ولذلك قال رسول اللَّه ﷺ: «شيبتني سورةُ هود»[(٣)]»[(٤)].

قال الألوسي: «استدل بعض المفسرين على عسر الاستقامة بما شاع من قوله ﷺ: «شيبتني هود»، وأنت تعلم أن الأخبار متضافرة بضم سور أخرى إليها وإن اختلفت في تعيين المضموم كما مر أول السورة، وحينئذ لا يخفى ما في الاستدلال من الخفاء، ومن هنا قال صاحب «الكشف»: التخصيص بـ(هود) لهذه الآية غير لائح إذ ليس في الأخوات ذكر الاستقامة»[(٥)].

وقال ابن عاشور: «﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾؛ ترتب عن التسلية التي تضمّنها قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾[(٦)]، وعن التثبيت المفاد بقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[(٧)] الحضّ على الدّوام على التمسك بالإسلام على وجه قويم. وعبّر عن ذلك بالاستقامة لإفادة الدّوام على العمل بتعاليم الإسلام، دوامًا جماعه الاستقامة عليه والحذر من تغييره.

---

(١) تفسير البيضاوي (١/ ٢٦٠).
(٢) الآية (١٢).
(٣) تقدم تخريجه قريبًا.
(٤) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٤٤).
(٥) روح المعاني (١٢/ ١٥٢).
(٦) هود: الآية (١١٠).
(٧) هود: الآية (١٠٩).

ولمّا كان الاختلاف في كتاب موسى ﷺ إنّما جاء من أهل الكتاب؛ عطف على أمر النبي ﷺ بالاستقامة على كتابه أمرَ المؤمنين بتلك الاستقامة أيضًا؛ لأنّ الاعوجاج من دواعي الاختلاف في الكتاب بنهوض فرق من الأمة إلى تبديله لمجاراة أهوائهم، ولأنّ مخالفة الأمّة عمدًا إلى أحكام كتابها إن هو إلاّ ضرب من ضروب الاختلاف فيه؛ لأنّه اختلافها على أحكامه. وفي الحديث: «**فإنّما أهلكَ الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم واختلافُهم على أنبيائهم**»[(١)]، فلا جرم أن كانت الاستقامة حائلًا دون ذلك؛ إذ الاستقامة هي العمل بكمال الشريعة بحيث لا ينحرف عنها قِيد شبر. ومتعلقها العمل بالشريعة بعد الإيمان؛ لأنّ الإيمان أصل فلا تتعلّق به الاستقامة. وقد أشار إلى صحّة هذا المعنى قول النبي ﷺ لأبي عَمْرة الثقفي لمّا قال له: «يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك. قال: **قل: آمنتُ باللّه، ثم استقِمْ**»[(٢)] فجعل الاستقامة شيئًا بعد الإيمان.

ووُجّه الأمر إلى النبي ﷺ تنويهًا بشأنه ليبنى عليه قوله: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ فيشير إلى أنّه المتلقّي للأوامر الشرعيّة ابتداءً. وهذا تنويه له بمقام رسالته، ثم أُعلم بخطاب أمّته بذلك بقوله: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾. وكاف التّشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ في موضع الحال من الاستقامة المأخوذة من (استقم). ومعنى تشبيه الاستقامة المأمور بها بما أمر به النبي ﷺ لكون الاستقامة مماثلة لسائر ما أمر به، وهو تشبيه المجمل بالمفصّل في تفصيله بأن يكون طبقه. ويؤول هذا المعنى إلى أن تكون (الكاف) في معنى (على) كما يقال: كن كما أنت؛ أي: لا تتغيّر، ولتشبه أحوالك المستقبلة حالتك هذه.

﴿وَمَن تَابَ﴾ عطف على الضمير المتّصل في (أمرت). ومصحّح العطف موجود وهو الفصل بالجار والمجرور.

﴿وَمَن تَابَ﴾ هم المؤمنون؛ لأنّ الإيمان توبة من الشّرك، و﴿مَعَكَ﴾ حال من ﴿تَابَ﴾، وليس متعلّقًا بـ﴿تَابَ﴾؛ لأنّ النبي ﷺ لم يكن من المشركين.

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٥٠٨)، والبخاري (١٣/ ٣١٢/ ٧٢٨٨)، ومسلم (٢/ ٩٧٥/ ١٣٣٧)، والنسائي (٥/ ١١٦-١١٧/ ٢٦١٨)، وابن ماجه (١/ ٣/ ١، ٢).

(٢) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

وقد جمع قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أصول الصّلاح الديني وفروعه؛ لقوله: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾. قال ابن عبّاس: «ما نزل على رسول اللّه ﷺ آية هي أشدّ ولا أشقّ من هذه الآية عليه». ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب: «شيبتني (هود) وأخواتها». وسئل عمّا في (هود) فقال: «قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾».

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ موجه إلى المؤمنين الذين صدق عليهم ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

والطغيان أصله التّعاظم والجراءة وقلة الاكتراث، وتقدّم في قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] في سورة (البقرة). والمراد هنا الجراءة على مخالفة ما أمروا به، قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾[2]. فنهى اللّه المسلمين عن مخالفة أحكام كتابه كما نهى بني إسرائيل.

وقد شمل الطغيان أصول المفاسد، فكانت الآية جامعة لإقامة المصالح ودَرْء المفاسد، فكان النهي عنه جامعًا لأحوال مصادر الفساد من نفس المفسد وبقي ما يخشى عليه من عدوى فساد خليطه فهو المنهي عنه بقوله بعد هذا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[3].

وعن الحسن البصري: جعل اللّه الدّين بين لاءَيْن: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾.

وجملة ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ استئناف لتحذير من أخفى الطغيان بأن اللّه مطلع على كل عمل يعمله المسلمون، ولذلك اختير وصف ﴿بَصِيرٌ﴾ من بين بقية الأسماء الحسنى لدلالة مادته على العلم البين ودلالة صيغته على قوته»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأمر بالاستقامة وبيانها

* عن سفيان بن عبد اللّه الثقفي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! قل لي في

---

(١) البقرة: الآية (١٥). (٢) طه: الآية (٨١).

(٣) الآية (١١٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ١٧٥-١٧٧).

الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك -وفي حديث أبي أسامة: غيرك- قال: «قل: آمنت بالله، فاستقم»[١].

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائد هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٢] من سورة (آل عمران).

*** عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة»[٣].**

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائد هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[٤] الآية؛ من سورة (التوبة).

قلت: مما تقدم من توجيهات المفسرين -رحمهم الله- في هذه الآية يستخلص أن الاستقامة هي الصراط المستقيم، الذي هو كمال الهداية في القول والفعل والظاهر والباطن، وعدم الوقوع في أية مخالفة صغيرة أو كبيرة، وعدم الإخلال بأي أمر من الأوامر واجبها ومستحبها، فذلك هو كمال الاستقامة. وهذا الأمر مَثَّله النبي ﷺ وإخوانه من الأنبياء قبله، فكانوا في أعلى درجات الاستقامة، فمدحهم الله وزكاهم في كتبه وعلى لسان نبيه ﷺ، كما قال الله فيهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٥]، وقال للنبي ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[٦]، وفي آخر سورة (مريم) ذكر مجموعة منهم وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾[٧]، وتبعهم أصحابهم رضي الله عنهم، وكان المثل الأعلى في الأصحاب أصحاب

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤١٣)، ومسلم (١/ ٦٥/ ٣٨)، ورواه الترمذي (٤/ ٥٢٤-٥٢٥/ ٢٤١٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤/ ٣٩٧٢).

(٢) الآية (٥١).

(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٢٦/ ٣٩)، والنسائي (٨/ ٤٩٦-٤٩٨/ ٥٠٤٩).

(٤) الآية (١٢٨).

(٥) الأنعام: الآية (٩٠).

(٦) النحل: الآية (١٢٣).

(٧) مريم: الآية (٥٨).

الرسول ﷺ، فقد أثنى اللَّه عليهم في غير ما آية، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]، فمن تبعهم وكان على منوالهم وهديهم كان على الاستقامة، ومن يسر اللَّه له الاستقامة حاز خيري الدنيا والآخرة، فهي عصمة ونجاة من كل شر، وسبب لكل خير وهدى ورحمة، فالمستفيد منها هو المستقيم نفسه، واللَّه غني عن العالمين لا يستفيد من طاعة طائع، ولا يضره معصية عاص، فالعبد كل أحوال الاستقامة خير له، والمقارنة بين الأخيار والفجار، والهداة والضالين تبرز لك الفوارق، وتبين لك نعمة اللَّه عليك، فلو قرأت أخبار عباد الأصنام ورأيتهم وأحوالهم؛ لسجدت للَّه شكرًا، ولو رأيت ما عليه أهل البدع في بدعهم كأنهم حمقى لا عقول لهم، والعبث هو صفتهم، واللهو واللعب هو دينهم، كما قال اللَّه فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾[2]، والكذب والبهتان والافتراء هو سفينتهم عليها يركبون، وعلى أموال الناس يستولون بأسماء يخترعونها فينسبون أنفسهم للولاية والكشف، وهكذا لو رأيت الفرق بين المسلم والنصراني، فالمسلم يعبد الواحد الأحد، والنصراني يعبد صنمًا ليس له سند، وهكذا لو تتبعت واقع اليهود وما وصلوا إليه من خبث ومكر وخديعة، وما حرفوا به كتب اللَّه وزادوا ونقصوا؛ لحمدت اللَّه على نعمة الاستقامة على دينه. وهذه معادلة لا نهاية لها يجب على المسلم أن يتتبعها حتى يعلم فضل اللَّه عليه على استقامته، فيعلم الفرق بين المشرك والموحد، وبين السني والمبتدع، وبين المرابي وآكل الحلال، وبين الزانية والعفيفة، والزاني والعفيف، وهكذا من تتبع جزئيات الاستقامة يجد نفسه دائمًا رابحًا مستفيدًا، والمخالف لها خاسر في الحال والمآل. فنرجو اللَّه أن يجعلنا من أهل الاستقامة، وأن يهدينا سبلها، وأن يختم لنا بالحسنى.

* * *

---

(١) التوبة: الآية (١٠٠).

(٢) الأعراف: الآية (٥١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

تركنوا: الركون إلى الشيء: الميل والسكون إليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن الجوزي: «وفي المراد بهذا الركون أربعة أقوال:

أحدها: لا تميلوا إلى المشركين؛ قاله ابن عباس.

والثاني: لا تَرضوا أعمالهم؛ قاله أبو العالية.

والثالث: لا تلحقوا بالمشركين؛ قاله قتادة.

والرابع: لا تُداهنوا الظلمة؛ قاله السدي وابن زيد»[١].

قلت: وهذه المعاني كلها تدور في فلك واحد، وهو تحقيق البراءة من المخالفين لدين الله تبارك وتعالى.

وقال القرطبي في هذه الآية: «أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾. الركون حقيقة الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به. قال قتادة: معناه: لا تودوهم ولا تطيعوهم. ابن جريج: لا تميلوا إليهم. أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم؛ وكله متقارب. وقال ابن زيد: الركون هنا: الإدهان، وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم.

الثانية: قرأ الجمهور: ﴿تَرْكَنُوٓاْ﴾ بفتح الكاف؛ قال أبو عمرو: هي لغة أهل الحجاز.

وقرأ طلحة بن مصرف وقتادة وغيرهما: ﴿تَرْكُنُوٓاْ﴾ بضم الكاف؛ قال الفراء:

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٢٧-١٢٨).

وهي لغة تميم وقيس.

وجوز قوم رَكَنَ يَرْكَنُ مثل مَنَعَ يَمْنَعُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قيل: أهل الشرك. وقيل: عامة فيهم وفي العصاة؛ على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾[١] الآية. وقد تقدم. وهذا هو الصحيح في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة، وقد قال حكيم:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتقية؛ فقد مضى القول فيها في (آل عمران) و(المائدة). وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تحرقكم؛ بمخالطتهم ومصاحبتهم، وممالأتهم على إعراضهم، وموافقتهم في أمورهم»[٢].

قال الشوكاني: «وقد اختلف أيضًا الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة؟ فقيل: خاصة، وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين، وأنهم المرادون بالذين ظلموا، وقد روي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون؛ لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فإن قلت: وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتًا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة، بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح: «**أطيعوا السلطان وإن كان عبدًا حبشيًا رأسه كالزبيبة**»[٣]، وورد وجوب طاعتهم ما

(١) الأنعام: الآية (٦٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٠٨).

(٣) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: أحمد (٣/ ١١٤)، والبخاري (١٣/ ١٥٢/ ٧١٤٢)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٥/ ٢٨٦٠).

أقاموا الصلاة، وما لم يظهر منهم الكفر البواح، وما لم يأمروا بمعصية اللَّه. وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله؛ ومن جملة ما يأمرون به تولي الأعمال لهم، والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله؛ ومن جملة ما يأمرون به: الجهاد، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم، وإقامة الحدود على من وجبت عليه. وبالجملة؛ فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرون به مما لم يكن من معصية اللَّه، ولا بدّ في مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم، ونحو ذلك مما لا بدّ منه، ولا محيص عن هذا الذي ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة؛ لتواتر الأدلة الواردة به، بل قد ورد به الكتاب العزيز: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]، بل ورد أنهم يعطون الذي لهم من الطاعة، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما في بعض الأحاديث الصحيحة: «**أعطوهم الذي لهم، واسألوا اللَّه الذي لكم**»[2]، بل ورد الأمر بطاعة السلطان، وبالغ في ذلك النبي ﷺ حتى قال: «**وإن أخذ مالك وضرب ظهرك**»[3]. فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون؛ فمجرّد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من مخالطة هي ميل وسكون، وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهرًا وباطنًا؛ فلا يتناول النهي في هذه الآية من مال إليهم في الظاهر، لأمر يقتضي ذلك شرعًا كالطاعة، أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، إذا لم يكن له ميل إليهم في الباطن، ولا محبة، ولا رضا بأفعالهم. قلت: أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن في معصية الله؛ فهي -على فرض صدق مسمى الركون عليها- مخصصة لعموم النهي عنه بأدلتها التي قدّمنا الإشارة إليها، ولا شك في هذا ولا ريب، فكل من أمروه ابتداء أن يدخل في شيء من الأعمال التي أمرها إليهم ما لم يكن من معصية اللَّه، كالمناصب الدينية

(١) النساء: الآية (٥٩).

(٢) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أحمد (١/ ٣٨٤)، والبخاري (١٣/ ٥/ ٧٠٥٢).

(٣) أخرجه من حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٤٠٣)، ومسلم (٣/ ١٤٧٥/ ١٨٤٧(٥٢)، وأبو داود (٤/ ٤٤٤- ٤٤٦/ ٤٢٤٤).

ونحوها، إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه؛ فذلك واجب عليه فضلًا عن أن يقال: جائز له.

وأما ما ورد من النهي عن الدخول في الإمارة؛ فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والأمراء جمعًا بين الأدلة، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به، كما ورد تعليل النهي عن الدخول في الإمارة بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة، أو دفع مفسدة عامة أو خاصة، مع كراهة ما هم عليه من الظلم، وعدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم، وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة؛ فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا، فهو مخصص بالأدلة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد، والأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى[1]، ولا تخفى على الله خافية؛ وبالجملة فمن ابتلي بمخالطة من فيه ظلم؛ فعليه أن يزن أقواله وأفعاله، وما يأتي وما يذر بميزان الشرع، فإن زاغ عن ذلك؛ فعلى نفسها براقش تجني، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته؛ فهو الأولى له، والأليق به. يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وقوّنا على ذلك ويسّره لنا، وأعنّا عليه»[2].

قلت: ما قاله الإمام المفسر الشوكاني من التفصيل في طاعة ولاة الأمور من وجوب طاعتهم إذا لم يأمروا بمعصية أو يُرى منهم الكفرُ البواح أو الدعوة إليه؛ هو الحق الذي لا مرية فيه؛ فإن الخروج على ولاة الأمور وعصيانهم فيه من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله؛ من إراقة الدماء، وتشتيت الكلمة، وإضعاف جماعة المسلمين، وإحداث مذاهب مخالفة باطلة، كما وقع لكثير من الشاذين في تاريخ الإسلام أو المخطئين المتأولين، فقد ترتب على خروجهم مفاسد كثيرة ظهر أثرها على الأمة الإسلامية طيلة تاريخها، كما وقع في قتل عمر وعثمان وعلي والحسين وابن الزبير

---

(١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ: أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (١/ ١١/ ١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١)، والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧)، والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧).

(٢) فتح القدير (٢/ ٧٣٩-٧٤١).

-رضي اللَّه عنهم جميعًا-، وما تزال هذه المذاهب الفاسدة قائمة يدافع عنها كل شاذ وكل من أراد قيام فتنة، ونحن في عصرنا هذا نعاني من هذه الفتن؛ من تمزيق وحدة المسلمين، وتسليط الأعداء عليهم، والمعاناة من ضعف العدة والعدد، فهم لا طاقة لهم بمواجهة عدوهم؛ فقد فاقهم في كل أسباب القوة، وتمكن بالسلاح والعدد، وتمسك بزمام القيادة السياسية، فكل من لم يتابعه على ما يريده أو عصاه فيما يأمر به سلط عليه كلابه، وأوقعه في حفرة من الفتن لا يستطيع الخروج منها، فالحكمة مطلوبة في كل شيء، والمداراة مع المخالف أمر شرعي، والمداهنة والنفاق لا يجوز من مسلم، وتبني الضلال والنفاق والكفر والزندقة هو منهاج المنافقين الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، فمن سلك سبيلهم فهو في الدرك الأسفل من النار، فالمرء مع من أحب، واللَّه المستعان.

قال البيضاوي: «قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: ولا تميلوا إليهم أدنى ميل؛ فإن الركون هو الميل اليسير؛ كالتزيي بزيهم، وتعظيم ذكرهم واستدامته. ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ بركونكم إليهم. وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلمًا كذلك؛ فما ظنك بالركون إلى الظالمين؛ أي: الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بها؛ للتثبّت على الاستقامة التي هي العدل؛ فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفريط فإنه ظلم على نفسه وغيره، بل ظلم في نفسه»[1].

قال ابن عاشور: «وقد جمع قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أصلي الدين، وهما: الإيمان، والعمل الصالح. وتقدّم آنفًا قول الحسن: جعل اللَّه الدين بين لاءين: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾»[2].

* * *

(١) تفسير البيضاوي (١/ ٢٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

★ غريب الآية:

زلفًا: الزُّلَف: هي الساعات الأولى من الليل. أصلها من الزُّلْفى: وهي القربة. قال العجاج:

ناج طواه الأين مما وجفا طيّ الليالي زُلَفًا فَزُلَفا
سماوةَ الهلالِ حتّى احْقَوْقَفا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «انظر إلى الأمر والنهي في هذه الآيات، حيث جاء الخطاب في الأمر: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[1]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ موحدًا في الظاهر، وإن كان المأمور به من حيث المعنى عامًّا، وجاء الخطاب في النهي: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾[2] موجهًا إلى غير الرسول ﷺ، مخاطبًا به أمته، فحيث كان بأفعال الخير توجه الخطاب إليه، وحيث كان النهي عن المحظورات عدل عن الخطاب عنه إلى غيره من أمته، وهذا من جليل الفصاحة، ولا خلاف أنّ المأمور بإقامتها هي الصلوات المكتوبة، وإقامتها دوامها، وقيل: أداؤها على تمامها، وقيل: فعلها في أفضل أوقاتها، وهي ثلاثة الأقوال التي في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3].

وانتصب ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ على الظرف. وطرف الشيء يقتضي أن يكون من الشيء، فالذي يظهر أنهما الصبح والعصر؛ لأنهما طرفا النهار. . وقد ادعى

---

(١) هود: الآية (١١٢).

(٢) هود: الآية (١١٣).

(٣) المزمل: الآية (٢٠).

الطبري والماوردي الإجماع على أنّ أحد الطرفين الصبح، والخلاف في ذلك على ما نذكره. وممن قال: هما الصبح والعصر؛ الحسن، وقتادة، والضحاك، وقال: الزّلف المغرب والعشاء، وليست الظهر في هذه الآية على هذا القول؛ بل هي في غيرها. وقال مجاهد ومحمد بن كعب: الطرف الأول الصبح، والثاني الظهر والعصر، والزلف المغرب والعشاء، وليست الصبح في هذه الآية. وقال ابن عباس والحسن أيضًا: هما الصبح والمغرب، والزلف العشاء، وليست الظهر والعصر في الآية. وقيل: هما الظهر والعصر، والزلف المغرب والعشاء والصبح، وكأن هذا القائل راعى الجهر بالقراءة والإخفاء. واختار ابن عطية قول مجاهد، وجعل الظهر من الطرف الثاني ليس بواضح، إنما الظهر نصف النهار، والنصف لا يسمى طرفًا إلا بمجاز بعيد، ورجح الطبري قول ابن عباس: وهو أنّ الطرفين هما الصبح والمغرب، ولا نجعل المغرب طرفًا للنهار إلا بمجاز، إنما هو طرف الليل»[١].

وقال القرطبي: «لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان، وإليها يفزع في النوائب؛ وكان النبي ﷺ إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة[٢]»[٣].

وقال: «ذكر اللَّه سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها، وسجودها، وقيامها، وقراءتها، وأسمائها، فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، وقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾[٤] الآية، وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[٥]، وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[٦]، وقال: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾[٧]، وقال: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[٨]،

(١) البحر المحيط (٥/ ٢٦٩-٢٧٠).
(٢) أخرجه من حديث حذيفة ﷺ: أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (٢/ ٧٨/ ١٣١٩)، وحسن إسناده الشيخ الألباني.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٠٩).
(٤) الإسراء: الآية (٧٨).
(٥) الروم: الآيتان (١٧و١٨).
(٦) طه: الآية (١٣٠).
(٧) الحج: الآية (٧٧).
(٨) البقرة: الآية (٢٣٨).

وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[١] على ما تقدم، وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[٢]؛ أي: بقراءتك.

وهذا كله مجمل أجمله في كتابه، وأحال على نبيه في بيانه؛ فقال جلّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٣]، فبيّن ﷺ مواقيت الصلاة، وعدد الركعات والسجدات، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها، وما لا تصح الصلاة إلا به من الفرائض، وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال في صحيح البخاري: «**صلُّوا كما رأيتموني أصلّي**»[٤]. ونقل ذلك عنه الكافة، على ما هو معلوم، ولم يمت النبي ﷺ حتى بيّن جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدِّين، وأوضح السبيل؛ قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٥]»[٦].

وقال ابن كثير: «وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضًا في قول، واللَّه أعلم»[٧].

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ذهب جمهور المتأولين من صحابة وتابعين إلى أن (الحسنات) يراد بها الصلوات الخمس؛ وإلى هذه الآية ذهب عثمان ﷺ عند وضوئه على المقاعد، وهو تأويل مالك، وقال مجاهد: الحسنات: قول الرجل: سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله إنما هو على جهة المثال في الحسنات، ومن أجل أن الصلوات الخمس هي أعظم الأعمال، والذي يظهر أن لفظ الآية لفظ عامّ

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠٤). (٢) الإسراء: الآية (١١٠).

(٣) النحل: الآية (٤٤).

(٤) أخرجه من حديث مالك بن الحويرث ﷺ: أحمد (٥/ ٥٣)، والبخاري (٢/ ١٤٢/ ٦٣١)، ومسلم (١/ ٤٦٥-٤٦٦/ ٦٧٤)، وأبو داود (١/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٥٨٩)، والترمذي (١/ ٣٩٩/ ٢٠٥)، والنسائي (٢/ ٣٣٦/ ٦٣٤).

(٥) المائدة: الآية (٣). (٦) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١١٢-١١٣).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٨٤).

في الحسنات، خاصّ في السيئات بقوله ﷺ: «ما اجتنبت الكبائر»[(١)]»[(٢)].

وقال أبو حيان: «والصغائر التي تذهب هي بشرط التوبة منها وعدم الإصرار عليها، وهذا نص حذاق الأصوليين. ومعنى إذهابها: تكفير الصغائر، والصغائر قد وجدت، وأذهبت الحسنات ما كان يترتب عليها، لا أنها تذهب حقائقها؛ إذ هي قد وجدت. وقيل: المعنى: إنّ فعل الحسنات يكون لطفًا في ترك السيئات، لا أنها واقعة؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال القاسمي: «﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ أي: التي من جملتها -بل عمدتها- ما أمرت به من الصلوات؛ ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: التي قلما يخلو منها البشر؛ أي: يكفّرنها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إقامة الصلوات في الأوقات المذكورة، ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: ذكرى له تعالى، وإحضار للقلب معه، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لعظمته»[(٥)].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بالذكرى»[(٦)].

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصلوات، ووصفها بـ﴿ذِكْرَىٰ﴾؛ أي: هي سبب ذكر، وموضع ذكرى. ويحتمل أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإخبار بـ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فتكون هذه الذكرى تحض على الحسنات، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي في هذه السورة، وهو تفسير الطبري.

ثم أمره تعالى بالصبر، وجاءت هذه الآيات في نمط واحد: أعلمه اللّه تعالى أنه يوفي جميع الخلائق أعمالهم المسيء والمحسن، ثم أمره بالاستقامة والمؤمنين معه، ثم أمره بإقامة الصلوات ووعد على ذلك، ثم أمره بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات اللّه تعالى، ثم وعد بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾»[(٧)].

وقال أبو السعود: «﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ التي من جملتها بل عُمدتُها ما أمِرْت به من

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤٠٠)، ومسلم (١/ ٢٠٩/ ٢٣٣(١٦))، والترمذي (١/ ٤١٨/ ٢١٤)، وابن ماجه (١/ ٣٤٥/ ١٠٨٦).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٢١٢-٢١٣).

(٣) العنكبوت: الآية (٤٥).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٢٧٠).

(٥) محاسن التأويل (٩/ ١٧٦).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١١٣).

(٧) المحرر الوجيز (٣/ ٢١٣).

الصلوات ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ التي قلما يخلو منها البشر؛ أي: يكفّرنها؛ وفي الحديث: «إن الصلاة إلى الصلاة كفّارةٌ لما بينهما ما اجتُنبت الكبائر»[1]، وقيل: نزلت في أبي اليسر الأنصاريِّ إذ قبّل امرأةً ثم ندِم، فأتى رسولَ اللَّه ﷺ فأخبره بما فعل، فقال ﷺ: «أنتظرُ أمرَ ربي»، فلما صلى صلاةَ العصر نزلت، قال ﷺ: «نعم، اذهب فإنها كفارةٌ لما عمِلْت»، أو يمنعْن من اقترافها؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[2]. ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾[3] فما بعده، وقيل: إلى القرآن، ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: عظةٌ للمتّعظين.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ على مشاقّ ما أُمِرْت به في تضاعيف الأوامر السابقة. وأما ما نُهيَ عنه من الطغيان والركون إلى الذين ظلموا؛ فليس في الانتهاء عنه مشقةٌ؛ فلا وجهَ لتعميم الصبر له، اللهم إلا أن يُراد به ما لا يمكن عادةً خلوُّ البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها، ومن يسير ميل بحكم البشرية إلى من وُجد منه ظلمٌ ما، فإن في الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يوفيهم أجورَ أعمالهم من غير بخس أصلًا؛ وإنما عبَّر عن ذلك بنفي الإضاعة مع أن عدمَ إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقةً، كيف لا والأعمالُ غيرُ موجبة للثواب حتى يلزَم من تخلفه عنها ضياعُها؛ لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدورُه عنه سبحانه من القبائح، وإبرازِ الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه؛ وإنما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامة لكل من يتصف به، وهو تعليلٌ للأمر بالصبر، وفيه إيماءٌ إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٩، ٥٠٦) وفي سنده رجل مبهم. وأخرجه الحاكم (١/ ١١٩-١٢٠) وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علة»، ووافقه الذهبي. وتعقبهما أحمد شاكر قال: «فإنه سهو منهما؛ لأن الذي احتج به مسلم هو عبد اللَّه بن السائب الكندي». وصحح أحمد شاكر الحديث، ونفى علة الرجل المبهم؛ قال: «والصحيح أنه رجل واحد روى عن أبي هريرة مباشرة هذا الحديث، ليس بينهما واسطة، ولذلك ترجمه ابن حبان في الثقات (ص: ٢٤٠) ترجمة واحدة، لم يذكر هذا التردد الذي ذكره ابن أبي حاتم وتبعه فيه صاحب التهذيب» (المسند ١٢/ ٩٨-٩٩) (شاكر).

(٢) العنكبوت: الآية (٤٥).

(٣) الآية (١١٢).

(٤) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٤٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وأن من رحمة اللَّه بعباده أن الحسنات يذهبن السيئات

* عن حذيفة ﵁ قال: «كنّا جلوسًا عند عمر ﵁، فقال: أيّكم يحفظ قول رسول اللَّه ﷺ في الفتنة؟ قلتُ: أنا، كما قاله. قال: إنّك عليه -أو عليها- لَجَرِيءٌ! قلتُ: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفّرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي. قال: ليس هذا أريد، ولكن الفتنةُ التي تموج كما يموج البحر. قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين؛ إن بينك وبينها بابًا مغلقًا. قال: أيُكسَرُ أم يُفتَح؟ قال: يُكسَر. قال: إذًا لا يُغلَقَ أبدًا. قلنا: أكان عمرُ يعلم الباب؟ قال: نعم، كما أنّ دون الغد الليلة؛ إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط. فهِبْنا أن نسأل حذيفة، فأمَرْنا مسروقًا فسأله، فقال: الباب عمر»[1].

* عن أبي هريرة ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهنّ ما لم تُغْشَ الكبائر**»[2].

* عن حُمران مولى عثمان بن عفان؛ أن عثمان بن عفّان ﵁ جلس على المقاعد، فجاء المؤذّنُ فآذَنَهُ بصلاة العصر. فدعا بماءٍ فتوضّأ. ثم قال: واللَّه لأحدّثنّكم حديثًا، لولا أنه في كتاب اللَّه ما حدّثتكموه. ثم قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ما من امرئٍ يتوضّأ، فيحسِن وضوءَهُ، ثم يصلّي الصلاة؛ إلا غُفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصلّيَها**». قال يحيى: قال مالك: أُراه يريد هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٦)، والبخاري (٢/ ٩/ ٥٢٥)، ومسلم (١/ ١٢٨و١٢٩و١٣٠/ ١٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٥-١٣٠٦/ ٣٩٥٥)، والترمذي (٤/ ٤٥٤-٤٥٥/ ٢٢٥٨)، والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٤/ ٣٢٧) مختصرًا.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٠)، ومسلم (١/ ٢٠٩/ ٢٣٣)، والترمذي (١/ ٤١٨/ ٢١٤) واللفظ له؛ من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) أخرجه: مالك (١/ ٣٠/ ٢٩)، وأحمد (١/ ٥٩)، والبخاري (١/ ٣٤٦/ ١٦٠)، ومسلم (١/ ٢٠٥-٢٠٦/ ٢٢٧)، وأبو داود (١/ ٧٨/ ١٠٦)، والنسائي (١/ ٦٨-٦٩/ ٨٤)، وابن ماجه (١/ ١٠٥/ ٢٨٥).

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن الملقن: «الظاهر أنه العموم في الكبائر والصغائر، لكنهم خصّوا مثله بالصغائر، وقالوا: إنما تكفر الكبائر بالتوبة، وكأن مستندهم في ذلك وروده مقيّدًا في مواضع، كقوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ كفّارات لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر**». فجعلوه في هذه الأمور المذكورة مقيّدًا للمطلق في غيرها. والمعنى: أن الذنوب كلها تغفر إلا الكبائر فإنها لا تغفر، وليس المراد أن الذنوب تغفر ما لم تكن كبيرة، فإن كانت فلا يغفر شيء من الصغائر؛ فإن هذا وإن كان مجملًا فسياق الحديث يأباه، وهذا مذهب أهل السنة: أن الذنوب تغفر ما لم تكن كبيرة، وأن الكبائر إنما تكفر بالتوبة. ثم كل واحدة من المذكورات من الخمس والجمعة ورمضان؛ صالح للتكفير، فإن لم يجد ما يكفّر كتب به حسنات ورفع به درجات، وإن صادف كبيرة أو كبائر ولم يصادف صغيرة رجونا أن تخفف من الكبائر»[1].

قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال بعض المنتمين إلى العلم من أهل عصرنا: إن الكبائر والصغائر يكفّرها الصلاة والطهارة، واحتج بظاهر حديث الصنابحي[2] هذا، وبمثله من الآثار، وبقوله ﷺ: «**فما ترون ذلك يُبقي من ذنوبه؟**»، وما أشبه ذلك. وهذا جهل بيّن، وموافقة للمرجئة فيما ذهبوا إليه من ذلك؛ وكيف يجوز لذي لبّ أن يحمل هذه الآثار على عمومها وهو يسمع قول اللَّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[3]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4]، في آي كثيرة من كتابه. ولو كانت الطهارة والصلاة وأعمال البر مكفّرة للكبائر، والمتطهّر المصلي غير ذاكر لذنبه الموبق ولا قاصد

---

(١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١/ ٣٥٨).

(٢) ولفظه عند مالك: «إذا توضأ العبد المؤمن فمضمض خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له». أخرجه: أحمد (٤/ ٣٤٩)، والترمذي (١/ ٧٩/ ١٠٣)، وابن ماجه (١/ ١٠٣/ ٢٨٢)، والحاكم (١/ ١٢٩-١٣٠) وقال: «صحيح على شرطهما، ولا علة له، والصنابحي صحابي مشهور»، وتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: لا».

(٣) التحريم: الآية (٨). (٤) النور: الآية (٣١).

إليه، ولا حضره في حينه ذلك أنه نادم عليه، ولا خطرت خطيئته المحيطة به بباله؛ لَمَا كان لأمر اللَّه ﷻ بالتوبة معنىً، ولكان كل من توضأ وصلى يشهد له بالجنة بإثر سلامه من الصلاة، وإن ارتكب قبلها ما شاء من الموبقات الكبائر! وهذا لا يقوله أحد ممن له فهم صحيح. وقد أجمع المسلمون أن التوبة على المذنب فرض، والفروض لا يصح أداء شيء منها إلا بقصد ونية واعتقاد أن لا عودة، فأما أن يصلي وهو غير ذاكر لما ارتكب من الكبائر، ولا نادم على ذلك؛ فمحال... وهذا يبين لك ما ذكرنا، ويوضح لك أن الصغائر تكفَّر بالصلوات الخمس لمن اجتنب الكبائر، فيكون على هذا معنى قول اللَّه ﷻ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[1] الصغائرَ بالصلاة والصوم والحج وأداء الفرائض وأعمال البر. وإن لم تجتنبوا الكبائر ولم تتوبوا منها؛ لم تنتفعوا بتكفير الصغائر إذا واقعتم الموبقات المهلكات، واللَّه أعلم. وهذا كله قبل الموت، فإن مات صاحب الكبيرة فمصيره إلى الله: إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه؛ فإن عذبه فبِجُرْمِه، وإن عفا عنه فهو أهل العفو وأهل المغفرة، وإن تاب قبل الموت وقبل حضوره ومعاينته، وندم واعتقد أن لا يعود، واستغفر ووجل؛ كان كمن لم يذنب.

وبهذا كلِّهِ الآثار الصحاح عن السلف قد جاءت، وعليه جماعة علماء المسلمين. ولو تدبر هذا القائل الحديثَ الذي فيه ذكر خروج الخطايا من فمه وأنفه ويديه ورجليه ورأسه؛ لعَلِم أنها الصغائر في الأغلب، ولعَلِم أنها معفوٌّ عنها بترك الكبائر؛ دليل ذلك قوله ﷺ: **«العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والفم يزني، ويصدق ذلك كله الفرجُ أو يكذّبه»**[2] يريد -واللَّه أعلم- أن الفرج بِعَمَلِه يوجب المهلكة، وما لم يكن ذلك فأعمال البر يغسلن ذلك كله. وقد كنت أرغب بنفسي عن الكلام في هذا الباب لولا قول ذلك القائل، وخشيت أن يغترّ به جاهل فينهمك في الموبقات؛ اتّكالًا على أنها تكفّرها الصلوات الخمس دون الندم عليها، والاستغفار والتوبة منها، واللَّه أعلم، ونسأله العصمة والتوفيق»[3].

---

(١) النساء: الآية (٣١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٦)، والبخاري (١١/ ٦١٤/ ٦٦١٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٦/ ٢٦٥٧)، وأبو داود (٢/ ٦١١-٦١٢/ ٢١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٣-٤٧٤/ ١١٥٤٤) من حديث ابن عباس ﵄.

(٣) فتح البر (١/ ٤٨٥-٤٨٩) بتصرّف.

قال ابن رجب: «والصحيح قول الجمهور: إن الكبائر لا تكفر بدون التوبة؛ لأن التوبة فرض على العباد، وقد قال ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[(١)]. وقد فسرت الصحابة كعمر وعلي وابن مسعود التوبة بالندم، ومنهم من فسرها بالعزم على أن لا يعود، وقد روي ذلك مرفوعًا من وجه فيه ضعف، لكن لا يعلم مخالف من الصحابة في هذا، وكذلك التابعون ومن بعدهم؛ كعمر بن عبد العزيز والحسن وغيرهما»[(٢)].

قال القرطبي: «ولا بُعْدَ في أن يكون بعض الأشخاص تغفر له الكبائر والصغائر بحسب ما يحضره من الإخلاص بالقلب، ويراعيه من الإحسان والأدب، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام: «وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا: الحسنات إنما تكفر الصغائر فقط، فأما الكبائر فلا تغفر إلا بالتوبة؛ كما قد جاء في بعض الأحاديث: «ما اجتنبت الكبائر»، فيجاب عن هذا بوجوه:

أحدها: أن هذا الشرط جاء في الفرائض؛ كالصلوات الخمس، والجمعة، وصيام شهر رمضان؛ وذلك أن اللَّه تعالى يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[(٤)]، فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات، وأما الأعمال الزائدة من التطوعات فلا بد أن يكون لها ثواب آخر؛ فإن اللَّه سبحانه يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[(٥)].

الثاني: أنه قد جاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر؛ كما في قوله ﷺ: «غفر له وإن كان فرّ من الزحف»[(٦)]، وفي السنن: «أتينا

---

(١) الحجرات: الآية (١١).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٢٩).
(٣) المفهم (١/ ٤٩٢).
(٤) النساء: الآية (٣١).
(٥) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).
(٦) أخرجه من حديث زيد بن حارثة ﷺ: البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٧٩-٣٨٠/ ١٢٧٦)، وأبو داود (٢/ ١٧٨/ ١٥١٧)، والترمذي (٥/ ٥٣١/ ٣٥٧٧) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وللحديث شاهد يتقوى به من رواية عبد اللَّه بن مسعود؛ أخرجه الحاكم (١/ ٥١١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي بقوله: «أبو سنان هو ضرار بن مرة؛ لم يخرج له البخاري». وأبو سنان هذا قال فيه الحافظ في «التقريب»: ثقة ثبت؛ أخرج له البخاري في الأدب المفرد، ومسلم، وغيرهما.

رسول اللَّه ﷺ في صاحب لنا قد أوجب. فقال: اعتقوا عنه يعتق اللَّه بكل عضو منه عضوًا منه من النار»[١]، وفي الصحيحين في حديث أبي ذر: «وإن زنا، وإن سرق»[٢].

الثالث: أن قوله لأهل بدر ونحوهم: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[٣]؛ إن حمل على الصغائر، أو على المغفرة مع التوبة؛ لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم. فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر لما قد علم أن الكفر لا يغفر إلا بالتوبة؛ لا يجوز حمله على مجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر.

الرابع: أنه قد جاء في غير حديث: «**أن أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة، فإن أكملها وإلا قيل: انظروا هل له من تطوع، فإن كان له تطوع أكملت به الفريضة، ثم يصنع بسائر أعماله كذلك**»[٤]. ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب؛ فإن ترك المستحب لا يحتاج إلى جبران، ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول، فعلم أنه يكمل نقص الفرائض من التطوعات. . .

الخامس: أن اللَّه لم يجعل شيئًا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر، كما أنه لم يجعل شيئًا يحبط جميع السيئات إلا التوبة. والمعتزلة مع الخوارج يجعلون الكبائر محبطة لجميع الحسنات حتى الإيمان؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

---

(١) أخرجه من حديث واثلة بن الأسقع: أبو داود (٤/ ٢٧٣-٢٧٤/ ٣٩٦٤)، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٧٢/ ٤٨٩٢)، وصححه الحاكم (٢/ ٢١٢)، ووافقه الذهبي، وابن حبان (١٠/ ١٤٥-١٤٦/ ٤٣٠٧).

(٢) أخرجه من حديث أبي ذر ﷺ: أحمد (٥/ ١٦٦)، والبخاري (٣/ ١٤٢-١٤٣/ ١٢٣٧)، ومسلم (١/ ٩٤/ ٩٥)، والترمذي (٥/ ٢٧/ ٢٦٤٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٧٤-٢٧٥/ ١٠٩٥٦).

وأخرجه من حديث أبي الدرداء ﷺ: أحمد (٢/ ٣٥٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٨/ ١١٥٦٠). قال الهيثمي (٧/ ١١٨): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٣) أخرجه من حديث علي بن أبي طالب ﷺ: أحمد (١/ ٧٩-٨٠)، والبخاري (٦/ ١٧٦-١٧٧/ ٣٠٠٧)، ومسلم (٤/ ١٩٤١-١٩٤٢/ ٢٤٩٤)، وأبو داود (٣/ ١٠٨-١١٠/ ٢٦٥٠)، والترمذي (٥/ ٣٨١-٣٨٣/ ٣٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٧/ ١١٥٨٥).

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤٢٥)، وأبو داود (١/ ٥٤٠-٥٤١/ ٨٦٤)، وابن ماجه (١/ ٤٥٨/ ١٤٢٥)، وصححه الحاكم (١/ ٢٦٢) ووافقه الذهبي. وأخرجه الترمذي (٢/ ٢٦٩-٢٧٠/ ٤١٣) وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه»، والنسائي (١/ ٢٥١/ ٤٦٤).

ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١)، فعلق الحبوط بالموت على الكفر، وقد ثبت أن هذا ليس بكافر، والمعلق بشرط يعدم عند عدمه. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾(٢)، وقال تعالى لما ذكر الأنبياء: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(٣)، وقال: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(٤) مطابق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾(٥). فإن الإشراك إذا لم يغفر، وأنه موجب للخلود في النار؛ لزم من ذلك حبوط حسنات صاحبه، ولما ذكر سائر الذنوب غير الكفر لم يعلق بها حبوط جميع الأعمال. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾(٦)؛ لأن ذلك كفر. وقوله تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾(٧)؛ لأن ذلك قد يتضمن الكفر فيقتضي الحبوط وصاحبه لا يدري كراهية أن يحبط أو خشية أن يحبط، فنهاهم عن ذلك لأنه يفضي إلى الكفر المقتضي للحبوط. ولا ريب أن المعصية قد تكون سببًا للكفر؛ كما قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر؛ فينهى عنها خشية أن تفضي إلى الكفر المحبط؛ كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ وهي الكفر ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٨) وإبليس خالف أمر اللَّه فصار كافرًا، وغيره أصابه عذاب أليم»(٩).

وقال ابن القيم: «وتأمل قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾(١٠)؛ كيف تجد تحته -بألطف دلالة وأدقها وأحسنها- أنه من اجتنب الشرك جميعه كفرت عنه كبائره، وأن نسبة الكبائر إلى الشرك كنسبة الصغائر إلى الكبائر، فإذا وقعت الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر؛ فالكبائر تقع مكفرة باجتناب الشرك، وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتق من هذا المعنى، وهو قوله ﷺ

(١) البقرة: الآية (٢١٧).
(٢) المائدة: الآية (٥).
(٣) الأنعام: الآيتان (٨٧و٨٨).
(٤) الزمر: الآية (٦٥).
(٥) النساء: الآية (٤٨)، : الآية (١١٦).
(٦) محمد: الآية (٢٨).
(٧) الحجرات: الآية (٢).
(٨) النور: الآية (٦٣).
(٩) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨٩-٤٩٤).
(١٠) النساء: الآية (٣١).

فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «ابن آدم! إنك لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لقيتك بقرابها مغفرة»[١]، وقوله: «إنّ اللَّه حرّم على النار من قال: لا إله إلا اللَّه، خالصًا من قلبه»[٢] بل محو التوحيد -الذي هو توحيد- الكبائرَ أعظمُ من محو اجتناب الكبائر للصغائر»[٣].

وينبه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على عدم الاغترار ببعض النصوص بسبب الفهم الفاسد، فيقول: «ومنهم من يغتر بفهم فاسد فَهِمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة، فاتكلوا عليه، كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[٤]، قالوا: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته، وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه؛ فإنه يرضى بما يرضى به ﷻ، واللَّه تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرّين على الكبائر، فحاشا رسوله أن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى.

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[٥]، وهذا أيضًا من أقبح الجهل؛ فإن الشرك داخل في هذه الآية؛ فإنه رأس الذنوب وأساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين؛ فإنه يغفر ذنب كل تائب من أيّ ذنب كان، ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها، وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة.

وهذا إنما أُتي صاحبه من قلة علمه وفهمه؛ فإنه سبحانه ههنا عمّم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين. وفي سورة (النساء) خصّص وقيّد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[٦]، فأخبر سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره.

---

(١) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: الترمذي (٥/ ٥١٢/ ٣٥٤٠) وقال: «حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٢) أخرجه من حديث عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٤٤٩)، والبخاري (١١/ ٢٩٠/ ٦٤٢٣)، ومسلم (١/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٣٣).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٦).

(٤) الضحى: الآية (٥).

(٥) الزمر: الآية (٥٣).

(٦) النساء: الآية (٤٨)، : الآية (١١٦).

وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[١]، فيقول: كرمه، وقد يقول بعضهم: إنه لقّن المغترّ حجّته، وهذا جهل قبيح؛ وإنما غرّه بربّه الغَرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمّارة بالسوء، وجهله، وهواه. وأتى سبحانه بلفظ (الكريم)، وهو السيد العظيم المطاع، الذي لا ينبغي الاغترار به، ولا إهمال حقه؛ فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغترّ بمن لا ينبغي الاغترار به.

وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[٢]، وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[٣]، ولم يدر هذا المغتر أن قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل: لا يدخلها؛ بل قال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها؛ فإن الصّلي أخصّ من الدخول، ونفي الأخصّ لا يستلزم نفي الأعمّ.

ثم إن هذا المغترّ لو تأمل الآية التي بعدها؛ لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضمونًا له أن يجنبها.

وأما قوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ فقد قال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥]، ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة. ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان، ولم يعمل خيرًا قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتى يقول بعضهم: صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر، ولم يدرِ هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر.

فرمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر

---

(١) الانفطار: الآية (٦).
(٢) الليل: الآيتان (١٥و١٦).
(٣) البقرة: الآية (٢٤).
(٤) الليل: الآية (١٤).
(٥) آل عمران: الآية (١٣٣).

إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر.

فكيف يكفِّر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصرّ عليها، غير تائب منها؟! هذا محال، على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفّرًا لجميع ذنوب العام على عمومه، وتكون من نصوص الوعد التي لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعًا من التكفير؛ فإذا لم يصرّ على الكبائر ساعد الصوم وعدم الإصرار، وتعاونا على عموم التكفير، كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر، مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[١]؛ فعلم أن جعل الشيء سببًا للتكفير لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل»[٢].

وقال المناوي: «قال القونوي: الطاعات كلها مطهرات؛ فتارة بطريق المحو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وبقوله هنا: «**إذا عملت سيئة**» إلخ، وتارة بطريق التبديل المشار إليه بآية: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾[٣]؛ فالمحو المذكور عبارة عن حقيقة العفو، والتبديل عن مقام المغفرة، وإن تنبهت لذلك عرفت الفرق بين العفو والمغفرة.

ثم اعلم أن لكل من المعاصي والطاعات خواصّ تتعدّى من ظاهر الإنسان لباطنه وبالعكس، ثم منها ما يقبل الزوال بسرعة، وما لا يقبل إلا ببطء وكلفة، ومنها ما يستمر حكمه إلى الموت ويزول في البرزخ، ومنها ما لا يزول إلا في المحشر، ومنها ما لا يزول إلا بعد دخول النار؛ وقد نبهت الشريعة على كل ذلك»[٤].

قال النووي: «معناه: أن الذنوب كلها تغفر إلا الكبائر؛ فإنها لا تغفر، وليس

---

(١) النساء: الآية (٣١).

(٢) الداء والدواء (ص: ٤٦-٤٩).

(٣) الفرقان: الآية (٧٠).

(٤) فيض القدير (١/ ٤٠٦).

المراد أن الذنوب تغفر ما لم تكن كبيرة، فإن كانت لا يغفر شيء من الصغائر؛ فإن هذا وإن كان محتملًا، فسياق الأحاديث يأباه. قال القاضي عياض: هذا المذكور في الحديث من غفران الذنوب ما لم تؤت كبيرة هو مذهب أهل السنة، وأن الكبائر إنما تكفرها التوبة أو رحمة اللَّه تعالى وفضله، واللَّه أعلم»[1].

وقال المناوي: «العبد -وإن توقّى- لا بدّ له من تدنيسه بالذنوب، وهو تعالى قدوس لا يقربه إلا قديس طاهر، فجعل أداء الفرائض تطهيرًا له من أدناسه ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فإذا تطهر العبد بهذه الطهارة صلح لدار الطهارة وقرب القدوس»[2].

وقال: «حكى ابن عطية عن جمهور أهل السنة أن اجتناب الكبائر شرط لتكفير هذه الفرائض للصغائر، فإن لم تجتنب فلا تكفير بالكلية. وعن الحذاق أنها تكفر الصغائر ما لم يصرّ عليها، وإنّ فعل الفرائض لا يكفر شيئًا من الكبائر أصلًا، وإلا لزم بطلان فرضية التوبة.

وقول ابن حزم: العمل يكفر الكبائر؛ ردّ بأنه إن أريد أن من عمل وهو مصرّ على كبير يغفر؛ فهو معلوم البطلان من الدين ضرورة، وأن من لم يصرّ، وحافظ على الفرائض بغير توبة، كفرت بذلك؛ فمحتمل لظاهر آية ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ﴾. كذا قرره جمع، لكن أطلق الجمهور أن الكبيرة لا يكفرها إلا التوبة»[3].

قلت: مما تقدم من مباحث وأقوال العلماء في القول بوجوب التوبة من الكبائر حتى تُكَفَّر الصغائر هو قول الأكثرين، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى عدم القول بذلك، أي: وجوب التوبة من الكبائر، فذهب إلى أن الحسنات تكفر الذنوب صغيرها وكبيرها، ولا يشترط في ذلك التوبة. والذي يظهر أن كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجيه، وأن فضل اللَّه واسع، ورحمته أكبر، وأن العبد عبده، والجنة داره، فهو أكبر من ذلك، ولكن ينبغي للمسلم أن يجدد التوبة في كل لحظة، ويتبرأ إلى اللَّه من كل أفعاله المشينة، سواء كانت كبيرة وصغيرة، فإن النبي ﷺ كان يتوب إلى اللَّه ويستغفره في المجلس مائة مرة، فعلى العاقل أن يجمع بين فعل الحسنات والتوبة

---

(١) شرح صحيح مسلم (٣/ ٩٦).
(٢) فيض القدير (٤/ ٢٤٤).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٥٨).

من الموبقات، ويجتهد في ذلك قدر ما يستطيع، فإن العمر قصير، والوقت قليل، ولا يدري الإنسان بم يختم له، فعلى الإنسان أن يجمع بين الأقوال، فيطمع في رحمته وفضله، ويتوب من موبقاته وكبائره، ويجتنب الكبائر حتى تكفر الصغائر، والعاقل من وسع تجارته حتى يكون من أكثر الناس ربحًا، ويحسن في العرض، ويتسامح في الأثمان ويقللها، فنرجو اللَّه أن يحسن واقعنا وأعمالنا.

* عن ابن مسعود ﷺ: «أن رجلًا أصاب من امرأةٍ قُبلةً، فأتى رسولَ اللَّه ﷺ فذكر ذلك له، فأُنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، قال الرجل: ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي»[(١)].

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث -والحمد لله- أن الصلاة تكفّر الذنوب، وهو تأويل قول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ على حسب ما نزع به مالك رَحِمَهُ اللَّهُ. والقول في هذا عندي كالقول في حديثه ﷺ: «الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما»[(٢)]، و«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما»[(٣)]، فسبحان المتفضّل المنعم المحسن، هو اللَّه وحده لا شريك له»[(٤)].

وقال ابن رجب: «هذا الذنب الذي أصابه هذا الرجل، وسأل عنه النبيَّ ﷺ فنزلت الآية بسببه؛ كان من الصغائر، وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الصلاة إنما تكفّر الصغائر دون الكبائر، وكذلك الوضوء، غير أن الصلاة تكفّر أكثر مما يكفر الوضوءُ؛ كما قال سلمان الفارسي ﷺ: «الوضوء يكفّر الجراحات الصغار، والمشي إلى المسجد يكفّر أكثر، والصلاة تكفّر أكثر من ذلك»»[(٥)].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٦)، والبخاري (٨/ ٤٥٣/ ٤٦٨٧)، ومسلم (٤/ ٢١١٥-٢١١٦/ ٢٧٦٣)، وأبو داود (٤/ ٦١١-٦١٢/ ٤٤٦٨)، والترمذي (٥/ ٢٧٠/ ٣١١٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣١٨/ ٧٣٢٦).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٥٩)، ومسلم (١/ ٢٠٩/ ٢٣٣)، والترمذي (١/ ٤١٨/ ٢١٤).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٤٦٢)، والبخاري (٣/ ٧٦١/ ١٧٧٣)، ومسلم (٢/ ٩٨٣/ ١٣٤٩)، والترمذي (٣/ ٢٧٢/ ٩٣٣)، والنسائي (٥/ ١٢١-١٢٢/ ٢٦٢٨)، وابن ماجه (٢/ ٩٦٤/ ٢٨٨٨).

(٤) فتح البر (٣/ ٢٠٠). (٥) فتح الباري (٤/ ٢٠٥).

* عن أبي أمامة ﵁ قال: «**بينما رسول اللَّه ﷺ في المسجد**، ونحن قُعودٌ معه، إذ جاء رجل، فقال: يا رسول الله! إني أصبتُ حدًّا فأقِمْهُ عليّ. فسكت عنه رسول اللَّه ﷺ، ثم أعاد فقال: يا رسول الله! إني أصبت حدًّا فأقِمْهُ عليّ. فسكت عنه، وأقيمت الصلاة. فلما انصرف نبي اللَّه ﷺ قال أبو أمامة: فاتّبع الرجلُ رسولَ اللَّه ﷺ حين انصرف. واتّبعتُ رسولَ اللَّه ﷺ أنظرُ ما يَرُدُّ على الرجل، فلحق الرجلُ رسولَ اللَّه ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني أصبت حدًّا فأقِمْهُ عليّ. قال أبو أمامة: فقال له رسول اللَّه ﷺ: **أرأيتَ حين خرجتَ من بيتك، أليس قد توضأتَ فأحسنتَ الوضوء**؟ قال: بلى يا رسول اللَّه. قال: **ثم شهدتَ الصلاة معنا**؟ فقال: نعم يا رسول اللَّه. قال: فقال له رسول اللَّه ﷺ: **فإن اللَّه قد غفر لك حدّك** -أو قال: **ذنبك**-»[1].

⋆ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «**قوله: «أصبت حدًّا...»** هذا الحدّ معناه: معصية من المعاصي الموجبة للتعزير، وهي هنا من الصغائر؛ لأنها كفرتها الصلاة، ولو كانت كبيرة موجبة لحد أو غير موجبة له؛ لم تسقط بالصلاة؛ فقد أجمع العلماء على أن المعاصي الموجبة للحدود لا تسقط حدودها بالصلاة. هذا هو الصحيح في تفسير هذا الحديث»[2].

* عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: سمعتُ سعدًا وناسًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يقولون: «**كان رجلان أخوان في عهد رسول اللَّه ﷺ**، وكان أحدهما أفضل من الآخر، فتُوفِّيَ الذي هو أفضلُهما، ثم عُمِّرَ الآخرُ بعده أربعين ليلة، ثم توفّي، فذُكر لرسول اللَّه ﷺ فضل الأول على الآخر، فقال: ألم يكن يصلي؟ فقالوا: بلى يا رسول اللَّه، فكان لا بأس به. فقال: ما يدريكم ماذا بلغَتْ به صلاتُهُ؟ ثم قال عند ذلك: إنما مَثَلُ الصلاة كمثل نهر جارٍ بباب رجلٍ، غَمْرٍ عَذْبٍ،

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١١٧-٢١١٨/ ٢٧٦٥)، وأبو داود (٤/ ٥٤٤/ ٤٣٨١) مختصرًا، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣١٥/ ٧٣١٣).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٦٧-٦٨).

يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فماذا تَرَوْنَ يُبقي ذلك من دَرَنِهِ؟»[١].

★ غريب الحديث:

غَمْر: الغَمْرُ، بفتح الغين وسكون الميم: الكثيرُ، أي: يَغْمُر مَنْ دخله ويُغطِّيه.

دَرَنه: الدَّرَنُ: الوَسَخ.

* عن أبي هريرة ﷺ؛ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: **«أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا ما تقول، ذلك يبقي من درنه؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو اللَّه به الخطايا»**[٢].

* عن أبي ذر ﷺ قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: **«اتق اللَّه حيثما كنتَ، وأَتْبِعِ السيئة الحسنة تمحُها، وخالق الناس بخُلُق حسن»**[٣].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن رجب: «لما كان العبد مأمورًا بالتقوى في السر والعلانية، مع أنه لا بد أن يقع منه أحيانًا تفريط في التقوى؛ إما بترك بعض المأمورات، أو بارتكاب بعض المحظورات؛ فأمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة، وهو أن يتبعها بالحسنة، قال اللَّـه ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾»[٤].

وقال أيضًا: «قوله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة» قد يراد بالحسنة التوبة من تلك السيئة... وقد أخبر اللَّه في كتابه أن من تاب من ذنبه؛ فإنه يغفر له ذنبه أو يتاب عليه؛ في مواضع كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ

---

(١) أخرجه مالك بلاغًا (١/ ١٧٤/ ٩١). ووصله: أحمد (١/ ١٧٧) واللفظ له، وابن خزيمة (١/ ١٦٠/ ٣١٠)، والحاكم (١/ ٢٠٠) وصححه، ووافقه الذهبي، والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٤٥/ ٦٤٧٢). وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٢٩٧) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٩)، والبخاري (٢/ ١٣/ ٥٢٨) واللفظ له، ومسلم (١/ ٤٦٢-٤٦٣/ ٦٦٧)، والترمذي (٥/ ١٣٩-١٤٠/ ٢٨٦٨)، والنسائي (١/ ٢٤٩/ ٤٦١).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٣و١٥٥و١٧٧)، والترمذي (٤/ ٣١٢-٣١٣/ ١٩٨٧) واللفظ له، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (١/ ٥٤) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٤١١-٤١٢).

بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[١]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]، وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[٤]، وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[٥]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٦] الآيتين»[٧].

وقال: «... وظاهر هذه النصوص تدل على أن من تاب إلى اللَّه توبة نصوحًا، واجتمعت شروط التوبة في حقه؛ فإنه يُقطع بقبول اللَّه توبته، كما يُقطع بقبول إسلام الكافر إذا أسلم إسلامًا صحيحًا. وهذا قول الجمهور، وكلام ابن عبد البر يدل على أنه إجماع. ومن الناس من قال: لا يُقطع بقبول التوبة؛ بل يرجى، وصاحبها تحت المشيئة وإن تاب، واستدلوا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٨]، فجعل الذنوب كلها تحت مشيئته، وربما استدل بمثل قوله تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[٩]، وبقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾[١٠]، وقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١١]، وقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[١٢]؛ والظاهر أن هذا في حق التائب؛ لأن الاعتراف يقتضي الندم. وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب؛ تاب اللَّه عليه**»[١٣]. والصحيح قول الأكثرين، وهذه الآيات لا تدل

---

(١) النساء: الآية (١٧).
(٢) النحل: الآية (١١٩).
(٣) الفرقان: الآية (٧٠).
(٤) طه: الآية (٨٢).
(٥) مريم: الآية (٦٠).
(٦) آل عمران: الآية (١٣٥).
(٧) جامع العلوم والحكم (١/ ٤١٦-٤١٧).
(٨) النساء: الآية (٤٨)، والآية (١١٦).
(٩) التحريم: الآية (٨).
(١٠) القصص: الآية (٦٧).
(١١) النور: الآية (٣١).
(١٢) التوبة: الآية (١٠٢).
(١٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٩٤-١٩٧)، والبخاري (٨/ ٦٢٤-٦٢٦/ ٤٧٥٨)، ومسلم (٤/ ٢١٢٩-٢١٣٦/ ٢٧٧٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٥-٤١٨/ ١١٣٦١).

على عدم القطع؛ فإن الكريم إذا أطمع لم يقطع من رجائه المطمع، ومن هنا قال ابن عباس: «إن (عسى) من اللَّه واجبة». نقله عنه علي بن أبي طلحة. وقد ورد جزاء الإيمان والعمل الصالح بلفظ (عسى) أيضًا، ولم يدل ذلك على أنه غير مقطوع به، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1]. وأما قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ فإن التائب ممن شاء أن يغفر له؛ كما أخبر بذلك في مواضع كثيرة من كتابه. وقد يراد بـ(الحسنة) في قول النبي ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة» ما هو أعمّ من التوبة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾»[2].

* عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات؛ كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت حلقة أخرى، حتى يخرج إلى الأرض»**[3].

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قال المظهر: يعني: عمل السيئات يضيق صدر عامله ورزقه، ويحيره في أمره، فلا تتيسر له أموره، ويبغضه عند الناس، فإذا عمل الحسنات تزيل حسناته سيئاته، فإذا زالت انشرح صدره، وتوسع رزقه، وتيسر له أموره، وصار محبوبًا في قلوب الناس»[4].

قال القاري: «والحديث تمثيل وبيان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾»[5].

---

(١) التوبة: الآية (١٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤١٨-٤١٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٥)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٣٩/ ٤١٤٩)، والطبراني (١٧/ ٢٨٤-٢٨٥/ ٧٨٣-٧٨٤)، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠١-٢٠٢) وقال: «وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح».

(٤) شرح الطيبي (٦/ ١٨٦٨).

(٥) المرقاة (٥/ ٢١٣).

*** عن أنس رضي الله عنه قال: «قال رجل: يا رسول الله! ما تركت من حاجة ولا داجة إلا أتيت عليها. قال: أليس تشهدُ أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال: هذا يأتي على ذلك كله»[١].**

⋆ غريب الحديث:

حاجة ولا داجة: الداجة: الحاجة نفسها؛ وكرر لاختلاف اللفظين. وقيل: الداجة أخف شأنًا من الحاجة. وقيل: الداجة إتباع للحاجة. أراد أنه لم يدع شيئًا دعته إليه نفسه من الشهوات إلا أتاها.

* * *

(١) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٨/ ٣٦-٣٧/ ٧٠٧٣)، والصغير (٣٦٥/ ١٠٠٣)، وأبو يعلى (٦/ ١٥٥-١٥٦/ ٣١٣٣)، والبزار (كشف الأستار ٤/ ٧/ ٣٠٦٧). وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٨٣) وقال: «رواه البزار وأبو يعلى بنحوه، والطبراني في الأوسط والصغير، ورجالهم ثقات». وذكره البوصيري في الإتحاف (٨/ ٥١٥/ ٨٦٥٥) وقال: «رواه أبو يعلى والبزار ورواته ثقات».

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أترفوا: المترف: المتنعم بضروب النعم، المتوسع فيها. قال الشاعر:

تهدي رؤوس المترفين الصداد ... إلى أمير المؤمنين الممتاد

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «(لولا) هي التي للتحضيض، لكن يقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد؛ وهذا نحو قوله: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[١]، و(القرون من قبلكم) هم قوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره. والقرن من الناس: المقترنون في زمان طويل، أكثره -فيما حدّ الناس- مائة سنة، وقيل: ثمانون، وقيل غير ذلك إلى ثلاثين سنة؛ والأول أرجح لقول النبي ﷺ: «**أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن إلى رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد**»[٢] قال ابن عمر: يريد أنها تخرم ذلك القرن. و(بقية) هنا يراد بها النظر والعقل والحزم والثبوت في الدين، وإنما قيل: (بقية)؛ لأن الشرائع والدول ونحوها؛ قوتها في أولها ثم لا تزال تضعف، فمن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول..

و(الفساد في الأرض) هو الكفر وما اقترن به من المعاصي. وهذه الآية فيها تنبيه

---

(١) يس: الآية (٣٠).

(٢) أخرجه من حديث عبد الله بن عمر ﷺ: أحمد (٢/ ٨٨)، والبخاري (٢/ ٥٦/ ٥٦٤)، ومسلم (٤/ ١٩٦٥/ ٢٥٣٧)، وأبو داود (٤/ ٥١٦/ ٤٣٤٨)، والترمذي (٤/ ٤٥١/ ٢٢٥١)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٤١/ ٥٨٧١).

لأمة محمد، وحض على تغيير المنكر والنهي عن الفساد، ثم استثنى اللَّه تعالى القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم، وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم»[١].

وقال ابن عاشور: «هذا قوي الاتّصال بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾[٢]، فيجوز أن يكون تفريعًا عليه ويكون ما بينهما اعتراضًا دعا إليه الانتقال الاستطرادي في معان متماسكة. والمعنى: فهلاّ كان في تلك الأمم أصحاب بقية من خير فنهوا قومهم عن الفساد لما حلّ بهم ما حلّ. وذلك إرشاد إلى وجوب النهي عن المنكر. ويجوز أن يكون تفريعًا على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٣]، والآية تفريع على الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا؛ إذ المعنى: ولا تكونوا كالأمم من قبلكم إذ عدموا من ينهاهم عن الفساد في الأرض وينهاهم عن تكذيب الرّسل فأسرفوا في غلوائهم حتى حلّ عليهم غضب اللَّه إلاّ قليلًا منهم، فإن تركتم ما أمرتم به كان حالكم كحالهم، ولأجل هذا المعنى أتي بـ(فاء) التفريع؛ لأنّه في موقع التفصيل والتعليل لجملة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ وما عطف عليها؛ كأنّه قيل: وإن كلاًّ لما ليوفينّهم ربك أعمالهم فَلَوْلاَ كان منهم بقية ينهون عن الفساد في الأرض.. إلى آخره؛ أي: فاحذروا أن تكونوا كما كانوا فيصيبكم ما أصابهم، وكونوا مستقيمين، ولا تَطغوا، ولا تركنوا إلى الظّالمين، وأقيموا الصلاة. فغُيّرَ نظمُ الكلام إلى هذا الأسلوب الذي في الآية؛ لتفنن فوائده ودقائقه، واستقلال أغراضه مع كونها آيلة إلى غرض يعمّمها. وهذا من أبدع أساليب الإعجاز الذي هو كردّ العجز على الصدر من غير تكلّف ولا ظهور قصد.

ويقرب من هذا المعنى قول النبي ﷺ: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وَمَا أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم؛ فإنّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم**»[٤]»[٥].

وقال: «والفساد: المعاصي واختلال الأحوال، فنهيهم يردعهم عن الاستهتار

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٢١٤).
(٢) هود: الآية (١٠٢).
(٣) هود: الآية (١٢).
(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٥٠٨)، والبخاري (١٣/ ٣١٢/ ٧٢٨٨)، ومسلم (٢/ ٩٧٥/ ١٣٣٧)، والنسائي (٥/ ١١٦-١١٧/ ٢٦١٨)، وابن ماجه (١/ ٣/ ١، ٢).
(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٢-١٨٣).

في المعاصي، فتصلح أحوالهم، فلا يحق عليهم الوهن والانحلال كما حلّ ببني إسرائيل حين عدموا من ينهاهم. وفي هذا تنويه بأصحاب النبي ﷺ؛ فإنّهم أولُو بقيّة من قريش يدعونهم إلى الإيمان حتى آمن كلّهم، وأولُو بقية بين غيرهم من الأمم الذين اختلطوا بهم يدعونهم إلى الإيمان والاستقامة بعد الدخول فيه ويعلّمون الدين؛ كما قال تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1].

وفي قوله: ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إشارة إلى البشارة بأنّ المسلمين لا يكونون كذلك ممّا يومئ إليه قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾»[2].

وقال أبو السعود: «﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع؛ أي: لكن قليلًا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفةِ، على أن (مِنْ) للبيان، لا للتبعيض؛ لأن جميع الناجين ناهون، ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلام؛ لأنه يكون تحضيضًا لأولي البقية على النهي المذكور إلا للقليل من الناجين منهم؛ كما إذا قلت: هلاّ قرأ قومُك القرآن إلا الصلحاءَ منهم؛ مريدًا لاستثناء الصلحاءِ من المُحضَّضين على القراءة. نعم، يصح ذلك إن جعل استثناءً من النفي اللازم للتحضيض؛ فكأنه قيل: ما كان من القرون أولو بقيةٍ إلا قليلًا منهم، لكنَّ الرفعَ هو الأفصحُ حينئذ على البدلية.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بمباشرة الفساد وتركِ النهي عنه ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾؛ أي: أُنعموا من الشهوات، واهتموا بتحصيلها. أما المباشرون فظاهرٌ، وأما المساهلون فلِما لهم في ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة.

وقيل: المرادُ بهم تاركو النهي، وأنت خبيرٌ بأنه يلزم منه عدمُ دخول مباشري الفساد في الظلم والإجرام عبارةً.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: كافرين؛ فهو بيانٌ لسبب استئصال الأمم المهلَكة، وهو فشوُّ الظلم، واتباعُ الهوى فيهم، وشيوعُ ترك النهي عن المنكرات مع الكفر.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ﴾ عطفٌ على مضمر دل عليه الكلامُ؛ أي: لم ينهَوا واتبع،

---

(١) آل عمران: الآية (١١٠).

(٢) المصدر السابق (١٢/ ١٨٤).

إلخ؛ فيكون العدولُ إلى المظهر لإدراج المباشرين معهم في الحكم، والتسجيلِ عليهم بالظلم، وللإشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب، أو على استئنافٍ يترتب على قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: إلا قليلًا ممن أنجينا منهم نهَوا عن الفساد، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من مباشري الفساد وتاركي النهي عنه؛ فيكون الإظهارُ مقتضى الظاهر.

وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على ﴿أُتْرِفُوا۟﴾؛ أي: اتبعوا الإتراف. وكونُهم مجرمين لأن تابعَ الشهوات مغمورٌ بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالُهم للشكر، أو على «اتبع»؛ أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين. ويجوز أن يكون اعتراضًا وتسجيلًا عليهم بأنهم قومٌ مجرمون»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «والمعنى: أن العقول السليمة الرشيدة كافية لفهم ما في دعوة الرسل عليهم السلام من الخير والصلاح لو لم يمنع من استعمال هدايتها الافتتان بالترف، والتفنن في أنواعه، بدلًا من القصد والاعتدال فيه وشكر اللَّه المنعم به عليه، فالإتراف هو الباعث على الإسراف والفسوق والعصيان، والظلم والإجرام، يظهر في الكبراء والرؤساء، ويسري بالتقليد في الدهماء، فيكون سبب الهلاك بالاستئصال، أو فقد الاستقلال؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[2]، فهذا بيان لسنّته تعالى في الأمم قديمها وحديثها، ولا تغني عن شعوب الإفرنج معرفتهم بهذه السنّة، ومحاولة اتقائهم لها؛ فحكماؤهم -وهم أولو البقية والأحلام الذين ينهونهم عن الفساد في الأرض- يصرّحون بأنهم سيهلكون كما هلك من قبلهم، ولن تغني عنهم قوتهم؛ بل تكون هي المهلكة لهم بأيديهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ﴾[3]، فراجع تفسيرها.

ومن عجائب الجهل والغي أن متبعي الإتراف من شعوبنا يقلدون الإفرنج في الإسراف فيه دون ما به يرجو الإفرنج اتقاء الهلاك من فساده، وهو القوة الحربية

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٤٦-٢٤٧).

(٢) الإسراء: الآية (١٦).

(٣) الأنعام: الآية (٦٥).

وفنون الصناعة؛ فإذا كان فسق الإتراف يهلك الأمم القوية، فكيف تبقى مع اتباعه وفساده الأمم الضعيفة؟! وكيف يزول والمتبعون له هم الملوك والأمراء، والزعماء والحكام، والكتاب والخطباء، وهم الأكثرون الظاهرون، والناهون عن فسادهم الأقلون الخاملون؟!»[١].

وقال السعدي: «لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال؛ ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم وأبقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جدًّا.

وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم؛ ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بيِّنة.

﴿وَ﴾ لكن ﴿اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾؛ أي: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يبغوا به بدلًا.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه؛ فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب»[٢].

واستشهد الإمام الهروي بهذه الآية على الغربة، وقال ابن القيم في تعليقه عليه في «المدارج»: «استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدل على رسوخه في العلم والمعرفة وفهم القرآن؛ فإن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: **«بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء»**. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: **«الذين يصلحون إذا فسد الناس»**[٣]»[٤].

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ١٩١-١٩٢). (٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٦٨-٤٦٩).

(٣) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أحمد (١/ ١٨٤)، وأبو يعلى (٢/ ٩٩/ ٧٥٦)، والبزار في البحر (٣/ ٣٢٣/ ١١١٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٧): «ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح».
وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٣٠/ ١٤٥) من حديث أبي هريرة دون الزيادة الأخيرة.

(٤) مدارج السالكين (٣/ ١٩٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب تغيير المنكر وأنه أصل من أصول الإسلام

* عن قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر بعد أن حمد اللَّه وأثنى عليه: يا أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[1]، قال عن خالد: وإنّا سمعنا النبي ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه؛ أوشك أن يعمّهم اللَّه بعقاب**». وقال عمرو عن هشيم: وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا؛ إلا يوشك أن يعمّهم اللَّه منه بعقاب**»[2].

⋆ **فوائد الحديث:**

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتابُ والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضًا من النصيحة التي هي الدين، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة، ولا يعتد بخلافهم؛ كما قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين: لا يكترث بخلافهم في هذا؛ فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء، ووجوبه بالشرع لا بالعقل خلافًا للمعتزلة. وأما قول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ فليس مخالفًا لما ذكرناه؛ لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية: إنكم إذا فعلتم ما كُلّفتم به؛ فلا يضركم تقصير غيركم، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]، وإذا كان كذلك؛ فممّا كُلّف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعله ولم يمتثل المخاطب؛ فلا عتب بعد ذلك على الفاعل؛ لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهي لا القبول. واللَّه أعلم»[4].

قال أبو عبد اللَّه القرطبي: «فكأنه قال: ليأمر بعضكم بعضًا ولينهَ بعضكم

(١) المائدة: الآية (١٠٥).
(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢)، وأبو داود (٤/ ٥٠٩-٥١٠/ ٤٣٣٨) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٤٠٦/ ٢١٦٨) وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٧/ ٤٠٠٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٥٣٩/ ٣٠٤).
(٣) الأنعام: الآية (١٦٤).
(٤) شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٠).

بعضًا؛ فهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يضركم ضلال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب؛ وهذا لأن الأمر بالمعروف يجري مع المسلمين من أهل العصيان كما تقدم. وروي معنى هذا عن سعيد بن جبير. وقال سعيد بن المسيب: معنى الآية: لا يضركم من ضل إذا اهتديتم بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقال ابن خويزمنداد: تضمنت الآية اشتغال الإنسان بخاصة نفسه، وتركه التعرض لمعائب الناس، والبحث عن أحوالهم؛ فإنهم لا يسألون عن حاله فلا يسأل عن حالهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. . . ويجوز أن يكون أريد به الزمان الذي يتعذر فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فينكر بقلبه ويشتغل بإصلاح نفسه»[2].

وقد سبق تفصيل للموضوع عند تفسير قوله تعالى من سورة (المائدة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[3] الآية.

* * *

(١) المدثر: الآية (٣٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٤٤).
(٣) الآية (١٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «أي: ما صح وما استقام؛ بل استحال في الحكمة أن يُهلك القرى التي أهلكها حسب ما بلغك أنباؤها ويُعلم من ذلك حالُ باقيها من القرى الظالمة، و(اللام) لتأكيد النفي، وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: ملتبسًا به، قيل: هو حالٌ من الفاعل؛ أي: ظالمًا لها، والتنكيرُ للتفخيم والإيذانِ بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم؛ والمرادُ تنزيهُ اللَّه تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى، وإلا فلا ظلمَ فيما فعله اللَّه تعالى بعباده كائنًا ما كان؛ لِما تقرّر من قاعدة أهلِ السنة.. وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ حالٌ من المفعول، والعاملُ عامله، ولكن لا باعتبار تقيّدِه بما وقع حالًا من فاعله، أعني ﴿بِظُلْمٍ﴾؛ لدلالته على تقيد نفي الإهلاكِ ظلمًا بحال كونِ أهلِها مصلحين؛ ولا ريب في فساده؛ بل مطلقًا عن ذلك.

وقيل: المرادُ بالظلم: الشركُ، و(الباء) للسببية؛ أي: لا يُهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحقَّ فيما بينهم ولا يضمّون إلى شركهم فسادًا آخر؛ وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى؛ ومن ذلك قدّم الفقهاءُ عند تزاحم الحقوق حقوقَ العباد الفقراء على حقوق اللَّه تعالى الغني الحميد. وقيل: المُلكُ يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

وأنت تدري أن مقام النهي عن المنكرات -التي أقبحُها الإشراكُ بالله- لا يلائمه؛ فإن الشرك داخل في الفساد في الأرض دخولًا أوّليًا؛ ولذلك كان ينهى كلٌّ من الرسل الذين قُصّت أنباؤهم أمّتَه أوّلًا عن الإشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها؛ فالوجهُ حملُ الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصي، وحملُ الإصلاح على إصلاحه والإقلاعِ عنه بكون بعضهم

متصدّين للنهي عنه وبعضِهم متوجّهين إلى الاتعاظ غيرَ مُصرِّين على ما هم عليه من الشرك وغيرِه من أنواع الفساد»[١].

وقال ابن كثير: «أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾[٢]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٣]»[٤].

وقال ابن القيم: «وفي الآية قولان: أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم. الثاني: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم وهم مصلحون الآن؛ أي: إنهم بعد أن أصلحوا وتابوا، لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثاني: إنه لم يكن ظالمًا لهم في إهلاكهم؛ فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون؛ وإنما أهلكهم وهم ظالمون؛ فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل في إهلاكهم»[٥].

وقال: «فدل على أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظالمًا. وعندهم يجوز ذلك، وليس بظلم لو فعل، ويؤولون الآية على أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم، وعلم أنه لا يفعل ذلك، وخلاف خبره ومعلومه مستحيل، وذلك حقيقة الظلم. ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعًا، ولا أريد بها، ولا تحتمله بوجه؛ إذ يؤول معناها إلى أنه ما كان ليهلك القرى بظلم بسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون. وكلامه تعالى يتنزه عن هذا ويتعالى عنه»[٦].

وقال المراغي: «الظلم هو الشرك؛ أي: إنه تعالى ليس من سنته أن يهلك القرى بشرك أهلها ما داموا مصلحين في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية والمدنية، فلا يبخسون الناس حقوقهم كما فعل قوم شعيب، ولا يبطشون بالناس بطش الجبارين كقوم هود، ولا يَذِلّون لمتكبر جبار كقوم فرعون، ولا يرتكبون الفواحش

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٤٧-٢٤٨).
(٢) هود: الآية (١٠١).
(٣) فصلت: الآية (٤٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٠).
(٥) مدارج السالكين (١/ ٢١٧).
(٦) المصدر السابق (١/ ٢٣٧).

ويقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر كقوم لوط؛ بل لا بدّ أن يضمّوا إلى الشرك الإفساد في الأعمال والأحكام، ويفعلوا الظلم المدمّر للعمران، ومن ثم قالوا: الأمم تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الظلم والجور»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من أسباب هلاك الأمم كثرة الخبث

* عن زينب بنت جحش رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ دخل عليها فزِعًا يقول: **لا إله إلا اللَّه، ويل للعرب من شر قد اقترب! فُتِح اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثلُ هذه،** -وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها- فقالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: **نعم، إذا كثر الخَبَث**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ في شرح حديث: «إذا أنزل اللَّه بقوم عذابًا؛ أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»(٣): «أي: بعث كل واحد منهم على حسب عمله؛ إن كان صالحًا فعقباه صالحة وإلا فسيئة، فيكون ذلك العذاب طهرة للصالحين، ونقمة على الفاسقين.

وفي صحيح ابن حبان عن عائشة مرفوعًا: «**إن اللَّه إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصالحون؛ قُبضوا معهم ثم بُعثوا على نياتهم وأعمالهم**»(٤)، وأخرجه البيهقي في «الشعب»، وله من طريق الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عنها مرفوعًا: «**إذا ظهر السوء في الأرض؛ أنزل اللَّه بأسه فيهم**. قيل: يا رسول الله! وفيهم أهل طاعته؟ قال: **نعم، ثم يبعثون إلى رحمة اللَّه تعالى**»(٥). قال ابن بطال:

(١) تفسير المراغي (١٢/ ٩٧-٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٢٨)، والبخاري (٦/ ٤٧٠/ ٣٣٤٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٧/ ٢٨٨٠)، والترمذي (٤/ ٤١٦-٤١٧/ ٢١٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ١١٣١١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٥/ ٣٩٥٣).

(٣) أخرجه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ٤٠)، والبخاري (١٣/ ٧٤-٧٥/ ٧١٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٦/ ٢٨٧٩).

(٤) ابن حبان (١٦/ ٣٠٥/ ٧٣١٤).

(٥) شعب الإيمان (٦/ ٩٨/ ٧٥٩٩).

هذا الحديث يبين حديث زينب بنت جحش حيث قالت: «**أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث**»؛ فيكون إهلاك الجميع عند ظهور المنكر والإعلان بالمعاصي.

قلت: الذي يناسب كلامه الأخير حديث أبي بكر الصديق؛ سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه؛ أوشك أن يعمّهم اللَّه بعقاب**»[(١)] أخرجه الأربعة وصححه ابن حبان. وأما حديث ابن عمر في الباب وحديث زينب بنت جحش فمتناسبان، وقد أخرجه مسلم عقبه، ويجمعهما أن الهلاك يعم الطائع مع العاصي، وزاد حديث ابن عمر أن الطائع عند البعث يجازى بعمله، ومثله حديث عائشة مرفوعًا: «**العجب أن ناسًا من أمتي يؤمون هذا البيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم، فقلنا: يا رسول الله! إن الطريق قد تجمع الناس، قال: نعم، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم اللَّه على نياتهم**»[(٢)] أخرجه مسلم. وله من حديث أم سلمة نحوه، ولفظه: «**فقلت: يا رسول الله! فكيف بمن كان كارهًا؟ قال: يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته**»[(٣)]، وله من حديث جابر رفعه: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**»[(٤)]، وقال الداودي: معنى حديث ابن عمر أن الأمم التي تعذب على الكفر يكون بينهم أهل أسواقهم ومن ليس منهم، فيصاب جميعهم بآجالهم، ثم يبعثون على أعمالهم. ويقال: إذا أراد اللَّه عذاب أمة؛ أعقم نساءهم خمس عشرة سنة قبل أن يصابوا؛ لئلا يصاب الولدان الذين لم يجرِ عليهم القلم، انتهى. وهذا ليس له أصل، وعموم حديث عائشة يرده، وقد شوهدت السفينة ملأى من الرجال والنساء والأطفال تغرق فيهلكون جميعًا، ومثله الدار الكبيرة تحرق، والرفقة

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢)، وأبو داود (٤/ ٥٠٩-٥١٠/ ٤٣٣٨)، والترمذي (٤/ ٤٠٦/ ٢١٦٨) وقال: «هذا حديث صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٨-٣٣٩/ ١١١٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٧/ ٤٠٠٥)، وصححه ابن حبان (١/ ٥٣٩/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٢١٠/ ٢٨٨٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٩٠)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٨/ ٢٨٨٢)، وأبو داود (٤/ ٤٧٦-٤٧٧/ ٤٢٨٩)، والترمذي (٤/ ٤٠٧/ ٢١٧١).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٣١)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٦/ ٢٨٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٤/ ٤٢٣٠) ولفظه: «يحشر الناس على نياتهم».

الكثيرة تخرج عليها قطاع الطريق فيهلكون جميعًا أو أكثرهم، والبلد من بلاد المسلمين يهجمها الكفار فيبذلون السيف في أهلها، وقد وقع ذلك من الخوارج قديمًا، ثم من القرامطة، ثم من الططر أخيرًا، واللَّه المستعان.

قال القاضي عياض: أورد مسلم حديث جابر: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**»[١] عقب حديث جابر أيضًا رفعه: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»[٢] يشير إلى أنه مفسر له، ثم أعقبه بحديث: «**ثم بعثوا على أعمالهم**»[٣]؛ مشيرًا إلى أنه وإن كان مفسرًا لما قبله لكنه ليس مقصورًا عليه؛ بل هو عامٌ فيه وفي غيره؛ ويؤيده الحديث الذي ذكره بعده: «**ثم يبعثهم اللَّه على نياتهم**»[٤]. انتهى ملخصًا.

والحاصل أنه لا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراكُ في الثواب أو العقاب؛ بل يجازى كل أحد بعمله على حسب نيته. وجنح ابن أبي جمرة إلى أن الذين يقع لهم ذلك إنما يقع بسبب سكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأما من أمر ونهى فهم المؤمنون حقًّا، لا يرسل اللَّه عليهم العذاب؛ بل يدفع بهم العذاب؛ ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٦] ويدل على تعميم العذاب لمن لم ينه عن المنكر وإن لم يتعاطه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[٧]. ويستفاد من هذا مشروعية الهرب من الكفار ومن الظلمة؛ لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة، هذا إذا لم يُعِنْهم ولم يرض بأفعالهم، فإن أعان أو رضي فهو منهم؛ ويؤيده أمره ﷺ بالإسراع في الخروج من ديار ثمود[٨]. وأما بعثهم على أعمالهم فحكم عدل؛ لأن

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه من حديث جابر ﷺ: أحمد (٣/ ٣١٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٥/ ٢٨٧٧)، وأبو داود (٣/ ٤٨٤-٤٨٥/ ٣١١٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٥/ ٤١٦٧).

(٣) تقدم تخريجه قريبًا.

(٤) تقدم تخريجه قريبًا.

(٥) القصص: الآية (٥٩).

(٦) الأنفال: الآية (٣٣).

(٧) النساء: الآية (١٤٠).

(٨) أخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: أحمد (٢/ ٩)، والبخاري (٨/ ٤٨٥/ ٤٧٠٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٥-٢٢٨٦/ ٢٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٣/ ١١٢٧٠).

أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها في الآخرة، وأما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيرًا لما قدموه من عمل سيئ، فكان العذاب المرسل في الدنيا على الذين ظلموا يتناول من كان معهم ولم ينكر عليهم، فكان ذلك جزاءً لهم على مداهنتهم، ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله. وفي الحديث تحذير وتخويف عظيم لمن سكت عن النهي، فكيف بمن داهن، فكيف بمن رضي، فكيف بمن عاون؟ نسأل اللَّه السلامة.

قلت: ومقتضى كلامه أن أهل الطاعة لا يصيبهم العذاب في الدنيا بجريرة العصاة، وإلى ذلك جنح القرطبي في «التذكرة»، وما قدمناه قريبًا أشبه بظاهر الحديث، وإلى نحوه مال القاضي ابن العربي»[1].

وقد تقدم الكلام على هذه المسألة عند تفسير قوله تعالى من سورة (الأنفال): ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾[2] الآية.

وقال المناوي: «إظهار المعاصي والسكوت عليها استهانة بالدين من جميع المسلمين، فيستحقون العذاب لتركهم ما توجه عليهم من القيام بفرض الكفاية.

قال الغزالي: فحقّ على من يسيء صلاته في الجامع أن ينكر عليه، وأن يمنع المنفرد من الوقوف خارج الصف، وينكر على من رفع رأسه قبل الإمام، ويؤمر بتسوية الصفوف. وفيه حث عظيم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه من أهم الأمور؛ وقد ذم اللَّه تعالى قومًا تركوا ذلك، فقال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾[3] الآية، يعني: لا ينهى بعضهم بعضًا»[4].

* * *

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٧٥-٧٦).

(٢) الآية (٢٥).

(٣) المائدة: الآية (٧٩).

(٤) فيض القدير (١/ ٣٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. قال عكرمة: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الهدى. وقال الحسن البصري: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الرزق يسخّر بعضهم بعضًا. والمشهور الصحيح الأول.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾؛ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين؛ أخبرتهم به رسل اللّه إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم؛ حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية؛ كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضًا: «**إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة؛ كلها في النار إلا فرقة واحدة. قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي**»[٣]، رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة. وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، يعني الحنيفية.

وقال قتادة: أهل رحمة الله: أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم.

---

(١) هود: الآيتان (١١٨و١١٩).

(٢) يونس: الآية (٩٩).

(٣) سيأتي تخريجه في حديث الباب.

وأهل معصيته: أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال الحسن البصري -في رواية عنه-: وللاختلاف خَلَقهم»[١].

وقال ابن عاشور: «لمّا كان النعي على الأمم الذين لم يقع فيهم من ينهون عن الفساد فاتّبعوا الإجرام، وكان الإخبار عن إهلاكهم بأنّه ليس ظلمًا من اللَّه، وأنهم لو كانوا مصلحين لَمَا أهلكوا، لمّا كان ذلك كله قد يثير توهّم أن تعاصي الأمم عمّا أراد اللَّه منهم خروج عن قبضة القُدرة الإلهية؛ أعقب ذلك بما يرفع هذا التوهّم بأنّ اللَّه قادر أن يجعلهم أمّة واحدة متفقة على الحق، مستمرّة عليه، كما أمرهم أن يكونوا.

ولكن الحكمة التي أقيم عليها نظامُ هذا العالم اقتضت أن يكون نظام عقول البشر قابلًا للتطوّح بهم في مسلك الضّلالة أو في مسلك الهدى على مبلغ استقامة التفكير والنظر، والسلامة من حجب الضلالة، وأن اللَّه تعالى لمّا خلق العقول صالحة لذلك جعل منها قبول الحق بحسب الفطرة التي هي سلامة العقول من عوارض الجهالة والضلال، وهي الفطرة الكاملة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[٢]، وتقدّم الكلام عليها في سورة (البقرة). لم يدّخرهم إرشادًا أو نصحًا بواسطة الرُّسُل ودعاة الخير ومُلقّنيه من أتباع الرسل، وهم أولو البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض، فمن الناس مهتدٍ وكثير منهم فاسقون، ولو شاء لَخلق العقولَ البشرية على إلهام متّحد لا تَعْدوه؛ كما خلق إدراك الحيوانات العُجم على نظام لا تتخطّاه من أوّل النشأة إلى انقضاء العالم، فنجد حال البعير والشّاة في زمن آدم عليه السلام كحالهما في زماننا هذا، وكذلك يكون إلى انقراض العالم، فلا شكّ أن حكمة اللَّه اقتضت هذا النظام في العقل الإنساني؛ لأنّ ذلك أوفى بإقامة مراد اللَّه تعالى من مساعي البشر في هذه الحياة الدنيا الزائلة المخلوطة؛ لينتقلوا منها إلى عالم الحياة الأبديّة الخالصة؛ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فلو خلق الإنسان كذلك لما كان العمل الصالح مقتضيًا ثواب النعيم، ولا كان الفساد مقتضيًا عقاب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٠-٢٩١).

(٢) البقرة: الآية (٢١٣).

الجحيم، فلا جرم أنّ اللَّه خلق البشر على نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم في الأمور، ومنها أمر الصلاح والفساد في الأرض، وهو أهمّها وأعظمها؛ ليتفاوت الناس في مدارج الارتقاء، ويَسْموا إلى مراتب الزلفى، فتتميز أفراد هذا النوع في كل أنحاء الحياة؛ حتى يعد الواحد بألف ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾»[1].

وقال: «ولمّا أشعر الاختلاف بأنه اختلاف في الدّين، وأنّ معناه العدول عن الحق إلى الباطل؛ لأنّ الحق لا يقبل التعدّد والاختلاف؛ عُقّب عموم ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ باستثناء من ثبتوا على الدين الحق ولم يخالفوه بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾؛ أي: فعصمهم من الاختلاف.

وفهم من هذا أنّ الاختلاف المذموم المحذّر منه هو الاختلاف في أصول الدّين الذي يترتّب عليه اعتبار المخالف خارجًا عن الدين وإن كان يزعم أنّه من مُتّبعيه، فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمّة قصمه وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكلّ وسيلة من وسائل الحقّ والعدل بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة، فإنْ لم ينجع ذلك فبالقتال كما فعل أبو بكر ﷺ في قتال العرب الذين جحدوا وجوب الزكاة، وكما فعل عليّ ﷺ في قتال الحروريّة الذين كفّروا المسلمين. وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف.

وأما تعقيبه بقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ فهو تأكيد بمضمون ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. والإشارة إلى الاختلاف المأخوذ من قوله: ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾، و(اللاّم) للتعليل؛ لأنه لمّا خلقهم على جِبِلّة قاضية باختلاف الآراء والنزعات، وكان مريدًا لمقتضى تلك الجبلّة، وعالمًا به -كما بيّناه آنفًا-؛ كان الاختلاف علّة غائية لخلقهم، والعلّة الغائية لا يلزمها القصر عليها؛ بل يكفي أنها غاية الفعل، وقد تكون معها غايات كثيرة أخرى فلا ينافي ما هنا قولُه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]؛ لأنّ القصر هنالك إضافيّ؛ أي: إلاّ بحالة أن يعبدوني لا يشركوا، والقصر الإضافي لا ينافي وجود أحوال أخرى غير ما قُصدَ الردّ عليه بالقصر؛ كما هو بيّن لمن مارس أساليب البلاغة العربية»[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٨٧-١٨٨).
(٢) الذاريات: الآية (٥٦).
(٣) المصدر السابق (١٢/ ١٨٩-١٩٠).

وقال أبو جعفر: «وأولى القولين في ذلك بالصواب قولُ من قال: (وللاختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم)؛ لأن اللَّه جل ذكره ذكر صنفين من خلقه: أحدهما أهل اختلاف وباطل، والآخر أهل حق، ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، فعمّ بقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ صفة الصنفين، فأخبر عن كل فريق منهما أنه ميسَّر لما خلق له. فإن قال قائل: فإن كان تأويل ذلك كما ذكرت؛ فقد ينبغي أن يكون المختلفون غير ملومين على اختلافهم؛ إذ كان لذلك خلقهم ربُّهم، وأن يكون المتمتّعون هم الملومين؟ قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبت، وإنما معنى الكلام: ولا يزال الناس مختلفين بالباطل من أديانهم ومللهم، إلا من رحم ربك فهداه للحق، ولعلمه وعلى علمه النافذ فيهم قبل أن يخلقهم، أنه يكون فيهم المؤمن والكافر والشقي والسعيد، خلقهم. فمعنى (اللام) في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ بمعنى (على)؛ كقولك للرجل: أكرمتك على برّك بي، وأكرمتك لبرّك بي»[١].

وقال شيخ الإسلام: «فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون، وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولًا وفعلًا، وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة. فمن خالفهم في شيء فاته من الرحمة بقدر ذلك»[٢].

وقال: «وقد ذم أهل التفرق والاختلاف في مثل قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[٣]، وفي مثل قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وفي مثل قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[٤]»[٥].

وقال: «ولهذا يوجد أتبع الناس للرسول أقل اختلافًا من جميع الطوائف المنتسبة للسنة، وكل من قرب للسنة كان أقل اختلافًا ممن بعد عنها؛ كالمعتزلة والرافضة فنجدهم أكثر الطوائف اختلافًا»[٦].

وقال: «والاختلاف في كتاب اللَّه على وجهين: أحدهما: أن يكون كله مذمومًا؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾. والثاني: أن يكون

---

(١) جامع البيان (١٢/ ١٤٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٢).
(٣) البينة: الآية (٤).
(٤) البقرة: الآية (١٧٦).
(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ٣١٠).
(٦) المصدر السابق (٩/ ٢٣٠).

بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل؛ كقوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[١]؛ لكن إذا أطلق الاختلاف فالجميع مذموم؛ كقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وقول النبي ﷺ: **«إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»**[٢]. ولهذا فسروا الاختلاف في هذا الموضع بأنه كله مذموم. قال الفراء: في اختلافهم وجهان: أحدهما: كفر بعضهم بكتاب بعض، والثاني: تبديل ما بدّلوا. وهو كما قال؛ فإن المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل، فيكفر بالحق الذي مع الآخر، ويصدّق بالباطل الذي معه، وهو تبديل ما بدّل»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الاختلاف

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**[٤].

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٣).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٥٠٨)، ومسلم (٢/ ٩٧٥/ ١٣٣٧)، والنسائي (٥/ ١١٦-١١٧/ ٢٦١٨). وأخرجه بلفظ مختصر: البخاري (١٣/ ٣١٢/ ٧٢٨٨)، وابن ماجه (١/ ٣/ ٢).

(٣) منهاج السنة (٥/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٢)، وأبو داود (٥/ ٤/ ٤٥٩٦) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٤٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٢١/ ٣٩٩١)، وأبو يعلى (١٠/ ٣١٧/ ٥٩١٠)، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ١٤٠/ ٦٢٤٧)، والحاكم (١/ ٦و١٢٨) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي. وللحديث شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة.

قلت: وفي رواية من حديث معاوية ﷺ: «كلها في النار إلا واحدة»؛ رواه: أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٥/ ٥-٦/ ٤٥٩٧)، والحاكم (١/ ١٢٨) وقال عقبه -وقد ساقه كشاهد لحديث أبي هريرة-: «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث»، وحسّن إسناده الحافظ في تخريج الكشاف (١/ ٤٤٩) بهامش تخريج الكشاف للزيلعي.

ومن حديث عبد اللّه بن عمرو: «كلها في النار إلا ملة واحدة. قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»؛ رواه: الترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤١) وقال: «حديث مفسَّرٌ غريب، لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه»، والحاكم (١/ ١٢٨-١٢٩) وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، وهو ضعيف، والحديث حسّن بشاهديه المتقدمين.

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «هذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ من غير وجه، يشير إلى أن الفرقة والاختلاف لا بدّ من وقوعهما في الأمة، وكان يحذر أمته منه لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة»[1].

قال ابن بطة في «الإبانة»: «فاعلموا يا إخواني -وفقنا الله وإياكم للسداد والائتلاف، وعصمنا وإياكم من الشتات والاختلاف- أن الله ﷻ قد أعلمنا اختلاف الأمم الماضين قبلنا، وأنهم تفرقوا واختلفوا، فتفرّقت بهم الطرق حتى صار بهم الاختلاف إلى الافتراء على الله ﷻ، والكذب عليه، والتحريف لكتابه، والتعطيل لأحكامه، والتعدّي لحدوده، وأعلمنا تعالى أن السبب الذي أخرجهم إلى الفرقة بعد الألفة، والاختلاف بعد الائتلاف؛ هو شدة الحسد من بعضهم لبعض، وبغي بعضهم على بعض، فأخرجهم ذلك إلى الجحود بالحق بعد معرفته، وردهم البيان الواضح بعد صحته.

وكل ذلك وجميعه قد قصّه الله ﷻ علينا، وأوعز فيه إلينا، وحذرنا من مواقعته، وخوّفنا من ملابسته. ولقد رأينا ذلك في كثير من أهل عصرنا، وطوائف ممّن يدّعي أنه من أهل ملّتنا. وسأتلو عليكم من نبإ ما قد أعلمناه مولانا الكريم، وما قد علمه إخواننا من أهل القرآن وأهل العلم وكتبة الحديث والسنن، وما يكون فيه -إن شاء الله- بصيرة لمن علمه ونسيه، ولمن غفله أو جهله، ويمتحن الله به من خالفه وجحده بألا يجحده إلا الملحدون، ولا ينكره إلا الزائغون. قال الله ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٣٥).

(٢) البقرة: الآية (٢١٣).

كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[٦].

قال الشيخ: إخواني! فهذا نبأ قوم فضّلهم اللَّه وعلّمهم وبصّرهم ورفعهم، ومنع ذلك آخرين إصرارُهم على البغي عليهم والحسد لهم إلى مخالفتهم وعداوتهم ومحاربتهم، فاستنكفوا أن يكونوا لأهل الحق تابعين، وبأهل العلم مقتدين، فصاروا أئمة مضلين، ورؤساء في الإلحاد متبوعين، رجوعًا عن الحق وطلب الرياسة، وحبًّا للاتباع والاعتقاد.

والناس في زماننا هذا أسراب كالطير يتبع بعضهم بعضًا؛ لو ظهر لهم من يدّعي النبوة مع علمهم بأن رسول اللَّه ﷺ خاتم الأنبياء، أو من يدّعي الربوبية؛ لوجد على ذلك أتباعًا وأشياعًا. فقد ذكرت ما حضرني من الآيات التي عاب اللَّه فيها المختلفين وذم بها الباغين، وأنا الآن أذكر لك الآيات من القرآن التي حذرنا فيها ربُّنا تعالى من الفرقة والاختلاف، وأمرنا بلزوم الجماعة والائتلاف؛ نصيحة لإخواننا، وشفقة على أهل مذهبنا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[٧]... إلى آخر الآية. ثم حذرنا من مواقعة ما أتاه من قبلنا من أهل الكتاب فيصيبنا ما أصابهم، فقال

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٣).
(٢) آل عمران: الآية (١٩).
(٣) الأنعام: الآية (١٥٩).
(٤) يونس: الآية (٩٣).
(٥) الشورى: الآية (١٤).
(٦) البينة: الآيتان (٤و٥).
(٧) آل عمران: الآية (١٠٣).

تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١)، فأخبرنا أنهم عن الحق رجعوا، ومن بعد البيان اختلفوا. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٤).

فهل بقي -رحمكم الله- أوضح من هذا البرهان أو أشفى من هذا البيان؟ وقد أعلمنا الله تعالى أنه قد خلق خلقًا للاختلاف والفرقة، وحذرنا أن نكون كهم لهم، واستثنى أهل رحمته لنواظب على المسألة أن يجعلنا منهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾»(٥).

وقد ذكر الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ أن أسباب الاختلاف ثلاثة، قال:

«أحدها: أن يعتقد الإنسان في نفسه، أو يُعتَقَد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين -ولم يبلغ تلك الدرجة-، فيعمل على ذلك، ويعد رأيه رأيًا، وخلافه خلافًا.

ولكن تارة يكون ذلك في جزئيّ وفرع من الفروع، وتارة يكون في كليّ وأصل من أصول الدين -كان من الأصول الاعتقادية، أو من الأصول العملية- فتراه آخذًا ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها، حتى يصير منها إلى ما ظهر له بادي رأيه، من غير إحاطة بمعانيها، ولا رسوخ في فهم مقاصدها.

وهذا هو المبتدع، وعليه نبّه الحديث الصحيح: أنه ﷺ قال: «لا يقبض الله العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق

---

(١) آل عمران: الآية (١٠٥).
(٢) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٣) الشورى: الآية (١٣).
(٤) الروم: الآيتان (٣١و٣٢).
(٥) الإبانة: كتاب الإيمان (١/ ٢٧٠-٢٧٤).

عالم؛ اتخذ الناس رؤساء جهّالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا»[(١)].

قال بعض العلماء: تقدير هذا الحديث يدل على أنه لا يؤتى الناس قط من قبل علمائهم، وإنما يؤتون من قبل أنه إذا مات علماؤهم؛ أفتى مَنْ ليس بعالم، فيؤتى الناس من قبله، وقد صرِّف هذا المعنى تصريفًا، فقيل: ما خان أمين قط، ولكنه اؤتمن غير أمين، فخان. قال: ونحن نقول: ما ابتدع عالم قط، ولكنه استُفتي من ليس بعالم، فضلّ وأضلّ»[(٢)].

«والثاني من أسباب الخلاف: اتباع الهوى.

ولذلك سمي أهل البدع: أهل الأهواء؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها؛ بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورًا فيها من وراء ذلك.

وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح، ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويدخل في غمارهم من كان منهم يخشى السلاطين لنيل ما عندهم، أو طلبًا للرياسة، فلا بدّ أن يميل مع الناس بهواهم، ويتأول عليهم فيما أرادوا حسبما ذكره العلماء، ونقله الثقات من مصاحبي السلاطين. فالأولون ردّوا كثيرًا من الأحاديث الصحيحة بعقولهم، وأساؤوا الظن بما صح عن النبي ﷺ، وحسنوا ظنهم بآرائهم الفاسدة، حتى ردّوا كثيرًا من أمور الآخرة وأحوالها؛ من الصراط، والميزان، وحشر الأجساد، والنعيم والعذاب الجسميين، وأنكروا رؤية الباري... وأشباه ذلك، بل صيّروا العقل شارعًا جاء الشرع أو لا، بل إن جاء؛ فهو كاشف لمقتضى ما حكم به العقل... إلى غير ذلك من الشناعات. والآخرون خرجوا عن الجادة إلى البنيّات، وإن كانت مخالفة لطلب الشريعة؛ حرصًا على أن يغلب عدوَّه، أو يفيد وليَّه، أو يجرّ إلى نفسه نفعًا»[(٣)].

---

(١) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ١٦٢)، والبخاري (١٣/ ٣٤٩/ ٧٣٠٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٨/ ٢٦٧٣)، والترمذي (٥/ ٣٠-٣١/ ٢٦٥٢)، وابن ماجه (١/ ٢٠/ ٥٢)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٥٩٠٧).

(٢) الاعتصام (٢/ ٦٧٩-٦٨٠).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٨٣-٦٨٤).

«والثالث من أسباب الخلاف: التصميم على اتباع العوائد؛ وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق.

وهو اتباع ما كان عليه الآباء والأشياخ وأشباه ذلك، وهو التقليد المذموم؛ فإن الله ذم بذلك في كتابه؛ كقوله: . . ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[1]. الآية، ثم قال: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[3]، فنبههم على وجه الدليل الواضح، فاستمسكوا بمجرد تقليد الآباء، فقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[4].

وهو مقتضى الحديث المتقدم أيضًا في قوله: «**اتخذ الناس رؤساء جهالًا . .**» إلى آخره؛ فإنه يشير إلى الاستنان بالرجال كيف كان»[5].

قوله: «**كلها في النار**» قال الشاطبي: «وهذا وعيد يدل على أن تلك الفرق قد ارتكبت كل واحدة منها معصية كبيرة أو ذنبًا عظيمًا، إذ قد تقرر في الأصول أن ما يُتَوَعَّدُ الشر عليه؛ فخصوصيته كبيرة، إذ لم يقل: «**كلها في النار**»؛ إلا من جهة الوصف الذي افترقت بسببه عن السواد الأعظم وعن جماعته، وليس ذلك إلا للبدعة المفرقة»[6].

وقال: «قوله ﷺ: «**إلا واحدة**»؛ قد أعطى بنصه أن الحق واحد لا يختلف؛ إذ لو كان للحق فِرَقٌ أيضًا؛ لم يقل: «**إلا واحدة**»، ولأن الاختلاف منفي عن الشريعة بإطلاق؛ لأنها الحاكمة بين المختلفين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[7]، إذ رد التنازع إلى الشريعة، فلو كانت الشريعة تقتضي الخلاف لم يكن في الرد إليها فائدة»[8].

وقال: «إن النبي ﷺ لم يعين من الفرق إلا فرقة واحدة، وإنما تعرض لعدها خاصة، وأشار إلى الفرقة الناجية حين سئل عنها، وإنما وقع ذلك كذلك، ولم يكن

---

(١) الزخرف: الآية (٢٢).
(٢) الزخرف: الآية (٢٤).
(٣) الشعراء: الآيتان (٧٢و٧٣).
(٤) الشعراء: الآية (٧٤).
(٥) الاعتصام (٢/ ٦٨٨-٦٨٩).
(٦) المصدر السابق (٢/ ٧٥٢).
(٧) النساء: الآية (٥٩).
(٨) الاعتصام (٢/ ٧٥٥).

الأمر بالعكس؛ لأمور: أحدها: أن تعيين الفرقة الناجية هو الآكد في البيان بالنسبة إلى تعبد المكلف والأحق بالذكر؛ إذ لا يلزم تعيين الفرق الباقية إذا عينت الواحدة.

وأيضًا؛ فلو عينت الفرق كلها إلا هذه الأمة؛ لم يكن بد من بيانها؛ لأن الكلام فيها يقتضي ترك أمور، وهي بدع، والترك للشيء لا يقتضي فعل شيء آخر؛ لا ضدًّا ولا خلافًا، فذكر الواحدة هو المفيد على الإطلاق.

والثاني: أن ذلك أوجز؛ لأنه إذا ذكرت نحلة الفرقة الناجية؛ علم على البديهة أن ما سواها مما يخالفها ليس بناجٍ، وحصل التعيين بالاجتهاد، بخلاف ما إذا ذكرت الفرق إلا الناجية؛ فإنه يقتضي شرحًا كثيرًا، ولا يقتضي في الفرقة الناجية اجتهادًا؛ لأن إثبات العبادات التي تكون مخالفتها بدعًا لا حظ للعقل في الاجتهاد فيها.

والثالث: أن ذلك أحرى بالستر؛ كما تقدم بيانه في مسألة الفرق، ولو فسرت؛ لناقض ذلك قصد الستر، ففسر ما يحتاج إليه، وترك ما لا يحتاج إليه؛ إلا من جهة المخالفة، فللعقل وراء ذلك مرمى تحت أذيال الستر، والحمد لله.

فبين النبي ﷺ ذلك بقوله: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، ووقع ذلك جوابًا للسؤال الذي سألوه، إذ قالوا: من هي يا رسول الله؟ فأجاب بأن الفرقة الناجية من اتصف بأوصافه ﷺ وأوصاف أصحابه، وكان ذلك معلومًا عندهم، غير خفي، فاكتفوا به، وربما يحتاج إلى تفسيره بالنسبة إلى مَنْ بعد تلك الأزمان.

وحاصل الأمر: أن أصحابه كانوا مقتدين به، مهتدين بهديه، قد جاء مدحهم في القرآن الكريم، وأثنى عليهم متبوعهم محمد ﷺ، وإنما خُلقه ﷺ القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، فالقرآن إذًا هو المتبوع على الحق، وجاءت السنة مبيّنة له، فالمتبع للسنة متبع للقرآن، والصحابة كانوا أولى الناس بذلك، فكل من اقتدى بهم فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل اللّٰه، وهو معنى قوله ﷺ: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، فالكتاب والسنة هو الطريق المستقيم، وما سواهما من الإجماع وغيره فناشئ عنهما.

---

(١) القلم: الآية (٤).

هذا هو الوصف الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهو معنى ما جاء في الرواية الأخرى من قوله: «وهي الجماعة»؛ لأن الجماعة في وقت الإخبار كانوا على ذلك الوصف»[١].

وقال شيخ الإسلام: «ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة؛ وهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم.

وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريبًا من مبلغ الفرقة الناجية، فضلًا عن أن تكون بقدرها؛ بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة، وشعار هذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة والإجماع، فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة. وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات، وذكروهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين؛ لا بد له من دليل، فإن اللَّه حرم القول بلا علم عمومًا، وحرم القول عليه بلا علم خصوصًا؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٤].

وأيضًا: فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى، فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له؛ هم أهل السنة والجماعة، ويجعل من خالفها أهل البدع؛ وهذا ضلال مبين؛ فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول اللَّه ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة؛ بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول اللَّه ﷺ، فمن جعل شخصًا من الأشخاص غير رسول اللَّه ﷺ؛ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة

---

(١) الاعتصام (٢/ ٧٥٨-٧٥٩).

(٢) الأعراف: الآية (٣٣).

(٣) البقرة: الآيتان (١٦٨و١٦٩).

(٤) الإسراء: الآية (٣٦).

والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة -كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك-؛ كان من أهل البدع والضلال والتفرق.

وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية؛ أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول اللَّه ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزًا بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها، واتباعًا لها تصديقًا وعملًا وحبًّا، وموالاة لمن والاها، ومعاداة لمن عاداها، الذين يردون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة، فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم؛ إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول ﷺ؛ بل يجعلون ما بعث به الرسول ﷺ من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه»[١].

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٥-٣٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن العربي: «﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، ثم أخبر النبي أن أهل النار أكثر من أهل الجنة، فقال: «**يقول اللَّه يوم القيامة لآدم: ابعث بَعْثَ النار. قال: وما بَعْثُ النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار، وواحد إلى الجنة**»[٢]؛ فلهذا خلقهم، ﷻ عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا»[٣].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اختصمت الجنة والنار..**» الحديث»[٤].

وقال القرطبي: «معنى ﴿تَمَّتْ﴾: ثبت ذلك كما أخبر وقدّر في أزله؛ وتمام الكلمة: امتناعها عن قبول التغيير والتبديل. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: (مِن) لبيان الجنس؛ أي: من جنس الجِنّة وجنس الناس. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه ﷺ أنه يملأ جنته بقوله: «**ولكل واحدة منكما ملؤها**»[٥]»[٦].

---

(١) هود: الآية (١١٩).

(٢) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أحمد (٣/ ٣٢-٣٣)، والبخاري (٦/ ٤٧١/ ٣٣٤٨)، ومسلم (١/ ٢٠١-٢٠٢/ ٢٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٩/ ١١٣٣٩).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٠٧٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٢).

(٥) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١١٥).

وقال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: أُحكمت وأُبرمت وثبتت، وهي هذه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. والمراد من الجنة والناس عصاتهما، والتعريف للعهد، والقرينة عقلية؛ لما عُلم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم، وأن الوعيد ليس إلا لهم، ولا حاجة إلى تقدير مضاف كما قيل بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾ حينئذ ظاهر، وإن لم يحمل على العهد، وأبقي على إطلاقه ففائدة التأكيد بيان أن ملء جهنم من الصنفين، لا من أحدهما فقط، ويكون الداخلوها منهما مسكوتًا عنه، موكولًا إلى علمه تعالى، فاندفع ما أورد على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقين جهنم. وبطلانُه معلوم بالضرورة. أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني فالمراد بلفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تعميم الأصناف، وذلك لا يقتضي دخول جميع الأفراد، كما إذا قلت: ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام، فإنه لا يقتضي ذلك إلا أن يكون فيه شيء من كل صنف من الأصناف، لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعام؛ كقولك: امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس، لا يقتضي أن يكون في المجلس جميع أفراد الناس؛ بل يكون من كل فرد صنف، وهو ظاهر. وعلى هذا تظهر فائدة لفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ إذ فيه رد على اليهود وغيرهم، ممن زعم أنه لا يدخل النار»[1].

وقال أبو حيان: «و(اللام) في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ هي التي يتلقى بها القسم، أو الجملة قبلها ضمنت معنى القسم؛ كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ ثم قال: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾[2]»[3].

وقال شيخ الإسلام: «وقد اتفق العلماء على أن كفارهم (يعني الجن) يدخلون النار؛ كما أخبر اللّه بذلك في قوله: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[4]، وقال اللّه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5]، وقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

وأما مؤمنوهم؛ فأكثر العلماء على أنهم يدخلون الجنة، وقال طائفة: بل

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ١٨٣). (٢) آل عمران: الآية (٨١).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٢٧٣).
(٤) الأعراف: الآية (٣٨).
(٥) ص: الآية (٨٥).

يصيرون ترابًا كالدواب. والأول أصح، وهو قول الأوزاعي، وابن أبي ليلى، وأبي يوسف، ومحمد، ونقل ذلك عن مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وهو قول أصحابهم»[١].

وقال ابن القيم: «والقسم على ثبوت ما ينكره المكذبون فإنه توكيد للخبر، وهو من باب القسم المتضمن للتصديق؛ ولهذا تقول الفقهاء: اليمين ما اقتضى حقًّا أو منعًا أو تصديقًا أو تكذيبًا. فالقسم الذي يقتضي الحض والمنع هو من باب الطلب؛ لأن الحض والمنع طلب. ومن هذا ما أخبر به أنه لا بد أن يفعله لسبق كلماته به؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾[٣]؛ فهذا إخبار عما يفعله ويتركه أنه لسبق كلمته به فلا يتغير»[٤].

وقال شيخ الإسلام: «وقال تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٥]، فقد أقسم سبحانه أنه يملؤها من إبليس وأتباعه، وإنما أتباعه من أطاعه، فمن لم يعمل ذنبًا لم يطعه، فلا يكون ممن تُملأ به النار، وإذا ملئت بأتباعه لم يكن لغيرهم فيها موضع»[٦].

وقال ابن القيم: «وقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن في النار، وقد دل على ذلك القرآن في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٨] الآية؛ فملؤها منه وبكفار ذريته. وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾[٩]، وقال تعالى حكاية عن مؤمنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ إلى قوله: ﴿حَطَبًا﴾[١٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا

(١) النبوات (٢/ ١٠٠٩-١٠١٠).
(٢) الصافات: الآيات (١٧١-١٧٣).
(٣) يونس: الآية (١٩).
(٤) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٣).
(٥) ص: الآية (٨٥).
(٦) منهاج السنة (٥/ ١٠٠).
(٧) السجدة: الآية (١٣).
(٨) ص: الآية (٨٥).
(٩) الأعراف: الآية (٣٨).
(١٠) الجن: الآيتان (١٤و١٥).

لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾[١]، وقال اللَّه تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[٢]؛ وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومه.

وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع، ووجوب اتباعهم لهم. فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمدًا ﷺ بعث إلى الجن والإنس، وأنه يجب على الجن طاعته كما يجب على الإنس. وأما قبل نبينا ﷺ؛ فقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يدل على أن الأمم الخالية من كفار الجن في النار، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة. وقد دلت سورة (الرحمن) على تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس؛ ولهذا يقول في إثر كل آية (الرحمن): ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فدل ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معًا؛ ولهذا قرأها رسول اللَّه ﷺ على الجن قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردًّا منهم؛ فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا نكذّب بشيء من آلائك ربنا، فلك الحمد. ولما كان أبوهم هو أول من دعا إلى معصية اللَّه، وعلى يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان، فهو الداعي إلى النار، وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادي: واثبوراه! فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون: واثبوراهم؛ حتى قيل: إن كل عذاب يقسم على أهل النار يبدأ به فيه، ثم يصير إليهم.

وأما حكم مؤمنيهم في الدار الآخرة؛ فجمهور السلف والخلف على أنهم في الجنة.

وترجم على ذلك البخاري في صحيحه، فقال: (باب ثواب الجن وعقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾[٣] الآية. ﴿بَخْسًا﴾[٤]: نقصًا. قال مجاهد: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال كفار قريش: الملائكة بنات اللَّه، وأمهاتهم بنات سروات الجن. قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[٥]: ستحضر للحساب).

---

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٢) الشعراء: الآيتان (٩٤و٩٥).
(٣) الأنعام: الآية (١٣٠).
(٤) الجن: الآية (١٣).
(٥) الصافات: الآية (١٥٨).

ثم ذكر حديث أبي سعيد: «**إذا كنت في غنمك أو باديتك، فأذّنت بالصلاة؛ فارفع صوتك بالنداء؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذّن جنّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة**» سمعته من رسول اللَّه ﷺ[١].

هذا ما ذكره في الباب. وقد ذهب جمهور الناس إلى أن مؤمنيهم في الجنة. وحكي عن أبي حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار، واحتج لهذا بقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾[٢] الآية؛ فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الأليم. وأما الجمهور فقالوا: مؤمنهم في الجنة كما أن كافرهم في النار. ثم اختلفوا فأطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه. وقال سهل بن عبد الله: يكونون في ربض الجنة، يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم. فهذه مذاهب الناس في أحكامهم في الآخرة»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة النار وصفة القدم لله تعالى

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**تحاجّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثِرْتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطُهم؟ قال اللَّه تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابٌ أعذّب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما مِلْؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم اللَّه عز وجل من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن اللَّه عز وجل ينشئ لها خلقًا**»[٤].

★ غريب الحديث:

تحاجّت: أي: تخاصمت.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٥)، والبخاري (٢/ ١١٢/ ٦٠٩)، والنسائي (٢/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٦٤٣).

(٢) الأحقاف: الآية (٣١).

(٣) طريق الهجرتين (ص: ٤١٧-٤١٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٨/ ٧٦٥/ ٤٨٥٠) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٨٦-٢١٨٧/ ٢٨٤٦)، والترمذي (٤/ ٥٩٨-٥٩٩/ ٢٥٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٨/ ١١٥٢٢).

م: سَقَطهم، بفتحتين: جمع ساقط، وهو النازل القدر الذي
تاع: رديئه. زاد مسلم: «وعَجَزهم» بفتحتين أيضًا: جمع
المحتقرون بينهم، الساقطون من أعينهم، هذا بالنسبة إلى ما
وبالنسبة إلى ما عند اللَّه هم عظماء رفعاء الدرجات، لكنهم
سهم لعظمة اللَّه عندهم وخضوعهم له في غاية التواضع لله
مفهم بالضعف والسقط[2].

معنى: حسب.

: أي يجمع ويضمّ.

د الحديث:

حافظ: «فيه إشارة إلى أن الجنة يقع امتلاؤها بمن ينشئهم
ا النار فلا ينشئ لها خلقًا؛ بل يفعل فيها شيئًا عبر عنه بما ذك
م بعضها إلى بعض، فتصير ملأى ولا تحتمل مزيدًا. وفيه دلا
ى موقوفًا على العمل؛ بل ينعم اللَّه بالجنة على من لم يعمل خ
»[3].

«وفي الحديث دلالة على اتساع الجنة والنار بحيث تسع كل م
وم القيامة، وتحتاج إلى زيادة...

الداودي: يؤخذ من الحديث أن الأشياء توصف بغالبها؛ لأ
الضعفاء، والنار قد يدخلها غير المتكبرين»[4].

شيخ السعدي: «وهذه الصفة [صفة القدم] تجري مجرى بقية
حقًّا على الوجه اللائق بعظمته، وذلك أن اللَّه وعد النار مَ

يها قدمه، فتلاقى طرفاها، ولم يبق فيها فضل عن أهلها. وأم
ضل عن أهلها مع كثرتهم»[1].
الإمام ابن خزيمة: «باب ذكر إثبات الرِّجل لله ﷻ:
غمت أنوف المعطلة الجهمية، الذين يكفرون بصفات خالقنا
في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه المصطفى ﷺ.
لله ﷻ يذكر ما يدعو بعض الكفار من دون الله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَ
طِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ
)
.
منا ربنا -جل وعلا-: أن من لا رجل له ولا يد ولا عين ولا
بل هو أضل. فالمعطلة الجهمية الذين هم شر من اليهود
: كالأنعام، بل أضل. فالمعطلة الجهمية عندهم كالأنع

ابن فياض: «ففي هذا الحديث إثبات صفة قدم الرحمن -
ى ما يليق به. وقد قال ابن عباس وأبو موسى في قوله تعال
مَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[4]: «الكرسي: موضع قدمي الرحمن». . ففي
ين للرحمن من غير تكييف، وإثباتهما صفة كمال، وعدمهما
وقد غلط في هذا الحديث المعطلة الذين أولوا قوله: «قدم
ما قالوا: الذين تقدم في علمه أنهم أهل النار؛ حتى قالو
ما يقال: رجل من جراد. وغلطهم من وجوه: فإن النبي ﷺ
م يقل: حتى يلقى؛ كما قال في قوله: «لا يزال يلقى فيها».
: أن قوله: «قدمه» لا يفهم منه هذا لا حقيقة ولا مجازًا كم

الثالث: أن أولئك المؤخرين إن كانوا من أصاغر المعذبين فلا وجه لانزوائها، واكتفائها بهم؛ فإن ذلك إنما يكون بأمر عظيم. وإن كانوا من أكابر المجرمين فهم في الدرك الأسفل، وفي أول المعذبين، لا في أواخرهم.

الرابع: أن قوله: «**فينزوي بعضها إلى بعض**» دليل على أنها تنضم على من فيها، فتضيق بهم؛ من غير أن يلقى فيها شيء.

الخامس: أن قوله: «**لا يزال يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها قدمه**»؛ جعل الوضع الغاية التي إليها ينتهي الإلقاء، ويكون عندها الانزواء، فيقضي ذلك أن تكون الغاية أعظم مما قبلها. وليس في قول المعطلة معنىً للفظ «**قدمه**» إلا وقد اشترك فيه الأول والآخر، والأول أحق به من الآخر.

وقد يغلط في الحديث قوم آخرون ممثّلة أو غيرهم، فيتوهمون أن قدم الرب تدخل جهنم. وقد توهم ذلك على أهل الإثبات قومٌ من المعطلة؛ حتى قالوا: كيف يدخل بعض الرب النار، واللَّه تعالى يقول: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[١]؟ وهذا جهل ممن توهمه أو نقله عن أهل السنة والحديث؛ فإن الحديث: «**حتى يضع رب العزة عليها -وفي رواية: فيها- فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط وعزتك**». فدل ذلك على أنها تضايقت على من كان فيها، فامتلأت بهم، كما أقسم على نفسه أنه ليملأنّها من الجِنّة والناس أجمعين، فكيف تمتلئ بشيء غير ذلك من خالق أو مخلوق؟

وإنما المعنى: أنه توضع القدم المضاف إلى الرب تعالى، فتنزوي وتضيق بمن فيها. والواحد من الخلق قد يركض متحرّكًا من الأجسام فيسكن، أو ساكنًا فيتحرك، ويركض جبلًا فيتفجر منه ماء؛ كما قال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[٢]، وقد يضع يده على المريض فيبرأ، وعلى الغضبان فيرضى، فظهر بطلان قول الجهمية: إن المراد بقوله: «**قدمه**»: الأشقياء، أو غير ذلك من التأويلات المخالفة لظاهر الحديث. وهل استزادت النار إلا بعد مصير الأشقياء إليها، وإلقاء اللَّه إياهم فيها؟ أَفَيُلْقيهم فيها ثانية وقد ألقاهم فيها قبل فلم تمتلئ؟ كأنه في زعم هذا

---

(١) الأنبياء: الآية (٩٩).

(٢) ص: الآية (٤٢).

المدعي حبس عنها الأشقياء وألقى فيها السعداء، فلما استزادت ألقى فيها الأشقياء بعد حتى ملأها، وإنما أراد اللَّه بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ الذين حق عليهم العذاب، ولها خزنة يدخلونها ملائكة غلاظ شداد غير معذبين بها، وفيها كلاب وحيّات وعقارب، قال: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]، فلا يدفع هذه الآيات قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، كما لا يدفع هذه الآية قول النبي ﷺ: «**ويضع الجبار فيها قدمه**»، فإذا كانت جهنم لا تضر الخزنة الذين يدخلونها ويقومون عليها؛ فكيف تضرّ الذي سخّرها لهم؟ فهذه الآثار التي رويت عن رسول اللَّه ﷺ في ذكر القدم لا تحتمل التأويل الذي ذهبت إليه الجهمية»[2].

وقال الشيخ محمد بن أمان الجامي: «أما السلف؛ فهم -كعادتهم- يرون أن المقام ليس مقام اجتهاد أو قياس أو استحسان، وإنما هو مقام تسليم لله ولرسوله -عليه الصلاة والسلام-، وأنه لا قول لأحد مع قول اللَّه وقول رسوله المعصوم -عليه الصلاة والسلام-. . . وموقف السلف من معنى الحديث هو أن الحديث من أحاديث الصفات، وأن القدم صفة من الصفات الخبرية التي تمر كما جاءت دون تأويل أو تحريف في النص، ودون تشبيه أو تمثيل لصفات اللَّه بصفات خلقه، فلا تقاس قدمه بأقدام خلقه، ولا رجله بأرجل مخلوقاته؛ بل يكتفى بالمعنى الوضعي للكلمة دون محاولة لإدراك حقيقة قدمه، وقد عجزنا عن إدراك حقيقة ذاته سبحانه؛ فآمنّا وسلّمنا لله ولرسوله، هذا موقف لا يتغيّر ولا يتبدّل بالنسبة لأتباع السلف؛ بل موقف ثابت، وهو اتباع النصوص في جميع الصفات خبرية أو غيرها، «**اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم**»، وباللَّه التوفيق»[3].

* * *

---

(١) المدثر: الآيتان (٣٠و٣١).

(٢) شرح الواسطية (ص: ١٨٤-١٨٦).

(٣) الصفات الإلهية (ص: ٣٢٠-٣٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نقصّ: القصص: الأخبار التي يتبع بعضها بعضًا. يقال: قصّ يقصّه: إذا تبع أثره.

أنباء: جمع نبأ: وهو الخبر ذو الفائدة العظيمة.

نثبت: التثبيت: الطمأنينة. يقال: ثبته: إذا سكنه وطمأنه.

الفؤاد: القلب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «هذا تذييل وحوصلة لما تقدّم من أنباء القرى وأنباء الرسل.. فجملة ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ إلى آخرها عطفُ الإخبار على الإخبار والقصة على القصة، ولك أن تجعل (الواو) اعتراضيّة أو استئنافية. وهذا تهيئة لاختتام السورة، وفذلكة لما سيق فيها من القصص والمواعظ»[1].

قال أبو جعفر: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ الذين كانوا قبلك ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، فلا تجزع من تكذيب من كذبك من قومك، وردّ عليك ما جئتهم به، ولا يضق صدرك، فتترك بعض ما أنزلتُ إليك من أجل أن قالوا: (لولا أُنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملك)، إذا علمت ما لقي مَنْ قبلك من رسلي من أممها»[2].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩١).

(٢) جامع البيان (١٢/ ١٤٥).

احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين؛ كل هذا مما نثبت به فؤادك -يا محمد- أي: قلبك؛ ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة.

وقوله: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: هذه السورة؛ قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف. وعن الحسن -في رواية عنه- وقتادة: في هذه الدنيا.

والصحيح: في هذه السورة -المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف نجّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين- جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقّر بها المؤمنون»[1].

وقال الزجاج: «﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: يجوز أن يكون: وجاءك في هذه السورة؛ لأن فيها أقاصيص الأنبياء، ومواعظ، وذكر ما في الجنة والنار.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: في ذكري هذه الآيات التي ذُكرت قبل هذا الموضع؛ أي: جاءك الحق في أن الخَلق يجازون بأنصبائهم في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾[2]، وفي قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾[3].

وقد جاءه في القرآن كله الحقُّ، ولكنه ذكرها هنا توكيدًا، وليس إذا قيل: قد جاءك في هذه الحق؛ وجب أن يكون: لم يأتك الحق إلا في هذه، ولكن بعض الحق أوكدُ من بعض في ظهوره عندنا وخفائه علينا، لا في عينه. إذا قلت: فلانٌ في الحق وأنت تريد أنه يجود بنفسه، فليس هو في غير تلك الحال في باطل، ولكنه ذكرُ الحقّ ههنا أغنى عن ذكر الموت لعظمه وأنه يحصل عنده على الحق»[4].

وقال محمد رشيد رضا في قوله: ﴿وَكُلًّا﴾: «هذه الكلية تشمل أنواع الأنباء المفيدة من قصص الرسل الصحيحة في صورها الكلامية وأساليبها البيانية، وأنواع فوائدها العلمية، وعبرها ومواعظها النفسية، دون الأمور العادية المستغنى عن ذكرها»[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٢-٢٩٣).
(٢) الآية (١٠٩).
(٣) الآية (١١١).
(٤) معاني القرآن (٣/ ٨٤-٨٥).
(٥) تفسير المنار (١٢/ ١٩٥).

وقال ابن عاشور: «وتثبيت فؤاد الرّسول ﷺ: زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله؛ لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكرًا وعلمًا بأنّ حاله جارٍ على سنن الأنبياء، وازداد تذكرًا بأنّ عاقبته النصر على أعدائه، وتجدّد تسلية على ما يلقاه من قومه من التكذيب، وذلك يزيده صبرًا. والصبر: تثبيت الفؤاد.

وأنّ تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور يزيده علمًا بأنّ مراتب العقول البشريّة متفاوتة، وأن قبول الهدي هو منتهى ارتقاء العقل، فيعلم أن الاختلاف شنشنة قديمة في البشر، وأنّ المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جُبِلَ عليها النظام البشري؛ فلا يُحْزنه مخالفة قومه عليه، ويزيده علمًا بسمُوّ أتباعه الذين قبلوا هداه، واعتصموا من دينه بعراه، فجاءه في مثل قصة موسى عليه السلام واختلاف أهل الكتاب فيه بيان الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين فلا يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب»[1].

وقال السعدي: «فإن النفوس تأنس بالاقتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهده، وكثرة من قام به»[2].

وقال أبو حيان: «﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أي: اتعاظ وازدجار لسامعه، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ لمن آمن؛ إذ الموعظة والذكرى لا ينتفع بها إلا المؤمن؛ كقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾[4]»[5].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٧١).
(٣) الذاريات: الآية (٥٥).
(٤) الأعلى: الآيتان (١٠و١١).
(٥) البحر المحيط (٥/ ٢٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مكانتكم: أي: طريقتكم ومنهجكم. وتتضمن معنى الوعيد والتهديد.

انتظروا: أي: ارتقبوا. والانتظار يكون في الخير والشر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «عطف على جملة ﴿وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾[1] الآية؛ لأنّها لما اشتملت على أنّ في هذه القصة ذكرى للمؤمنين أمَر بأن يخاطب الذين لا يؤمنون بما فيها خطاب الآيِس من انتفاعهم بالذكرى، الذي لا يعبأ بإعراضهم، ولا يصدّه عن دعوته إلى الحقّ تألبهم على باطلهم ومقاومتهم الحق، فلا جرم كان قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عديلًا لقوله: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذا القول مأمور أن يقوله على لسانه ولسان المؤمنين.

وقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ﴾ هو نظير ما حكي عن شعيب ﷺ في هذه السورة آنفًا.

وضمائر ﴿إِنَّا عَـٰمِلُونَ﴾ و﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ للنبي والمؤمنين الذين معه.

وفي أمر اللّه رسوله بأن يقول ذلك على لسان المؤمنين شهادةٌ من اللّه بصدق إيمانهم. وفيه التفويض إلى رأس الأمّة بأن يقطع أمرًا عن أمته ثقة بأنّهم لا يردّون فعله؛ كما قال النبي ﷺ لهوازن لما جاؤوا تائبين وطالبين رَدّ سباياهم وغنائمهم: «اختاروا أحدَ الأمرين: السبيَ أو الأموال»[2]، فلمّا اختاروا السبي رجع السبي إلى أهله ولم يَسْتَشِر المسلمين، ولكنّه جعل لمن يُطيب ذلك لهوازن أن يكون على حقه

---

(١) الآية (١٢٠).

(٢) أخرجه من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ﷺ: أحمد (٤/ ٣٢٦-٣٢٧)، والبخاري (٤/ ٦٠٩/ ٢٣٠٧-٢٣٠٨)، وأبو داود (٣/ ١٤١-١٤٢/ ٢٦٩٣)، والنسائي في الكبرى مختصرًا (٥/ ٢٧٦/ ٨٨٧٦).

في أوّل ما يجيء من السبي، فقال المؤمنون: طيّبنا ذلك.

وقوله: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديد ووعيد؛ كما يقال في الوعيد: سوف ترى»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: على طريقتكم ومنهجكم، ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي: فستعلمون من تكون له عاقبة الدار؛ إنه لا يفلح الظالمون. وقد أنجز اللَّه لرسوله وعده، ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، واللَّه عزيز حكيم»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: فبشر به المؤمنين الذين يتعظون ويتذكرون، وقل للكافرين الذين لا يؤمنون فلا يتعظون: اعملوا على ما في مكنتكم أو تمكنكم واستطاعتكم من مقاومة الدعوة وإيذاء الداعي والمستجيبين له، وهذا الأمر للتهديد والوعيد؛ أي: فسوف تلقون جزاء ما تعملون من العقاب والخذلان؛ ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على مكانتنا من الثبات على الدعوة وتنفيذ أمر اللَّه وطاعته، ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بنا ما تتمنون لنا من انتهاء أمرنا بالموت أو غيره مما تتحدثون به، ومنه ما حكاه تعالى عنهم في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[٣]، وما في معناه؛ ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ما وعدنا ربنا من النصر وظهور هذا الدين كله ولو كره الكافرون، وإتمام نوره ولو كره المشركون، وعقاب المعاندين منهم في الدنيا بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين»[٤].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩٣-١٩٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٣).

(٣) الطور: الآية (٣٠).

(٤) تفسير المنار (١٢/ ١٩٦-١٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيوفي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كاف مَنْ توكل عليه وأناب إليه.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذّبوك يا محمد؛ بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين»[1].

وقال أبو حيان: «لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، ولا حظ لمخلوق في علم الغيب. وقرأ نافع وحفص: ﴿يُرْجَعُ﴾ مبنيًا للمفعول، ﴿ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أمرُهم وأمرُكَ، فينتقم لك منهم. وقال أبو علي الفارسي: علم ما غاب في السموات والأرض، أضاف الغيب إليهما توسعًا، انتهى.

والجملة الأولى دلت على أن علمه محيط بجميع الكائنات كليها وجزئيها، حاضرها وغائبها؛ لأنه إذا أحاط علمه بما غاب فهو بما حضر محيط؛ إذ علمه تعالى لا يتفاوت. والجملة الثانية دلت على القدرة النافذة والمشيئة. والجملة الثالثة دلت على الأمر بإفراد من هذه صفاته بالعبادة الجسدية والقلبية، والعبادة أولى الرتب التي يتحلى بها العبد. والجملة الرابعة دلت على الأمر بالتوكل، وهي آخرة الرتب؛ لأنه بنور العبادة أبصر أنّ جميع الكائنات معذوقة باللّه تعالى، وأنه هو المتصرف وحده في جميعها، لا يشركه في شيء منها أحد من خلقه، فوكل نفسه إليه تعالى، ورفض سائر ما يتوهم أنه سبب في شيء منها. والجملة الخامسة تضمنت التنبيه على المجازاة، فلا يضيع طاعة مطيع، ولا يهمل حال متمرد»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٩٣).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٢٧٤-٢٧٥).

وقال ابن عاشور: «وتقديم المجرورَيْن في ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ﴾ لإفادة الاختصاص؛ أي: اللَّه لا غيره يملك غيب السموات والأرض؛ لأنّ ذلك ممّا لا يشاركه فيه أحد. وإلى اللَّه لا إلى غيره يرجع الأمر كله، وهو تعريض بفساد آراء الذين عبدوا غيره؛ لأنّ من لم يكن كذلك لا يستحق أن يعبد، ومن كان كذلك كان حقيقًا بأن يفرد بالعبادة.

ومعنى إرجاع الأمر إليه: أنّ أمر التّدبير والنصر والخذلان وغير ذلك يرجع إلى اللَّه؛ أي: إلى علمه وقدرته، وإنْ حسَب الناس وهيّؤوا فطالما كانت الأمور حاصلة على خلاف ما استعد إليه المستعد، وكثيرًا ما اعتزّ العزيز بعزّته فلقي الخذلان من حيث لا يرتقب، وربّما كان المستضعفون بمحل العزة والنصرة على أولي العزة والقوة.

والتعريف في (الأمر) تعريف الجنس فيعمّ الأمور، وتأكيد الأمر بـ(كله) للتّنصيص على العموم..

وتفريع أمر النبي ﷺ بعبادة اللَّه والتوكّل عليه على رجوع الأمر كله إليه ظاهر؛ لأنّ اللَّه هو الحقيق بأن يعبد وأن يتوكّل عليه في كلّ مهم. وهو تعريض بالتخطئة للذين عبدوا غيره وتوكّلوا على شفاعة الآلهة ونفعها. ويتضمّن أمر النبي -عليه الصلاة والسّلام- بالدّوام على العبادة والتوكّل.

والمراد أن يعبده دون غيره ويتوكّل عليه دون غيره بقرينة ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾، وبقرينة التفريع؛ لأنّ الذي يرجع إليه كل أمر لا يعقل أن يصرف شيء من العبادة ولا من التوكّل إلى غيره، فلذلك لم يؤتَ بصيغة تدل على تخصيصه بالعبادة للاستغناء عن ذلك بوجوب سبب تخصيصه بهما.

وجملة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.. تذييل لما تقدّم. والواو فيه كالواو في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ فإنّ عدم غفلته عن أيّ عمل أنّه يعطي كل عامل جزاء عمله إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرّ؛ ولذلك علّق وصف الغافل بالعمل، ولم يعلّق بالذوات نحو: بغافل عنكم؛ إيماءً إلى أنّ على العمل جزاء»[1].

وقال عبد الكريم الخطيب: «بهذه الآية الكريمة تختم السورة، جاعلة لله ﷻ وحده غيبَ ما في السموات والأرض؛ إذ قد استأثر سبحانه بعلم كل ما هو غائب عنّا.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩٤-١٩٦).

ومناسبة هذا الختام للسورة هي أنها اشتملت على كثير من أنباء الغيب التي ذُكرت في قصص الأنبياء نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب عليهم السلام. وهي أنباء إن يكن عند أهل الكتاب بعض منها؛ إلا أن كثيرًا مما جاء به القرآن الكريم لم يكن عندهم به علم، والذي كان لهم به علم هو خليط من الصدق والكذب، ومزيج من الواقع والخيال. أما الذي جاء به القرآن فهو الحق المطلق، والصدق المصفّى.

ثم إن هذا القصص كان غيبًا بالنسبة للعرب، والذي كان عندهم منه هو أوهام وظنون تلقوها من أهل الكتاب شِبْهَ أحاج بعيدة عن الحق؛ وفي هذا يقول اللَّه تعالى في هذه السورة: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾: أي: إن مصائر الأمور كلها راجعة إليه سبحانه؛ فهو سبحانه الذي يرسل الأمور، فتجري في قَدَرها المقدور لها، ثم تستقرّ آخر الأمر عند الغاية التي أرادها اللَّه لها؛ فهو سبحانه الذي يُجريها، وهو سبحانه الذي يُرسيها، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وإذ كان ذلك هو اللَّه رب العالمين؛ فهو المستحق وحده لأن يُعبد، وأن يُعتمد عليه، وأن يُسلم المرءُ زمامَه إليه، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، فالعبادة هي الزاد الذي يتزود به الإنسان في طريقه إلى ربّه، فإذا عبده العابد، وأخلص له العبادة؛ قويت صلته به، واطمأنّ قلبه إليه، فتوكّل عليه، وأسلم إليه أمره.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: إنه رقيب على كل شيء، عالم بكل شيء، لا تخفى على اللَّه خافية في الأرض ولا في السماء؛ فهو سبحانه يحصي علينا أعمالنا، حَسَنها وسيّئها، ويحاسبنا عليها، ويجزينا بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا؛ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[2][3].

* * *

---

(١) الآية (٤٩).

(٢) النجم: الآية (٣١).

(٣) التفسير القرآني (٦/ ١٢٢٦-١٢٢٧).

فهرس الموضوعات

سورة هود

* * *